



آفاق فكرية

مجلة فصلية أكاديمية مدكّمة تصدر عن مخبر البحوث ودراسات الفكر الإسلامي في الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة جيلالي اليابس - سيدي بلعباس - الجزائر

العدد الخامس
خريف 2016

ردمدم : 2353-0367

آفاق فكرية

05

Horizons Intellectuel



Horizons Intellectuel

Revue périodique académique réglementée, éditée par le Laboratoire
de Recherches sur la Pensée Islamique en Algérie
Université Djillali LIABES Sidi Bel Abbès - Algérie

Numéro 05
Automne 2016

ISSN: 2353-0367

مخبر البحوث و دراسات الفكر الإسلامي في الجزائر
جامعة جيلالي ليابس - سيدي بلعباس -



مجلة آفاق فكرية

مجلة فصلية أكاديمية محكمة

العدد الخامس

خريف 2016

ISSN / ردمد

2353-0367

الايذاع القانوني : 2014/6060 : Dépôt Legal

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة آفاق فكرية

تصدر عن مخبر مخبر البحوث و دراسات الفكر الإسلامي في الجزائر بجامعة سيدي بلعباس،
الجزائر.

العنوان: مجمع المخابر العلمية .كلية العلوم التكنولوجية .سيدي بلعباس

الموقع الإلكتروني : <http://www.univ-sba/Irepia>

البريد الإلكتروني : labpenseeislamique@yahoo.fr

عدد خريف 2016

ISSN : 2353-0367

دار :الأصول للطباعة و النشر

العنوان : سيدي لحسن - سيدي بلعباس -

الهاتف : 0773 36 42 99

حقوق الطبع محفوظة:

لا يسمح بإعادة إصدار هذه المجلة أو أي جزء منها أو تخزينها في نطاق استعادة المعلومات أو
نقلها بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من مدير المجلة.

آفاق فكرية

مجلة فصلية محكمة يصدرها مخبر دراسات الفكر الإسلامي في الجزائر

رئيس التحرير:

د. فكري زواوي

مدير المجلة:

أ.د. مكحلي محمد

هيئة التحرير:

أ.د. قادة بن بن علي

د. بن ديدة مختار

الهيئة العلمية:

- أ.د. / محمد مجاود (جامعة سيدي بلعباس)
- أ.د. / هلايلي حنيقي (جامعة سيدي بلعباس)
- أ.د. / شايب قدارة (جامعة قالة)
- أ.د. / مبخوث بودواية (جامعة تلمسان)
- أ.د. / صالح فركوس (جامعة قالة)
- د. بن حويديقة علي (جامعة سيدي بلعباس)
- أ.د. / سلاك بونوة (جامعة وهران 2، محمد بن احمد)
- أ.د. / مولاي الحاج مراد (جامعة وهران 2، محمد بن احمد)
- أ.د. / فغور دحو (جامعة وهران 1، أحمد بن بلة)
- أ.د. / محمد دادة (جامعة وهران 1، أحمد بن بلة)
- د. عبد المالك عدة بوجلال (جامعة وهران 2، محمد بن احمد)
- د. حمداو بن عمر (جامعة وهران 1، احمد بن بلة)

الهيئة الاستشارية

- أ.د. / التليلي العجيلي (جامعة منوبة تونس)
- أ.د. / سالم لبيض (المعهد الأعلى للعلوم الإنسانية تونس)
- أ.د. / قصي منصور التركي (جامعة اربيل العراق)
- أ.د. / جمال الدين دراويل (جامعة القيروان تونس)
- أ.د. / المنصف الوناس (كلية 9 افريل جامعة تونس الاولى)
- أ.د. / الهادي غيلوفي (جامعة توزر)
- أ.د. / خالد شيات (جامعة محمد الاول وجدة المغرب)
- أ. زهير بن جنات (جامعة قفصة)

دعوة للنشر في مجلة

يسر اسرة مجلة آفاق فكرية دعوتكم للإسهام بنشر أبحاثكم العلمية الخاصة بمجال العلوم الإنسانية والاجتماعية المختلفة، التي تلتزم بمنهجية البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها عالمياً، والمكتوبة بإحدى اللغات العربية أو الفرنسية والتي لم يسبق نشرها.

شروط النشر

◀ آفاق فكرية، تم بنشر الأبحاث المتعلقة بالدراسات الانسانية و الاجتماعية المختلفة .وهي مجلة علمية أكاديمية محكمة ، تهتم بالأبحاث الأصلية ، التي لم يتم نشرها سابقاً ، و المعالجة بأسلوب علمي موثق .
◀ ترسل المقالات وجوبا في شكل ملف مرفق عبر البريد الإلكتروني للمجلة المدون أدناه، ويشترط أن يكون المقال مكتوبا ببرنامج Microsoft Word .نوع الخط بالعربية : Traditional Arabic قياس 14 ، أما اللغة الأجنبية فنوع الخط : Times New Roman قياس 12 .

◀ يراعى في حجم المقال كحد أقصى 15 صفحة ، بما فيها المصادر ، الهوامش، ويجب أن ترقم الصفحات ترقيماً متسلسلاً ويرفق الباحث ملخصاً عن البحث لا يزيد عن 5 أسطر ، مع ضرورة إدراج الكلمات المفتاحية .

◀ يمكن أن تكون النصوص المقبولة محل طلب للتعديل أو المراجعة ، ويبقى مضمونها تحت مسؤولية صاحب المقال وحده.

◀ على كل صاحب مقال أن يحدد رتبته الجامعية، الجامعة أو الهيئة، عنوانه الشخصي، الهاتف، البريد الإلكتروني، ومختصر للسيرة العلمية.

◀ يشترط في المادة المرسله أن تلتزم بأصول البحث العلمي على مختلف المستويات: المنهج، المنهجية، التوثيق، وأن لا تكون قد نشرت أو أرسلت للنشر في كتاب أو دورية أخرى.

◀ تخضع المادة المرسله لمراجعة هيئة التحرير، ولا تعاد إلى صاحبها، نشرت أم لم تنشر.

◀ للمجلة حق إعادة نشر المواد المنشورة منفصلة أو ضمن كتاب.

◀ ما تنشره المجلة لا يعبر بالضرورة عن وجهة نظرها.

◀ يخضع ترتيب المواد المنشورة لاعتبارات فنية بحتة.

◀ مادة النشر تكون موثقة كما يلي:

- بالنسبة للكتب : اسم المؤلف، " عنوان الكتاب"، دار النشر (الناشر)، مكان النشر وسنة النشر، رقم الصفحة.

- بالنسبة للمجلة : اسم المؤلف، " عنوان المقال"، عنوان المجلة، العدد، مكان النشر وسنة النشر، رقم الصفحة.

- بالنسبة لمراجع الانترنت : اسم المؤلف، " عنوان المقال"، تاريخ التصفح، العنوان الإلكتروني كاملاً (يشمل الملف).
 - بالنسبة لبحث في أعمال ملتقى أو مؤتمر :اسم المؤلف،"عنوان البحث"، ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر/ملتقى اسم ورقم الملتقى، المؤسسة المنظمة، تاريخ الانعقاد.
 - رسالة ماجستير أو دكتوراه :اسم المؤلف، عنوان الرسالة، رسالة دكتوراه/ماجستير، غير منشورة لنيل شهادة....(في التخصص)، الجامعة، الدولة.
 - توضع الإحالات والمراجع والمصادر في آخر المقال، وترقم بالتسلسل حسب ظهورها في النص (مراجع المقال هي فقط تلك المراجع والمصادر المقتبس منها فعلاً).
- ◀ ترسل المقالات وتوجه المراسلات عن طريق البريد الإلكتروني فقط.

البحوث المنشورة في هذه المجلة تعبر عن آراء أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو المخبر

محتويات العدد

العدد الخامس . خريف 2016م، 1436هـ

كلمة مدير المجلة :

كلمة التحرير :

المحور الأول : الدراسات التاريخية والاجتماعية والنفسية

اهتمام الفرنسيين بالصحراء الإفريقية من خلال الحملات الاستكشافية: حملة المركز ديموريس
مثالا: الرهانات والمآلات

02 التليلي العجيلي :

العقلانية الإسلامية والتواصل مع الآخر في منهاج شيخ بوعمران

23 بن بوحدة أحمد

صورة الجزائر في القرن 19 من خلال المصادر التونسية " إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك: تونس وعهد
الأمان " و " صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار " نموذجا:

31 محمد صلاح حقي

علم اللغة بين ميتافيزيقا الصوت ومادية الكتابة ، مقارنة في سيميائيات العلامة الخطية:

78 معرف مصطفى

المدينة في الجزائر بين مشروع الدولة ومشروع المجتمع:

89 مرحوم فريد

وضعية المرأة التونسية في الريف والحضر قبل الاستقلال واليوم:

98 فتحية مقديش

قراءة في مناهج الصوفية وغيرهم في التربية والسلوك:

117 مداح عبد القادر

الأزمة التركية - السورية العام 1998، وأثرها على العلاقات الأميركية - السورية

126 علي صالح حمدان حامد

اغتراب الشخصية عامل للهجرة غير الشرعية:

138 مريم خير الدين غابري

أشكال التسيير بين المرجعية الثقافية التقليدية والتوجه الحداثي في المؤسسة الصناعية الجزائرية :

150 بوريش محمد

ضغوط العمل وتأثيرها على الصحة النفسية للعامل:

160 غالم يمينة

من أعلام جمعية العلماء المسلمين، الشيخ عمار مطاطلة: ودوره الجهادي والتربوي في منطقة سبدو.
1953/1956:

176 **بن يوب محمد**
قراءة في سيكولوجية العقلية الخرافية:

183 **ميسوم ليلى**
قياس العلاقة بين بعض متغيرات البيئة المدرسية (التمرد على النظام العام ، معاملة الآخر) ونفسية
المراهق داخل الأسرة:

194 **فلاح أحمد ، قماري محمد**

المحور الثاني : الدراسات الفنية والأدبية

البوليفونية اللسانية: قراءة أسلوبية جديدة في رواية "المخطوطة الشرقية" لواسيني الأعرج:
216 **محمد مرزوق**

الطفل و التراث الشعبي "الحكاية الشعبية أنموذجا":
232 **سعيد سعاد**

المحور الثالث : الدراسات القانونية

حماية التراث المبني بالجزائر من خلال قراءة أثرية في المخطط الدائم لحفظ واستصلاح القطاعات
المحفوظة.:

250 **عبد الكريم خبزاي**
الوظيفة القنصلية الجزائرية دعامة أساسية للعمل الدبلوماسي

263 **سلطاني ليلى**

كلمة مدير المجلة

أ.د. مكحلي محمد

- مدير المجلة - رئيس مخبر دراسات الفكر الاسلامي في الجزائر

تطل عليكم مجلة "افاق فكرية" في عددها الخامس والصادرة عن مخبر الفكر الاسلامي في الجزائر ،
بحلة بهية ، وبديباجة ومضامين رصينة ، يحدوها الأمل أن تلقى القبول الحسن في نفوسكم وقلوبكم ، وأن تقدم لكم ما هو
حديث ونفيس في مجالات الفكر والبحوث الانسانية والاجتماعية.

وأخيراً ، أتمنى أن تحقق هذه المجلة أهدافها ومبتغاهها ، وأن تكون رافداً حقيقياً للبحث العلمي الجاد ،
وأن تكون روافدها غزيرة ومياها عذبة تروي المتعطشين للبحث ، والله الموفق.

أ.د. مكحلي محمد

كلمة التحرير

ها نحن نواصل المسيرة العلمية معكم و بمجلتكم آفاق فكرية بخطى ثابتة ، نحو أهداف مرسومة نأمل تحقيقها مع بعض ، خدمة للبحث العلمي و من أجل تفعيل البحث المبدع المتميز بالجدة والأصالة.

ها هو العدد الخامس يأتيكم مرصعا بباقة من الابحاث المتنوعة و الجادة من عدة جامعات من داخل و خارج الوطن تصب جميعها في خدمة البحث العلمي و الباحثين من طلبة و اساتذة و تفتح لهم افاق نحو تطوير مسيرة و مساهمهم العلمي و الاكاديمي نحو الرقي و التطور.

و أننا دائما كما عودناكم في انتظار أعمال الباحثين الشباب و طلبة الدكتوراه، آملين أن تكون المجلة هي المحفز على مواصلة نشرهم لنتاجهم الفكري المتميز.

وأخيرا نوجه الشكر الجزيل للقراء الكرام والباحثين والمحكمين وأعضاء هيئة التحرير والهيئة الاستشارية والعلمية على جهودهم المبذولة لإخراج هذا العدد.

وبالله التوفيق

اهتمام الفرنسيين بالصحراء الإفريقية من خلال الحملات الاستكشافية

حملة المركيز ديموريس مثالا: الرهانات والمآلات

التليلي العجيلي

أستاذ تعليم عال بقسم التاريخ بكلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة

(تونس)

مقدمة :

بدأ اهتمام الأوروبيين بالصحراء الإفريقية والعمل على استكشافها في أواخر القرن التاسع عشر وخاصة مع مطلع القرن العشرين، حيث اشتد التنافس الاستعماري بين فرنسا وانجلترا وألمانيا. ولئن بدأ التوغّل الإنقليزي في القارة الإفريقية انطلاقا من مصر وطرابلس الغرب، أو من سواحلها الجنوبية الغربية، فإن استكشاف الفرنسيين لصحرائها بدأ سنة 1820، واشتدّ اهتمامهم بذلك بعد احتلالهم للجزائر التي اتخذوها منطلقا للتوغّل في وسط القارة.

1 - أسباب اهتمام الفرنسيين باستكشاف الصحراء الإفريقية:

تنزّل اهتمام الفرنسيين باستكشاف الصحراء الإفريقية في إطار الإستراتيجية الاستعمارية لفرنسا والرّامية إلى عدّة أهداف من أبرزها:

- تأمين حدودها الجنوبية في الجزائر: ذلك أن احتلال هذه الأخيرة مثلاً بداية تأسيس الإمبراطورية الفرنسية في إفريقيا، حيث كان "الفرنسيون يدركون أنّه لتوطيد الأمن في تلك البلاد يجب التوسّع في الحدود الشرقية والغربية والجنوبية، ومتابعة تحرّك الدولة العثمانية التي كانت ترفض ذلك الاحتلال..."⁽¹⁾، كما يعود ذلك الاهتمام أيضا إلى حرص الاستعمار الفرنسي على ضرب مواقع المقاومة الجزائرية، حيث اعتصمت عدّة قبائل بالصحراء مستغلة صعوبة وسطها الطبيعي وجهل الفرنسيين به، الأمر الذي حثّم على السلطات الاستعمارية العمل - في مرحلة أولى - على التعرّف الكافي على الصحراء "باستكشاف مظاهرها التضاريسية، المناخية، والطاقة المائية الجوفية الكامنة في باطنها...، وكذلك دراسة المجموعات السكانية وعاداتها، وتقاليدها وتاريخها السياسي والحضاري، فضلا عن أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية..."⁽²⁾، بالإضافة الى الإمكانيات الدفاعية والحربية لتلك المجموعات البشرية، كلّ ذلك حتّى تكون السلطات الاستعمارية الفرنسية على دراية تامة بالوسط الذي تنوي اقتحامه والاستيلاء عليه نهائيا، بدعوى تأمينها لحدودها الجنوبية في الجزائر⁽³⁾.

• الرّغبة في الهيمنة على مسالك التجارة الصحراوية⁽⁴⁾، وهو أهمّ سبب لاهتمام الفرنسيين بالصحراء الكبرى طيلة الفترة الممتدة بين 1852 و 1872: ففي القرن التاسع عشر كان الممرّ الرئيسي للقوافل السودانية "هو طرابلس الغرب - غدامس⁽⁵⁾ - غات أغدس - زيندر - كانو، مع العلم وأنّ أهمّ مركزين على هذه الطريق هما غدامس وغات: ذلك أنّه من غات يمكن الدّهاب الى مرزق - مركز فرّان - والى عين صالح - مركز الصحراء الغربية - ، ومن هناك يمكن التوجّه ايضا الى تمبكتو والمغرب....، ومن هنا كان تحرّك الفرنسيين في الجزائر نحو المراكز المهمّة على الطرق التجاريّة ...، نحو غدامس وغات أولاً بسبب تجارة السودان والى عين صالح ثانياً بسبب تجارة الصحراء الغربية..."⁽⁶⁾، كلّ ذلك لتتمكّن فرنسا من ربط وجودها في الجزائر بما استولت عليه في السينغال، خاصّة وأنّها ربطت المناطق الصحراوية - بشبكة من الطرقات - بسواحل البحر الأبيض المتوسط، مع العلم وأنّ هذه الأهداف الاقتصادية بدت بارزة للعيان في مخطّطات جلّ المستكشفين الذين عملوا على التوغّل في الصحراء الإفريقية قصد الوصول الى بلاد السّودان: من ذلك مثلاً أن المستكشف مارسال بال⁽⁷⁾ (Marcel Palat) كان يرمي من وراء رحلته الى اعادة تمبكتو الى سالف مجدها بربط شعوب المنطقة بالمدن الجزائرية، بحيث يصبح - على حدّ تقديره- "بإمكان تمبكتو تلقّي البضائع الأوربية، بالإضافة الى الحبوب والصّوف، والزّرابي والبرنس التلمساني، والشاشية التونسية..."⁽⁸⁾. أمّا المركيز ديموريس⁽⁹⁾ (Le Marquis de Mores) - موضوع هذه المداخلة - فكان يهدف من وراء رحلته الاستكشافية⁽¹⁰⁾ الى ربط بلاد السودان بالبحر الأبيض المتوسط بواسطة اعادة فتح طرق القوافل الصحراوية الرّابطة بين نواحي بحيرة التّشاد والبحر الأبيض المتوسط ، و ايصال المنتوجات الإفريقية الى ميناء بنزرت العسكري أين - وفقاً لتخطيطه - " ستركّز مصاهر للحديد ، ومؤسّسات نسيجية، ومصانع للمصبرّات ، وسيكون بإمكان قبائل الرّنّوج ترويج تلك البضائع مقابل توفيرها للحيوانات ، والصّوف والجلود والصمغ والعاج وريش النّعام والمعادن"⁽¹¹⁾ .

كما كان المركيز المذكور يراهن على العثور - في الصحراء - على مناجم للفسفاط والنّيترات التي ستسمح بمدّ " شبكة من خطوط السكك الحديدية تساعد على تصدير المنتوجات الفرنسية كالأسلحة والدّخيرة والسكّر والشاي والأدوية والمنتوجات الحديدية"⁽¹²⁾ .

لقد حتّمت كلّ تلك الدّوافع على المستكشفين والمغامرين استغلال طرق القوافل الصّحراوية للاستفادة منها في مشاريعهم الاستعمارية ، وليفتحوا للتجارة الفرنسية مجالا للتغلغل في قلب القارة، فعملوا على التّخطيط لوضع شبكة من المواصلات الحديدية والبريّة وأسلاك التّلفراف لتسهيل سبل

التنقل للقوّات العسكرية بين مختلف المناطق الصحراوية التي كان المستكشفون و الدّارسون و المتخصّصون قد درسوا مظاهرها التّوبوغرافية والمناخية ، وحدّدوا المناطق التي تصلح لمَدّ الخطوط الحديدية وشقّ الطّرق ، وبيّنوا مختلف الصّعوبات التي تعترض سبيل تلك المشاريع ، وقَدّموا لها الحلول والمقترحات وفق المعطيات الميدانية⁽¹³⁾

أنّ المتنبّع لجلّ الدراسات التي قام بها العديد من المغامرين ، وخاصة من الدّارسين والمختصّين ، يلاحظ بوضوح خوف وحذر الفرنسيين من الصّحراء وخاصة من سكّانها ، الأمر الذي جعلهم - تأمينا لأنفسهم، وتوفيرا منهم لأسباب النجاح لحملاتهم الاستكشافية - يعوّلون على حماية العديد من الطّرق الصّفية لهم لما كانت تتمتع به من نفوذ روحي على أغلب سكان المناطق الصحراوية ، والذي وظّفته في حماية العديد من المستكشفين اعانة منها لهم على نجاحهم في مهمّاتهم الاستكشافية⁽¹⁴⁾ .

2 - الرحلة الاستكشافية للمركيز ديموريس :

الرّهانات : سبقت الإشارة الى الطّموحات الخيالية والمشاريع الاستعمارية الطوباوية - وفقا للمدرسية السّانسيمونية التي كانت سائدة آنذاك - التي كانت تحرّك مختلف المستكشفين ، لكن وجبت الإشارة أيضا الى الأهداف السياسية والأمنية التي كانت وراء ذلك ، حيث كانت السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر حريصة - في اطار حرصها على تأمين حدودها الجنوبية فيها من خطر التّوارق - على تطبيع علاقاتها بهم لما كانوا يكتّونه من عداء سافر لها :

ذلك أنّ توارق الهقّار والأزجير والفوقاس يعتبرون من أهمّ فصائل التّوارق الذين يمتدّ نفوذهم من مرزق الى توات على الحدود الغربية للجزائر، حيث تعتبر غات أهمّ مركز تموين لهم ، اذ يعيشون من كراء جمالهم للقوافل التجارية الصحراوية⁽¹⁵⁾، لذلك اعتبروا أنّ كلّ أوروبي يحلّ بينهم لا هدف له الاّ دراسة منطقتهم ومعاينة امكانياتهم قصد الاستيلاء على بلادهم وتحويلهم الى عبيد⁽¹⁶⁾ .

كما كان التّوارق يرون في مدّ خطوط السكك الحديدية تهديدا مباشرا لمواردهم الحياتية⁽¹⁷⁾، لذلك عارضوا دخول كل أوروبي لمجالهم، معتبرين "كلّ مستكشف ليس سوى جاسوس أرسل خصيصا لمعرفة المنطقة ودراستها ،ليعود مدعوما بالقوّات العسكرية لاستعمارها..."⁽¹⁸⁾ .

ان تلك النظرة العدائية القائمة هي التي حالت دون تأمين المستكشفين ، وأدّت بالتالي الى تصفية العديدين منهم، بل وجعلت الحدود الجنوبية للوجود الفرنسي بالجزائر غير آمنة نظرا للغارات التي كان يشنّها التّوارق ، لذلك كان لا بدّ على السلطات الاستعمارية من أن تسعى جاهدة لإزالة تلك الصّورة التي كانت لدى التّوارق على الأوربيين عامّة والمستكشفين خاصّة عبر تطبيع العلاقات معهم بواسطة من بعض مشائخ الطّرق الصّوفية الذين لعبوا دورا بارزا في هذا المجال⁽¹⁹⁾ .

تجدر الإشارة الى أنّ المركيز ديموريس وصل الى تونس يوم 20 مارس 1896 صحبة زوجته، حيث أحاط المقيم العام علما برحلته الاستكشافية في الصحراء انطلاقا من "مقاطعة قسنطينة" (Province de Constantine)، الأمر الذي حثّم عليه - على حدّ قوله - الاتفاق في هذا الشأن مع السلطات الجزائرية، مشيرا الى أنّ هدفه هو التحوّل الى غاط أولّا ، ومنها الوصول الى مهدي السنوسية بالكفرة ، ثمّ الى مهدي السّودان المصري ، ليبرم مع كلّ منهما حلفا ضدّ توسّع التأثير الأنقليزي في افريقيا ، مدّعيا تمتّعه - على حدّ قوله - بتعهّد الطريقة السنّوسية بحمايته في الصحراء⁽²⁰⁾ .

يوم 29 مارس ألقى محاضرة عامّة بقاعة المسرح ، دعا فيها الى "تحالف فرنسي - اسلامي ضدّ التوسّع الأنقليزي في القارة الإفريقية..."⁽²¹⁾ ، ليغيب عن الأضواء الى حدّ يوم 23 أفريل 1896 ، تاريخ قدومه الى الإقامة العامّة من جديد لإحاطتها علما بأنّه على اثر التحريّات التي قام بها تأكّد له أنّ انطلاقته ستكون من تونس بدلا من الجزائر، معلنا كذلك أنّ مخطّط رحلته تغيّر أيضا ، حيث أصبح الهدف الأساسي من رحلته الاستكشافية هو الأجير (L'Air) وزندر (Zinder) ، للدخول - بعد ذلك - الى بورنو (Bornou) وسوكوتو (Sokto)⁽²²⁾ .

لقد طلب ديموريس الإعانة والحماية من الإقامة العامّة ، الأمر الذي دفع المقيم العام الى التأكيد له على أنّ تونس لا يمكنها أن تكون نقطة انطلاقه لرحلته ، وأنّه لن يسمح له باجتياز خطّ الحدود القصوى للوجود الفرنسي في جنوب البلاد التونسية للتوجّه نحو الصحراء ، الأمر الذي أثار احتجاج المركيز، فما كان من المقيم العام إلاّ أن وضعه على اتّصال بالمقدّم ربيبيي (le Commandant Rebillet) ، المكلف في الإقامة العامّة بقضايا الصحراء ، مزوّدا له بكل المعلومات الضرورية المتعلقة بها .

تجدر الإشارة الى وقوف مختلف المسؤولين الفرنسيين في تونس على النقص الفادح لدى المركيز في التجهيزات اللازمة ، وبالأخصّ الجهل التام لديه بالوسط الذي ينوي التوغّل فيه ، والإخطار التي تنتظره في المجال الحيوي للتّوارق ، ومع ذلك فانه لم يتراجع عن عزمه ، ممّا دفع بالمقيم العام الفرنسي الى الزامه كتابيا بأن لا ينطلق في رحلته الاستكشافية من تونس ، والتحوّل من الجنوب التونسي الى الجزائر ، مع العلم وأنّ التعليمات صدرت الى السلطات الفرنسية العسكرية والمدنية هناك بعدم تحمّلها لأيّة مسؤولية في اعداد حملة المركيز ، وملازمة الحياد التام تجاهها ، بل ومراقبة مسار رحلته عن كثب حتّى لا يحيد عمّا التزم به⁽²³⁾ .

أنّ ادراك المركيز لخطورة المجال الذي سيكتشفه حثّم عليه ليس فقط تأمين نفسه ، وأنّما كذلك توفيره لأقصى حظوظ النجاح لرحلته ، لذلك حرص على الحصول على ضمانات من الطريقة الصّوفية التي ستخترق حملته الاستكشافية مجال نفوذها الروحي .

لقد كان المركيز ديموريس يرمي الى الوصول الى غدامس وغات ليتوغل من هناك في قلب القارة الإفريقية للتعرف عن قرب على الأوضاع في بلاد السودان، وهي مبادرة - رغم ما كان يحف بها من أخطار - فانه أقدم عليها لتدعيم نفوذ بلاده، وللتأثير التي قد تجنيها حكومته من رحلته ان هو نجح فيها⁽²⁴⁾.

ونظرا لسيطرة الطريقة السنوسية⁽²⁵⁾ على المناطق الممتدة على الطريق التي سيسلكها من الجنوب التونسي حتى غات مرورا بغدامس، كان لابد له من الحصول من شيخها على رسالة تضمن له من جانب الطريقة المذكورة الحماية الضرورية في الصحراء⁽²⁶⁾، وتحقيقا منه لذلك أوكل المهمة الى الشيخ محمد بن عثمان الحشائشي التونسي⁽²⁷⁾، الذي أعد رسالة باسم المركيز ديموريس وقصيدة في مدح الطريقة السنوسية، وارتحل يوم 10 ماي 1896 الى واحة الكفرة على طريق البحر الى بنغازي، ليقصد انطلاقا منها زاوية السنوسية، على أن يرحل من الكفرة الى غات ليلتقي فيها بالمركيز ديموريس بعد أن يكون قد أعد له مقابلة خاصة مع شيخ السنوسية⁽²⁸⁾، وبالفعل التقى الحشائشي بالشيخ السنوسي يوم 25 ماي 1896، وألقى بين يديه قصيدة مطولة نالت رضاه⁽²⁹⁾.

من جهته، أجل المركيز مغادرته للحاضرة تونس الى قابس الى شهر ماي 1896، حيث أمكنه خلال ذلك انتداب افراد الفريق الذي سيصاحبه، والذي تكون - في خطة مترجم - من التونسي عبد الحق ابن الشيخ الورتاني المدير السابق للأوقاف، و الغدامسي الحاج علي المستقر في تونس، وأحد أعيانها من كبار التجار الذين كانوا دائما في رحلات بين غدامس، غات، طرابلس الغرب وتونس، والذي قبل باقتياده لقافلة المركيز حتى غات مرورا بتمسانين (Temassinin)، مع العلم وأن عقدا تم إبرامه في الغرض على أن يأتي الحاج علي معه ب"الدليل" (le guide) علي السيناووني (Sinaouni) وثلاثة من الخدام الزنوج، في حين وفر المركيز من جهته ثلاثة من الخدام الآخرين وهم الجزائريين أحمد ومحمد، والتونسي علي الزمرلي، كما أقحم معه كذلك عدد من الزنوج المستقرين بتونس، واشترى حمولة قيمتها 40000 فرنكا وزعها على جمال قافلته⁽³⁰⁾.

بعد شهر مكثه بالحاضرة تونس، قصد المركيز قابس يوم 6 ماي 1896 معولا الوصول الى الجزائر عبر طريق نفزاوة، بئر الصف (Bir- Errecof) الذي سيوجه منه الى قصر الحيران (Ksar-el- Hairan)، الأبيض (El- Abiodh) وتمسانين⁽³¹⁾، في نفس الوقت جدّد المقيم العام تعليماته الى السلطات المدنية والعسكرية بالجنوب التونسي والمتعلقة بالموقف من المركيز وضرورة مراقبة مسار رحلته، كما وجه تلغرافا الى كل من وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية والوالي العام للجزائر لإحاطتهم علما بما عزم عليه ديموريس⁽³²⁾.

في قابس بادر الى تهئية قافلة تكوّنت من 38 فردا و 47 جملا محملة ب 4000 كلغ ، مع العلم وأنه أبرم - كما ذكرنا - عقودا مع بعض الأهالي لمصاحبتة في رحلته ، كما اُكترى أدلاء⁽³³⁾ .

تجدر الإشارة الى أنّ المركيز سلك طريقا تميّز بوفرة نقاط الماء به وهي : قبلي - دوز - بير سرارة الحجاف (Bir-Serera- el-Haguef) - بير كسيرة (Bir-Kcira) - بير جنين (Bir-Jenneyan) - بير زهار (Bir-Zahar) - بير الوطية ، وهي " خطّ ماء (ligne d'eau)" يوجد بالكامل في الصحراء ويعود الى قبائل تونسية ك: الحضارة والمرازيق ، وأخرى جزائرية ك: الشعانبة والتّوارق⁽³⁴⁾ .

للتذكير ، فان المركيز ديموريس ألقى في قابس محاضرة حول الهدف من رحلته ، ليتوجّه يوم 15 ماي الى نفاوة أين أخذ ثلاثة من الأدلاء من المرازيق بالإضافة الى آخرين التزموا بإيصاله الى الحدود الجزائرية ، وبذلك تكون قافلته قد تألفت - في الأخير - من 39 فردا و 47 جملا غادروا قبلي متوجّهين الى دوز التي بانطلاقا منها عمد المركيز فجأة الى تغيير مسار رحلته ، الأمر الذي دفع المقيم العام الى فتح تحقيق لتحديد المسؤوليات⁽³⁵⁾ ، مع العلم وأنّ ديموريس اتّجه نحو الجنوب الشرقي متّبعاً طريق القوافل ، ليصل يوم 21 ماي الى بير الرّصف ثمّ الى بير سرارة ، فبير ابراهيم يوم 22 ، 27 الى وادي كبيرة ، 28 الى وادي الشلايكية ، 30 الى جنين ، 31 الى زهار ، ويوم 3 جوان الى بير الوطية⁽³⁶⁾ ، حيث تحدّث بعض المصادر عن محادثات دارت بينهم وبينه قصد استعانتهم بهم في اتمام رحلته ، لكن آل الأمر في النهاية الى تصفيته مع البعض من مرافقيه ، وذلك على بعد 3 كلم من بير الوطية ، وعلى مسافة 150 كلم من ذهبية أين يوجد آخر مركز عسكري فرنسي في أقصى جنوب البلاد التونسية⁽³⁷⁾ .

3 - المآلات :

تجدر الإشارة الى وصول التونسي علي زمرلي الى ذهبية يوم 14 جوان ، معلنا نبأ قتل المركيز من طرف التّوارق والشعانبة ، ذاكرّا اعتراض توارق الفوغاس - فرع الشيخ عقبة بن بشاوي المعروف في كل من الجزائر وتونس - للقافلة ، والذين انضاف اليهم الشعانبة ، بحيث فاق عددهم الجملي الثلاثين فردا فدارت مواجهة بين الطرفين أسفرت عن قتل المركيز وأربعة من مرافقيه وهم : عبد الحق ، الحاج علي و الجزائريين أحمد ومحمد⁽³⁸⁾ ، في حين أمكن للبعض الإفلات من القتل⁽³⁹⁾ .

لقد تمّت تصفية المركيز - كما أشرنا - من طرف التّوارق والشعانبة⁽⁴⁰⁾ يوم 9 جوان 1896 قبل أن يصل حتّى الى غدامس ، وممرّ أسبوع كامل على الواقعة دون أن تحرّك السلطات الاستعمارية ساكنا ، ويوم 19 جوان انطلق البعض من التونسيين من نفاوة ، كما انطلق البعض الآخر من تطاوين قصد البحث عن جثة المركيز⁽⁴¹⁾ ، التي تمّ العثور عليها يوم 28 جوان وحملت الى قبلي . أمّا الحشائشي ، فما أن تناهى الى سمعه خبر قتل المركيز حتى طار عائدا أدراجه⁽⁴²⁾ .

تجدر الإشارة الى أنّ فرسان أرسلوا - من قبلي - من قبل القائد العسكري لانتشال جثة المركيز وهم : باش شاوش مخزن قبلي وسعيد بن ناصر بالإضافة الى خمسة معاونين تمّ اختيارهم من بين المرازيق ، غادروا قبلي يوم 20 ماي ، ووصلوا الى بير الوطية يوم 28 منه أين أمكنهم العثور على جثتي كل من المركيز وعبد الحق اللتين حملتا على المهاري ، فوصلتا الى قبلي بعد مسيرة أربعة أيام ونصف⁽⁴³⁾ .
لقد أمكن التعرف⁽⁴⁴⁾ على جثة المركيز من قبل ممثلي عائلته ، في حين تمّ ذلك بالنسبة الى جثة عبد الحق من طرف أفراد عائلته ، مع العلم أنّه تمّ نقلهما بواسطة سفينة الى الحاضرة تونس⁽⁴⁵⁾ .

لئن اعتبرت تصفية المركيز أمرا عاديا بالنسبة الى الثوار باعتبار أن ذلك كان مصير الغالبية الساحقة من المستكشفين الذين كان لا بدّ من قتلهم حتى لا يعودوا تتبعهم الجيوش الجرّارة ، فانه مثل - بالنسبة الى السّلطات الفرنسية - ضربة قاصمة جعلتها عاجزة عن الردّ خوفا من تفاقم عدد ضحاياه ، حتّى أنّها أبرقت الى الملازم لوبوف (Le Boeuf) لمنع من التحوّل بنفسه للبحث على جثة المركيز⁽⁴⁶⁾ ، علما وأن بعض الأهالي من التونسيين الذين ذهبوا للبحث على جثة المستكشف الفرنسي قطعوا المسافة الفاصلة بين قبلي ومكان الحادثة ذهابا وإيابا دون أن يتوقّفوا ، حيث قدّرت المسافة اليومية التي قطعوها على جمالهم بمائة كيلومتر، حتّى أنّ تلك الجمال ما أن وصلت الى قبلي حتّى سقطت ميّنة من فرط الإعياء⁽⁴⁷⁾ ، كلّ ذلك، خوفا من أن يدركهم الثوار فيلقوا نفس مصير المركيز، وبذلك استحال على السّلطات الفرنسية الظّفر بقتلة المركيز رغم مرور حوالي سنتين على تصفيته ، الأمر الذي عدّه البعض من الفرنسيين آنذاك تقصيرا من الحكومة الفرنسية ، وهوّا من شأنه - حسب زعمهم - أن يمسّ بهيبة فرنسا في الصحراء ، باعتبار أنّ السّكوت على القصاص سيفسّر بالضعف والعجز، الأمر الذي من شأنه أن يزيد المناوئين لفرنسا ، والمناهضين لتوغّلها الاستعماري قوّة ، وبذلك سيستمرّون في تصفية المستكشفين الواحد تلو الآخر⁽⁴⁸⁾ .

ان ما يؤكّد عجز الأوساط الرّسمية الفرنسية ، هو اضطرار أرملة المركيز الى التحرك بإمكانياتها الفردية حيث بادرت الى كتابة رسالة بتاريخ 8 نوفمبر 1897 باللغة العربية راجت آنذاك في كل من الجزائر وتونس⁽⁴⁹⁾ ، أوضحت فيها أنّها مصمّمة على الثأر من قتلة زوجها، " واعدة كلّ من يسلمهم الى السلطات - سواء بورقلة أو القليعة - بمنحه مبلغا ماليا هامّا يقدر بألفي دورو للاثنين من القتلة ، وثلاثة آلاف لثلاثة منهم ، في حين رصدت ألفي دورو لكلّ من يلقي القبض على واحد من القتلة الرئيسيين ..."⁽⁵⁰⁾ .

ومن جهته أعلن والي ورقلة أنّ الحكومة الفرنسية تعد بمنح منصب قايد لكلّ من يسلمها قتلة المركيز ديموريس⁽⁵¹⁾ .

رغم تلك المكافآت المغربية ، لم يجرئ أحد على المغامرة بحياته لعلم الجميع بمصير كل من تخوّل له نفسه الإقدام على ذلك خشية من سكّان الصحراء ، الأمر الذي جعل السلطات الفرنسية نفسها تقتنع بأن أفضل من يقوم بمهمة إيقاف قتلة المركيز هم مشائخ الطرق الصوفية لما لهم من نفوذ روحي بين التوارق من شأنه أن يمثّل أفضل حصانة لهم بينهم، لذلك لا غرابة في أن يبادر المسؤول عن المكتب العربي بوادي سوف بمراسلة الشيخ محمد الهاشمي بن ابراهيم – نائب الطريقة القادرية بالمكان المذكور- طالبا منه ارسال أحد رجاله لتقصّي الحقائق حول ظروف مقتل المركيز ، والإتيان بما خلفه من أوراق ووثائق⁽⁵²⁾ .

بعد حوالي سنتين على مقتل المستكشف المذكور، تطوّع – في أبريل 1898 – محمد الطيّب بن ابراهيم نائب الطريقة القادرية بزاوية الرّويسات قرب ورقلة بالذهاب الى غدامس وغات بتعلّة تفقّد الرّوايا القادرية هناك ، وبالفعل ما أن وصل الى هناك حتى تأكّد من وجود الذين اشتركوا في قتل المركيز على بعد مسير أربعة أيّام من هناك ، فبادر الى الإرسال في طلبهم ، وتبع لما كانوا يكتّونه له من اجلال وصلوا الى غدامس بعد عشرة أيّام من وصوله اليها، حيث سردوا عليه ، خلال الأسبوع الذي قضوه في ضيافته ، وقائع الحادثة بكل تفاصيلها⁽⁵³⁾ ، وبذلك الاستنطاق غير المباشر أمكن للشيخ تحديد القتلة الحقيقيين الذين طلب منهم مرافقته حتى غات ، أين مكثوا خمسة أيّام اتّجهوا بعدها نحو الحدود التونسية ، مع العلم وأن الشيخ المشار اليه عبر ذهابا التراب الجزائري ، لكنه في طريق العودة آثر الدخول عبر الحدود الجنوبية للبلاد التونسية تجنّبا منه للشّعائبة الذين ينتمي اليهم قتلة المركيز الذين كانوا برفقته ، فخاف افتضاح أمره ، لذلك غير مسار طريق عودته⁽⁵⁴⁾ .

لقد أكّد محمد الطيّب بن ابراهيم لمرافقيه أنّ مكانته الدّينية ومنزلته لدى حكومة باي تونس والسلطات الفرنسية بها ستمكّنه من أن يحصل لهم على الأمان ، وبذلك غرّر بسبعة من الشعائبة ، فلم يتردّدوا في مرافقته حتّى فمّ "تطاوين" التي وصلها يوم 27 جوان 1898 مصحوبا بالمتّهمين : بلخير، بن عبد القادر، حمّة بن يوسف، حمّة بن الشيخ، علي بن حمّة ، العيد بن لخضر، قدّور بن باح ومحمد بن بسّيس ، مع العلم وأن الثلاث الأوائل اتّهموا بالمساهمة المباشرة في "الجريمة"⁽⁵⁵⁾ لذلك ما أن وصلوا حتّى تمّ تجريدهم من سلاحهم وايداعهم السجن⁽⁵⁶⁾ .

بعد أربع سنوات من الاعتقال بدأت محاكمتهم في سوسة يوم 21 جويلية 1902 ، وحكم بالإعدام على المدعو الخير، في حين حكم على المسمّى حمّة بن الشيخ بعشرين سنة أشغال شاقّة ، بينما كان حمّة بن يوسف قد توفّي بالسجن منذ مارس 1900⁽⁵⁷⁾ . وفي أكتوبر 1902 طلب الخير العفو من المركيزة ، فوافقت على التماسه الذي حظي كذلك بموافقة رئيس الجمهورية الفرنسية آنذاك ، وأبدل حكم الإعدام بالأشغال المؤبّدة⁽⁵⁸⁾ .

أمّا محمد الطيّب بن ابراهيم فإنّ مهمّته تلك قد أثارت قضية ديموريس من جديد بعد أن ظنّ العديد من الفرنسيين أنّها قبرّت ، الأمر الذي دفع السلطات الاستعمارية في تونس - على اثر عودته مصحوبا بالقتلة - الى ايقافه مدّة تسعة عشر يوما ، وبعودته الى ورقلة وجد منزله قد خرّب ، ومزارع حقوله قد أتلّفت من طرف الشّعابة ، وخوفا على حياته لاذ بالفرار⁽⁵⁹⁾ ، مع العلم وأنه كان تسلّم من البارون جون دوجال (Le Baron Jean de Gail) - أحد أقرباء أرملة المركيز ديموريس - مبلغ عشرة آلاف فرنك مكافأة له على انجاز المهمة⁽⁶⁰⁾ ، لكن تحت ضغط حملات الصحافة الفرنسية آنذاك⁽⁶¹⁾ اضطر محمد الطيّب بن ابراهيم الى ارجاع المبلغ المذكور⁽⁶²⁾ ، وبذلك يكون الشيخ المشار اليه قد قام مجانا بمهمة غاية في الخطورة كان بالإمكان أن تكلفه حياته ، لذلك لا غرابة أن يقترح الوالي العام للجزائر - تقديرا منه للنتائج التي ترتبت على حدّ قوله على مهمة الشيخ والتي كلّفته وفق تقديره فقدانه لنفوذه وثقته بين الشّعابة⁽⁶³⁾ - ترشيحه لنيل وسام صليب فارس لنيشان الافتخار (La Croix de chevalier de la légion d'honneur)⁽⁶⁴⁾ ، وبالفعل تحصّل محمد الطيّب على لقب آغا شريف (Agha honoraire) ، ونيشان الافتخار⁽⁶⁵⁾ .

تجدر الإشارة الى أنّ خدمات محمد الطيّب السّالف الذكر لم تقتصر على جلب قتلة المركيز ديموريس وتسليمهم للسلطات الفرنسية بتونس ، وإنّما تمثّلت كذلك فيما هو أخطر من ذلك ، حيث قدّم للسلطات المشار اليها كشفا تضمّن معلومات ميدانية غاية في الدقّة ، تعلّقت بما شاهده أثناء رحلته من ورقلة الى غدامس وغات ومن هذه الأخيرة الى تطاوين⁽⁶⁶⁾ ، اذ تضمّن كشفه مسحاً ميدانيا لما شاهده خلال رحلته التي استغرقت أربعاً وثمانين يوماً ، اذ بدأت يوم 1 أفريل 1898 وانتهت يوم 23 جوان من نفس السنة⁽⁶⁷⁾ الأمر الذي يحملنا على القول بأن الرجل أخذ الوقت اللازم للتأمّل والتدقيق ، وتسجيل معلومات تعلّقت بالتضاريس كالجبال بتحديد مواقعها وتكوينها الجيولوجي الظاهر للعيان ، والسهول والأودية ، فضلا عن الغطاء النباتي⁽⁶⁸⁾ ، وأخرى حضرية تعلّقت بتقديمه لمعلومات تقديرية حول عدد سكّان بعض التجمّعات والطبيعة الأثنية للعناصر المكوّنة لها ، مع اشارات للمسافات الفاصلة بين بعض المدن التي حدّد مواقع بعضها والطرق المؤدّية لها⁽⁶⁹⁾ ، علما وأنّه وصل به الأمر أحيانا الى وضع رسم هندسي كما كان الشأن مثلا بالنسبة الى غدامس التي استوفى حديثه عنها ليس فقط بتحديد موقعها وذكره لأهم قراها وإنّما وضع لها أيضا رسما موضّحا للطرق التي تصلها ، وتلك التي تنطلق منها في الاتجاهات الأربع⁽⁷⁰⁾ ، الأمر الذي زاد تلك المعلومات خطورة على أمن المناطق التي ذكرها ، كلّ ذلك بالإضافة الى معلومات أثرية ، حيث أشار الى أنواع الآثار التي مرّ بها ، وحتّى الكتابات والنقوش التي كانت تحملها⁽⁷¹⁾ ،

وهي كلّها معلومات حول مجالات شتى أكّدت أن الرجل تحوّل بالفعل الى مستكشف استكمل - بما وفّره من معلومات للسلطات الاستعمارية الفرنسية - المهمة التي قتل المركيز ديموريس دونها: ذلك أن المعلومات المشار اليها أنارت نسبيا السلّطات المذكورة حول مجال ظلّ بالنسبة اليها مجهولا ، الأمر الذي يمكنها أن تستفيد ممّا قدّم اليها ان هي قرّرت التوغّل في عمق الصحراء .

ان آخر ما نوذ الإشارة اليه في أمر الشيخ محمد الطيّب بن ابراهيم ، هو أن خدماته لسلطات الاحتلال الفرنسي لم تقتصر على ما ذكر، وأنما تعدّته الى الدور البارز الذي لعبه في مساعدة القوات الفرنسية في استيلائها على عين صالح ، حيث أنجد بصورة ناجعة لويس بان (Louis Pein) - قائد طابور المشاة - في حملته عليها (نوفمبر 1899 - مارس 1900) ، وكذلك أثناء احتلاله للثّوات (جوان 1900 - جوان 1901) ، حيث قتل محمد الطيّب بن ابراهيم بيديه قايد أولاد بن باجودة الذي كان يقاتل الفرنسيين على رأس ألف ومائتين من الفرسان ⁽⁷²⁾ ، وبعد تكوّن بعثة فلاماند (Flamand ,G.B.) "منح محمد الطيّب شرف الانضمام اليها كمساعد وحام لها...." ⁽⁷³⁾ ، كما كان ضمن كتيبة أرماند سارفيار (Armand Servièrès) "يقاتل بنفس الولاء والإخلاص للفرنسيين أثناء احتلالهم للقوّارة ، حتّى سقط قتيلا تحت جدران قصر شاروين على الحدود الجزائرية المغربية يوم 5 مارس 1901 ... " ⁽⁷⁴⁾ ، وبذلك يمكن القول بأن شيخ زاوية القادرية بورقلة ظلّ على ولائه المطلق للاستعمار حتى آخر رمق في حياته ، فما الذي يفسّر ذلك ، رغم ما عرفت به الطريقة القادرية من مناهضة له ؟ .

لا بدّ في البداية ، من التذكير بما كان للقادرية من أدوار بطولية في الجزء الشمالي للجزائر: فالناصر بن شهرة (ت.1884) - أحد أبطال ثورة 1871 - كان ينتمي اليها ⁽⁷⁵⁾ ، كما أنّ الثورة التي اندلعت - في أفريل 1864 - في فليّة بجبال الونشريس وحوض الشّلف ، كانت بزعامة الشيخ المتصوّف الأزرق بالحاج احد أتباع الطريقة القادرية ، ومؤيّد ثورة أولاد سيدي الشيخ ⁽⁷⁶⁾ ، ومن جهته فإنّ ابراهيم بن عبد الله أحد أبطال ثورة 1864 ⁽⁷⁷⁾ ، كان مقدّمًا للطريقة القادرية التي عرفت - في النّصف الأوّل من القرن التاسع عشر - بمساندتها لكفاح الأمير عبد القادر (ت.1883) ، الأمر الذي يحملنا على القول بأن الطريقة القادرية - باستثناء ما صدر عن محمد الطيّب بن ابراهيم - عرفت - سواء في النّصف الشمالي للجزائر أو في نصفها الجنوبي - بمقاومتها للاستعمار الفرنسي ، فما الذي يفسّر موقف نائبها بزاويتها في ورقلة ؟

للتذكير ، فإنّ محمد الطيب بن ابراهيم المذكور هو أبْن ابراهيم بن أحمد الكبير (ت.1878) الذي كان - منذ 1830 - من الدّ أعداء الوجود الفرنسي بالجزائر ، حيث انضمّ الى الأمير عبد القادر ⁽⁷⁸⁾ ، لكن باستيلاء الاستعمار على جلّ مناطق الشرق الجزائري التي كانت مجالا لدعم الطرق

الصوفية فيها - باستثناء التيجانية منها - للمقاومة الوطنية ، اضطرّ العديد من مشائخها الى الالتجاء الى الجريد الذي يمكن اعتباره امتدادا - في الشرق - (شرق الجزائر) لنفوذهم الطرقي الذي ضرب في الغرب (غرب الجزائر) ، حتى أنّ ابراهيم بن أحمد الكبير المذكور - شأنه شأن البعض الآخر من زعماء الطرق الصوفية في الشرق الجزائري - وصل - سنة 1843 - الى نفطة أين أسّس زاوية قادرية⁽⁷⁹⁾ ، لعبت دورا بارزا سنة 1870 - 1871 - في دعم المقاومة الجزائرية "بجمع السلاح والأموال... ، بل وتحوّلت الى تجمّع للمجاهدين... ، ففيها أقام محي الدين بن الأمير عبد القادر الجزائري ، والنّاصر بن شجرة... ، حيث أحسن استقبالهم شيخها المشار اليه ، كما حرّضت سكّان الجريد وقبائل النّمامشة على الالتحاق بصقوف المقاومين ، وبعد فشل ثورة 1871 عاد محي الدين من جديد الى نفطة... ، وأقام بالزاوية القادرية بها ، وسهّل له أصحابها مغادرة البلاد التونسية والالتحاق بالشام..."⁽⁸⁰⁾ .

ازاء هذا التاريخ المشرف لزاويا الطريقة القادرية ، يعتبر موقف نائبها بزاويتها بورقلة استثناء ، ويمكن تفسيره بعدّة عوامل من أبرزها :

- اعتبار العديد من مشائخ الطرق ممّا آل اليه أمر المناهضين منهم للاستعمار ، الذي قابل مقاومتهم له بانتهاجه لسياسة الأرض المحروقة ، واعتماده للقتل الجماعي ومصادرة الأموال والأرزاق والنّفي الى الجزر النّائية⁽⁸¹⁾ ، والقاء الزعامات في غياهب السجون ، مع العلم وأنّ الذين فرّوا من الجزائر والتجّأوا الى المناطق الغربية من البلاد التونسية ، كان مصيرهم الاعتقال بعد أن مارست السّلطات الاستعمارية بالجزائر ضغوطات على باي تونس الذي بادر الى تسليم العديد منهم⁽⁸²⁾ .
- لقد كان لكل ذلك الأثر السيّء على العديد من مشائخ الطرق الصّوفية ، حتى تلك التي عرفت بعادتها السافر والراديكالي للاستعمار كالطريقة الرحمانية⁽⁸³⁾ ، حيث أصبحوا حريصين على تقديم خدمات اثباتا منهم لولائهم للاستعمار تجنّبا لنقمته ، وطمعا في ما كان وجود به عليهم - مقابل ذلك - من انعامات وامتيازات ، حتى أنّ محمد الطيّب بن ابراهيم كان - حسب ما ذكره هو نفسه - لا يهدف من وراء ما قام به الى الحصول على المال لأنه كان غنيا ، وأنّما أراد بذلك التدليل على ولائه للحكومة الفرنسية والروابط التي كانت بينها وبين زاويته⁽⁸⁴⁾ ، فكان " سفره الى غدامس وغات كافيا لأثبات اخلاصه للمصالح الفرنسية ، التي خدمة منه لها بجمعه لمعلومات ميدانية مختلفة ، خاطر بحياته في الصحراء وسط التّوارق ، اذ لا قيمة لحياته - على حدّ قوله هو بنفسه - كلّما تعلّق الأمر بالمصالح الفرنسية.." ⁽⁸⁵⁾ .

كما كان الشيخ المذكور يحدوه الطّمع ، حيث ذكر هو نفسه ، أنّه علم من والي ورقلة بوعبد الحكومة الفرنسية بمنحها لمنصب قايد لمن يأتيها بقتلة المركيزديموريس ، وهو ما دفعه الى القيام

بذلك⁽⁸⁶⁾ ، فنال - كما سبق وأن أشرنا - مكافأة له على ذلك نيشان الافتخار ولقب "آغا شريف" ، الأمر الذي يثبت نجاح سلطات الاحتلال الفرنسي في احتواء وتوظيف بعض مشائخ الطرق الصوفية بواسطة تلك المناصب والألقاب التي دفعت بعضهم الى الوقوف الى جانب قوَّات الاحتلال ضدَّ اخوانهم وأبناء بلدهم⁽⁸⁷⁾ ، حيث كان الحصول عليها يمرّ عبر تقديم خدمات جليلة ، كما أن فقدانها كان سببا للبعض ممن أنعمت عليهم سلطات الاحتلال بها سببا في خروجهم عليها⁽⁸⁸⁾ .

♦ الأوضاع المادية للطريقة القادرية بالجريد في نهاية القرن التاسع عشر: سبقت الإشارة الى أن محمد الطيّب بن ابراهيم هو ابن ابراهيم بن أحمد الكبير الذي - كما ذكرنا - غادر الجزائر الى نفطة أي أسّس زاوية قادرية تحوّلت - في السنوات الأولى من النصف الثاني من القرن التاسع عشر- الى زاوية أم للطريقة القادرية بالجنوب والوسط الغربي التونسيين ، وأصبحت لها أملاك ضخمة بالجريد⁽⁸⁹⁾ ، لكن عوامل عديدة أدّت الى دخول الزاوية المشار اليها - ابتداء من سنة 1898 - في أزمة مالية حادّة⁽⁹⁰⁾ ، دفعت محمد بن ابراهيم -أخو محمد الطيب الذي خلف أباه في مشيخة زاوية القادرية بنفطة ابتداء من سنة 1878- إلى التداين لدى عدد من يهود الجريد الذين اضطرّوا الى اقتراض مبالغ مالية كبيرة منهم ، مقابل رهنه لممتلكات الزاوية الموقوفة عليها ، الأمر الذي دفع اخويه محمد العربي ومحمد الأزهر الى اتّهامه بالتلاعب بمقدّرات الزاوية وعمليات تدليس شابت ادارته المالية لمداخيلها ، فرفعا به قضايا إلى الوزارة الكبرى متّهمين له بالإضرار بأملاك الزاوية وتزوير وثائق ، فأل أمره إلى إقالته وتعويضه بأخيه محمد العربي⁽⁹¹⁾ .

ما يهمّنا - فيما يتعلّق بموضوعنا - في أمر الزاوية أن ديونها بلغت 80000 ف في منتصف سنة 1899 ، يضاف اليها مبلغ 7858 معاليم أداءات للدولة ، فضلا عن ديونها تجاه بعض اليهود والتي وصلت مبالغها الجمالية - بتاريخ 8 سبتمبر 1899- الى 83352 ف⁽⁹²⁾ ، وهي ديون حلّت آجال تسديدها في ظرفية كانت فيها الزاوية عاجزة عن ذلك تماما ، ممّا دفع أصحاب الدّيون الى الالتجاء الى المحاكم واصدار أحكام تقضي بوجوب خلاصهم ، ورغم تدخّل السلطات الفرنسية - تقديرا منها لسمعة الزاوية- لتأجيل تنفيذ الأحكام وحمل الدّائنين على القبول بتقسيط ديونهم ليتيسّر خلاصها ، فإنّ كل ذلك لم يجد الزاوية القادرية بنفطة نفعا ، فتمّ التّفريط في العديد من الأجنة التي كانت على ملكها بالبيع .

أنّ ما يؤكّد فداحة الأزمة المالية التي حاقت بالزاوية القادرية بنفطة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، هو أنّ محمد الطيّب بن ابراهيم نفسه طالب - في صائفة 1898 ، أيّ بعد حوالي

شهر فقط من تخريبه بقتلة المركيز ديموريس وتسليمهم للسلطات الفرنسية في تطاوين - بإعفاء زاوية نفطة بالذات من دفعها للأداء الموظف من قبل الدولة على النخيل ، مع العلم وأنه علّل طلبه المذكور بالخدمات التي قدّمها للسلطات الفرنسية بإيقافه لقتلة المركيز المذكور⁽⁹³⁾ ، ممّا يؤكّد الضائقة المالية الخائفة التي كانت عليها - آنذاك -زاوية ابراهيم بن أحمد الكبير القادرية بنفطة ، والتي قد تكون دفعت ابنه محمد الطيّب المذكور الى القيام - كما أوضحنا - بمهمة جلب قتلّة المركيز ديموريس من أعماق الصحراء رغم الأخطار الجسيمة المحدقة بذلك ، خصوصا وأن زوجة المركيز - كما أشرنا - وعدت بمبالغ مالية مهمة لمن يأتيها بقتلة زوجها ، كما أن السلطات الفرنسية نفسها وعدت بمناصب إدارية لمن يقوم بذلك ، وهي كلّها مغريات تزامنت مع أزمة مالية خائفة لزاوية والد محمد بن الطيّب ، فلا غرابة أن يكون كلّ ذلك وراء اغرائه بالقيام بالمهمة ، خصوصا وأنّ الرجل التقى - كما سبق وأن ذكرنا - البارون جون دو قال - أحد أقرباء أرملة المركيز ديموريس - واستلم منه رسالة من المركيزة المذكورة ومبلغ عشرة آلاف فرنك مكافأة له على مهمته ، وهو مبلغ معتبر كان بالإمكان أن يخفف من حدة الضائقة المالية لزاوية أبيه بنفطة ، لكن أمام - كما أوضحنا - ضغط الصحافة الفرنسية آنذاك اضطرّ محمد الطيّب المذكور الى ارجاع المبلغ ، وبذلك يكون الشيخ المشار اليه ، ليس فقط قام بمهمة إيقاف وجلب قتلّة المركيز مجانا ، وإنّما حرم من نيّله للمبلغ الموعود به ، رغم حصوله - كمذكرنا - على نيشان الافتخار ومنصب "آغا شريف".

الخاتمة :

رغم إبادة سكّان الصحراء لأغلب المستكشفين الذين مثّلوا في غالب الأحيان الطلائع الأولى لجيوش الاحتلال الفرنسي ، فإنّ عدّة عوامل مكّنت هذه الأخيرة من التقدم جنوبا في عمق الصحراء الجزائرية: فبعد أن كان التوسّع الفرنسي - في بداية النّصف الثّاني من القرن التاسع عشر - قد وصل الى مشارف الحدود الشماليّة للصحراء الجزائرية ، فإنّه تمكّن - في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين - من " احتلال عين صال ، واحات تيدكلت ، قورارة ، الثّوات ، ايجلي ، تيميمون ، فيقيق ، شاروين ، تالمين وبني سمير في الجنوب الوهراني، واستحدثت قيادة عسكرية لجنوب الجزائر الصحراوي عام 1902 ، اتّخذت عين صالح مقراً لها...."⁽⁹⁴⁾ ، وبذلك أمكن للفرنسيين الاقتراب من مواطن التّوارق ، والتفرّغ لإخضاعهم حتى تخلص لهم الصحراء نهائيا : فكانت معركة تيت (Tit) الشهيرة سنة 1902: ذلك أنّه بعد الاستيلاء الفرنسي على عين صالح ، و واحات تيدكلت ، ووضعهم لحامية في عين صالح لحماية الواحات والحيلولة دون استرجاع التّوارق لها ، ظلّ الضبّاط الفرنسيون في الحامية المذكورة يتلقّون

خطابات من التّوارق يهدّدونهم فيها بالانتقام ، واسترداد مناطقهم المحتلّة ، وبالفعل نظّموا غارة خاطفة نهبت الواحات ، فما كان من كوفين (Cauvin) – قائد حامية عين صالح – الا أن شجّع على القيام بهجوم مضاد كلّ بقيادته الملازم كوتينيه (Le Lieutenant Cottenest) الذي التحم مع التّوارق في معركة في قلب واحة تيت يوم 7 ماي 1902 " قتل فيها للتّوارق ثلاثة وتسعون رجلا، وأمكن للفرنسيين اقتحام كتلة الأحجار....." (95).

بستى

الكفرة

جبالو

النجوب

بنغازي

طرابلس

نالوت

غدامس

قلايين

فزان

مرقي

غيات

الاشجار

الواق

سلف رضم 1

تخطيط مواقع بعض الأصنام والموارد في الأقاليم





الاحالات والهوامش :

- 1 - تشايجي(عبد الرحمان)، الصراع التركي- الفرنسي في الصحراء الكبرى، ترجمة علي إعزازي، الجماهيرية الليبية، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، 1982، ص 53.
- 2 - بوعزيز(يحي)، "اهتمامات الفرنسيين في جنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبوه ومن استفادتهم من طرق القوافل في غزوها"، مجلة البحوث التاريخية، ليبيا، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، السنة الثالثة، العدد الثاني، (يوليو 1981)، ص 357- 369، ص 360
- 3 - Bernard ,A. et Lacroix ,N. La pénétration saharienne 1830-1906,Alger,Imprimerie Algérienne,1906,p.2,de même, Howe,S., Les Héros du Sahara ,Paris ,Armand Colin,1931,p.5.
- 4 - حول التجارة الصحراوية، أنظر الأماجد بوزيد، الحشايش والتجارة الصحراوية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، تونس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1985، وكذلك Khalifa ,Ch., »Le commerce caravanier au Maghreb et ses mutations au cours de l' ère coloniale »,The Maghreb Review ,Volume 12,numéro 3-4(Mai – Aout 1987)pp.99-104.
- 5 - حول أهم الأماكن ، ومواقع استقرار بعض القبائل المذكورة في هذا الدراسة ، أنظر الملحق رقم 1.
- 6 - تشايجي ، المصدر السابق ، ص 56
- 7 - ولد في 1856/4/22، تخرج من مدرسة سان سير سنة 1877، التحق بالمكاتب العربية بالجزائر، شرع- سنة 1855- في استكشاف المناطق الممتدة جنوب الجزائر ونهر النيجر، قتل يوم 1886/2/21 غرب عين صالح، أنظر Faucon ,N. ,Le Lieutenant Palat :son exploration et sa mort tragique ,Alger ,Auguste Albrecht,1886.
- 8 - Ibid.,p.11.
- 9 - ولد سنة 1858 ،درس بالمدرسة العسكرية بسان- سير، عرف بحبه للمغامرات ودعوته الى تطوير التوسع الأنقليزي في القارة الإفريقية ، قام برحلة استكشافية للصحراء انطلاقا من الجنوب التونسي لقي حثفه إثناءها سنة 1896 ، حوله أنظر Martel ,A., Les confins saharo- tripolitains de la Tunisie(1881 – 1911),Paris,PUF,2T.,1965,T.1,pp.681 – 683.
- 10 - حول رحلته الاستكشافية ، أنظر Ch., Le Delahaye ,Les assassins et les vengeurs de Mores,Paris,2T.,1906, de même, Droulers , Marquis de Mores 1858 – 1896,Paris,Plon.
- 11 - Ibid.,T.2,p.20.
- 12 - Ibid.
- 13- أنظر أهم تلك الدراسات والبحوث في بوعزيز ، المقال السابق ، ص 369 وما بعدها.
- 14 - حول دور بعض الطرق الصوفية في حماية مستكشفي الصحراء الإفريقية ، أنظر مقالنا ، "دور بعض مشايخ الطرق الصوفية في مساعدة الفرنسيين على استكشاف الصحراء الإفريقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 53 – 54 (جويلية 1989) ، ص 143 – 178 .
- 15 - El-Hachaichi , Med. Ben Otsmane ,Voyage au pays des Sénoussia à travers la Tripolitaine et les pays Touareg ,traduit par V.Seres et Lasram ,Paris ,August Challamel,1903,p.175.
- 16 - Ibid.,p. 183
- 17 - Rinn ,L., Nos frontières sahariennes ,Alger ,Adolphe Jourdan,1886,p.11.
- 18 - Ibid
- 19 - أنظر أمثلة عن ذلك في مقالنا المذكور سابقا، ص 150 وما بعدها.
- 20 - Institut Supérieur de l'Histoire de la Tunisie Contemporaine(I.S.H.T.C.),Fonds Quai d'Orsay, Nouvelle Série(N.S.),1882 – 1919,bobine(bob.)P39,Carton(C.)77,Affaires Mores I(3/1896 – 7/1896),Rapport sur l'expédition du Marquis de Mores, daté du 23/5/1896,folio(f.)39 – 54,f.39.
- 21 - Ibid. Télégramme du Résident général(R.G.)à Tunis au Ministre des affaires étrangères ,Tunis, le 30/3/1896,folio(f.)3
- 22 - Ibid., Rapport sur l'expédition.....,f.41.
- 23 - Ibid.,f.45.
- 24 - Ibid. ,Mores au R.G., le 23/4/1896,f.7.

25 - اعتبرت من أهم الطرق الصوفية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث أمكنها في مدة وجيزة الانتشار في عدة أنحاء من القارة الإفريقية ، وأن توجد لها عدة زوايا في غدامس ،غات ومرزق، حيث عدت أكثر الطرق الصوفية انتشارا خصوصا بين سكان الصحراء، كما كان لها نفوذ روحي على قبائل الأمازيغ والهقار من التوارق ، اذ كانت زواياها منتشرة في برقة و طرابلس ، وعلى طريق غدامس وفي الفزان ووحدات جالو، أوجله والجغبوب وكذلك في افريقيا الوسطى والغربية، حول ذلك أنظر مقالنا السابق الذكر، ص 147.

26 - I.S.H.T.C. ,Fonds Quai d'Orsay.....,Rapport sur l'expédition du Marquis de Mores ,Tunis, le 23/6/1896,f.39.

27 - ولد في 1855/6/12 ، دخل جامع الزيتونة سنة 1870 ، فتحصل على شهادة التطويع وانتصب للتدريس به، عرف بحبه للتجوال والاستطلاع ، استفاد منه المستشرقون وخاصة منهم الفرنسيين الذين استغلوا مواهبه ومعلوماته وخبرته، توفي سنة 1912 ، حوله ، أنظر الحشاشي محمد بن عثمان التونسي ، رحلة الحشاشي الى ليبيا(جلاء الكرب عن طرابلس الغرب)، تقديم وتحقيق علي مصطفى المصري، دار لبنان للطباعة والنشر، ط.1، 1965، ص 27 – 14 .

28 - المرزوقي (محمد) ، صراع مع الحماية ، تونس ، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل ، 1973 ، ص 120.

29 - El-Hachaichi ,Op.Cit.,p.83.

30 - I.S.H.T.C.,Fonds Quai d'Orsay.....,Rapport sur l'expédition.....,f.47.

31 - Ibid. ,. ,Fond Quai d'Orsay.....,bob.P39,C.77,Télégramme , daté du 7/5/1896 ,f. 9.

32 - Ibid.,Rapport sur l'expédition.....,f.47

33 - Ibid. , Le R.G. à Tunis au Ministre des affaires étrangères françaises , le10/6/1896 , f. 21.

34 - Ibid. , Télégramme daté du 18/6/1896 , f.29 .

35 - أنظر ما جاء فيه في

Rapport du R.G. à Hanotaux ,Ministre des affaires étrangères françaises, le 25/7/1896,f.165 – 179.

36 - Ibid. , Rapport sur l'expédition du Marquis de Mores , le 23/6/1896 , f.39-54 ,f.50.

37 - Ibid. Télégramme daté du 18/6/1896 ,f.29.

38 - Ibid. ,Rapport sur l'expédition,f.50.

39 - نذكر منهم – على سبيل المثال – كل من صالح بن عيسى كباش ،(أنظر ما جاء في استنطاقه في

bob.39,C.78.,Le R.G. à Hanotaux,Ministre des affaires étrangères françaises ,le 29/7/1896,f.7-29.)

وكذلك الرنحي المدعو صالح بن العتري ، حول ما جاء في استنطاقه ، أنظر

du même au même , le 19/8/1896,f.54 – 59.

40 - Ibid., le R.G. à Tunis au Ministre des affaires étrangères françaises, le 17/6/1896,f.26.

41 - Ibid. Télégramme , du même au même ,le 26/6/1896,f.108.

42 - El-Hachaichi , Op.Cit. ; p.83.

43 - I.S.H.T.C., Fonds Quai d'Orsay , bob. P.39, C77,....,Note datée du 8/7/1896 , f.149.

44 - تجدر الإشارة الى تعض الجثث وصعوبة التعرف على هوياتها ليس فقط للمدة التي مرت عليها في الصحراء ، وإنما كذلك للإصابات العديدة التي كانت تحملها والتي أشار اليها تقرير الطبيب الشرعي ، حول ما جاء فيه ، أنظر

le R.G. à Tunis à Hanotaux ,Ministre des affaires étrangères françaises, le 25/7/1896,f.180 – 196.

45 - Ibid. ,Le R.G. à Tunis au Ministre des affaires étrangères françaises , le 8/7/1896 , f.147.

46 - Droulers,Op.Cit.,p.240.

47 - Ibid. p.241.

48 - Bernard et Lacroix, Op.Cit.,pp. 90 – 94.

49 - أنظر النص الفرنسي لها في

Plaidoiries de Mr De las Cases et de Mr. Broussais pour Mme La Marquise de Mores ,Le Crime d'El-outia ,assassinat du Marquis de Mores ,Paris , Typo. Plan- Nourrit , p.7-8 .

50 - Ibid,p.8.

51 - I.S.H.T.C.,N.S.,bob.187,C.79, Affaire Mores III (8/1898 – 9/1902) , Note datée du 21/8/1898,f.19.

52 - Ibid.,bob.P39,C.77,Affaire Mores I ,(3/1896-7/1896),Med El-Hachmi ben Brahim - Naib des Kadria à Oued- souf – au Capitaine Chef du bureau arabe d'El oued, le 5/7/1896 . f. 197 .

53 - Ibid.,....,bob. 187,C.79,Affaire Mores III , La capture des assassins du Marquis de Mores ,rôle d'Ali Zmerli ,récit du Cheikh El-Hadj Med Taieb ben Brahim ben Ahmed Echerif – Naib des Kadria de Ouargla - (traduit de l'arabe),f.53 .

54 - Ibid. ,.....bob.P.39,C.78, Affaire Mores II (7/1896 – 8/1898), Med Taieb ben Brahim au Général commandant la subdivision de Laghouat , le 1/7/1898 ,f.184 .

55 - Ibid. Le Chef d'escadrons d'Assailly ,Commandant supérieur du Cercle de Médenine ,au Générale commandant à Gabes, le 30/6/1898,f.168.

56 - Ibid., Le Chef d'escadron d'Assailly – Commandant supérieur du cercle de Médenine au Général commandant militaire , le 30/6/1898 ,f.169, de même Droulers , Op.Cit. , p.245.

57 - Droulers ,Op.Cit.,p.247, de même Martel,Op.Cit.,T.1,p.721.

58 - المرزوقي ، المرجع السابق ، ص 392 ، وكذلك

Droulers , Op.Cit. , po.248 .

59 - Ibid.,p.245.

60 - I.S.H.T.C.,..... ;bob.187 ,C.79 , Affaire Mores IIIf.21 .

61 - أنظر مثلاً

« Le bon chaambi » , Le Figaro , numéro 235 , du 23/8/1898,p.1.

62 - Droulers , Op.Cit. ,p.246 , de même Martel, Op.Cit. ,T.1 , p.717.

63 - I.S.H.T.C. ,bob.187 , C.79 ,..... ; Le Gouverneur général de l'Algérie au Ministre des affaires étrangères à Paris , Alger , le 8/9/1898 ,f. 41 .

64 - Ibid. , Note datée du 20/12/1898 .

65 - Martel Op.Cit. ,T.1 ,p.721 .

66 - I.S.H.T.C.,bob.P.39 , C.78 ,..... ;Le Chef d'escadron d'Assailly – Commandant supérieur du cercle de Médenine au Général Commandant militaire ; Médenine , le 3/6/1898 ,f.70 ; de même Barry ,G. « Voyage du Cheikh sidi Med Taieb ben Brahim – Naib de l'ordre d'él- Kadria d'Ouargla à Ghadamès et à Ghât »,Recueil des notices et mémoires de la Société Archéologique du Département de Constantine , Volume 48 , 1914 ;pp255 – 264 , p.255.

67 - Ibid. ,f. 193 .

68 - Ibid. f.190 191.

69 - Ibid. f.192.

70 - Ibid. ,Plan de Ghât et ses environs ,fait d'après le croquis du Sheikh Med Taieb ben Brahim – Macadam el – Kadria -,f.194 ,2 ,أنظر الملحق رقم 2

71 - Ibid. , Voyage du Cheikh Medf.192-193 ; de même Barry ,Op.Cit.,p.255 .

72 - « La mort du Naib d'Ouargla » ,La Dépêche Tunisienne , du 3/4/1901

73 -Droulers , Op.Cit. ,p.246.

74 - Ibid. , de même « la mort du Naib..... »

75 - أبو زيد قصيبة(أحمد) ،"ابن ناصر بن شهرة أحد أبطال ثورة 1871 " ، مجلة الأصالة (الجزائر) ، عدد 6(جانفي 1972) ، ص 54 – 64 ، ص 58.

76 - بوعزيز ، "أضواء على ثورة أولاد سيدي الشيخ (1864 – 1873)" ، مجلة الثقافة (الجزائر) ، عدد46 ، (أوت – سبتمبر1978) ، ص 11 – 32 ، ص 24 .

77 - قصيبة ، المقال المذكور سابقا ، ص 62 .

78 - Bachrouch, T., Le Saint et le Prince en Tunisie, Tunis ,Publications de l'Université de Tunis, 1989 ,p.205 .

79 - Archives nationales de Tunisie, Série D ,C.97 ,dossier 3, »Confrérie des Kadria « ,pp.4-5.

80 - ابن النّوري (محمد الطيّب)، الجريد قبيل انتصاب الحماية الفرنسية(1840 – 1881) ، شهادة التعمّق في البحث ، مخطوطة ، تونس ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، 1987 ، ص 210 – 211

81 - من ذلك مثلا ما حاق ببعض زعماء ثورة الأوراس سنة 1871 ، حيث حكم – يوم 1873/4/19 – على – سي عزيز – الابن الأصغر للشيخ الحدّاد بالنفي، ويوم 1873/8/14، عدّل الحكم على أخيه الأكبر – الشيخ محمد – بنفيه هو الآخر مع أخيه سي عزيز، إضافة الى أحمد بومرزاق شقيق الباش آغا المقراني ، أنظر ذلك بالتفصيل في بوعزيز ،"عودة الى نهاية حياة الشيخ عزيز بن الحدّاد في المنفى"، مجلة الثقافة ،عدد 96(نوفمبر – ديسمبر 1986) ن ص 117 – 137. د

82 - أنظر أمثلة عن ذلك في بوعزيز "مواقف الرّسميين التونسيين من ثورة الصبايحية والكلبوطي في منطقة الحدود الشرقية عام 1871" ، مجلة الأصالة ، عدد 61/60(أوت – سبتمبر 1978) ، ص 157 – 202.

83 - بعد أن كان للعديد من مشسائخها الدور البارز في قيادة العديد من الثورات في الجزائر بالخصوص في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أصبحت للبعض منهم بعد ذلك مواقف مهادنة بل وولاء للاستعمار وتقديم خدمات تخدم مصالحه في البلاد ، كما كان الشأن مثلا بالنسبة الى ابراهيم بن الحاج محمد بن بلقاسم - أخ شيخ زاوية الرحمانية بالهامل الذي تطوَّع - طيلة الحرب العالمية الأولى - ضمن فيلق الصباحية الجزائريين ، حيث تمَّ توظيف "هيبتة ونفوذ" في الرِّفْع من معنويات الجرحى من العساكر المسلمين المعالجين آنذاك في المؤسسات الاستشفائية بفرنسا ، وهي خدمات أهلتَه لنيل "وسام الافتخار"، كما تمَّ استقباله من طرف الرئيس الفرنسي نفسه آنذاك ألكسندر ميلران، لتتمَّ - في الأخير تسميته "قائد"، أنظر،

Meynier, G., l'Algérie révélée, la guerre de 1914-1918 et le premier quart du XXème siècle, Genève, Librairie Drez, 1981, p.270.

كما أنَّ الباش آغا المقراني "ابن" الشيخ المقراني الذي قاد ثورة الأوراس سنة 1871 ، تطوَّع كذلك في الحرب المشار اليها ، حيث كان ضمن فرسان بلدة بوسعادة الذين انطلقوا - سنة 1914 - "للدِّفاع عن فرنسا"، الأمر الذي اعتبره -آنذاك- أحد مسؤولي هذه الأخيرة «أفضل برهان على ولاء ووفاء أهالي الجزائر» على حدِّ قوله أنظر،

« Le fils de Mokrani », La Dépêche Tunisienne, du 2/9/1914, p.2 - 3 .

في نفس الإطار، يمكن كذلك الاستدلال أيضا بالمدع بومرزاق الوانوعي المقراني الابن الآخر لزعيم انتفاضة 1871 : ذلك أنَّ رغبة فرنسا في الإحاطة "الدينية والاجتماعية" على جبهات القتال بالمجندين المغاربة في الحرب الأولى حثَّ عليها - تنفيذًا لقرار وزير الحرب الفرنسي الصادر في 1915/4/27 - توجيه سبعة أيمَّة الى الحكومة العسكرية بباريس لوضعهم على دَمَّة مختلف الفياق العسكرية الفرنسية ، فكان ممَّن وقع عليه اختيار الوالي العام للجزائر الرجل المشار اليه، والذي كان آنذاك مفتيا لمدينة الأصنام ومدرِّسا بها ، بالإضافة الى المسمَّى عبد الرَّحمان القطرانجي الذي كان هو الآخر يشغل حِطَّة عدل بالمحكمة المالكية بمدينة الجزائر، مع العلم وأن المذكورين سلَّما مسؤولية امامة الجامع الذي "نوجان سير مارن" Nogent-sur-Marne شيدته فرنسا في ، والذي أفتتح عشية دخول رمضان يوم 1916/4/14 ، علما وأنَّ الرجلين استغلاَّ منبر الجامع المشار اليه في التَّمين لفرنسا ، والدَّعاء لها بالنصر في الحرب، كما وظَّفتها فرنسا في الردِّ على كتاب الجزائري رابح بوكبَّوية الموسوم بـ "الإسلام في الجيش الفرنسي"، (بالفرنسية) حيث جاء رَدُّهما تحت عنوان "الإسلام في الجيش الفرنسي: ردُّ على أكاذيب" (بالفرنسية)، مع العلم وأن المقراني المشار اليه ، فضلا عن الامتيازات التي نالها "مكافأة" له على خدماته ، تمَّ كذلك توظيفه من قبل الاستعمار الفرنسي في حثِّ أبناء العائلات المتنفذة في الجزائر على الانخراط في الخدمة العسكرية في صفوف الجيش الفرنسي، فقبل القيام بجولات دعائية في جهات "أورليون فيل" وبوسعادة وخصوصا ضمن "أبناء صفه" المنتمين للطريقة الرَّحمانية ، مع العلم وأنَّ السلطات الاستعمارية - مساهمة منها في انجاح مهمَّته - مكَّنته من التنقُّل مجانا على خطوط الشبكة الحديدية الجزائرية ، وكذلك على متن السفن ، فضلا عن مبالغ مالية بعنوان "تعويض سفر"، وبذلك شرع المقراني - بتاريخ 1918/1/26 - في مهمَّته التي راهنت عليها سلطات الاحتلال في الزَّيادة في عدد المجندين المسلمين من الجزائر، لذلك لا غرابة أن يطلب المقراني - مقابل ذلك - تمكينه من أراضي توجد بدائرة قسنطينة ، أو كراوها له بثمن بخس ، وهو ما وافق عليه الوالي العام للجزائر، شريطة أن يمنح تلك الأراضي بجهة البيان (كلَّ هذه القضايا وغيرها ، هي - حاليا - محلَّ اهتمام من قبلنا في اطار كتاب نحن بصدد اعداده حول : "العهد الإسلامي وجامع باريس : الإسلام من منظور فرنسي (1922 - 1939) ، نأمل أن يرى النور قريبا)

84 - I.S.H.T.C., N.S., bob.187, C.79, Affaire Mores III , Note datée du 21/8/1898, f.21.

85 - A.N.T., Série D, C.4, Med et -taib ben Brahim - Chef des Kadria d'Ouargla - au Capitaine d'État-major , attaché militaire à la Résidence générale française à Tunis , le 24/7/1898.

86 - I.S.H.T.C., N.S., bob.187, C.79, Note datée du 21/8/1898, f.19.

87 - لم يكن ذلك شأن - كما أشرنا - محمد الطيب بن ابراهيم فقط ، وأنَّما كذلك شأن مثلا محمد بلعبَّاس شيخ القادرية بزاوية المنيعية بالأوراس الذي كان أفضل وسيلة للسلطات الاستعمارية ضدَّ الثوَّار في المنطقة المذكورة ، حتى أنَّ ابنه قتل في صفوف الجيش الفرنسي ، كل ذلك لأنه كان قائدا أنظر

Dépoint, O. et Coppolani, X., Les Confréries religieuses musulmanes en Algérie, Alger, Adolphe Jourdan, 1897, p.264.

88 - ففي "ثورة أولاد سيدي الشَّيخ" مثلا، وبعد ابعاد السلطات الفرنسية لسي حمزة - زعيم العائلة المذكورة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الى وهران بعد أن رأت منه فتورا في خدمة سياستها التوسَّعية - (أنظر تفاصيل ذلك في بوعزيز، "أضواء على ثورة أولاد سيدي الشيخ)، عيَّنت أخاه سي النَّعيمي قائدا على اثني عشرة قيادة ، فما كان منه الا أن تعقَّب الثوَّار، لكن بعزله بعد مدَّة

- وجيزة التحق بصفوف المقاومة) أنظرنفس المقال ، ص 14)، ومجابهة ذلك الوضع ، أفرجت السلطات الاستعمارية على سي حمزة ، وأعادت له الاعتبار كزعيم لأولاد سيدي الشيخ الشرافة استمالة له ضد الثوار، فأبلى البلاء الحسن ، حيث لاحق أخاه سي النعيمي ، وابن عمه محمد بن عبد الله ، ومكافأة له على ذلك عينته سلطات الاحتلال "خليفة" على كل المناطق الصحراوية الممتدة من البيض الى ورقلة ، وهو منصب بقي فيه وفاته (أنظرنفس المقال ، ص 15). كما أعتبر الحط من منصب سي سليمان – ابن حمزة السابق الذكر – من منصب "باش آغا" سببا من أسباب ثورة سي سليمان في فيفري 1864 (أنظر نفس المقال ، ص 17)، وهي الثورة التي تدعمت بانضمام "زعيم أولاد مختار....، الذي عزله الفرنسيون – هو الآخر – من منصبه ... (أنظرنفس المقال ، ص 24)
- 89 - راجع ذلك بالتفصيل في مقالنا ، "الوضع الطرقي بالجريد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 75- 76 (ماي 1994)، ص 301 - 351
- 90 - أنظر مختلف مظاهرها في مقالنا المذكور ، ص 316 وما بعدها
- 91 - أنظر نفس المقال ، ص 329.
- 92 - أنظر نفس المقال ، ص 322 و323
- 93 - A.N.T., Série D , C.102 ,dossier 4, Le Cheikh Med et- taib ben Brahim – Moqadem des Kadria de Ouargla au Général commandant la Division d'occupation de Tunisie, le 29/7/1898.
- 94 - بوعزيز، "اهتمامات الفرنسيين ، ص 368 .
- 95 - Martel , Op.Cit. ,T.2 ,p.219 .

العقلانية الإسلامية والتواصل مع الآخر في منهاج شيخ بوعمران*

بن بوحه أحمد

أستاذ فلسفة.

جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس.

مقدمة :

يُعتبر شيخ بوعمران أحد أقطاب الفلسفة النهضوية الجزائرية المعاصرة ، حيث تشكّل مشروعه الفكري عبر مسيرة طويلة من البحث في أصول العقلانية والفكر الوطني والحوار مع الآخر. لقد قطع الدكتور بوعمران شوطاً كبيراً من الزمن منذ ربيع عُمره إلى وفاته في تأدية مهام علمية وأكاديمية كثيرة بين التدريس والبحث العلمي والاشتغال بوظائف متعددة في المؤسسات الجزائرية منذ الفترة الاستعمارية إلى الفترة الحالية (فترة استعادة السيادة الوطنية)، وهي مهام تتطابق في خطوطها العريضة مع معاني هذا العنوان الذي اخترناه الذي يفي بمسيرة رجلٍ علّم ومعرفة، وخطوط ترتمي بمقاصدها العامة في إطار العمل والنضال والانتصار للعدالة وللعقلانية وللحرية والمسؤولية والإيمان بالله وبالإنسانية ثم الإيمان بحق الاختلاف وبحق التنوع ، بالرغم من أنه قضى جلّ عمره في ظروف تاريخية وسياسية خاصة ، طبعت عليها المرحلة الاستعمارية الفرنسية التي طغت عليها العنصرية والإقصاء ثم مرحلة الاستقلال ومشاكل البناء. رغم كل هذه الظروف ، تميّز بشخصية باحث علمي وأكاديمي يُمجّد العقل والإنسانية معا ويُحيي التراث المفيد ويتفتح لأدوات العصرنة دون تعصب أو ذوبان شخصية وذلك من خلال رؤى وتحليلات متنوعة في كُتب ومقالات عديدة نُجمل منها ما يلي:

- L'émir abd-el-Kader résistant et humaniste. éditions Hammouda, Alger, 2001.

- نظرة شاملة مع لويس غاردي، منشورات سندباد ، باريس، 1984.

- الموسوعة الفلسفية، المنشورات الجامعية الفرنسية، باريس، 1989.

- ومن المقالات : معجم مشاهير المغاربة (عمل جماعي) منشورات جامعة الجزائر، 1995 ومنشورات دحلب الجزائر، 2000.

- وغيرها من المقالات التي جُمعت في كتاب، تحت عنوان : قضايا في الثقافة والتاريخ ، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى ، الجزائر، 2003.

لقد طرَحَ بوعمران في مجمل هذه الكتابات إشكالية وجودية تؤسس للعلاقة بين معنى الإنسانية ومعنى الحرية ، بل ويضمهما معاً ، فلا وجود ولا إنسانية حقيقية بدون وجود للحرية ، فالحرية شرط لممارسة الإنسانية الحقيقية ومبرر وجودها ومبرر حاضرها ومصيرها ، لكن ؛ كيف تتحقق هذه المطابقة بين الحرية وبين الإنسانية في فكر شيخ بوعمران ؟ أو كيف نفهم ونحقق هذه الحرية في هذا الوجود ؟ في وجودنا الاجتماعي والثقافي والاقتصادي وحتى الحضاري المُكَبَّل بالمفاهيم الغالطة والمغالطة والتي كان مصدرها داخلي وخارجي ؟ مصدرٌ داخلي يتمثل في سوء فهمنا لذاتنا ولتراثنا ولثقافتنا ؟ ومصدرٌ خارجي يكمن فيما أقحمه وما كَتَبَه الآخرُ عنا وما نَسَبَه إلينا ؟

لقد تابع شيخ بوعمران الحال الثقافي والوضع الاجتماعي والواقع الجزائري عن كثب، سواءً كان ذلك أثناء الاحتلال أو عند استرجاعه للسيادة الوطنية ، كما تابع معه أيضاً واقع الوطن العربي والإسلامي ومفكره لما فيهما من نقاط تلاقي ونقاط تشابه كبيرة ، وبعدَ فحْصٍ ثقافيٍّ لأوضاع الأمة ، جعله هذا الإلمام في البحث العلمي يتوصل إلى قناعة فكرية وهي : أن مشكلة التخلف التي أصابت الأمة ، ثم سقوطها تحت الاحتلال تعود في شقٍّ كبير منها إلى العقلية التي تتناول بها شعوب هذه الأمة قضايا وفهمها لملابسات الواقع وتحدياته ، وأن الأمر يتعدى ذلك ليصل إلى مستوى عقول بعض نُخب هذه الأمة . إن مشكلة التخلف ومسألة التعامل مع الدين وقضايا المرأة وممارسة السياسة وخيارات الاقتصاد، بل وحتى مشكلة بناء الدولة الحديثة وعلاقاتها بين الدول، هي قضايا ليست بالهيئَة ، أو هي مشكلات لا تُحلُّ بعجالة أو بارتجال، إنها مسألة منهجية ومسألة مضمون في داخل مفاهيم وتصورات متعددة كامنة في أعماق عقولنا ، وكامنة أيضاً في الكيفية والأدوات التي نتناول بها حلّ هذه المشكلات ، وهي أيضاً نتاج لرواسب وإرث استعماري قديم ومتجذر في مجتمعاتنا، إنها مسألة تشخص في القراءة الخاطئة لحلقات التاريخ ، بل وأكثر من هذا ، هي مُشكلة تتطلب إعادة قراءة صحيحة للتراث وللتاريخ ولقضايا الدين ، إنها مسألة تَبَصُّرٍ وتَعَقُّلٍ صحيحين ومُنْصَفِينَ للنصوص الدينية سواء كانت مستسقة من القرآن الكريم أو من السنّة أو من نصوص الفقهاء ، أو من نصوص فرّق وعلماء الكلام والمذاهب، إذن ؛ هي قضية تتشابه خيوطها المعرفية في مسألة عودة أصيلة للنصوص والكتابات وللتاريخ وللمصادر الأولى للمذاهب والفرق الإسلامية وكيفية تناولهم لمعطيات واقعهم ثم كيفية قياس واقعهم بواقعنا ومن ثمة تجاوزه وملائمه الحاضر بمقاربات منهجية علمية مبدعة من خلال إعداد مُجدِّدٍ و وضع استراتيجيات للمستقبل ، و استقصاء حقيقي للتاريخ ، بعيداً عن تأثير الإيديولوجيات المسبقة ⁽¹⁾ ، إنها مسألة غوص كذلك في فكرٍ ومناهج الآخر دون الذوبان فيه ، حيث كان يرى بوعمران أهمية نسبية في المذاهب الفكرية مثل البنيوية والشخصانية والماركسية والوجودية ، " فنحن نقلدها حتى عندما يتم تجاوزها في موطنها الأصلي ويبدو

له أنه شيء طبيعي لأننا مازلنا في مرحلة التقليد والترجمة وهذا شبيه بالعصر العباسي الأول، يقول بوعمران : أن الشيء الذي أبحث عنه هو استقلال الفكر العربي الإسلامي عن كل هذه المدارس الفكرية الغربية مع الأخذ بكل الآراء المفيدة التي جاءت بها هذه المدارس⁽²⁾، ولما كان الأمر كذلك ، كانت بداية الفحص والتنقيب عند بوعمران مُوجَّهةً نحو إعادة تشكيل منهجي من جديد للعقل العربي وللعقل الجزائري بالخصوص ،أي الرجوع إلى جذور هذا العقل وحضرياته ، لِمَا يُشكِّلُه العقلُ الجزائري من ترابط مع العقل العربي والإسلامي عبر التاريخ، ولما عايشه الشعب الجزائري من ظروف للاحتلال وما قدّمه من مقاومات لفترات غزو واحتلال كثيرة على امتداد الزمن، منذ المقاومة الدونانية ❖ التي عمّت بلاد نويميديا وموريطانيا الوسطى وهما الجزائر الحالية⁽³⁾، إلى غاية الاحتلال الفرنسي الذي قارب مدة 132 عاما .

يمثل العقل والتعقل عند بوعمران أحد شروط ممارسة الإنسانية الحقيقية وأحد شروط فهم مشكلات الحاضر والتأسيس للمستقبل ومن ثمة القدرة على مواجهة ومحاورة الآخر، ومن هنا نلاحظ هذا التلازم والترابط العضوي بين المفاهيم الثلاثة : مفهوم الحرية ومفهوم العقل ومفهوم الإنسانية في فلسفة بوعمران، ترابطٌ عضويٌ يجعل كل واحد من هذه المفاهيم سببا لإنتاج المفهوم الذي يليه، يتفاعل معه ليحلّ ويفكك عُقد وملابسات وجودنا الذاتي وما يحمله من أزمات ، ويسطرّ معالم علاقتنا بغيرنا وما يشوبها من سوء فهم و من تزييف ومن مغالطات.

إن التماس معالم ودلالات العقلانية في فلسفة بوعمران كثيرة ، ولعلّ أوّل مؤشر نلاحظه على معاني العقل ثم معاني محاورة الآخر في سيرة ونهج بوعمران نلمسه في اختياره لعنوان رسالته في أطروحة الدكتوراه ، ثم في اختياره لموضوعها وفي إشكالياتها الكبرى وكذلك منهجها وأبوابها الخمسة ومقارباتها وحتى مقرّر مناقشتها وفي الغاية النهائية منها. لقد وسمّ رسالته بعنوان هو: مُشكلة الحرية الإنسانية في الفكر الإسلامي، (الحلّ المعتزلي)، وهي مكتوبة أولاً باللغة الفرنسية: Le problème de la liberté humaine dans la pensée musulmane, (solution mu'tazilite) ولأنّ مقرّر مناقشتها كان في جامعة السوربون الباريسية بفرنسا سنة 1974م ، فقد حمّل تقديم هذه الأطروحة أكثر من دلالة ، حيث كان دفاعاً حقيقياً عن قضية معرفية واجتماعية ، كما كان إحياءً منه لموقف فلسفي عربي إسلامي أصيل تعرّض لكثير من التشويه والالتباسات، سواء كان مصدرها بعض المستشرقين أو من قبل بعض أهالي الثقافة العربية والإسلامية.

لقد كان اختياره لمشكلة الحرية بطابعها الكلّي الشامل المطلق عند الإنسان يرمي إلى فك أحد المُشكلات القديمة والمتجددة في فكر الإنسان، مهمّا كان جنس هذا الإنسان ، بتنوع أصله وثقافته ومعتقداته ، وكان الغرض منه بيان أن الرؤية العلمية والعالمية للفكر الإسلامي- والتي تُشبه القانون- ترى في

الإنسان نموذجاً واحداً دون تمييز وفي مختلف الأزمنة وكان كذلك في اختياره للمذهب المعتزلي وللحل المعتزلي كنموذج للمواقف وللفرق الكلامية الإسلامية المختلفة. لقد كان في ذلك انتقاءً مقصوداً لبسط وحلّ مثل هكذا قضايا تتميز بالشوك والعقد ، بل وتتميز كذلك في جانب موازي لها ببعض الحلول الشائعة والمغلطة لها والتي لا ترتقي إلى مستوى الموضوعية والأمانة العلمية المطلوبة، وعليه يصل نموذج الحلّ المعتزلي عند بوعمران إلى مستوى السند والملمه لأفكار وطروحات ابن رشد أبو العقلانية العربية إبان العصور الوسطى الأوروبية وملهم التنوير والحداثة الأوروبية المتحررة من ظلمات المسيحية المترتبة ، وكان في هذا الرجوع تحدياً وأصالة منه لبعث العقلانية المحلية وتجديداً للتراث، وعودة مُجددة لاستقصاء التاريخ العربي الإسلامي وكذلك الحاضر والمستقبل في عاصمة النهضة الأوروبية باريس التي تفتخر بعقلانية ديكارت وحرية فولتير والعقد الاجتماعي لدى روسو وروح القوانين عند مونتسكيو، فكان دفاع بوعمران نزيهاً يرمي إلى إعادة الاعتبار لعلاقات الإنسان بالإنسان والطبيعة⁽⁴⁾.

لقد ترجمت هذه الرسالة - بمشكلتها الأساسية المطروحة - واقعاً تاريخياً وفلسفياً وثقافياً جدّ حساس لما حملته من مرارة السجلات المذهبية والفكرية التي عاشتها الشعوب الإسلامية والعربية بسبب سوء فهمها لقضية الحرية وإرادة الإنسان وواجباته الوجودية، فكانت بحق رافعة نقاش لأطروحة جدّ دقيقة ولموضوع جوهري من عمق فلسفة وتاريخ الأمة الثقافي والحضاري الذي كان عرضة لتشويه المفاهيم وتزييف الحقائق ، وكان أيضاً موضع مدّ وجزر محتدم بالمواقف المذهبية والفقهية والسياسوية الملتبسة التي تدعو إلى شلّ حركة الإنسان والاستسلام إلى القضاء والقدر وإلى الجبر والاحتمالات. أما عن قراءته للتراث وعلاقته بمسألة المنهج ، يرى بوعمران أن المنهجية الممتازة لدراسة التراث هي المنهجية العقلية وهي تتوفر عند المعتزلة لذلك " كانت هي اختياري في موضوع مذكرتي، كما توجد مناهج عند مدارس أخرى ، عند السنية والأشاعرة وهي مدارس لازلت ممتدة في فكرنا إلى يومنا هذا بأشكال مختلفة ؛ يقول الشيخ بوعمران " ⁽⁵⁾.

لقد قدّمت رسالة بوعمران مؤشراً قوياً للدلالة في الدفاع عن أطروحة العقلانية المعتزلية الوسطية المغيبة حالياً في واقع المجتمعات العربية الإسلامية، وهي عقلية جعلت الباحثين الغربيين يصفونهم - أي المعتزلة - بـ " المفكرين المتحررين في الإسلام"، ورغم تبنيهم لمواقفهم في هذه الأطروحة، رأى بوعمران في هذا النعت شيئاً من المبالغة عليهم ، إذ رأى فيهم - وهذا حسب وجهة نظره - أنهم أصحاب النظرية الوسطية بين نظريتين متناقضتين؛ الأولى تنفي الحرية نفيًا مطلقاً والثانية تقول بالحرية الشاملة⁽⁶⁾ ، فكانت بذلك عودة علمية موضوعية ترمي إلى تثمين وكشف ما في عمق التراث من مشكلات ومن حلول معقولة ووسطية لأهمّ القضايا الوجودية والإنسانية، لقد كانت رسالة عميقة المقاصد في ناحية راهنية

الأطاريح الفكرية والفلسفية وشدة الحضور الثقافي الإسلامي الأصيل المدافع عن دور وإرادة الإنسان المحورية وعن قدرته في هذا الوجود واختياراته وتحمله مسؤولياته أمام نفسه وأمام المجتمع وأمام الله ، يقول بوعمران : " وحتى أضمن لدراسة هذه المشكلة ما تستحقه من العناية ركزت في بحثي على مدرسة فكرية معينة وهي مدرسة المعتزلة وتتبع تطور قضية الحرية الإنسانية منذ بداية المعتزلة وانتشار آرائهم في المشرق والمغرب وقد اخترت المعتزلة لأنهم سبقوا غيرهم فوضعوا مشكلة الحرية في وضعها الصحيح " (7).

لقد جمعت الرسالة بين العقل والنقل، بين الإيمان والعلم اللذان يستندان وينتصران للمواقف المعتزلية التي لاقت تأويلات خاطئة وهذا يعود حسب بوعمران إلى انتشار الفكر المعتزلي من مصادر غير مصادره الأصلية الحقيقية ، فكان عرضة للتشويه والتحريف ونقله بصفة سلبية ، بخاصة ما كتبه خصومها، منهم الأشاعرة وغيرهم، و "من الخطأ أن نعتد حديث الخصوم (مثل الأشعري ، والبغدادي صاحب الفرق بين الفرق) يقول بوعمران " (8) وعليه ، كانت غاية الرسالة هي إعادة بعث الفكر المعتزلي على حقيقته التوفيقية بين المعقول والمنقول؛ معقول يُفسر المنقول ويؤوله قدر المستطاع ولا يُحرّفه ، ومنقول يلتزم بصريح النص ويلاءم الفطرة والعقول؛ فكر معتزليّ أساسه العدل والتوحيد ، وما يحمله هذا الأساس من رفض للاستبداد السياسي في العصر الأموي الذي كان يُروّج إلى تبرير القضاء والقدر (9)؛ يقول بوعمران : " إن مفهوم الحرية واضح في القرآن الكريم فقد ورد في 46 آية إلا أن هنالك معاني مغايرة للحرية تفيد إقرار القوانين الإلهية العامة " (10).

لكن ما هي مبررات عودة شيخ بوعمران للتراث وماهي أهميتها ووظيفتها في سياق ظروف ومعطيات الواقع المعاصر الذي يفيض بالنظريات والمذاهب والمناهج مثل الماركسية والبنوية والوجودية وغيرها ؟ كيف يمكن للفكر الإسلامي والتراث العربي الإسلامي عموماً أن يتعامل مع الماضي الثقافي ؛ حيث أصبح يُشكّل في الثقافة العربية المعاصرة عنواناً بارزاً لما يُسمّى بـ : " إشكالية التراث " ، وهي الإشكالية التي شغلت الخطاب العربي المعاصر بجميع تياراته ؟ وكيف يُمكن الاقتراب من إشكالية التراث في ظل التأويل الإيديولوجي للتراث وقلة المقاربات العلمية له ؟ فكانت إجابة بوعمران: أن التعامل مع التراث لا يختلف عنه في بلدان أوروبا وبعض الأقطار الإسلامية المعاصرة ويمكن أن نُلخص الموقف من التراث في مواقف ثلاثة : موقفٌ سلبيّ يرفض التراث جملة وتفصيلاً وموقف ثاني يُعاكس الموقف الأول، وموقف ثالث يبدو لي سليماً يدعو إلى غربلة التراث على أساس الأهمية وفائدته الحالية، إذ تجب أن تكون قراءة متأنية للتراث (11).

إن معطيات الحاضر ورهانات المستقبل هي التي تستدعي العودة من جديد إلى التراث والاستئناس به ، وإلى إعادة قراءته لأجل التحضير لاستراتيجيات مقبلة تجعلنا نوثق الصلة مع الفكر العقلاني الحر كنموذج فقط لمواجهة تحديات الحاضر والمستقبل ، ومن خلال هذه العودة والقراءة ، يمكن إعادة تشكيل

وصياغة معنى الحتميات والضرورات بكيفية عقلانية وفلسفية شاملة ، تُضَع مفهوم السُّنن والقوانين العامة التي تَحْكَم الوجود الميتافيزيقي وحتى الفيزيقي والوجود الاجتماعي في إطاره الصحيح الذي يدل على الحتميات الكبرى أو يدل على إرادة الخالق المُدبِّر المتصرف فوق إرادة الإنسان وحرية ، وهي نصوصٌ ومفاهيمٌ تدلُّ في على هيمنة وسيطرة الإرادة الإلهية المهيمنة والمسخرة لهذا الكون لصالح الإنسان والواجدة للأهداف والنظم والمُسطرة لها سَكفاً لغاية وتأدية رسالته ، ولا خللَ في ذلك ، إن فهم هذه الرسالة أو الخلافة في إطارها الصحيح هي التي تُعيد طرح مسألة الحرية من جديد وفي قالب إنساني وحضاري ، تُعيدُها في شكل طرح مسؤول ومعقول يوافق مقاصد النص المنقول ، إذ يُمكن صياغة هذا الإشكالية في السؤال التالي : أين تكمن و تتحدد حرية الإنسان داخل هذا النظام المهيأ المُعدُّ من قَبْل وسكفاً على وجود الإنسان ؟ أين هو مجال حركة وإرادة الإنسان ؟ أين هي مهامه وأين هي مسؤولياته ؟ وما هي حدودها ؟

يذكر بوعمران تأكيد جمال الدين الأفغاني وهو زعيم النهضة الحديثة على حرية الإنسان لأن فكرة الجبر مصدرها الزنادقة في القرنين الثالث والرابع للهجرة⁽¹²⁾، كما رفض بوعمران تقزيم المسؤوليات الخاصة بالإنسان ورفض اختزال إرادة الإنسان وشلها باسم القضاء والقدر والفهم الغالط والمغالط لإرادة الله التي منحت مجالاً خصباً لعقل الإنسان ولخيالته ولحركته ، وهو الفضاء الحر الواسع الذي يُسأل عليه الإنسان فيما يُقدمه من أعمال ومواقف أمام سلطة المجتمع وأمام ضمير الإنسانية ، ويُسأل عليه أيضاً في مصيره الأخروي باعتباره إنساناً مؤمناً ، يقول بوعمران : " لا يوجد أيّ مُسلم اليوم سواء كان من السنة أو الشيعة أو الزيدية أو الإسماعيلية أو الوهابية أو الخوارج من يؤمن بالحتمية المطلقة ، لأن كل مؤمنٍ يعتقدُ بأنه حرٌّ في أفعاله ويُجزى أو يُعاقب تبعاً لتلك الأفعال⁽¹³⁾ .

لا شك أن فكرة الحرية هي فكرة مركزية في حياة الإنسان ، خاصة الإنسان المسلم الذي يؤمن أن لا إكراه في الدين وأن لا تزرُ وازرة وزر أخرى ، يؤمن أيضاً أن ليس للإنسان إلا ما سعى . لقد برهن بوعمران على وجود حرية الإنسان التي تتفهم القوانين والحتميات والسُّنن ، كما دافع وانتصر لواجبات الإنسان الحر العاقل المسؤول دفاعاً فلسفياً منهجياً ومقنعاً ويؤكد بقوله " أن حرية الإنسان ليست مسألة مجردة أو قضية ميتافيزيقية أو أخلاقية ، لأنها ترتبط بمجمل أنشطة الإنسان العقلانية والسياسية والاقتصادية⁽¹⁴⁾ .

في ظل الإيمان بالحرية وبالعقل ، اعترف بوعمران بقيمة الآخر مهما كانت عقيدته ، لأن الإنسانية في نظره هي قدرنا والمعاملات الحسنة هي معيار العقائد وقد تجلّى هذا من خلال لقاءه وعلاقته بعالم الإسلاميات لويس غاردي ♦ Louis Gardet⁽¹⁵⁾ وهو تلميذ جاك ماريتان ♦ Jacques Maritain و لويس ماسينيون ♦ Louis Massignon وشاهدٌ على الحوار المسيحي الإسلامي .

لقد سَئَلَ غاردي بوعمران : هل بإمكان الإسلام إنتاج مثل توما الأكويني للتوفيق بين الإيمان والعقل، فكان جوابه: إن مثل هذه الأمور عالجها مفكرو الإسلام منذ عهد بعيد ، منذ عهد النُظَام إلى الأشعري إلى الغزالي إلى ابن رشد إلى ابن تيمية إلى ابن خلدون وهذا كان عند القدماء ، أما عند المحدثين من مفكري الإسلام نجد الأفغاني وعبدُہ وإقبال وابن باديس وغيرهم ..⁽¹⁶⁾ وقد يكون هذا السؤال مبررا ودافعا له لإبرازا المغمور من التراث واختياره للنموذج المعتزلي في فكِّ مشكلة الحرية الإنسانية في الثقافة الإسلامية ، وهي المواقف التي جعلته يُنبِّه إلى خطورة الأفكار التي يَبْنِيها الآخر الغربي من خلال كتابات الاستشراق الإيديولوجية البعيدة عن الروح العلمية النزيهة حول صورة المسلمين من خلال مثلاً الموسوعة العالمية الأوروبية المنشورة سنة 1968 بالفرنسية وفيها يدعون إلى مفاهيم خاطئة منها أن المدينة الإسلامية "ثيوقراطية لائكية" على حدِّ تعبير لويس ماسينيون وأن كثيرا من المستشرقين ينصحون الدول الإسلامية بفصل السلطة عن الدين⁽¹⁷⁾، ومن بين كتابات الاستشراق الزائفة ، نجد كتابات جاك جُوميه Jacques Jomier ♦ التي يتحدث فيها عن ظاهرة التواكل عند الجماهير الإسلامية ويرى فيها بوعمران اتهاما قد ينطبق على الأوروبيين في العصور الوسطى، إذ أن جُوميه - وهذه وجهة نظر بوعمران - لا يرضى بأن الإسلام يُؤيِّد مسؤولية الإنسان المسلم ويَحضُّه على العمل والتأمل⁽¹⁸⁾.

لقد تواصل بوعمران في كُتب ومقالات كثيرة مع المفكرين الغربيين حيث كانت جسرا للحوار مع الآخر خاصة مع كتابات غاردي التي أخذت منعظا آخر غير الذي رسمه المستشرقون من قَبْل ومخالفا لما رسمه أيضا علماء الإسلاميات الغربيون، فراح غاردي يُبَيِّن الصُّور والمفاهيم الخاطئة التي شكَّلتها الغرب عن الشرق في مسألة الحضارة و فَهْم الحرية والإيمان بالجبرية والتعصب، وهي مواقف جعلت غاردي بحق يصبح مثالا لمقولة جاك بيرك ♦ Jacques Berque صديقا للعرب وإن كان غير عربي ، ويُقدِّم مواقف إيجابية أمام القضايا العادلة مثل الثورة الجزائرية والثورة الفلسطينية ويُبَلِّغ صوته في كتابات عديدة مثل " المدينة الإسلامية " ، " الإسلام دين و عشيرة " و "رجال الإسلام" ، فعَبَّر عن هاجس فَهْم الآخر في إطار احترام شخصيته.⁽¹⁹⁾

في الأخير نشير إلى أن أبحاث بوعمران لا تستحق هذا الاختصار وهو الذي بلغ العشرية الأخيرة من العمر التي تُقْرِبه من القرن ، إنها مسيرة ثرية حافلة بمواقف التبصر والتحاور والحكمة والصبر وتستقطب الباحثين المنصفين لجهود المفكر والباحث الجزائري الذي يجمع بين التراث والمعاصرة ويجمع بين الإيمان والعقل .

الإحالات والهوامش :

* - الدكتور شيخ بوعمران من مواليد البيض عام 1924، تخرّج من جامعة الجزائر للآداب عام 1945، صاحب شهادات ودبلومات في الفلسفة والآداب. تقلّد عدة مناصب في الفترة الاستعمارية وفي عهد الاستقلال: من مفتش في التعليم، إلى إطار سام في وزارة التربية، إلى سكرتير عام باللجنة الوطنية للتربية في اليونسكو، إلى وزير للثقافة والإعلام عام 1991، إلى رئيس اتحاد الكتاب الجزائريين عام 1996، إلى الرئيس الحالي للمجلس الإسلامي الأعلى وذلك منذ عام 2001. انتقل إلى رحمة الله يوم الخميس 12 ماي 2016 .

1- الشيخ بوعمران ، حديث مع يومية المساء (الجزائرية) ، 7 و 8 جانفي 1986.

2- الشيخ بوعمران ، التراث والفلسفة وخيوط الرداءة ، حديث مع جريدة الجمهورية الأسبوعية (الجزائرية) عدد 9 إلى 16 أوت 1989.

* - حركة المقاومة الدوناتية (نسبة إلى دونات Donat اسقف قرطاجة 313- 355م) وهي مقاومة قام بها أهالي إفريقيا الرومانية ولا سيما الفلاحون والذين انتزعت منهم أراضيهم بعد احتلال بلادهم فتعرضوا إلى اضطهاد المعمرين الأجانب و حلفائهم من بعض المحظوظين الأهالي ، ويضيف بوعمران لا شك أن المتتبعين لوضعية نويميدا آنذاك سيلاحظون وجوه التشابه بين السياسة الاستعمارية في إفريقيا الرومانية وسياسة فرنسا في الجزائر والمغرب العربي عدة قرون بعد انقراض امبراطورية روما ،ويضيف بوعمران ولا غرابة في ذلك، لأن الحضارة الفرنسية وليدة الحضارة الرومانية . أنظر مقال للشيخ بوعمران تحت عنوان: أغسطين العنابي ومقاومة الحركة الدوناتية، مجلة الأصالة (الجزائرية)، العدد 34- 35 ، العدد يونيو- يوليو 1976.

3- الشيخ بوعمران ، قضايا في الثقافة والتاريخ، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، 2003 ، ص8.

4- Chikh Bouamrane. Le problème de la liberté humaine dans la pensée musulmane, (solution mu'tazilite), librairie philosophique, j.vrin1978, p.336.

5- الشيخ بوعمران ، قضايا في الثقافة والتاريخ ، مرجع سابق ، ص326 .

6- المرجع نفسه ، ص.40

7- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

8- المرجع نفسه ، ص.302

9- المرجع نفسه ، ص، ص، 302 و 303.

10 - Chikh Bouamrane. Le problème de la liberté humaine dans la pensée musulmane, (solution mu'tazilite), librairie philosophique, j.vrin1978, p.333.

11- الشيخ بوعمران ، التراث والفلسفة وخيوط الرداءة ، حديث مع جريدة الجمهورية الأسبوعية (الجزائرية) عدد 9 إلى 16 أوت 1989 .

12- Chikh Bouamrane. Le problème de la liberté humaine dans la pensée musulmane, (solution mu'tazilite), librairie philosophique, j.vrin1978, p.331.

13 - Ibid., p.332.

14- Ibid., p. 349.

* - لويس غاردتي Louis Gardet (باحث فرنسي متخصص في الإسلاميات 1905- 1986).

15- صايم عبد الحكيم ، الحداثة في فكر الشيخ بوعمران ، مجلة التربية و الإستمولوجيا ، المدرسة العليا للأساتذة ، بوزريعة- الجزائر ، العدد الرابع جانفي ، جوان ، 2013، ص9.

* - جاك ماريتان Jacques Maritain فيلسوف فرنسي (1882- 1973).

* - لويس ماسينيون Louis Massignon جامعي فرنسي و باحث في الإسلاميات (1883- 1962).

16- صايم عبد الحكيم ، الحداثة في فكر الشيخ بوعمران ، مرجع سابق، ص9.

17- الشيخ بوعمران ، قضايا في الثقافة والتاريخ ، مرجع سابق ، ص143.

* - جاك جوميه Jacques Jomier باحث فرنسي في الإسلاميات (1914- 2008).

18- الشيخ بوعمران ، قضايا في الثقافة والتاريخ ، مرجع سابق ، ص144.

* - جاك بيرك Jacques Berque (1910 - 1995 م) هو مستشرق فرنسي، وُلد في فرنسا (الجزائر)، درس في جامعة الجزائر والسيوريون.

19- Chikh Bouamrane. Louis Gardet : un penseur juste et sensible à la souffrance des autres .horizons Maghrébins.n°9 /10 hiver printemps 1987, p.27.

صورة الجزائر في القرن 19 من خلال المصادر التونسية " إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان " و " صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار " نموذجا

محمد صلاح حقي

مخبر دراسات مغاربية

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس

تمهيد

لا يعتبر تناول تاريخ الجزائر في الفترة الحديثة أمرا جديدا لأن المؤرخين و الكتاب الجزائريين تطرقوا إلى ذلك بإطناب كبير غير أنهم ركزوا على التاريخ السياسي لبلدهم من خلال المصادر الجزائرية و حتى الغربية في محاولة منهم – على ما يبدو – إنقاذ تاريخهم الذي حاول الاستعمار طمسها و أهملوا تاريخ الجزائر في عيون المؤرخين التونسيين لاسيما أحمد ابن أبي المضياف (1802 - 1874 م) و محمد بيرم الخامس (1840 - 1989 م / 1255 هـ - 1307 هـ) اللذان تناولوا تاريخ هذا البلد بنظرتين مختلفتين و لكنهما مكملتان لبعضهما البعض فالحديث عن الرجلين تفرضه قواسم مشتركة ذلك أنهما من مؤرخي القرن التاسع عشر ، كما يشتركان في الانتماء الجغرافي (تونس) ، ثم – وهو الأهم – تعرضهما لصورة الجزائر بطريقتين مختلفتين و من مواقع و ظروف معينة لم يكن أحدهما فيها صاحب قرار إذ أن صاحب الإتحاف مثلا تناول الجزائر من موقعه كرجل سياسة في البلاط فكأنني بها فرضتها أحداث تلك الفترة و بيرم هو الآخر فرض عليه الحديث عن الجزائر من طرف مرضه حيث أن " مصيبيته " هي التي ألفت بالجزائر في طريقه لما كان مسافرا إلى فرنسا للتداوي فلم يفوت فرصة وصفها .

خصص " الإتحاف " جزءا كبيرا للحديث على الجزائر في علاقتها بتونس و لكن في المجال السياسي – العسكري و خاصة في علاقتها مع تونس والباب العالي فقط مهملتا بذلك بقية الجوانب و مردّ هذا الأمر أن الرجل كان يشتغل في خطة وزير لدى البايات التونسيين آنذاك و كان يكتب من خلال التقارير الرسمية فتكون بذلك رؤيته للجزائر غير مكتملة و قد يكون تناوله للأحداث مثيرا للجدل و ربما للاتهام فلا أظن أن الرجل وهو يشتغل لدى البايات قادر على انتقاد إيالة تونس و تحميلها المسؤولية فيما حدث مثلا من توتر بينها و بين إيالة الجزائر لذلك نراه يحمل هذه الأخيرة مسؤولية توتر العلاقات مع تونس

فصاحب الإتحاف كتب إذن التاريخ السياسي والعسكري الجزائري من خلال ما توفر له من تقارير رسمية فهو لم يزر الأيالة وبالتالي لم يكن شاهد عيان ، أما "محمد بيرم الخامس" فقد زارها و تجول بين أزقتها و أنهجها و تحدث إلى أهلها فكتب لنا تاريخ هذا البلد الاقتصادي و الاجتماعي و حتى الديني رغم أن الديني هو جزء من الاجتماعي و الفني و كل الجوانب تقريبا باستثناء العسكري و السياسي الذي جاء الحديث عنه مقتضبا فكان بذلك شاهد عيان و لم يشغل خطة سياسية يمكن أن تعيقه عن كتابة تاريخ الجزائر لذلك كانت شهادته أكثر دقة و تحررا من ابن أبي الضياف فنحن إذن أمام رؤيتين رؤية محمد بيرم الخامس و رؤية ابن أبي الضياف واحدة تكمل الأخرى لتكتمل صورة الجزائر بالجمع بين المؤلفين . قبل التطرق إلى صورة الجزائر لابد من التعريف بالرجلين والأثرين وذلك لضرورة منهجية .

I- أحمد بن أبي الضياف وكتابه "الإتحاف"

1- أحمد بن أبي الضياف : أسلوبه وأراؤه

ولد أحمد بن أبي الضياف في بداية القرن التاسع عشر وتوفي قبل انتصاب الحماية (1802م – 1874م) وحياته مرتبطة أساسا ببلده وبالقرن التاسع عشر وبالوضع السياسي القائم آنذاك في تونس وهو من أصل تونسي وحسب نسبه " العوني" فانه يعود إلى قبيلة أولاد عون التي كانت تعيش في جهة سليانة وقد كانت هذه القبيلة تتمتع ببعض الحظوة عند البايات ثم إن عائلته كانت تتمتع بصيت لدى قبيلته باعتبار أن نسبها مرتبط بولي صالح هو سيدي أحمد الباهي⁽¹⁾ . إستقر أحمد ابن أبي الضياف منذ طفولته في حي باب سويقة قريبا من الزاوية البكرية وما نلاحظه أن مستقر عائلة الرجل غالبا ما يكون قرب الزوايا وفي ذلك دليل على الرغبة في أخذ العلم إذ لعبت الزوايا دورا كبيرا في نشر العلم في تونس (الزيتونة) ومصر(الأزهر) وفاس (جامع القرويين) مما يبين لنا دور المؤسسات الدينية في نشر العلم و اشرنا إلى هذا الجانب الديني باعتباره عاملا مهما في تكوين شخصية كاتبنا . كما لا يمكن إغفال الجانب السياسي حيث حظي "ابن أبي الضياف" صحنة عائلته باهتمام وعناية الوزير يوسف صاحب الطابع مما يدفعنا إلى القول بان الرجل عاش منذ صغره إلى جانب الوزراء والبايات وهو ما يسهل عليه التعامل مع حياة القصور فيما بعد ، فالحظوة التي كان يتمتع بها والده "الحاج بالضياف" لدى يوسف صاحب الطابع جعلت الابن يتلقى دروسا على أيدي أحسن أساتذة العصر، ويشير أحمد عبد السلام إلى أن نحافة بدن كاتبنا هي التي دفعت بوالده إلى الحرص على توجيهه لطلب العلم⁽²⁾، وهو ما يؤكد حرص عائلة بأكملها على النهل من منابع العلم.

تذكر المصادر أن "ابن أبي الضياف" كان فطنا قوي الملاحظة وقد كان والده يصطحبه إلى بعض الدروس في الجوامع، حفظ القرآن وهو طفل في كتاب "سيدي ابن عروس" ثم حضر في جامع يوسف صاحب الطابع الجديد وفي مدرسته وفي جامع الزيتونة دروس أساتذة أكفاء⁽³⁾ من المذهبين المالكي والحنفي وهنا نلاحظ أن الرجل ينهل من المذهبين⁽⁴⁾ فقد كان ملماً بشتى أنواع العلوم (أدب، شعر، ترسل، علوم صحيحة...) .

تحصل "أحمد بن أبي الضياف" في شوال 1237هـ / جوان 1822 على معارف كافية مما أهله إلى إدراج اسمه ضمن قائمة العدول الذين عينهم الباي حسين بن محمود بمناسبة عيد الفطر من نفس العام وهنا تستدرجنا ملاحظة تهم هذه الخطة التي اضطلع بها الرجل، فحسب الكتابات فان "ابن أبي الضياف" قد أهله علمه لهذه المهمة وهذا أمر لا شك فيه باعتباره من عائلة وجيهة في القرن التاسع عشر ولكن أليس للجانب المادي دورا أيضا في وصول الرجل في ظل فقر بقية العائلات وعجزها عن تدريس أبنائها باستثناء أقلية ؟ أفلا يوجد في تلك الفترة من يضاها كاتبا في قيمته العلمية حتى لا نقول من هو أكفا منه ولكنه ظل مغمورا ؟ وبالتالي يصبح العامل الرئيسي والأهم في ظهور ابن أبي الضياف هو قرب أسرته من الحكام والقصور والحظوة التي كان يتمتع بها والده في ذلك الوقت. فالظروف كانت إذن مهياة للرجل ربما حتى قبل ولادته.

أيقن صاحب الإتحاف أن تحرير الوثائق المتعلقة بأملالك الدولة وبالأوقاف مجلبة للثروة عند العدول لذلك اتجه إلى شيخه "محمد المناعي" - الذي كان عدلا وكاتبا في الدواوين - كي يدرجه على تحرير الرسائل والتقارير والوثائق الأمر الذي يؤكد ذكاه ورغبته في كسب الثروة أو ربما في اقتحام قصور البايات كما فعل والده سابقا ، كما عُرف الرجل أيضا بمجالسة قاضي العاصمة محمد البحري بن عبد الستار وهو ما سمح له بالاطلاع على الوثائق المحررة ومكنه من أن يكون بارعا في التحرير والمحاضرة. هذه البراعة التي تمتع بها "ابن أبي الضياف" من ناحية ومكانة والده لدى عدد من الأعيان مكناه من اقتحام عالم الدواوين حيث تم تعيينه في أول شوال 1242هـ / 1827م من قبل "حسن باي بن محمود" كاتبا رغم معارضة والده. وهكذا أصبح الرجل همزة الوصل بين الباي ووزيره شاكير صاحب الطابع محرر رسائلهما ويمسك دفاتر حسابهما فكان بالنسبة إليهما "كاتب السر" وهو نفس الدور الذي سيلعبه بين مصطفى باي ووزيره مصطفى صاحب الطابع ولدى "أحمد باي" ووزيره مصطفى خزنة دار، وبهذا أصبح قريبا من الباي لا يفارقه "يحرر المناشير ويقوم بالمأموريات الدقيقة داخل البلاد وخارجها"⁽⁵⁾ .

لم يمنع هذا القرب من رجال السياسة "ابن أبي الضياف" من مخالطة علماء العصر الذين عرفوا بشيء من حرية الرأي والذين كان يبادلهم الأحاديث العلمية والأدبية أمثال "إبراهيم الرياحي" ، وهو ما

دفع "بحسين باي الثاني" إلى إقناع هذا الأخير بقبول رئاسة الإفتاء بالمذهب المالكي، أما بالنسبة لعلاقة كاتبنا بالبايات فقد كان يسودها شعورا بتفوقه عليهم غير أنه كان حريصا على عدم إظهار ذلك باستثناء "أحمد باي" وهو الباي الوحيد الذي شعر تجاه أحمد بن أبي الضياف "بالمحبة الصادقة والتقدير الحقيقي وباعتراف بالجميل للأدي الفائقة التي نالته منه" ⁽⁶⁾ إذ منذ أن تولى هذا الباي السلطة سنة 1253 هـ / 1837 م اتسعت صلاحيات كاتبنا، ومن أهم الوظائف التي أسندت إليه هي وظيفة " كاتب سر الباي" وهو ما يعني حضوره الدائم في الاجتماعات المتعلقة بالمسائل الهامة، كما كان أحمد باي يستشيريه ويستمع إلى رأيه ويعول عليه في تحرير المكاتيب ، ومن بين الاجتماعات التي حضرها تلك المتعلقة باحتلال فرنسا للجزائر والتي تذكر بعض المصادر والمراجع تورط تونس فيها ، ومن ابرز مظاهر الحظوة التي كان يتمتع بها في عهد هذا الباي سفره سنة 1831 م صحبة مصطفى البلهوان إلى اسطنبول للدفاع عليه وحضوره مفاوضات دارت في ديسمبر 1832 م - اثر خلافات - حصلت بين تونس ودولة سردينيا وكذلك سفره إلى فرنسا سنة 1846 م عندما صاحب أحمد باي ، كما أوكل له في عهده الاهتمام ببعض شؤون الدولة خاصة شؤون ذات طابع خاص ، وقد كان أحمد بن أبي الضياف يناقش الباي في أمور الدولة وحتى في أموره الخاصة أي العائلية حتى وصل به الأمر إلى التنقل في المواسم الفخمة إلى جامع الزيتونة وهي من عادات البايات.

من خلال ما تقدم نلاحظ أن الرجل لم يعد كاتباً فحسب بل أيضاً شريكاً في اخذ القرارات من خلال النصائح التي يقدمها للباي من حين لآخر وربما " كان هو الحاكم بطريقة غير مباشرة" - والكلام "لأحمد عبد السلام" ⁽⁷⁾ - نظرا لحاجة الباي أحمد الملحة لوجوده إلى جانبه، غير أن هذه الحظوة ستتقلص مع "محمد باي" ⁽⁸⁾ ليعود الرجل إلى مهمته العادية خاصة مع "عهد الأمان" ⁽⁹⁾ إذ كان من بين أعضاء لجنة عينها الباي لتحرير الدستور، وقد اضطلع ابن أبي الضياف بمهمة التحرير ، كما شارك في أعمال المجلس الأكبر وازدادت أهميته في عهد "محمد الصادق باي" وأصبحت له أشغال كثيرة إلى درجة اضطرار هذا الباي إلى تعويضه في بعض المهام بمحمد العزيز بوعتور ، ولئن بدا هذا التعويض في ظاهره ناتجا عن الضغط المسلط على ابن أبي الضياف وكثرة مهامه إلا انه في باطنه إيذانا ببداية تضاؤل دور الرجل السياسي ولكنه سرعان ما عاد إلى الواجهة السياسية عند اضطراره بمهام رئاسة لجنة لفصل القضايا بين التونسيين والأجانب سميت بـ "المجلس الوقتي" في 15 ذي الحجة 1277 هـ / 24 جوان 1861 م وترقيته إلى رتبة " أمير لواء" ومنحه لقب " وزير" كما عين نائبا ثانيا لرئيس المجلس الأكبر في نوفمبر 1862 م اثر استقالة خير الدين من منصبه وخلافته من طرف مصطفى خزنة دار الذي تولى رئاسة المجلس ثم مستشارا للخارجية.

من بين الوظائف الأخرى التي تقلدها "ابن أبي الضياف" نذكر تعيينه في جوان 1869م عضوا في لجنة كلفت بمراجعة حسابات "أحمد زروق" ومستشارا للقسم الثالث من الوزارة الكبرى التي استقال منها سنة 1872م لعجز صحي. وهكذا يعتبر ابن أبي الضياف من أكبر موظفي الدولة حيث اضطلع بمهام متعددة سمحت له بالاطلاع على أسرار الدولة بما في ذلك علاقة تونس بجارتها الجزائر وهو الأمر الذي دفعنا إلى البحث عن صورة هذه الأخيرة في "الإتحاف" الذي ألفه بين 1862م و 1872م.

إن الحديث عن أحمد بن أبي الضياف المؤرخ يدفعنا ضرورة إلى العودة إلى منشأ الرجل ومحيطه الاجتماعي وفي هذا الإطار يقسم أحمد جدي حياة الرجل إلى ثلاثة أوجه : الوجه الأول يتعلق بولادته وشبابه وطفولته وتكوينه والوجه الثاني بتجربته الاجتماعية- السياسية وبالصعوبات التي اعترضته والمرحلة الثالثة والتي اعتبرها أحمد جدي قصيرة من 1870 إلى 1874 وهامة في تاريخ ابن أبي الضياف فهي مرحلة شيخوخته⁽¹⁰⁾.

استطاع الرجل الذي ينتمي إلى الوسط القبلي⁽¹¹⁾ أن يتحول إلى مُنظر سياسي ومفكر اجتماعي وثقافي في تونس في فترة ما قبل انتصاب الحماية أي في القرن التاسع عشر واستطاع أن يقتحم المجال المدني بسهولة أكثر من والده الذي وجد صعوبات في انتقاله من مجاله القبلي إلى تونس (الحاضرة) وهذا أمر طبيعي فابن أبي الضياف ولد في تونس وبالتالي فإن علاقته بالوسط القبلي هي في الحقيقة علاقة موروثية عن والده ليس إلا ، إذن هو ابن الوسط المدني ووالدته هي "شلبية بنت علي بن حميدة بن محمد بن المبروك جعيط" ، وكما هو معلوم فإن عائلة جعيط هي عائلة عريقة في تونس القرن التاسع عشر وهذا يُعد عاملا آخر ساهم في سرعة اندماج كاتبنا في الوسط المدني.

هناك إذن مميزات لنجاح "ابن أبي الضياف" تعود إلى طفولته إذ كان الذكر الوحيد في أسرته وكما لا يخفى فإن للذكر حظوة لدى الأسرة التونسية والعربية عموما في القرن التاسع عشر. جعلت هذه الحظوة الرجل يخضع إلى عناية فائقة من طرف عائلته التي حرصت على تعليمه تعليما مثاليا يجعله يتفوق على أبناء عصره ممّا هياؤه - منذ البداية - إلى تبوء مكانة هامة في عصره خاصة إذا علمنا أن والده كان من المقربين لأصحاب القرار في تلك الفترة ولو توفرت هذه الظروف لبعض أبناء فترته لكانوا بدورهم من ابرز أعلام القرن التاسع عشر، فالطريق الممهدة والظروف الملائمة نحتت شخصية ابن أبي الضياف المؤرخ لكن ذلك لا يحجب عنا بعض الصعوبات التي عاناها الرجل⁽¹²⁾.

تقلد "ابن أبي الضياف" الذي كان يبلغ من العمر 22 سنة وظيفة عدل سنة 1822 والتي تعتبر من الوظائف الكبرى في البلاد آنذاك ويذكر أحمد جدي أن زواج ابن أبي الضياف ارتبط بزواجه الخامسة حلومة بنت يوسف جعيط وهنا عودة إلى العائلة العريقة (البلدية) والتي سيكون لها - ربما - الفضل في

مساعدة مؤرخنا على تسليق سلم الحياة السياسية بنجاح⁽¹³⁾ خاصة وان مسألة تعدد زواجه تطرح أكثر من سؤال لا سيما إذا علمنا أن أحمد باي (1837 – 1855) كان قد أهداه أُمَّتَيْنِ الأولى اسمها جوهرة الحبشية والثانية فاطمة العلجية. يتضح إذن أن الرجل كان قريبا من محيط السلطة (البايات) ليس فقط من خلال علمه وعمله وإنما أيضا من خلال حياته الزوجية حيث أصبح الرجل جزءا من الخاصة أي الأعيان وهذا ما سيمكنه من الاطلاع أكثر على الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية في تونس القرن التاسع عشر.

يدفعنا هذا التحليل إلى القول بان الواقع الاجتماعي والثقافي في تونس كان المحدد أو لنقل له دورا هاما في تكوين شخصية كاتبنا وفي تفكيره وفي كتابه " الإتحاف " ، يعني أن تونس في القرن التاسع عشر والمشاكل التي شهدتها البلاد كلها عوامل دفعت بكاتبنا إلى إنتاج كتابه المشار إليه، فالمدينة هي المحدد لإنتاج الرجل وان كانت له جذور قبلية - ريفية.

يُعتبر ابن أبي الضياف من المحظوظين في القرن التاسع عشر إذ قضى تقريبا جل حياته في قصور البايات وكان شاهد عيان عما يجري في الساحة السياسية لكن يبدو أن حياته لم تحظ باهتمام بالغ ودليل ذلك شحة المعلومات المتعلقة به كما أشار إلى ذلك "أحمد عبد السلام"⁽¹⁴⁾ باستثناء ما جاء في " الرائد التونسي" والورقات الأولى من الجزء الأول من مخطوطة تاريخ "ابن أبي الضياف". توفي صاحب الإتحاف سنة 1874م بعد أن ترك لنا كتابا جامعا لمختلف الأخبار المتعلقة بتاريخ تونس في القرن التاسع عشر وحتى قبله وعلاقتها بالدول الأخرى لا سيما الجزائر موضوع عملنا.

2- "الإتحاف" والتقارير الرسمية والدبلوماسية

إن إفرادنا لعنصر خاص بـ " إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان" ليس مرده أن "ابن أبي الضياف" لم يكتب سواء وإنما لأنه محور اهتمامنا في هذا العمل المتعلق بصورة الجزائر من خلال المدونة التونسية و منها " الإتحاف " إذ تشير الدراسات إلى أن آثار ابن أبي الضياف تشمل إضافة إلى الإتحاف المكاتيب التي حررها بأمر من البايات المعاصرين له وأشعار جمع "محمد التونسي" قسما منها في كتابه " مجمع الدواوين التونسية"⁽¹⁵⁾ وكذلك رسائل ،غير أن الإتحاف يعتبر أهم هذه الآثار، ويشير أحمد عبد السلام إلى وجود مخطوطات متعددة تشمل عادة أربعة مجلدات كبيرة وقد طبع في تونس طبعة أولى في ثمانية أجزاء نشرت بين 1963 و 1966، واعتمدت هذه الطبعة المخطوط الذي كان محفوظا بـ "الجمعية الخلدونية" في تونس⁽¹⁶⁾.

هذا لا يعني أن هناك فقط هذه الطبعة بل وجدت ثانية جاءت هي الأخرى في ثمانية أجزاء وهي التي إعتدناها⁽¹⁷⁾، وحسب أحمد عبد السلام فإن تحرير الإتحاف دام من سنة 1278هـ / أوائل 1862م إلى سنة 1289هـ / 1872م وهو ما أشارت إليه جل الكتابات التي تناولت موضوع ابن أبي الضياف وكتابه "الإتحاف"⁽¹⁸⁾، أما عن العنوان فيذكر أحمد عبد السلام أن المؤلف أراد في البداية عنوانه بـ "عقود الجمان" ثم تطور إلى الاسم الحالي "إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان" ويضيف أن عبارة "أهل الزمان" هي عبارة تقابل فيها بالمعنى والثقافية "عهد الأمان" الذي شارك ابن أبي الضياف في تحريره . هذا العنوان هو عنوان طويل جدا - كما يذهب إلى ذلك أحمد جدي وهو يذكرنا بالإنتاج العربي- الإسلامي الكلاسيكي والحديث وهو ما يعني أن الرجل لم يقطع مع العادات والتقاليد.

تضمن الكتاب دعوة من ابن أبي الضياف لمواطنيه إلى مراعاة " حالة الوقت" و" الملك المقيد بقانون" وهو نظام الحكم المفضل لديه لأنه يجاري العصر. كانت الغاية إذن من تأليف " الإتحاف" هي إبراز مزايا الملك الدستوري أو " الملك المقيد بقانون"⁽¹⁹⁾.

يتكون الكتاب⁽²⁰⁾ من مقدمة طويلة وهو ما يذكرنا بمقدمة ابن خلدون ويعدّ 1577 صفحة من حجم 27 سم x 21 سم ويضم تسعة أجزاء ثمانية منها تحتوي على ثلاثة أفكار أساسية مختلفة ومتراصة: مقدمة طويلة ، شرح مواضيع مقترحة للدرس وخاتمة وقدم لنا الجزء التاسع كشافا للأعلام والأماكن والبلدان والأمم والقبائل والمصنفات جاءنا في 202 صفحة. يتناول الكتاب تاريخ تونس العربية- الإسلامية وخاصة التركية - العثمانية والحسينية. كما نلاحظ أن الإتحاف هو كتاب بأجزاء غير متساوية ومحتويات مختلفة وهذا أمر فرضته طبيعة المواضيع المتناولة وربما طبيعة الوثائق والمستندات التي توفرت لابن أبي الضياف من تقارير رسمية ودبلوماسية .

يذكر أحمد جدي أنه " لا نملك تقديمها مفصلا للإتحاف رغم مرور 20 سنة على طبعه رسميا ونهائيا بإشراف من الحكومة التونسية وأنه لا نملك شرحا دقيقا ومفصلا لأشهر كتاب لابن أبي الضياف" لذلك أخذ على عاتقه مهمة تقديم مفصل ودقيق للإتحاف من خلال محاولته تناول أبعاده ومحتوياته في أجزائه الثمانية رابطا بين ما كتب وبين تفكير وشخصية مؤلفنا .

يندرج هذا الكتاب الذي كتب بين 1862 و 1872 ليس فقط في إطار خبرة ومسيرة ابن أبي الضياف ولكن في إطار تطور المجتمع التونسي في فترة ما قبل الاستعمار (القرن التاسع عشر) فهو يحتوي إذن على مسيرة الرجل الاجتماعية والسياسية والثقافية.

من خلال تقديمنا للإتحاف ولابن أبي الضياف نلاحظ أن الكتاب ألفه تونسي من أجل بلده ولكن ذلك لا يخفي حضور دول أخرى أوروبية وعربية وإسلامية ضمنها كاتبنا في مؤلفه ولكن حسبنا التذكير

بتواتر حضور الجزائر التي ذكرها الرجل 157 مرة موزعة بين الأجزاء الثمانية غير أنها ذكرت لأغراض سياسية عسكرية إذ لم يتطرق ابن أبي الضياف إلى الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية كما فعل محمد بيرم الخامس في "الصفوة" وهذا مردّه أن الإيالتين متجاورتين ولهما نفس الخصائص تقريبا ومردّا بنفس المحن أيضا (الهيمنة الإسبانية و العثمانية ثم الفرنسية) ، ثم إنّ تاريخ البلدين مشحونا بالتوتر تارة و بالمهادنة طورا مما يفرض حضور الجزائر وان أتت صورتها متفرقة على عكس " صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" الذي أفرد بابا بأكمله للحديث عن الجزائر التي كانت فاعلة في الأحداث التي شهدتها تونس.

II - محمد بيرم الخامس و"صفوة الاعتبار" II

1 - بيرم الخامس وأدب الرحلة

ولد محمد بيرم الخامس بعد حوالي ثمانية وثلاثين سنة من ميلاد ابن أبي الضياف أي في فترة شباب صاحب الإتحاف قبل حوالي اثنين وعشرون سنة من بداية كتابته لمؤلفه وكان ذلك بالتحديد في مارس 1840م / محرم 1255هـ ، وقد كان والده مهتما بالزراعة مما جعل كاتبنا يرث ثروة معتبرة من الأملاك والعقارات ، يظل هذا الثراء المادي نقطة التقاء مع أحمد بن أبي الضياف وربما سيكون عاملا من عوامل بروز الرجل. أما أصله فيعود إلى النسب الشريف الذي ينتهي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. هذا النسب الذي ظل محل تقديس من العرب والمسلمين عامة سيكون له الأثر في نحت شخصية الرجل إذ عادة ما تفتخر العائلات بنسبها إلى الأشراف وهو ما يذكرنا بدور الوجهة التي تحدثنا عنها بخصوص ابن أبي الضياف والتي اعتبرناها عاملا مهما في اندماج الرجل في الوسط المديني / الحضري وفي بروزه كشخصية علمية في تونس القرن التاسع عشر. إنشغل منذ صغره بالعلم ورفض الخطط العسكرية التي كانت في متناوله لأنه يتميز بميله إلى الاهتمام بالشؤون السياسية، أخذ العلم على مشايخ معروفين أمثال شيخ الإسلام الحنفي محمد معاوية والقاضي المالكي الطاهر بن عاشور والشاذلي بن صالح...

نلاحظ من خلال تكوين الرجل أنه نهل من المذهبين المالكي (مذهب السكان الأصليين) والحنفي (المذهب التركي) شأنه في ذلك شأن "أحمد بن أبي الضياف" وذلك لأن البلاد كانت تحت الهيمنة العثمانية وأن العثمانيين حافظوا على ما وجدوه من مذاهب وحتى على الترتيب الإداري فأضحت البلاد تعيش في ازدواجية مذهبية.

تكونت "لمحمد بيرم الخامس" ثقافة واسعة تجمع بين العلوم النقلية التقليدية والتاريخ القديم والحديث كما تلقى تكويننا خارج أسرته في جامع الزيتونة وفي المدارس إضافة إلى تمتعه بمكتبة ثرية تركها له أجداده، ونظرا لوجهة عائلته فقد كان لبيرم مكانة هامة لدى ساسة العصر وبدأ الرجل يتدرج في سلم المراتب إلى أن أصبح "مدرسا من الطبقة الأولى في رجب 1284هـ" (21).

لبيرم الخامس علاقة متميزة بالمصلح خير الدين حتى أن هذا الأخير لما تولى زمام أمور الدولة – وزيراً أكبر – مكن بيرم من المشاركة الفعلية في الحياة السياسية ، ألا يذكرنا ذلك بابن أبي الضياف وخاصة في علاقته بأحمد باي؟.

إضطلع "بيرم" في 6 أفريل 1874م / 17 صفر 1291هـ بمهمة رئاسة جمعية الأوقاف ثم تحصل في 14 جويلية 1875م / 1292هـ على إدارة المطبعة الرسمية وإدارة الجريدة التي يصدرها " الرائد الرسمي"وقد غنم هذه المناصب بفضل علاقته المتميزة بخير الدين ، كما أشرف على ترتيب المكتبة التي أنشأها هذا الأخير بجامع الزيتونة وهي التي سميت بالمكتبة الصادقية.

وهكذا تعددت نشاطات الرجل وأصبح ذو شأن في البلاد غير أنه في هذه الفترة بالذات بدأت تظهر عليه بوادر مرض عصبي وكان ذلك في صيف 1292هـ / 1875م الامر الذي دفعه إلى السفر إلى أوروبا والمرور بعدة بلدان مثل الجزائر ووصفها وصفا دقيقاً⁽²²⁾ إذ أن طريق العودة كان يمر على مدينة عنابة وحصل أن قضى عشرة أيام كاملة في الجزائر وزار عاصمتها وعديد المدن الساحلية منها والداخلية الكبيرة منها والصغيرة وقدم لنا وصفا لا يصفه سوى الرحالة انطلاقاً من المرسى الذي نزل فيه وصولاً إلى قلب المدينة مروراً بالأزقة والأنهج متناولاً أيضاً الحياة الاجتماعية في البلد.

زار بيرم عديد المدن العربية الأخرى – علاوة على الجزائر- مثل الإسكندرية والقاهرة والمدينة المنورة و بيروت ودمشق وذلك أثناء زيارته البقاع المقدسة ثم زار مناطق أخرى إسلامية مثل اسطنبول أين التقى بصديقه في الماضي خير الدين الذي كان قد غادر البلاد التونسية.⁽²³⁾

أحس بيرم منذ 1879م بتحسن في حالته الصحية فقرر التفرغ لتحرير الجزئين الأول والثاني من كتاب " صفوة الاعتبار" غير أن الأخبار غير السارة التي بلغته والمتعلقة بزحف الفرنسيين على تونس واحتلالها دفعته إلى السفر صحبة أسرته إلى مدينة قُرنَة بإيطاليا بعد بيع أملاكه ثم استقر في اسطنبول حيث خصص له السلطان العثماني مرتباً شهرياً.

ملّ بيرم الخامس البقاء هناك فطلب الإذن بالعودة إلى بلاده وكان له ما أراد في 21 ذي الحجة 1301هـ / 12 أكتوبر 1884م ونظراً لما وجده من أحداث ساخنة في تونس عزم على الهجرة إلى مصر وهناك في القاهرة لقي حسن الاستقبال من طرف الخديوي واضطلع ببعض الخطط أهمها حاكمها في المحكمة الابتدائية بالقاهرة في 12 جمادى الأولى 1306هـ / 14 جانفي 1889م⁽²⁴⁾.

توفي الرجل في 25 ربيع الثاني 1307هـ / 18 ديسمبر 1889م في حلوان بمصر أي بعد خمس عشرة سنة من وفاة أحمد بن أبي الضياف ليترك لنا كتاب " صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" الذي يصف فيه البلدان التي زارها وصفاً دقيقاً.

لمحمد بيرم الخامس مؤلفات في علم العروض ورسائل فقهية، إلا أنه رغم تنوع كتاباته يعتبر "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"⁽²⁵⁾ من أهم مؤلفاته. يتكون الكتاب من خمسة أجزاء طبع بيرم الأجزاء الأربعة الأولى منه في مطبعته "المطبعة الإعلامية" سنة 1302 و 1303 هـ / 1885 م وتكفل ابنه بطبع الجزء الخامس في مطبعة "المقتطف" سنة 1311 هـ / 1893 - 1894 م وبالاتماد على المعلومات التي أوردها ابن المؤلف فإن بيرم الخامس أتم الأجزاء الثلاثة الأولى في سنوات إقامته في اسطنبول (1297 هـ / 1880 م - 1302 هـ / 1884 م) وقد تم تحرير الجزئين الأول (156 صفحة مذيّل بـ 6 صفحات فيها جداول إحصائية تهتم بالتجارة والسكك الحديدية والديون والخرج والعساكر وعدد السكان لعدد كبير من البلدان العربية والإسلامية والأوروبية والآسيوية والإفريقية والأمريكية دون وجود فهرس للجزء) والثاني (148 صفحة وفي آخره خصصت 3 صفحات للفهرس) قبل احتلال فرنسا لتونس وخصص للحديث عن تونس وعاداتها وتاريخها وأهلها بمختلف أجناسهم ولغتهم وأبنيتهم وعاداتهم في الأعراس والمآتم كما تجول عبر كتابه في مختلف الأقاليم والجزء الثالث (166 صفحة دون فهرس) تناول بالدرس ايطاليا وذكر تاريخها وجغرافيتها وسياستها وعمرانها وعادات وتقاليدها وأهلها ومجالها العسكري كما يتطرق إلى الحديث عن بومبي (في الهند) بعجائبها وأخيرا يتحدث عن أحوال فرنسا ويذكر لنا باريس بسحرها وما تحتويه من عجائب بعد الاحتلال أي بعد 1881 م. أما الجزء الرابع (159 صفحة مع 9 صفحات للفهرس) فقد تعرض فيه بيرم إلى الحديث عن أنقلا ترا والجزائر ومالطة ومصر والحجاز... وأول الجزء الخامس (102 صفحة مذيّل بترجمة لبيرم الخامس 76 صفحة مع صفحتين للفهرس) المتعلق بـ "الممالك العثمانية" ومملكة سويسرا ومملكة النمسا والرومانيا واليونان فقد كان تحريرهما في مصر ولم يستطع إكمال آخر الجزء الخامس نظرا لوفاته⁽²⁶⁾، وقد اشتمل على قسمين سُمّي الأول بالمقدمة والثاني بالمقصد: احتوت المقدمة على أكثر من نصف الجزء الأول وهي تضم ثلاثة أبواب بابين قصيرين يذكر فيهما بيرم الخامس حكم السفر في الإسلام أما الباب الثالث من هذه المقدمة فهو طويل جدا لأنه يهتم بجغرافية العالم.

يتضمن المقصد رحلات المؤلف إلى البلدان العشرة التي زارها مقدما لمحة عن تاريخها ويبدأ بترجمة ذاتية للمؤلف تضمنت وصف مرضه ودواعي سفره إلى أوروبا وفيه فصل ثاني تناول فيه المؤلف تاريخ تونس ويتواصل على بقية الجزء الأول وكامل الجزء الثاني من الكتاب.

خمس أجزاء إذن تنقل فيها الشيخ محمد بيرم الخامس بقلمه عبر دول أوروبية وإفريقية وآسيوية وأمريكية⁽²⁷⁾ وهو ما يعني أنه كتاب جامع وهنا أقول أن كتاب " صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" ما كان له ليوحد لولا المرض أو ربما كان سيقصر على البلاد التونسية فحسب وربما حديثه عن

الجزائر - موضوع عملنا هذا - ما كان ليصلنا مكتوبا لولا زيارته لها بحكم مروره عبرها قاصدا فرنسا للتداوي أو ربما كان سيقصر على ما سمعه حولها كما فعل ابن أبي الضياف.

يمكن القول أن الكتاب - باعتباره خلاصة زيارات الرجل إلى البلدان - يندرج ضمن أدب الرحلة على غرار كتاب الطهطاوي "تخليص الإبريز في تلخيص باريس" وهذا الصنف يركز على الحديث عن عالمين للمقارنة: عالم يتحرك وآخر جامد لا يتحرك وهو ما شاهدناه في كتاب صفوة الاعتبار الذي وصفه قنحي القاسمي بالموسوعة لما فيه ذكر لكل "شاردة واردة"⁽²⁸⁾

احتوى الباب المخصص للجزائر على تسعة عشر صفحة⁽²⁹⁾ قدم فيها بيرم معلومات حول تاريخ الجزائر ووصف مدنها وموانئها وجوامعها وأهلها وعاداتهم وتقاليدهم⁽³⁰⁾ مقارنة بين الريف والمدينة ومدى تأثير الجزائريين بالفرنسيين.

إذا ما دققنا في أسلوب محمد بيرم الخامس في الكتابة من خلال تصفحنا "لصفوة" نلاحظ أنه اتبع الطريقة التقليدية والتي عادة ما يستعملها الرحالة وهذا ما جعلنا نقول أننا أمام رحالة. التقت إذن شخصية الرحالة مع شخصية المؤرخ لتفرز لنا كتاب "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"، كما نلمس تمشيا منهجيا محكما أضفى على كتاباته تسلسلا يجعلك تطوق إلى الصفحات الموالية مع وجود كثير من التشويق ربما اعتمده الرجل للترغيب في الاطلاع على مؤلفه، ففي البداية يذكر دواعي السفر - مما يجنبك عناء السؤال عن سبب الزيارة - وكيفية السفر والوسائل التي استعملها للوصول إلى البلد المقصود ثم تاريخ الوصول إليه موردا في كثير من الأحيان تواريخ دقيقة وهذا يظفي على شخصيته جانب المؤرخ، ثم يصف البلد الذي حل به وجغرافيته والحياة الاجتماعية السائدة فيه - من عادات وتقاليدهم - والاقتصادية، كما يتطرق إلى مستعمرات القطر إن كانت له مستعمرات ويقدم لمحة عن تاريخه القديم والحديث انطلاقا من النظام السياسي الذي كان سائدا فيه مركزا دوما على علاقة البلد بالخلافة العثمانية وبالبلاد الإسلامية ثم يورد أخبارا عن الزراعة والتجارة والصناعة والأخلاق والعادات والتعليم واللغة والقوة العسكرية والثروة المالية و عادة ما يقارن المؤلف البلد الذي زاره بالأوضاع في بلاد الإسلام والهدف هو الاعتبار وهذا واضح من خلال العنوان في حد ذاته ولعل ذلك دليل على غيرة الرجل على بلاد الإسلام والنزعة الإسلامية في شخصيته⁽³¹⁾.

اعتمد محمد بيرم الخامس - علاوة على ما شاهدته أثناء زيارته للبلدان والأقطار - كتباً أخرى ومقالات خاصة الكتب الجغرافية ومقالات الصحف التي طالعها ومن أكثر ما كتب كان طبقا لما شاهدته هو أي أنه اعتمد أساسا على زيارته الميدانية لذلك يمكن تصنيف الرجل ضمن قائمة الرحالة، ومن أهم المصادر التي اعتمدها بيرم في "الصفوة" هو ما خطه الوزير ابن أبي الضياف⁽³²⁾ وهو ما يعني أن الرجلين

يكملان بعضهما البعض ولعل الثاني يكمل الأول باعتبار أنه وُلد ليجد ابن أبي الضياف يبلغ من العمر ثمانية وثلاثون وتوفي بعد خمس عشرة سنة من وفاته، لكن ليس هذا ما يهمنا بقدر ما يهمنا التكامل بين المصدرين "الإتحاف" و"الصفوة" من أجل رسم صورة الجزائر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. كما اعتمد بيرم أخبارا ذكرها بعض "الثقات" أو السائحين و بعض الكتابات الأخرى مثل كتاب رافع الطهطاوي "تخليص الإبريز في تلخيص باريس"⁽³³⁾ وكتاب "جغرافية مصر" لأحمد أمين فكري⁽³⁴⁾ وكتاب "كشف المخبأ في فنون أوروبا" لأحمد فارس الشدياق وكتاب خير الدين "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"⁽³⁵⁾. يدل هذا التعدد في المصادر على مدى إطلاع الرجل ولكن ما يعاب عليه هو الاعتماد على المصادر الشفوية التي لا يمكن الوثوق بها بصفة مطلقة .

III- صورة الجزائر في الإتحاف والصفوة

سنطرق في هذا العنصر الى صورة الجزائر في القرن التاسع عشر و نتتبع أهم التحولات التي شهدا هذا البلد سواء في علاقاته مع بقية الدول لاسيما المتوسطية أو الامبراطورية العثمانية و التآرجح بين سعي هذه الايالة فرض استقلالية تجاه الباب العالي و سعي هذا الأخير بسط النفوذ و لو معنويا حيث تميزت العلاقة بين الطرفين باستقلالية ولو محدودة لأن الجزائريين ظلوا محكومين بفكرة أنهم هم من إستنجدوا بالعثمانيين لحمايتهم من الخطر المسيحي المتمثل آنذاك في الهجوم الاسباني سنة 1519 م⁽³⁶⁾ بينما ساد التوتر حيناً و الهدوء حيناً آخر علاقاتها مع تونس إذ سعت الجزائر إلى التدخل في شؤون جارتها لاسيما أثناء الفتنة الباشية – الحسينية ، كما تصرفت مع البلدان الاوروبية بمنطق البلد المستقل وليس التابع للامبراطورية العثمانية و ذلك من خلال إعلانها للحروب و إبرامها لاتفاقيات الصلح دون الرجوع الى الباب العالي ، كما سنطرق إلى صورة المدينة الجزائرية في هندستها المعمارية ووظيفتها ودورها في مجريات الأحداث خاصة من خلال "صفوة الإعتبار" ثم سننفذ من خلال ذلك إلى دراسة صورة المجتمع الجزائري و دوره في الحياة الإقتصادية .

1- علاقة الجزائر بالامبراطورية العثمانية

تعتبر علاقة الإمبراطورية العثمانية بالجزائر مختلفة عن علاقتها ببقية الإيالات ، فالجزائر كما يشير إلى ذلك عبد العزيز محمود لعرج في كتابه "الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي" هي البلد العربي الإسلامي الوحيد الذي لم ينضو تحت حكم الدولة العثمانية بالقوة العسكرية⁽³⁷⁾ وهذه العبارة تلخص ما سنذهب إليه عند تصفحنا لهذه العلاقة في "الإتحاف" و "الصفوة"

باعتبار أن المصدرين هما ركيزة عملنا ومنطلقه واستخراج جميع الأحداث التي تؤكد ما ذهبنا إليه و قد تناول هذا الموضوع باطناب كبير صاحب الإتحاف بينما تجاهله محمد بيرم الخامس.

أ- إدارة مستقلة عن القرار العثماني

لم يتطرق محمد بيرم الخامس باطناب الى هذه المسألة لأنه ركز على ما كان يشاهده لدى زيارته للجزائر و لئن إعتد على بعض الكتابات لتقديم بسطة صغيرة عن تاريخ الجزائر السياسي إلا أنه ركز على وصف الحياة الإجتماعية.

رغم الظرفية التي مهدت إلى الدخول العثماني في الجزائر والتي جعلت الجزائريين يشعرون بأنهم ليسوا تحت إحتلال السلطنة ، ظلت الإمبراطورية تتعامل مع الجزائر كأنها تابعة تبعية مطلقة لها شأنها في ذلك شأن بقية الإيالات ومظاهر هذه التبعية حاضرة في الإتحاف إذ أورد صاحبه أن جُند الجزائر كان دائم الحضور في الجيش العثماني وهي طريقة دأبت على إتباعها الإدارة العثمانية لتحسيس البلدان "المفتوحة " بأنها تابعة⁽³⁸⁾، وقد كانت السلطنة حذرة في تعاملها مع هذا البلد إذ طلبت جنوة في سنة 1740 م جزيرة طبرقة من السلطان العثماني ليتخذوا منها أبنية من خشب للاحتماء بها من الحر والمطر في موسم صيد المرجان في بحرها ووافقهم هذا الأخير ولكن بعد استشارة كل من صاحب تونس وصاحب الجزائر نظرا لوجود الجزيرة بين بونة⁽³⁹⁾ وبنزرت⁽⁴⁰⁾ وفي هذه الاستشارة أكثر من معنى إذ لو كانت الإمبراطورية مقتنعة شديد الاقتناع بأنها تهيمن على الجزائر لتصرف السلطان دون الرجوع إلى الجزائريين .

نلمس هذا الاقتناع بالتبعية المحدودة في الفتنة الباشية - الحسينية⁽⁴¹⁾ بالخصوص عند مساندة محلة الجزائر لأولاد الباي حسين بن علي محمد وعلي من أجل افتكاك السلطة من علي باشا وتمت السيطرة على هذا الأخير واعتقاله من قبل حسن باي الذي أرسل بكتاب إلى صاحب الجزائر وهو آنذاك برمق سز سنة 1756م يبشره بالنصر ويخيره بين الاستيلاء على المملكة وضمها لمملكة الجزائر ويأتيه بالبasha وابني عمه (محمد وعلي) أو ترك البلاد لصاحبها علي باشا على أن يلزمه بدفع ضريبة سنوية للجزائر فكان جواب صاحب الجزائر: " إن الأوجاق الثلاثة - تونس والجزائر وطرابلس - من ممالك السلطنة العلية العثمانية ونحن على طاعتها ولو صحت هذه الضريبة من المال في الإسلام يكون سلطان المسلمين أولى بها ونحن عبيد طاعته"⁽⁴²⁾ ويضيف صاحب الإتحاف: " وأمره بقتل علي باشا ودفعه لبني عمه " . تصرف صاحب الجزائر إذن إزاء هذه الحادثة تصرفين متناقضين: الأول يوحى بتبعية للإمبراطورية العثمانية وقد صرح بذلك جهرا في رد الجواب المشار إليه عندما قال في إشارة إلى الإمبراطورية: " ونحن على

طااعتها " ولكنه يأمر في نفس الجواب بقتل علي باشا في تصرف مستقل عن السلطنة ، كما يشير ابن أبي الضياف إلى وجود وكيل للجزائر في تونس⁽⁴³⁾ والوكيل عادة ما يمثل دولة مستقلة وهذا الوكيل هو الحاج محمد البرادعي وكان ذلك في عهد حمودة باشا ثم إنه لما أقدم هذا الأخير على قطع نذر كان يقوم به والده لما كان في الجزائر تمثل في بعث شيء من الزيت إلى مقامات الصالحين تقدّم صاحب الجزائر آنذاك بشكاية إلى الدولة العثمانية⁽⁴⁴⁾ وهذه الشكاية رغم أنها في ظاهرها تبدو عادية باعتبار أن الجزائر هي " نيابة" عثمانية إلا أنها تُبطن خلفية تمثلت في اقتناع ولو جزئي من صاحب الجزائر بأنه في حماية الإمبراطورية العثمانية حتى لو أحس أن تبعيته محدودة ، ثم إن السلطنة العثمانية سرعان ما استجابت لنداء صاحب الجزائر إيماناً منها هي الأخرى بأنها الحامي للجزائريين والتونسيين وبقية البلدان المفتوحة أيضاً وقد كان لهذه الاستجابة من الحنكة السياسية الشيء الكثير إذ بعث السلطان رسولا مخصوصا في النازلة من أهل القلم بمكتوب يحرض فيه على وصل الأخوة الإسلامية بالتعاون على البر⁽⁴⁵⁾ وكأني بالسلطان العثماني أراد تذكير الجزائريين والتونسيين على حد السواء بضرورة تطبيق المبادئ الإسلامية إذ أن الإمبراطورية العثمانية نصبت نفسها حامية الإسلام والدول الإسلامية من الخطر المسيحي سواء كان الإسباني ، الإيطالي أو الفرنسي بعد ذلك.

وفي الحقيقة فإن هذه التبعية تحضر وتغيب حسب مصلحة الجزائر وكأني بها أصبحت تحالفا وليست تبعية أي أن صاحب الجزائر عندما يطلب العون من الإمبراطورية العثمانية فإن مرده الروابط الإسلامية بين البلدين وليست علاقة تابع بمتبوع الأمر الذي يدركه على ما يبدو العثمانيون جيدا ، فالتصرف العثماني تجاه الجزائر يختلف عن تصرفها تجاه تونس ويتجلى ذلك بوضوح عندما تدخلت الإمبراطورية لعقد الصلح بين البلدين الجارين في 20 مارس 1821 و لعبت في هذا التدخل دور الوسيط وليس دور الأمر فكأنما أرادت أن تأخي بين جارتين مسلمتين.

ظلت إذن الإمبراطورية العثمانية تراقب من بعيد الجزائر فهي من حين لآخر تذكر الجزائريين بأنها تحميهم وتلمح لهم بأنهم تابعين وطورا تغض الطرف عن بعض ما يحصل في الساحة وحتى العلاقات الخارجية الجزائرية لم تكن بمنأى عن القرار العثماني ولكنه تدخل محدود ولعل حادثة منشة الذباب والتي كانت سببا - ولو من بين أسباب أخرى - في اندلاع الحرب بين الجزائريين والفرنسيين واحتلال الجزائر كانت توشي بنهاية هذه التبعية المحدودة. وملخص الحادثة أن قنصل فرنسا كلفته بلاده بالفصل في نازلة أحد أعيان اليهود من الجزائريين اسمه بكري بوجناح الذي كانت له تجارة مع أهل فرنسا في القمح، تدخل صاحب الجزائر حسين باشا وآل الأمر إلى الصلح بين الفريقين ولكن استظهر تجار آخرون من الفرنسيين بدين على بكري عرقلوا " بمقتضاه دراهم الصلح حتى يقع الخلاص"⁽⁴⁶⁾ ونظرا لكون الباشا

طمع في الاستيلاء على تلك الأموال فقد كلم القنصل الفرنسي طالبا منه " رفع التعرّيقيل " ⁽⁴⁷⁾ إلا أن جواب القنصل لم يرضه فكاتب الدولة الفرنسية التي كلفت القنصل بالإجابة باعتباره ممثلا لها في الجزائر ومعني بحماية الرعايا الفرنسيين وتنظيم العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين، فهم صاحب الجزائر من هذا التصرف أنه تجاهل له واحتقار ولما أتاه القنصل في غرض من الأغراض لم يفصح عنه ابن أبي الضياف سألته عن تجاهله من قبل الدولة الفرنسية فاعتذر القنصل بكلام فهمه حسين باشا على كونه احتقار له وكانت بيده منشة يطرد بها الذباب : " فضربه بها على وجهه " ⁽⁴⁸⁾ ثم شتمه وطرده ، كاتب القنصل دولته وحدثها بالأمر فطلبت من صاحب الجزائر الاعتذار إلا أنه رفض بل وأطرد رسولا بعثت به فرنسا إليه، وهو ما دفع بفرنسا إلى الاستعداد للحرب.

ينم هذا التصرف الفردي من حسين باشا صاحب الجزائر عن وعي بالاستقلالية في القرار إذ لم يعد بالمشورة إلى الباب العالي باعتبار تشابك مصالح الطرفين بل تعتمد تجاهل القرار العثماني ، لكن هذا التجاهل قابلته فرنسا بحكمة سياسية تمثلت في إبلاغ السلطنة العثمانية بما حصل وبما سيحصل (أي الحرب) وفي هذا وعي تام من الفرنسيين بمسؤولية الطرف العثماني – سواء كانت هذه المسؤولية محدودة أو مطلقة – مما يحدث في الجزائر وربما كانت فرنسا تقصد بهذه المشورة الطلب من السلطان العثماني تأديب ممثله أو نائبه في الجزائر التي تُعتبر ولاية عثمانية في نظر الأمم المسيحية لأن الفرنسيين لن ينسوا ما أقدمت عليه الإمبراطورية من مدّ يد المساعدة للجزائر في حربها ضد الإسبان في القرن 16م ومحاولتها حماية إيالاتها الثلاث في المغرب: تونس و الجزائر وطرابلس من أي خطر مسيحي حتى وإن كانت الغاية هي حماية الإسلام من الخطر الخارجي فإن الديني قد امتزج بالسياسي في هذه المرحلة.

كاتب فرنسا إذن الدولة العثمانية وأبلغت السلطان أنه إن لم يتدخل فإنها " ستطلب حقها بنفسها " ⁽⁴⁹⁾ وبذلك لا يكون الفرنسيون قد تعدّوا على مقام الإمبراطورية ولا رافضين لشروطها و قد تصرفت الإمبراطورية في هذه النازلة بتصرف الأمر الذي رأى في الجزائر تابعة له حيث حاولت خلع الباشا صاحب الجزائر المتسبب في هذه الأزمة إذ أرسل السلطان طاهر باشا إلى تونس ليتوجه براً إلى الجزائر للقيام بمهمة خلع الباشا ولكن استحال الأمر نظرا لعدم السماح له بالمرور إلى الجزائر من طرف باي تونس آنذاك ⁽⁵⁰⁾ ، يوحي هذا التصرف بأن الإمبراطورية العثمانية تُحكم قبضتها على الجزائر ولكنها تأخذ احتياطاتها في التعامل مع هذه النيابة.

ب- العلاقات الخارجية للجزائر

إضافة إلى العلاقة بين الجزائر وتونس التي أشرنا إليها لم يهمل المصدرين علاقة هذا البلد ببقية البلدان الأخرى ولقد أردنا البحث والتعمق في هذا الأمر من أجل استجلاء معالم الاستقلالية التي أظهرتها نيابة الجزائر تجاه الإمبراطورية العثمانية وهو ما أشار إليه ابن أبي الضياف في " الإتحاف " الجزء الثالث عند حديثه عن حرب الفرنسيين للجزائر في ماي 1830م وهو نفس ما أشار إليه محمد خير فارس في كتابه " تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ".

كانت تحكم العلاقات بين هذين البلدين مصالح متمثلة أساسا في نشاط القرصنة والأسرى والتجارة خاصة إذا علمنا أن القرن 16 شهد تعاونا تركيا جزائريا فرنسيا في مجال القرصنة غير أن الجزائر استطاعت التخلص من الهيمنة العثمانية وحررها منها مما جعلها تطلق يدها في المتوسط . تفكر الجزائر إذن في المصلحة الداخلية دون ربطها بالمصلحة العثمانية غير أن هذا التنافس الفرنسي - الجزائري حول المتوسط أدى إلى حصول صدامات بين سفن البلدين وفي بعض الأحيان اتصالات دبلوماسية أو حروب . عبارة اتصالات دبلوماسية تُعدّ خير دليل على استقلالية الجزائر تجاه الباب العالي إذ تحدثت الكتابات عن تصرف مستقل من الجزائريين تجاه فرنسا، كما أبدت الجزائر استقلالية واضحة في تفاوضها مع فرنسا بشأن الأسرى⁽⁵¹⁾ .

تميزت العلاقات الجزائرية - الإسبانية هي الأخرى بالتوتر والصراعات وهو ما أشار إليه ابن أبي الضياف في " الإتحاف " ومحمد بيرم الخامس في " صفوة الاعتبار "⁽⁵²⁾ بخصوص احتلال عدد الموانئ الجزائرية وهجمات الإسبان المتكررة على الجزائر في 1783 و 1784م وتصدي الجيش الجزائري لها ، دفع هذا التصدي الإسبان إلى المفاوضات من أجل الصلح سنة 1785م قبله الجزائريون بشروط تمثلت أساسا في دفع مبلغ مالي هام وإخلاء وهران والمرسى الكبير⁽⁵³⁾ ولم تذكر لنا الكتابات تدخلا عثمانيا في هذا الصلح و ما مساعدة الأتراك الجزائريين في هذه المواجهات إلا بدافع الشعور بالاشتراك في المصير الديني .

تتضح هذه العلاقات التي أقامتها الجزائر بمعزل عن العثمانيين بصفة خاصة في الميدان التجاري حيث كانت مقرا للعديد من التجار من مختلف الأمم الأوروبية وهذا نابع عن حرص هذه الدول على مواصلة علاقاتها التجارية مع هذا البلد ، وتحدثت الكتابات والدراسات على صادرات الجزائر مستعملة مصطلح " الجزائر " عوضا عن مصطلح " الإيالة " أو " النيابة " بما في ذلك بيرم الخامس وابن أبي الضياف وحتى في استعمال مصطلح " نيابة " عوضا عن " إيالة " ففيه نبرة استقلالية باعتبار أن السلطنة العثمانية اعتبرت خير الدين " نائبا " عنها بكربك وليس تابعا لها .

ساد التوتر العلاقة مع أنقلترا خاصة بعد 1807م عندما تزعمت هذه الأخيرة حملة معادية للجزائر في مؤتمر فيينا 1814م وبقية المؤتمرات التي تلتها ومن أبرز بنود المؤتمر المطالبة بتحرير القرصنة والاستقرار في النيابات.

أعادت أنقلترا في مؤتمر اكس لا شابال 1818م عرض مشروعها وفي سنة 1819م توجهت قوة بحرية فرنسية - بريطانية لإبلاغ الداي قرارات المؤتمر لكنه رفض التحذير مؤكدا أن من حقه تفتيش كل السفن وهكذا فشلت المهمة.

ج- حروب الجزائر

تُعدّ الحروب التي أقامتها الجزائر دون استشارة العثمانيين من أبرز الأدلة على هذه التبعية المحدودة أو هي التبعية التي تتأرجح بين الاستقلالية والطاعة الجزئية أو المرتبطة بظرفية معينة ذلك أن الجزائر - التي تحكمها فكرة أنها هي من استنجدت بالقوة العثمانية بناء على طلب من خير الدين - حرصت على تحسيس الأتراك بأن لها كلمتها في المنطقة وأرادت أن تفرض هذا المنطق من خلال الحروب خاصة مع جارتها تونس وتدخلها المستمر في إذكاء نار الفتنة الباشية - الحسينية⁽⁵⁴⁾ فابن أبي الضياف وبيرم الخامس تحدثا عن هذه الحروب والباحث وراء السطور يستشف هذه النزعة الاستقلالية إذ عادة ما يُقدم التابع على استشارة المتبوع في كل القرارات وهذا ما لم يحصل مع الجزائريين في القرنين 18م و 19م ولو في علاقتها مع الدول الأخرى مثل فرنسا وأنقلترا. وفي الحقيقة فإن الصراع بين تونس وجارتها يجد جذوره حتى قبل انتصاب العثمانيين بالجزائر عام 1519م. كما يظهر هذا الاستقلال المحدود في الدور الذي لعبته المدينة الجزائرية في حماية الهاريين من تونس زمن الفتنة⁽⁵⁵⁾.

أقدمت الجزائر إذن على القيام بحملات عسكرية على تونس مثل حملة شعبان خوجة صحبة صاحب طرابلس على محمد باي بناء على تحريض من محمد بن شكر الذي هرب من الباي إلى الجزائر والذي أوحى له بأن محمد باي يريد الجزائر وطرابلس والتي انتهت بهزيمة محمد باي سنة 1105هـ / 1694م⁽⁵⁶⁾.

تواصل هذا التصادم في عهد مراد باي ونذكر خاصة الحملة التي التقى فيها الجمعان (صاحب الجزائر من ناحية ومراد باي من ناحية ثانية) في قسنطينة في محل يعرف بجوامع العلماء في السابع عشر من ربيع الثاني 1112هـ / الجمعة أكتوبر 1700م⁽⁵⁷⁾.

لا يهمنا نحن في هذا العمل سرد هذه الصراعات والمواجهات بقدر ما يهمنا إعلان الجزائريون للحروب دون استشارة العثمانيين حيث لم يذكر ابن أبي الضياف ولا محمد بيرم الخامس تدخل أو أمرا صدر من الباب العالي بالرغم من أن الجزائر كانت في ذلك الوقت إيالة عثمانية ، وفي نفس الوقت لا يهمنا

إن تلقت تونس أوامر عثمانية أم لا لأن ما يعيننا هنا الجزائر بالأساس. والملاحظ في الحروب الجزائرية- التونسية أن مدينتي الكاف من الجانب التونسي وقسنطينة من الجانب الجزائري لعبتا دورا هاما في هذه المواجهات باعتبار أنهما ظلتا المدينتان الأكثر عرضة للاعتداء والمواجهة وربما يعود ذلك إلى أن الطريق التي عادة ما تسلكها المحال تمر بهاتين المدينتين الحدوديتين.

تواصلت المواجهات زمن إبراهيم الشريف وأيام صاحب الجزائر عشي مصطفى سنة 1117هـ / أبريل 1705م وكانت مدينة الكاف ساحة الصراع كالعادة وتقدم صاحب الجزائر خلال هذه الحروب بشروط لإنهاء الحرب تمثلت أساسا في خلاص مقدار من المال وألف بعير.

ما يهمنا في هذه الحرب ليس أطوارها أو نتائجها وإنما تلك الشروط التي فرضها صاحب الجزائر وكذلك قرار إنهاء الحرب الصادر من الجزائر وليس من العثمانيين لأنه من المتعاهد عليه أن تتدخل الإمبراطورية العثمانية باعتبار أن الحرب كانت بين إيالتين تابعتين لها ثم أنه كان من المفروض أن تدفع الأموال الناجمة عن صلح ما إلى السلطنة وليس إلى الجزائر ولكن عندما يفرض صاحب الجزائر شروطه فهذا يعني إيماننا منه باستقلالية بلده ولو جزئيا وأن التبعية روحية فقط .

استمر هذا التدخل في تونس في عهد الدولة الحسينية حيث تحركت محلة الجزائر زمن حكم حسين بن علي⁽⁵⁸⁾ من الكاف أين كانت تتمركز باتجاه تونس رغم الإغراءات التي قدمها الباي حسين والمتمثلة أساسا في المال درءا للقتال، وكانت هذه المحال - زمن عشي مصطفى - تخرب وتنهب المدن ، يحصل كل هذا تحت مراقبة السلاطين العثمانيين من مركز الخلافة ولعل هذا ما لخصه يوسف صاحب الطابع أثناء زيارته للقسنطينية¹ عندما لأمه السلطان العثماني سليم خان⁽⁶⁰⁾ على التأخير في تهنتته حيث قال : " إن الحروب بين تونس والجزائر بمرأى منكم ومسمع ..."⁽⁶¹⁾ .

حادثة أخرى وردت في " الإتحاف " في الجزء الثالث منه عندما تحدث ابن أبي الضياف عن تواطؤ وكيل الجزائر بتونس مع حمودة باشا من أجل التخلص من حسين باي بن إسماعيل بن يونس باي الذي توفي أبوه بالجزائر ، هذه الحادثة وإن كانت مهمة في تاريخ العلاقات التونسية - الجزائرية إلا أن ما يلفت الانتباه فيها هو وجود وكيل للجزائر في تونس وعادة ما يقوم الوكيل بتنظيم العلاقات بين البلدين وبمتابعة رعاية البلد في الخارج وهو ما يعني أن الجزائر بلدا مستقلا في الحقيقة عن الإمبراطورية العثمانية - ولو سياسيا فقط - فلو قارنا وضعه بوضع البلاد التونسية لرأينا أن هذه الأخيرة أكثر تبعية والتصاقا بالسلطنة وهو ما يؤكد تصرف الجزائر في الحروب⁽⁶²⁾ وفي إبرام الصلح أيضا وهو ما يدعمه ابن أبي الضياف الذي ذكر أن الجزائريين نكثوا صلحا منعقدا في 1232هـ / 1816م مما دفع

¹ - 1209هـ / ماي ، جوان 1795م.

بتونس إلى الاستعداد للحرب⁽⁶³⁾، ولئن تدخلت الإمبراطورية العثمانية في هذه الحادثة إلا أن ذلك كان من باب السعي إلى الصلح بين البلدين⁽⁶⁴⁾ وهو ما يعني أن الدولة العلية العثمانية تدخلت بواسطتها وسيطا لتجنيب المؤمنين "شر القتال" والعبارة لابن أبي الضياف. كان يحرك هذا التدخل الوازع الديني الذي غالبا ما كانت الإمبراطورية العثمانية تستعمله وسيلة لإثناء الجزائر عن عمل ما.

تظهر هذه النزعة الاستقلالية جلية أثناء حرب الجزائريين مع الفرنسيين (1245 هـ / 1860 م) التي أُنْهَمت فيها الباي التونسي بالتواطؤ مع فرنسا حيث لاحظنا غيابا تاما للحضور العثماني عن الأحداث إذ تتصرف الجزائر في مواجهتها للفرنسيين وكأنها دولة مستقلة.

2- هندسة ووظيفة المدينة في الجزائر:

لا نستطيع تناول تاريخ الجزائر في القرنين 18 و 19م دون التطرق إلى المدينة الجزائرية التي فرضت وجودها في الكتابات وفي الأحداث فقد تميزت بهندسة ووظيفة دفعت بالعديد من المصادر إلى تناولها، ولعل ما يهمنا نحن في هذا العمل هو المصدرين الذين من خلالهما نبحت في صورة الجزائر وهما " إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان " لأحمد بن أبي الضياف و " صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار " لمحمد بيرم الخامس ، ولئن سكت الأول في إتحافه عن وصف المدينة الجزائرية - وهذا ناتج عن عدم زيارة الرجل للجزائر إذ اكتفى كما سبق وأن ذكرنا بالتعامل مع التقارير الرسمية انطلاقا من وضعه ككاتب في البلاط - فإن الثاني لم يفوت فرصة وصفها وهذا مرده زيارته لها فكان وصفه وصفا دقيقا بداية من المرسى الذي نزل به وصولا إلى أزقة وأنهج المدن فكان بذلك مكمل لابن أبي الضياف في تناوله لجغرافية الجزائر.

أ- هندسة المدينة الجزائرية

سنحاول من خلال " صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار " أن نرسم تخطيطا واضحا للمدينة الجزائرية انطلاقا من بعض المدن التي ذكرها محمد بيرم الخامس أثناء مروره وإقامته بها عند ذهابه إلى فرنسا للتداوي وجاءنا هذا الوصف في الجزء الرابع خاصة حيث أفرد كاتبنا بابا كاملا - أو لنقل عنصرا بتسعة عشر صفحة⁽⁶⁵⁾ - علاوة على مجاء متناثرا في بقية صفحات الكتاب - للحديث عن الجزائر بعمرانها و مجتمعا وعاداته واقتصادها وخاصة تجارتها - عكس ابن أبي الضياف الذي تحدث عن الجزائر بطريقة متناثرة موزعة على أجزاء كتابه الثمانية ، فإثر وصفه لمدينة بونة⁽⁶⁶⁾ - وهي أول مدينة جزائرية تحدث عنها بيرم الخامس لأنها يبدو الأولى التي زارها إثر رجوعه من فرنسا بحرا خلال زيارته الأولى لهذا البلد الأوروبي - حدد بيرم موقعها فهي تقع على الجبل وفيها مرسى ، فهي إذن مدينة يتعانق

فيها الجبل مع البحر تذكرنا ببعض المدن التونسية في الشمال الغربي مثل طبرقة وهي مدينة حدودية مع الجزائر.

تتميز مدينة عنابة بسيطرة النمط المعماري الأوروبي وهو ما يعني إما التأثير بالفرنسيين في الهندسة المعمارية أو أن المباني هي في الأصل لسكان أوروبيين قدموا إلى الجزائر وجلبوا معهم نمطهم المعماري على غرار ما فعله الأندلسيون إذ لا ننسى أن الجزائر استقرت بها جالية أوروبية كبيرة⁽⁶⁷⁾ مثل تونس وبقيّة المستعمرات الفرنسية الأخرى. يتوسط المرسى البنايات في قلب المدينة وهي هندسة موجودة تقريبا في كافة المدن المغاربية⁽⁶⁸⁾، بالقرب منه توجد بطحاء وقهاوي و حوانيت ومنازل للمسافرين⁽⁶⁹⁾.

تبدو مدينة عنابة إذن مدينة نشيطة تجاريا وهو ما يساعد على توفير الشغل المباشر وغير المباشر ويحرك الدوايب الاقتصادية، توجد في وسط البطحاء حديقة صغيرة للتنزه وبالقرب من المرسى الجامع. يعتبر المرسى إذن شريان المدينة وهو ما يجعل الوظيفة الاقتصادية للمدينة الجزائرية تقترب بالوظيفة الدينية من ناحية وبالوظيفة الترفيهية من ناحية ثانية وعلى غرار ما هو موجود في بقية المدن العربية الإسلامية ينتصب الجامع بالقرب من الحمام وذلك لمساعدة المصلين على التطهر قبل دخولهم للصلاة أما وظيفة الميناء فيؤكد محمد بيرم الخامس أنها صناعية وهو ما يوحي بأن عنابة هي صناعية بالأساس⁽⁷⁰⁾ لكن عن أي نشاط صناعي يتحدث بيرم ٩.

إنه معدن الحديد الموجود بالقرب من المدينة والذي يوجه إلى مرسليليا⁽⁷¹⁾ فالمدينة تعتمد على المناجم وخاصة الحديد الذي يتم تحويله في فرنسا بعد أن يجلب من الجزائر عبر ميناء مرسليليا وهي طريقة اتبعتها فرنسا مع جميع مستعمراتها في شمال إفريقيا فلم يذكر بيرم وجود مصانع في عنابة الأمر الذي أكدّه أندري ريمون في كتابه " المدن العربية الكبرى في العصر العثماني " والذي أكد أن الجزائر مدينة تتميز بضعف نشاطها الحرفي إذ لم يكن بها سوى ثلاثة وثلاثون طائفة مهنية من حرفيين وتجار⁽⁷²⁾ فأندري ريمون أراد بهذه الإحصائية أن يذكرنا بضعف النشاط الاقتصادي في الجزائر ولكنه رغم ذلك لعبت الأنشطة الاقتصادية دورا أساسيا في تنظيم المدينة الجزائرية ويتجلى ذلك خاصة في المدن الكبرى التي تقع جغرافيا على المحاور التجارية الرئيسية رغم أن هذه الأنشطة التجارية ظلت نمطية⁽⁷³⁾.

فسر أندري ريمون هذا الضعف باتجاه الجزائر - كسائر المدن العربية الأخرى - إلى الاكتفاء بالريح المعقول وبرفض المنافسة لأن الجزائريين تعودوا على المعيشة وسط جماعات مغلقة (طوائف) وداخل إطار جغرافي منحصر (السوق) والاتجاه نحو الانطواء داخل عالم يعتقد العرب - بحكم العادة - أنه متفوق على عالم خارجي يجهلونه عن عمد، يدعم هذا الرأي برنارد لويس الذي قال : " لقد عاشت الشعوب

الإسلامية في حماية القوة العسكرية للإمبراطورية واستمرت هذه الشعوب حتى فجر الأزمنة الحديثة تتلذذ بالاعتقاد بأن مدينتها ستظل على الدوام وإلى حد بعيد متفوقة على جميع المدن الأخرى.⁽⁷⁴⁾

نستطيع التعمق أكثر في أهم الحرف الموجودة في مدينة عنابة من خلال الوصف الذي قدمه محمد بيرم الخامس لجامع المدينة والذي صادف أن صلى فيه إذ هو مفروش بالحصير والسمار على نحو ما هو موجود في تونس وبقية البلدان العربية المسلمة الأخرى⁽⁷⁵⁾ وهذه المفروشات لا شك أنها صُنعت من نبات المنطقة إذ عادة ما يتم استغلال خصوصية كل منطقة في الصناعات التحويلية في أي بلد.

تطبع هذه الهندسة المعمارية أيضا مدينة الجزائر – التي زارها محمد بيرم الخامس أيضا⁽⁷⁶⁾ – إذ نجد المرسى يشكل نواة رئيسية للمدينة والأبنية هي على نحو ما هو موجود في عنابة و توجد بالقرب من المرسى الجوامع ثم الحوانيت و تتركز خارج المدينة البناات للإقامة – أي الأحياء السكنية – ومقامات الأولياء والعلماء – مثل مقام سيدي عبد الرحمان الثعالبي – والبساتين و توجد كذلك منازل إقامة للمسافرين على النمط الأوروبي مما يعني أن المدينة تحتوي – إضافة إلى سكانها الأصليين – سكانا آخرين من خارج الجزائر مما يضيف عليها طابعا اقتصاديا.

رصد محمد بيرم الخامس هذا التنظيم في مدن جزائرية أخرى على غرار وهران ، تلمسان ، قالمة ، سكيكدة ، بجاية وجيجلي وهي مدن بنيت على النمط الأوروبي وكذلك الشأن بالنسبة لقرى صغيرة زارها أيضا. والملاحظ في هذه المدن هو الازدواجية بين المدينة العتيقة (العربي) والمدينة الجديدة وهي ظاهرة طبعت المدن العربية الكبرى حسب أندري ريمون.

يؤكد محمد بيرم الخامس أنه توجد خارج قلب المدينة الحارات القديمة الشبيهة بحارات تونس فالمدينة ذات وجهين وجه عتيق وآخر عصري وتتميز المدينة العتيقة بضيق أنهجها وهي صفة كل المدن العربية القديمة في مصر و تونس والمغرب وعادة ما تكون لهذه المدن الجزائرية أبواب بدفة واحدة على غرار أبواب دور عنابة ويكون هذا الباب مقوسا قليل الارتفاع⁽⁷⁷⁾.

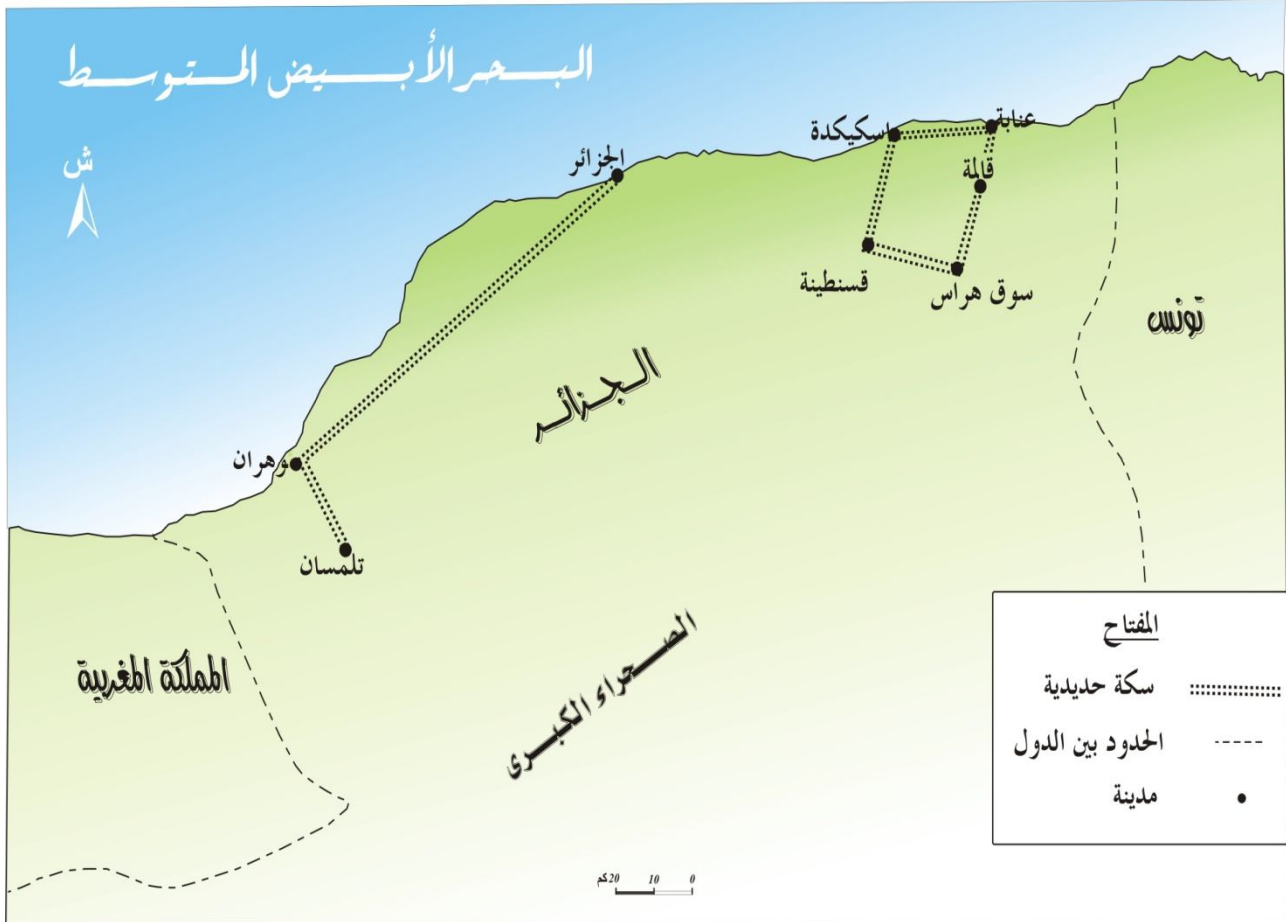
تحتوي المدينة الجزائرية – إضافة إلى المرسى والحوانيت⁽⁷⁸⁾ والجوامع والأحياء السكنية – على سوق للخضر وهي سوق واسعة فيها قبة من الزجاج تحمل على قطع حديد مرفوعة على أعمدة حديدية والحيطان مقسمة إلى أمكنة ، يعني أنها بطحاء مسطحة – على غرار ما يوجد اليوم – وكل تاجر ينفرد بجزء معين دون أن يكون هناك تقسيم بواسطة البناء أي أنها قيساريات⁽⁷⁹⁾ كتلك التي تحدث عنها أندري ريمون وهذه السوق في الحقيقة هي ظاهرة قديمة لدى العرب عموما ظهرت منذ الجاهلية وموجودة إلى يومنا هذا.

على مسطح متعامد ومساحة صغيرة إلى درجة جعلت الأسواق تنمو على طول الشوارع المؤدية إلى الأبواب وخاصة في اتجاه باب مخزون مخرج المدينة الرئيسي⁽⁸⁰⁾ ويشير إلى أنه توجد في الجزائر ثمانية عشر قيسارية وأن هذه القيساريات هي في الحقيقة من شواهد العصر العثماني المعمارية. نلاحظ إذن أن الهيكل المعماري للمدينة الجزائرية هو هيكل متأثر بالطابع العثماني من ناحية وبالطابع الأوروبي من ناحية ثانية. يتضح - بناء على ما تقدم - أن للمدينة في الجزائر وظائف متعددة فوجود الجوامع يحيلنا بالضرورة على وظيفتها الدينية وهذا أمر طبيعي بحكم أن البلد يدين بالإسلام لذلك نجد الجامع يتوسط المدينة على نحو ما هو موجود في كافة البلدان الإسلامية وتحيط به الأنشطة الاقتصادية لا سيما التجارية ولكن ذلك لا يمنع وجود كنائس في المدن الجزائرية وهذا يحيلنا على التعايش الديني القائم في الجزائر فبيرم الخامس ذكر لنا وجود كنيسة في قالمة والواضح أن الكنيسة وجدت للجالية المسيحية الموجودة منذ القديم إضافة إلى الجالية اليهودية وهنا تستوقفنا ملاحظة وهو أن بيرم الخامس لم يذكر لنا وجود معبد لليهود رغم حضور هذه الفئة في المدن الجزائرية وهذا يعني أن هذه المعابد لم توجد قط في المدن الجزائرية أو أنها موجودة ولكن بيرم لم يصادفها في طريقه.

يذكر محمد بيرم الخامس وجود أربعة جوامع في مدينة الجزائر اثنان مالكيان واثنان حنفيان وهنا إشارة إل تعايش المذهب المالكي - المذهب الرسمي للسكان الأصليين - والمذهب الحنفي⁽⁸¹⁾ - المذهب الرسمي التركي أي العثماني - ولا تزال في الحقيقة بقايا المذهب الحنفي إلى اليوم وتتجلى في كيفية وقوف المصلي (يده مرفوعة إلى صدره) وكذلك في الصوامع الدائرية التي لا تزال قائمة في المدن العربية - الإسلامية لا سيما الجزائر.

إذا ما تجاوزنا الوظيفة الدينية التي تشترك فيها المدن الجزائرية بما في ذلك القرى فإن لهذه المدينة وظائف متعددة فعنابة مثلا - التي تركزت على الساحل المتوسطي - تضطلع إضافة إلى دورها الصناعي بوظيفة سياحية سواء كانت سياحة أثرية أو شاطئية، أما مدينة الجزائر فإن لها وظيفة سياسية إذ هي مقر الحاكم العام لقطر الجزائر ولها وظيفة اقتصادية فلاحية بالأساس وتتجلى ذلك من خلال البساتين الموجودة وعمليات السقي التي تحدث عنها محمد بيرم الخامس⁽⁸²⁾ هذا بالإضافة إلى الوظائف التجارية للمدن الجزائرية إذ أن وجود سكك حديدية - كتلك التي تربط الجزائر بوهراة وتلمسان والطريق الرابطة بين عنابة وقالمة وسوق هراس وقسنطينة واسكيدة⁽⁸³⁾ - دليل على الحركة التجارية التي تشهدها المدن الجزائرية وهي سكك أقيمت للربط بين مناطق الإنتاج وموانئ التصدير في اتجاه مرسيليا بالأساس وهنا نلاحظ مدى أهمية السكك الحديدية في القرن التاسع عشر.

أهم السكك الحديدية في الجزائر في القرن التاسع عشر



الخامس (محمد بيرم) ، صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، دار صادر بيروت ، ط 1 ، ج 4 ، المطبعة
الإعلامية بمصر ، 1302 هـ

هل كان للمدينة الجزائرية دورا تعليميا ؟ وما هي نوعية العلوم التي كانت تقدمها ؟ .

تنقسم المعارف في المدن الجزائرية إلى قسمين : إسلامية وأخرى نصرانية أما المعارف الإسلامية فقد تركزت أساسا على الفقه وبالتحديد الفقه المالكي والنحو وهنا نلاحظ تغييرا للفقه الحنفي والحنبلي والشافعي، وكانت العلوم تُدرّس في الجوامع في قسنطينة وتلمسان أما الجهات الجنوبية فقد اضطلعت فيها زوايا الطرق بهذه المهمة باعتبار أنها عادة ما تُستعمل لتدريس القرآن الكريم، أما المدرسون فقد كانوا يتلقون تعليمهم – قبل عودتهم إلى الجزائر للتدريس – إما بتونس (في جامع الزيتونة) أو في مصر (الأزهر

(أو في فاس (جامع القرويين) وهنا نلاحظ وجود حركية ثقافية بين المدن العربية ، و مردّ هذا الارتحال إلى تونس ومصر وفاس قلة العلماء في الجزائر في القرن التاسع عشر. يعود علماء الجزائر بعد تحصيلهم للمعارف إلى بلدهم للتدريس في الجوامع مقابل مرتب مالي تدفعه الدولة الفرنسية⁽⁸⁴⁾، فهذه الأخيرة هي التي تحرص على مصاريف إقامة الجوامع وهنا يطرق أذهاننا سؤال مهم: لماذا أخذت فرنسا على عاتقها مصاريف الجوامع والمدرّسين ؟.

استولت فرنسا على كل شيء في الجزائر وأصبحت تراقب كل الميادين بما فيها الديني مثل الأوقاف وبالتالي على عائداتها علاوة على أنها لم تترك جميع الجوامع مفتوحة بل بعضها ومن هنا فإن اهتمامها بالجوامع يسهل عليها عملية المراقبة حتى لا تتحول الجوامع مثلا إلى مراكز للمقاومة. إلى جانب المدرسين من أصل جزائري هناك مدرسون تونسيون ومغاربة في المدن الجزائرية وإضافة إلى الجوامع والزوايا التي ساهمت في نشر التعليم الإسلامي هناك مؤسسات تعليمية غير إسلامية إذ تمتع القسيسون بمدارس لتعليم الديانة النصرانية تقدّم - علاوة على التعليم الديني - علوما غير دينية كالرياضية التي أدخلها القسيسون الذين عرفوا بالجوزويت⁽⁸⁵⁾.

يبدو أن الهدف من إنشاء هذه المدارس ليس فقط إيجاد مؤسسات تعليمية للأجانب وإنما محاولة لتنصير المسلمين الجزائريين وهو هاجس المسيحيين منذ أن وطأت أقدامهم المدن الجزائرية. كانت هذه العلوم النصرانية تقدم في مكاتب على النمط الأوروبي والتي قسمت إلى نوعين مكاتب للذكور وأخرى للإناث وتدرس فيها اللغة الفرنسية و الكتابة و العزف على البيانو⁽⁸⁶⁾ (موسيقى)، أما المدرّسون فأغلبهم نساء وأما المرتادون ففيهم المسلمين و غير المسلمين و تكتفي هذه المكاتب فقط بالعلوم الأولى إذ لا تدرّس الدراسات العليا لأن ذلك يستوجب التوجه إلى باريس.

ب- المدينة الجزائرية بوابة للاحتلال ومركزا للحراك السياسي

لعبت المدينة الجزائرية - في كامل مراحل تاريخ الجزائر - دورا هاما في الأحداث التي شهدتها هذه الإيالة العثمانية والمستعمرة الفرنسية سواء كانت اجتماعية ، اقتصادية أو سياسية لكن ذلك لا يجعلنا نُهمّل دور الرّيف - القبيلة - في مجريات الأحداث وهو ما سنطرق إليه في الباب الأخير المتعلق بالتحوّلات السياسية والعسكرية في الجزائر في النصف الأول من القرن 19م.

ساهمت المدينة الجزائرية إذن في صنع تاريخ الجزائر منذ الاحتلال الإسباني إلى الاحتلال الفرنسي مروراً بفترة الوجود العثماني فبعد سقوط غرناطة 1492 م آخر معقل للمسلمين في الأندلس تعرض مسلمو شبه الجزيرة الأيبيرية إلى الإبادة والسجن والتنصير من الكنيسة وملوك اسبانيا مما دفع بهؤلاء إلى الاستنجاد بمسلمي الشواطئ المغربية المقابلة (تونس - الجزائر و المغرب) فاندفعت السفن من

الجزائر ومراكش لنجدة إخوانهم وفتحت المدن الجزائرية - كما التونسية والمغربية - أبوابها لهؤلاء المضطهدين مما أثار مخاوف الأسبان والبرتغاليين - الإيبيريين - وأدى إلى الهجوم على هذه المدن الساحلية واحتلالها خوفاً من أن تُوفر لمسلمي الأندلس المناخ الملائم لإعادة استرجاع أنفاسهم والعودة إلى الأندلس من جديد ومن بين المدن التي تم احتلالها مستغانم والمرسى الكبير بوهران سنة 1505 م والجزائر 1508 م وبجاية 1512 م ثم عنابة وأصبحت هذه المدن مركزاً للحراك السياسي إذ حاول سكانها طرد الإسبان لكن دون جدوى.

نلاحظ أن المدينة الساحلية الجزائرية مثلت بوابة للاحتلال الأسباني الذي قفز بالمدينة إلى واجهة الأحداث حيث سيتدعم دورها في الحياة السياسية من خلال استنجد مدينة بجاية سنة 1512 م وسكان بقية المدن سنة 1514 م بالدولة العثمانية من خلال بحارتها الذين كانوا يجوبون البحر الأبيض المتوسط وعلى رأسهم خير الدين وعروج اللذان اتخذوا من مرسى حلق الوادي بتونس ثم من جزيرة جربة قواعد لهما ، استجاب هذان الأخوان إلى نداء الجزائريين وقدموا إلى مدينة جيجل متخذين منها قاعدة لاسترجاع بجاية وفعلاً استطاعا تحريرها من الهيمنة الأسبانية ثم اتجها نحو الجزائر وبدأت المدن تسقط الواحدة تلو الأخرى وأخذ الأخوان يتقدمان نحو الغرب إلى أن بلغا مدينة تلمسان حيث جرت معركة قُتل فيها عروج وهنا تأزم الوضع الأمر الذي دفع بخير الدين إلى إقناع الجزائريين بضرورة طلب المساعدة العثمانية مقابل إلحاق الجزائر بالإمبراطورية وذلك للوقوف في وجه الأخطار المحدقة بالمنطقة ، وافق الجزائريون على هذا الاقتراح وتلقت الجزائر أول مساعدة عسكرية من الباب العالي سنة 1519 م وعُيّن خير الدين حاكماً على الجزائر التي أصبحت نيابة عثمانية ، وهكذا خرجت المدينة الجزائرية من طور الاحتلال الأسباني لتكون بوابة لاحتلال آخر ألا وهو العثماني ولتواصل دور المدينة الجزائرية السياسي في المنطقة من خلال علاقتها بالإمبراطورية العثمانية من جهة وبالبلدان المجاورة من جهة ثانية لا سيما تونس حيث شكلت المدينة ساحة حرب أو لنقل صراع بين البلدين مثل قسنطينة من الجانب الجزائري والكاف من الجانب التونسي فالعلاقة الصدامية في القرن الثامن عشر تعود إلى عهد مراد باي الذي وجه لصاحب الجزائر هدية لكن هذا الأخير ردّها⁽⁸⁷⁾، عندها عزم هذا الباي على غزو الجزائر وفي طريقه التقى بمحلة يقودها علي خوجة صاحب قسنطينة ودارت بينهما معركة انتصر فيها مراد باي ثم التقى الجمعان في قسنطينة وكانت الهزيمة من نصيبه هذه المرة⁽⁸⁸⁾ في محل يعرف بجوامع العلماء في 17 ربيع الثاني 1112 هـ / 1700 م ثم خرج بمحلة أخرى في ماي 1702 م .

ما يهمنا ليس سرد هذه الأحداث بل الوصول إلى استنتاج يتمثل في ذلك الدور الذي لعبته مدينتي قسنطينة والكاف في المعارك باعتبار أنهما مدينتين حدوديتين وأن طريق المحال عادة ما يمر بهما .

كانت المدينة الجزائرية فاعلة أيضا في ذلك الصراع الداخلي الذي شهدته تونس في القرن الثامن عشر والمعروف بالفتنة الباشية - الحسينية ، حيث ظلت المدينة الجزائرية تحتضن كل من يفر إليها من أطراف الصراع بل كانت تساند البعض منهم لاسترجاع أو افتتاح السلطة ، ليس هذا فقط بل مثلت المدينة الجزائرية مقبرة للبعض ممن توفوا بالجزائر مثلما حصل مع إبراهيم الشريف⁽⁸⁹⁾ زمن عشي مصطفى (صاحب الجزائر) أو مع علي باشا ابن أخ حسين بن علي الذي ثار على عمه⁽⁹⁰⁾ وفشل ففر إلى مدينة الجزائر وهناك استقر واستطاع استمالة صاحبها إبراهيم باشا - الذي خلف عيدي باشا - ببعض الوعود فأخذت المدينة الجزائرية على عاتقها مساعدة علي باشا وفعلا خرجت محلة الجزائر في اتجاه تونس لإعادته إلى الحكم وكانت الكاف مجددا مسرحا للنهب ثم تواصل السير إلى الحاضرة ودارت واقعة انتصر فيها علي باشا في سبتمبر 1735 م وفر حسين بن علي إلى القيروان ودامت هذه الحرب خمسة سنوات قُطع على إثرها رأس هذا الأخير في ماي 1740م⁽⁹¹⁾ .

كانت قسنطينة بدورها وجهة علي بن حسين بن الذي التحق بشقيقه محمد باي وكان آنذاك صاحب الجزائر إبراهيم خوجة ، وهكذا استطاعت المدينة الجزائرية أن تقفز من جديد إلى واجهة الأحداث من خلال احتضانها لابني حسين بن علي وهناك استطاعا أن يجمعا أنفاسهما وينطلقا مجددا بمعية محلة جزائرية في اتجاه تونس من أجل القضاء على حكم عمهما علي باشا⁽⁹²⁾ واسترجاع السلطة وكان ذلك سنة 1746 م لكن هذه الحملة باءت بالفشل لتعاد الكرة سنة 1756 م ويتم التخلص من علي باشا وإحلال محمد وعلي ابنا حسين بن علي محله.

كانت المدينة الجزائرية أيضا الملجأ المناسب ليونس بن علي باشا عندما ثار على والده⁽⁹³⁾ حيث قصد مدينة قسنطينة واختياره لهذه المدينة مردّه أنه يحظى بتقدير من صاحبها عشي حسن باي حتى أنه ألزمه داره ، كما احتضنت مدينة الجزائر إسماعيل بن يونس وهناك عاش وتزوج من جزائرية.

ظلت المدينة الجزائرية مقبرة للفارين من الاضطرابات السياسية الحاصلة في تونس حيث حل بالجزائر علي بن مصطفى وهو رجل من حوالب الترك ادعى أنه من ذرية علي باشا والحال أن سلالة هذا الملك لم تعد موجودة وكان ذلك زمن محمد باي و الذي فرّ إلى جبل باجة واستطاع أن يجمع حوله أتباعا من بعض القبائل لكنه تمت مطاردته ففر إلى الجزائر حيث مات ودفن هناك⁽⁹⁴⁾.

تواصل هذا الدور للمدينة الجزائرية في القرن التاسع عشر مع دخول الفرنسيين واحتلال البلاد حيث كان لعدد المدن الساحلية و الداخلية دورا سياسيا وعسكريا خاصة منها المدن الجنوبية والجنوبية الغربية زمن حكم الأمير عبد القادر (بين 1832 م و 1847 م).

III- الحياة الاجتماعية في الجزائر

لا يمكن التطرق إلى تاريخ الجزائر في القرنين 18 م و 19م دون التوغل في الجانب الاجتماعي ففي هذا الموضوع تحدث محمد بيرم الخامس كثيرا - وإن غيبه أحمد بن أبي الضياف - مبرزاً لنا الفسيفساء من العرقيات والجنسيات⁽⁹⁵⁾ مع التركيز على فئة استطاعت تجاوز عائق أقليتها وغربتها لتصبح فاعلة في الاقتصاد والمجتمع الجزائري بتناقضاته وتبايناته.

1- فسيفساء من الجنسيات والعرقيات

تنوعت الحياة الاجتماعية في الجزائر في القرن التاسع عشر، وقد قسم محمد بيرم الخامس سكان هذا البلد حسب الجنسيات والعرقيات التي كانت تقطنه مقدّماً تفصيلاً حول عدد كل فئة، فهذا البلد هو بلد مسلم لذلك كان عدد المسلمين هو الغالب على البقية. وعموماً يبلغ عدد سكان الجزائر - التي قسمها بيرم إلى ثلاثة أوطان و يقصد أقاليم⁽⁹⁶⁾ - مليونين وسبعمائة وستون ألفاً استأثر المسلمون بالنصيب الأوفر حيث قدر عددهم حسب بيرم مليونين وخمسمائة ألف يأتي بعدهم من حيث العدد النصارى (مائتا ألف ونيّف) وأخيراً اليهود الذين يمثلون نحو الثلاثين ألفاً.

عدد سكان الجزائر حسب الفئات في القرن 19م

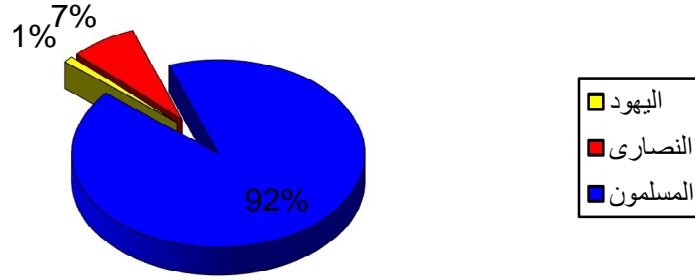
الفئة	العدد بالألف نسمة
المسلمون	2.500.000
النصارى	*200.000
اليهود	30.000
المجموع	2.760.000

أنجز هذا الجدول استناداً إلى المعلومات الواردة

في "صفوة الاعتبار"، الجزء الرابع، ص 6

* - يقول محمد بيرم الخامس أن عدد النصارى مائتا ألف ونيّف وحسب العدد الجملي وعدد المسلمين واليهود نستطيع أن نستخرج عدد النصارى بالضبط وهو مائتين و ثلاثين ألف.

محدد سكان الجزائر حسب المذهب في القرن 19 ء



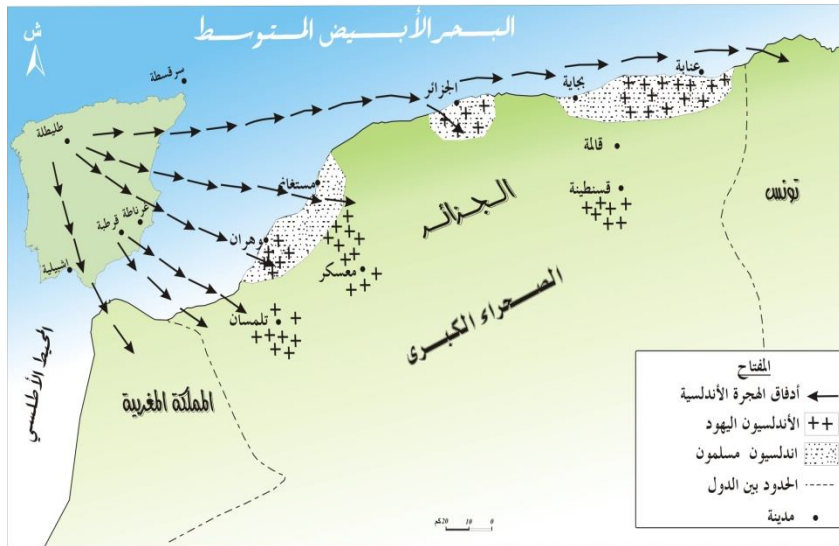
يذهب محمد بيرم الخامس في معرض تفصيله لهذه الأجناس المختلفة إلى تقديم جزء تفصيلي لسكان الجزائر فالنصارى الذين تحدث عنهم هم في الأغلبية من الإسبانيول إذ لا ننسى أن الجزائر كانت تحت الهيمنة الاسبانية قبل مجيء الإخوة خير الدين وعروج وتخليصهم منها بالتحالف مع العثمانيين ، ويبدو أن هذه الفئة استوطنت الجزائر منذ القرن السادس عشر عندما سقطت عديد المدن الجزائرية تحت هيمنة الإسبان⁽⁹⁷⁾ ثم بعد ذلك الهيمنة الفرنسية في القرن التاسع عشر (1830م) والتي أدت إلى ازدياد توافد الجالية الفرنسية خاصة بعد حرب فرنسا و ألمانيا سنة 1870م واحتلال ألمانيا لإقليمي الألزاس واللوران⁽⁹⁸⁾ مما أجبر بعض أهالي الإقليمين - والذين قدر عددهم مائة وسبعون ألف - على التحول إلى الجزائر. اختارت هذه الجنسيات - سواء كانت الإسبانية أو الفرنسية - المناطق الساحلية بينما يقطن الجهات الغربية والجبال سكان مسلمون من أصل بربري وظلت باقي الجهات موطنًا للسكان من نسل العرب. إضافة إلى هذه الجنسيات سكنت الجزائر فئات عُرِفَت بالأقليات وهي أساسا أقلية تركية⁽⁹⁹⁾ يعود تاريخها إلى بداية القرن السادس عشر 1519م عندما تلقت الجزائر أول مساعدة عسكرية من الباب العالي بناء على طلب من خير الدين وهذا الوجود التركي له ما يبرره نظرا لطبيعة العلاقة العثمانية -

الجزائرية التي استمرت حوالي ثلاثة قرون خاصة أن الجزائر أعلنت نيابة عثمانية وظلت تستنجد بالأسطول العثماني في جل حروبها وهذا من شأنه أن يُكوّن جالية تركية هناك ولو من العسكريين لا سيما أن هذه الأقلية لا يمكن أن تشعر بالغربة في الجزائر للوحدة الدينية التي تجمعها مع المجتمع المحلي .

أقليات أخرى كانت وجهتها الجزائر - وليس الجزائر فقط في الحقيقة بل أيضا تونس - وهي الأقليات الأندلسية المسلمة واليهودية⁽¹⁰⁰⁾ ، هذه الفئة التي فرت بدينها إثر تخييرهم بين إعتناق المسيحية أو مغادرة الأندلس بعد حملة التنصير وقرار الطرد في بداية القرن السابع عشر (1609 م) واسترجاع الأندلس من قبل المسيحيين فكان اختيار هؤلاء الهجرة ومنهم من اختار الجزائر للإستقرار.

خريطة الموجات الهجرية الأندلسية في اتجاه بلدان المغرب

إثر قرار الطرد لسنة 1609م



عموما كانت الجزائر قبلة لجنسيات مختلفة فرضتها أحداث تاريخية ، هذه الأقليات- التي أوردتها محمد بيرم الخامس في مؤلفه خاصة اليهود⁽¹⁰¹⁾ - تجد صداها لدى على تابلت⁽¹⁰²⁾ الذي قسمهم إلى اليهود الأهالي الذين يعتبرون أنفسهم أصيلي الجزائر ويُظهرون لها الولاء التام وهي فئة تمسكت أساسا بالانتماء إلى الجزائر واليهود الذين تعرضوا لاضطهاد محاكم التفتيش في الأندلس وهاجروا مع المسلمين إلى شمال إفريقيا ومنها الجزائر وتضم هذه الفئة نخبة من رجال العلم والثقافة العربية والعبرية واللاتينية وعلى رأسهم الحاخام ابن يمينة وقد حافظت هذه الفئة على ولائها للجزائر أيضا⁽¹⁰³⁾ .

حافظت هاتان الفئتان من اليهود على تضامنهما مع الأغلبية الجزائرية ومع الأقليات الاجتماعية الكثيرة الأخرى ودليل ذلك مقاومتها لحملة شارل الخامس سنة 1541م⁽¹⁰⁴⁾ واحتفال هذه الطائفة اليهودية بهزيمة الأسطول المعتدي من خلال الصوم وإقامة الصلوات حتى أن هذه المناسبة اعتبروها عيداً وطنياً وراحوا يحيونه سنوياً ، وقد كان لهاتين الفئتين حُظوة جعلت محمد الكبير - باي وهران - يستدعي اليهود الذين كانوا مقيمين في معسكر⁽¹⁰⁵⁾ ومستغانم وندرومة إلى وهران ويخصص لهم حياً للسكن ويمكنهم من قطعة أرض لاتخاذها مقبرة لهم.

الفئة الثالثة من اليهود يسميهم علي تابلت المغامرون و الذين هاجروا إلى الجزائر من مختلف الشواطئ الأوروبية لا سيما ليفورنو " Livournou " و يتمتع هؤلاء بمستوى رفيع من التكوين والتدريب المهني بالإضافة إلى مرونة الشخصية ومعرفتهم باللغة السائدة في حوض البحر الأبيض المتوسط وقد جاؤوا إلى الجزائر بعائلتين " Alverenga " و " Lousada " في سنة 1686م ثم التحقت بهما عائلات أخرى مثل " Molco " سنة 1690م " Benjamin Zacuto " سنة 1691م و " Tunes " و " Coen " سنة 1697م و " Joseph moise " سنة 1698م و " Nathan de Joseph Latad " سنة 1714م و " Isaad Soliman " سنة 1717م و " Neftali Busnach " سنة 1723م و " Abraham Busnach " سنة 1724م و " Abraham Bouchara " سنة 1732م و " Eliezer Sforno " سنة 1733م و " Jacob Bouchara " سنة 1736م و " Abraham Bouchara " سنة 1757م و " Coen Bacri " سنة 1774م و " Naftali Busnach " سنة 1782م⁽¹⁰⁶⁾ ، هذا إضافة إلى عائلات أخرى مثل " دوران " ، " كوهين صولال " ، " سيرور " " ناهون " ، " مواتي " ، " ليفي فالانسي " ، " تابت " ، " ستورا " ، " عمار " ، " دانيئوس " ، " توبيانا " ، " أبوكايا " ، " سرفاتي " بورتوقيز " ، أبو الكبري " و " أزولاي " ، " تمين " ، سماجياوبون جيرونو⁽¹⁰⁷⁾ .

وعموماً تشير رشيدة ياسين إلى أن الموجات الهجرية اليهودية المتعاقبة شملت بلد الجزائر نتيجة الاضطهاد الذي شهدته هذه الفئة وطردها من بعض البلدان مثل إسبانيا و سويسليا في 1492م و نابولي سنة 1541م وأن هذه الموجات تعود في الحقيقة إلى 1342م وانتهت بعد 1609م⁽¹⁰⁸⁾ وقد قدمت رشيدة ياسين تفصيلاً حولناه إلى جدول لمزيد الإثراء:

البلدان التي انطلقت منها الهجرة الأندلسية باتجاه الجزائر والسنوات

السنة	البلد الذي انطلقت منه الموجات الهجرية
1391م	إسبانيا
1350م	هولندا
1342م	إيطاليا
1422م	فرنسا
1609م	إسبانيا مرة أخرى

أنجز هذا الجدول استنادا لبعض المعلومات التي أوردتها ياسين (رشيدة) في مقالها :

*« the economic and Political Role of Jewish Minority In at the beginning
Algiers
of th 19th Century », R . A , p120*

تؤكد الكاتبة على أن ظهور اليهود في الجزائر كان نتيجة عاملين اثنين : عامل إفريقي وعامل إسباني، فأما العنصر الإفريقي فيتمثل في إتباع التقاليد واللباس الجزائري المسلم وأما العامل الإسباني فقد أشرنا إليه، ولقد كان اليهود فقراء ويواجهون التجاهل، ويظل هؤلاء مدينين لخير الدين الذي سمح لهم بالاستقرار في مقاطعة الجزائر وإن كان ذلك بشرط تحديد حركتهم التجارية وقد قُدِّر عدد المنازل اليهودية في عهده بـ150 منزلاً⁽¹⁰⁹⁾ لكن عدد المنازل لا يمدنا بإحصائية دقيقة حول عددهم باعتبار ما اشتهر به هؤلاء من العيش في منازل مكتظة.

و تشير رشيدة إلى أن اليهود استقروا في المنطقة السفلى من الجزائر⁽¹¹⁰⁾ وعرفوا بعدم اختلاطهم ببقية الفئات الاجتماعية واختيارهم لهذا الموقع تحكمه أغراض اقتصادية إذ هو قريب من الأسواق والمعابد ويذكر " Haedo " أنه وجد مائة وخمسين دارا يهودية في مدينة الجزائر في بداية القرن السابع عشر ولكنه لم يمدنا بعدد أفراد الدار الواحدة أما " Mendelossolm " فيقدم رقم 8000 شخص و " Eisenbeth " يقول أنهم 10.000 معتمدا على الإحصاء الرسمي لسنة 1621م من مجموع 160.000 نسمة في مدينة الجزائر ويذكر " Shaw " أنهم 15.000 سنة 1720م من مجموع 100.000 مسلم في مدينة الجزائر أما " Tassy " فيؤكد أنه توجد 5000 عائلة يهودية سنة 1757م⁽¹¹¹⁾. يدفعنا هذا الإحصاء الخاص بالعائلات اليهودية ومقارنته بالإحصائيات المتعلقة بالأفراد إلى اعتبار أن عدد أفراد العائلة اليهودية يناهز ثلاثة أفراد.

يذكر Venture de Paradis أن عدد اليهود في نهاية القرن السابع عشر يتراوح بين ثمانية وعشرة آلاف أما " Shaler " القنصل العام الأمريكي في الجزائر (1815 م – 1828 م) فيؤكد أن عددهم خمسة آلاف وهو ما يختلف عن الرقم الذي قدمه " Francis Khinght " حيث يقول أنهم ثلاثون ألفا وأن أصولهم إسبانية ولسنا ندري إن كان يقصد مهاجري إسبانيا سنة 1342م أو سنة 1609م⁽¹¹²⁾. وهكذا نلاحظ أن العدد تراوح بين خمسة آلاف و خمسة عشر ألفا هذا إذا استثنينا الإحصائية الأخيرة التي شكك فيها علي تابليت.

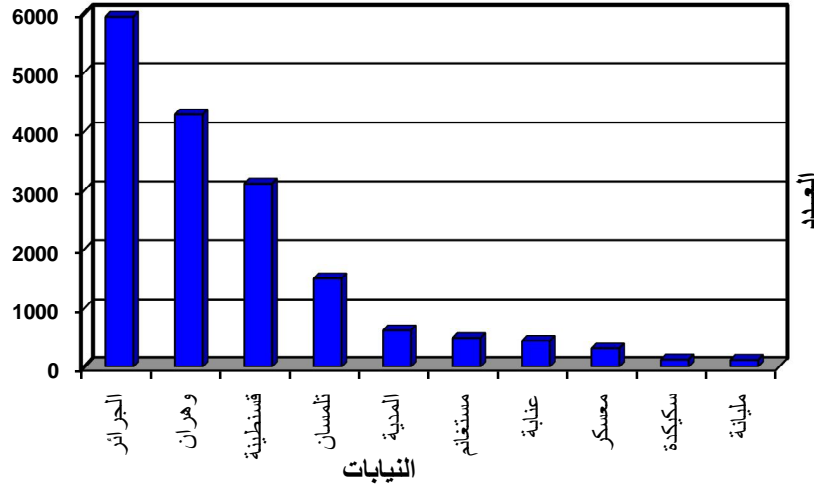
عدد يهود نيابة الجزائر ونسبتهم من مجموع السكان سنة 1843 م

المرتبة	نسبتهم من مجموع السكان (%)	العدد	المدينة
1	35.05	5.941	الجزائر
2	25.23	4.278	وهران
3	18.31	3.105	قسنطينة
4	08.89	1.508	تلمسان
5	03.68	625	المدية
6	02.94	499	مستغانم
7	02.65	450	عنابة
8	01.88	320	معسكر
9	00.69	118	سكيكدة
10	00.66	112	مليانة
		16.956	المجموع

أنجز هذا الجدول إستنادا إلى المعلومات الواردة في مقال تابليت (علي) ، " يهود الجزائر في الفترة العثمانية (1516 – 1830) " ، م. ت. ع. د. ع. ، 1995 ، عدد 11 – 12 ص 171.

* - ملاحظة : عدد اليهود في القرن 17 م يساوي عددهم في القرن 19 م.

عدد يهود نياية الجزائر سنة 1843



2- أقبليات فاعلة في الاقتصاد والمجتمع

أ- الأقبليات اليهودية

يدفعنا الحديث عن هذا الخليط الاجتماعي إلى التطرق لمسألة الأقليات في الجزائر ومدى دورها في الاقتصاد والمجتمع. أما الاقتصاد فقد اقتصر محمد بيرم الخامس على الحديث عن التجارة التي كانت مقسّمة بين الأهالي والأقلية الفرنسية والمقصود بالتجارة هنا هو المعادن التي كانت تستخرج من المناجم الجزائرية وتُحوّل إلى فرنسا عن طريق سكك الحديد التي كانت تربط مناطق الإنتاج - أي مناجم الحديد بعنابة والفضة بقالة - بموانئ التصدير إلى فرنسا⁽¹¹³⁾.

كانت الأقلية الفرنسية إذن فاعلة في التجارة ورغم حديثه عن بقية الأقليات إلا أن بيرم لم يذكر دور هذه الأخيرة في الاقتصاد وخاصة الأقليات الأندلسية - سواء المسلمة أو اليهودية⁽¹¹⁴⁾ - وهذا الدور تؤكد آثاره هؤلاء.

دفعنا هذا الشح في المعلومات في "صفوة الاعتبار" وانعدامه تماما في "الإتحاف" إلى البحث في بعض الكتابات الأخرى، فبالنسبة لليهود يشير علي تابلت أنه لا يوجد في يهود الجزائر من مارس العمل الفلاحي وأنهم اقتصرُوا على تعاطي التجارة وخاصة الصناعات الحرفية كالخياطة والصياغة والسبك وصناعة الزجاج والنحاس والسباكة والطرز وخاصة طرز الذهب على الحرير والقطيفة، كما كانوا يتعاطون صناعة الذهب والفضة وتجارة القطن والحرير والعقاقير والأدوية والبن والفلل والحديد والتوابل

والأدوات الحديدية واللحوم والفواكه والخضراوات والتبغ والعاج والشمع والمرجان وريش النعام وأنياب الفيل والخيول ووبر الجمل والخمور⁽¹¹⁵⁾،...، ولئن لم يوجد من اليهود من امتنهن الفلاحة إلا أنهم لم يتركوا هذا المجال بل عملوا فيه كممثلين للفلاحين العرب والبربر الذين يقصدون المدينة لبيع سلعهم.

سيطر اليهود إذن على كافة المجال التجاري مما أهلهم لأن يصبحوا محركا أساسيا لتجارة الجزائر إذ لا ننسى أن دواليب التجارة تدور في أرض الجزائر وإن كانت الأيادي التي تحركها يهودية ثم لا ننسى أن أغلب اليهود يطغى عليهم الشعور بالانتماء إلى هذا البلد لا سيما اليهود الفارين من الأندلس والذين احتفظت بهم الجزائر وحمتهم في القرنين 17م و 18م⁽¹¹⁶⁾. يؤكد هذا الدور مثلا جزائريا يقول: "لا يستطيع عربي بيع دجاجتين دون مساعدة يهودي له"⁽¹¹⁷⁾، لقد استنجدنا بالذاكرة الشعبية لأنها أصبحت عنصرا هاما في كتابة التاريخ ولأن الأمثال الشعبية عادة ما تعبر عن واقع معيش ويلاحظ "Gramaye" أنه سنة 1623م تم إنشاء ألفي محل تجاري في الجزائر وأن النشاط تمارسه ثلاثة آلاف عائلة تجارية تعمل في إطار جماعي ولذلك تحول أغلبية اليهود الذين انخرطوا في التجارة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى مقرضين وأعوان اقتصاد (يقدمون القروض)⁽¹¹⁸⁾. وتؤكد المراسلات القنصلية والكتابات أن اليهود وسعوا موقعهم كفاعلين اقتصاديين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وتضيف رشيدة ياسين أنه منذ نهاية القرن السادس عشر إلى بداية القرن التاسع عشر كان النشاط التجاري الجزائري الأساسي يعتمد على تجارة العبيد وأن اليهود كانوا الأكثر تكوينا في حقول التجارة وكانوا يمثلون قوة ضاربة بل والمنافس الأقوى في المتوسط والجزائر وهو ما انعكس إيجابيا على دورهم في التجارة الأوروبية والأمريكية، وفي هذا السياق كتب F. Braudel: "... مثلت الأقلية اليهودية في الجزائر في الفترة العثمانية أقلية منافسة، حيث كان اليهود أسياد الشبكات التجارية وكانوا ينتمون إلى أصناف التجار الكبار. هذه الأقلية وكأي أقلية أخرى لها ميل طبيعي للانسجام...والى الدفاع عن النفس...".

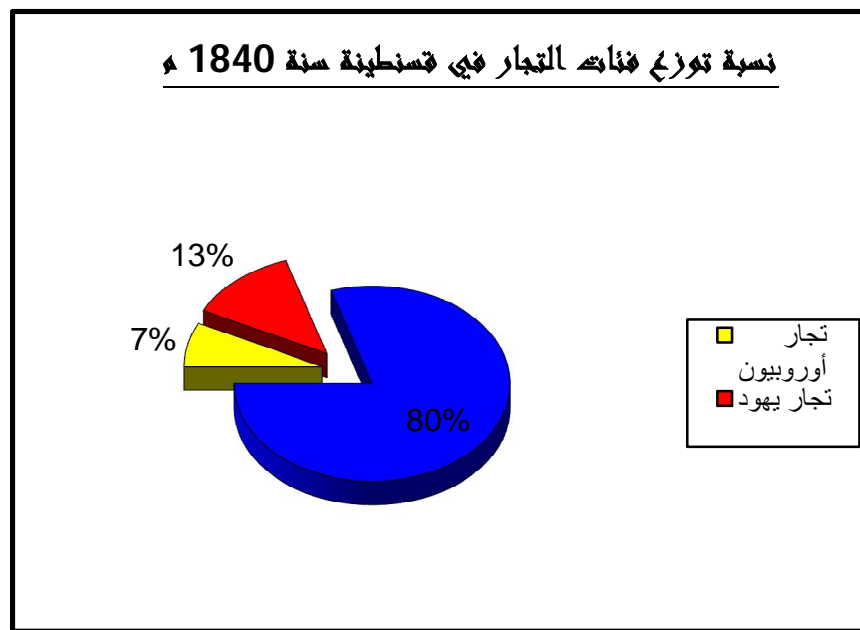
أقلق هذا الدور الفعال للتجار اليهود في الجزائر والمتوسط قناصل فرنسا الذين اعتبروهم يمارسون العنف وقد كان بعض اليهود تحت حماية القناصل الأنقليز أو الفرنسيين و ساعدتهم هذه الحماية على تدعيم وتقوية حظوظهم وهو ما ساهم في الانفتاح التجاري لنيابة الجزائر.

ساهم إحتكار اليهود للتجارة في الجزائر في تزايد تأثيرهم في النيابة فأصبحت جميع العمليات التجارية بأيديهم دون تدخل أوروبي، وقد تحكموا حتى في عملية تصدير المنتوجات حيث أكد " M. Eisenbeth " أن اليهود كانوا يصدرون القمح والجلد والزبيب وريش النعام⁽¹¹⁹⁾، وقد كان لليهود إسبانيا في قسنطينة بعد 1792م وضع اقتصادي ممتاز مع إسبانيا وجبل طارق ووصل التعامل حتى إلى ميناء المريا " Almeria " ولو بطريقة غير قانونية كما يقول علي تابلت⁽¹²⁰⁾. إضافة إلى ذلك اختص يهود قسنطينة

بتجارة الحبوب حيث بلغت نسبة تجارهم من جملة كافة اليهود 12.84 % سنة 1840م⁽¹²¹⁾ وهو ما يبينه الجدول الآتي اعتمادا على معلومات قدمها تابلت علي في مقاله " يهود الجزائر في الفترة العثمانية (1516 – 1830) " بالمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية عدد 11 - 12 من الصفحة 171:

توزع التجار في قسنطينة حسب الفئات سنة 1840م

التجار	العدد	النسبة المئوية (%)
تجار جزائريين	1261	79.81
تجار يهود	203	12.84
تجار أوروبيين	116	07.34
العدد الجملي	1580	99.99



ويتوزع اليهود في قسنطينة على ثلاثة قطاعات رئيسية : الأقمشة والصياغة والخياطة.

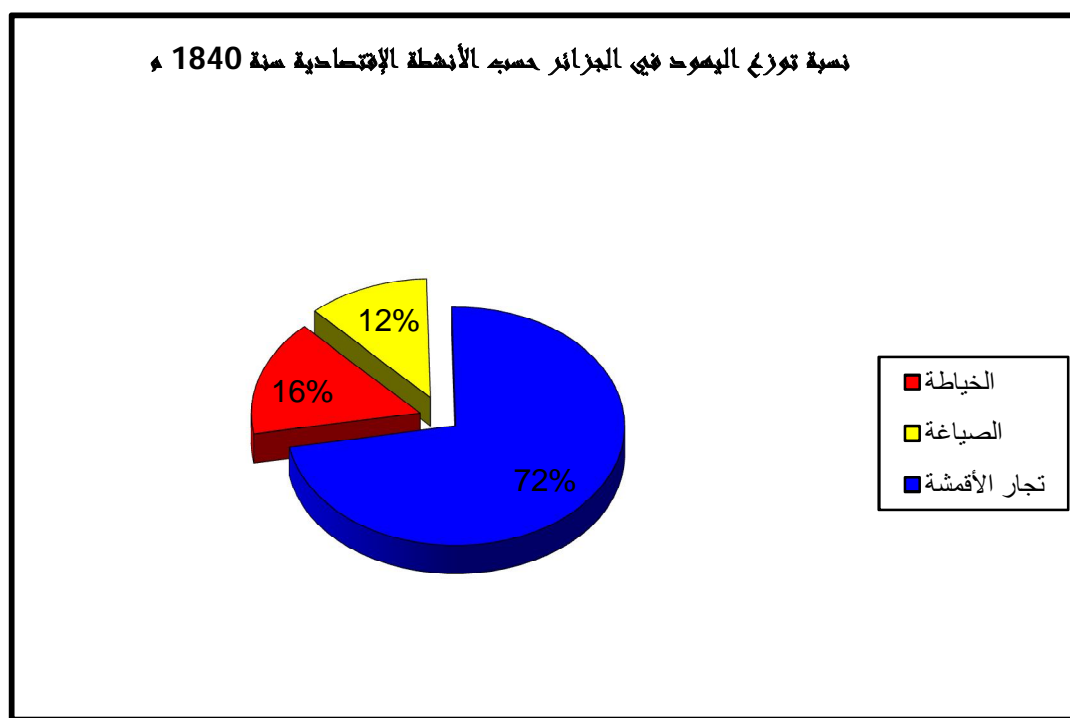
توزع اليهود في قسنطينة حسب الأنشطة الاقتصادية

ونسبتهم في كل قطاع

الأنشطة الاقتصادية	عدد التجار اليهود	نسبة التجار اليهود (%)
تجارة الأقمشة	106	72.60
الصياغة	17	11.64
الخيطة	23	15.75
المجموع	146	99.99

تم إنجاز هذا الجدول اعتمادا على مقال لتابليت علي ورد بالمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية عدد 11- 12 ، 1995 من الصفحة 171 بعنوان " يهود الجزائر في الفترة العثمانية (1516 – 1830)

وقد رأينا تحويل هذا الجدول أيضا إلى رسم بياني لمزيد الإثراء والتوضيح واخترنا له عنوان:



كما سيطر اليهود على مجال صك العملة إذ اشتغلوا موظفين في دار السكة واضطلعوا بمهام مراقبة العملة ومعادنها ، إضافة إلى ذلك لعبوا دور وسطاء بين الأهالي خاصة في البادية وكذلك وسطاء مع الأتراك العثمانيين وكانوا يؤجرون حاناتهم للأتراك رغم منعها قانونيا وهذا التجاوز للقانون يحمل أكثر من معنى فهو يدلّ على أنهم قوة فاعلة في الاقتصاد إذ عادة ما يتم تجاهل بعض المارقين عن القانون نظرا لمكانتهم في الاقتصاد أو في المجتمع. كما سيطر التجار اليهود على موانئ منتشرة في كافة أرجاء العالم وكان لهم انتشار واسع و اتصالات مع يهود بقية العالم لا سيما يهود فرنسا وأبرز الموانئ التي سيطروا عليها : مرسيليا ، قرطاجنة ، جنوة ، تونس ، الإسكندرية ، أزمير ، نيويورك ، أرزيو ، جربة ، جبل طارق ، أغادير ، ليفورن ، تطوان ، طولون ، البندقية ، جنوب سردانيا ... وهكذا أصبح التجار اليهود لهم " نفوذ كبير على الدّاي" (122) ولعل أبرز مثال على هذا الدور الفاعل لليهود في الاقتصاد الجزائري هو مؤسسة تجارية يهودية لعائلة بكري والتي تسمى دار بكري وبوجناح التجارية :

• دار بكري وبوجناح التجارية (123)

أردنا التطرق إلى مؤسسة دار بكري وبوجناح التجارية لأنها تعتبر أهم صورة لمدى فاعلية اليهود في الاقتصاد والمجتمع ، ميزت هذه المؤسسة أواخر القرن الثامن عشر وهي تعود في الأصل إلى عائلة يهودية قدمت من ليفورن (Livourne) في نهاية القرن السابع عشر وطيلة القرن الذي يليه ، تركزت هذه الفئة من اليهود - التي سبق الإشارة إليها في عملنا - أساسا في المدن الساحلية الجزائرية ، ويعود تزايد نفوذها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي هناك إلى الامتيازات التي منحها إياها الدايات والبايات حيث تمتعت بحريّة تامة في التنقل لذلك عرفت بفئة " اليهود الأحرار" (124) .

تتكون هذه المؤسسة من عائلتي بكري و بوجناح ويذكر أن هذه الأخيرة استقرت في الجزائر في حدود 1723م ومثلها نפטالي بوجناح ثم التحق به سنة 1724م إبراهيم بوجناح أما عائلة بكري فقد ظهرت في الجزائر في حدود 1770م وفي سنة 1782م كون أبناؤه جوزيف و جاكوب و سولمون وموردوشي شركة تجارية (125) ، أما الابن الخامس أبراهام فلم ينظم إلى هذه الشركة غير أنهم كانوا يعملون سويا في هذا المشروع التجاري وفي 1797م انظم إليهم نפטالي بوجناح وأصبحت الشركة تعرف باسم شركة الأخوة بكري وبوجناح وقد تدعّمت هذه الشركة اثر قيام علاقة مصاهرة بين العائلتين (126) .

ظل النشاط التجاري مرتبطا بالعلاقات المتميزة مع الدايات والبايات الجزائريين وهو ما يقودنا إلى القول بأن الدور المتنامي لليهود في الاقتصاد وخاصة التجارة في الجزائر ليس مرده فقط قدرتهم على إدارة هذا النوع من النشاط - وإن كان ذلك عاملا مهما - وإنما مرتبط أيضا بعلاقتهم المتميزة بالسلطة

الجزائرية آنذاك في القرن الثامن عشر ذلك أن بوجناح عُرف بهيمنته على الدايات وصلت إلى حدود تدخله في تعيين البايات⁽¹²⁷⁾. نلاحظ إذن أن هناك ازدواجية بين الاقتصاد والسياسة لدى اليهود.

يذكر القنصل العام الأمريكي بالجزائر " Richard O'Brien " أن المؤسسة التجارية للإخوة بكري وبوجناح تحتوي على 170 سفينة تجارية تبحر سنويا إلى أوروبا محملة بالقمح و الشعير والأصواف و الجلود المدبوغة وغير المدبوغة والزيت وقد قدر قيمتها بـ 2.500.000 دولار سنويا ويؤكد أن الشركة لها عقد - رخصة - من الداي وحدد القنصل مجال الشركة الجغرافية من نيويورك إلى ما وراء سالونيك و يضيف أن الشركة لها ممثلين تجاريين في معظم مدن حوض البحر الأبيض المتوسط⁽¹²⁸⁾. إذن هناك سيطرة على كافة تجارة المتوسط ويقول القنصل الفرنسي " Jean bon Saint André " : " من كان يعتقد أن كل تجارة البحر المتوسط ستقع في أيدي يهوديين من الجزائر؟ (في إشارة إلى بكري وبوجناح) لا أحد. وعلى أية حال، إنها أكثر من حقيقة... ما من مكان هام إلا وتجد فيه ممثلين تجاريين لبكري وبوجناح...⁽¹²⁹⁾ .

كان الإخوة بكري وبوجناح يشتريان السفن التي يستولي عليها أسطولي الجزائر وفرنسا وهي سفن تابعة للحلفاء إبان الحروب النابولونية ، كما كانا يقومان بشراء حمولات السفن المأسورة الأمر الذي دفع بعلي تابلت إلى وصف الإخوة بكري وبوجناح " بالقراصنة " حيث يقول : " ثبت قطعيا أن بوجناح شارك في الإشراف على القرصنة...⁽¹³⁰⁾ لكن كيف ذلك ؟ عندما تأسر السفن الجزائرية سفنا أجنبية تبيعها في موانئ شمال إفريقيا مثل تونس و سلا وأغادير وينقل ممثلو بوجناح ناتج البيع إليه في الجزائر.

ارتبطت التجارة عند هذه الشركة بالدبلوماسية حيث كان بوجناح على اتصال مباشر مع جميع الممثلين الدبلوماسيين الأوروبيين في الجزائر وكان يعمل وسيطا بين الدول حيث يذكر علي تابلت أن بوجناح أوقف حربا وشيكة بين الجزائر وبريطانيا سنة 1800م وفاوض على السلام بين الجزائر وفرنسا في 1801م وقاد مفاوضات لمعاهدة جديدة بين البرتغال والجزائر سنة 1803م. كان لبوجناح إذن دورا سياسيا متناميا - لا يقل أهمية عن دوره التجاري - إلى درجة أن القنصل الأسباني أطلق عليه عبارة " نائب ملك الجزائر " ، كما أشار القنصل الأمريكي " Richard O'Brien " إلى هذا النفوذ السياسي لبوجناح وبكري سنة 1803م في قوله التالي : "... إن نفوذ عائلتي بكري وبوجناح في هذه الإيالة يُعدّ نفوذا قويا إذ يمثلان مجلسا استشاريا ، وبإمكانهما أن يعلننا حربا علينا عندما يرون ذلك مناسباً... قاما بصنع سلام مع الفرنسيين برغم قرار الباب العالي (اعتقد أن ذلك وقع في عهد الداي مصطفى وفي حملة نابليون على مصر سنة 1798م) جعل الداي في مأزق مع الأنقليز فهذا نفوذ سياسي... إنهم يحصلون على المال المطلوب، ويشعلون نار الفتيلة...⁽¹³¹⁾ .

يلخص هذا النفوذ المتنامي لليهود في الاقتصاد والمجتمع الجزائريين تقرير القنصل الأمريكي " Joel Barlow " إلى الرئيس الأمريكي جورج واشنطن سنة 1796م الذي ذكر فيه أن العملة أصبحت نادرة التداول في الجزائر وذلك : " لأن دار اليهود الذين يعملون كسماسرتنا قد تعطلت أموالهم في فرنسا... " (132) . كانت عائلة بكري تقدم القروض المالية إلى القناصل لضدية أسراهم أو لاستعمالها في شراء الهدايا المقدمة للدّاي (133) .

لمزيد توضيح هذا الدور الاقتصادي يورد علي تابلت تصريحاً لـ " Joel Barlow " وجوزيف دونالدسون في سنة 1796م وفيه : " بكري اليهودي ... له من النفوذ ما يفوق كل نفوذ الإيالة ، وأنه استطاع أن يهدئ الداي ويمدد أجل معاهدة السلام بين الجزائر وأمريكا مدة ثلاثة أشهر... ورائنا من الضروري ... أن تقدم هدية لهذا اليهودي بمبلغ 10.000 سكوي (عملة جزائرية تعادل آنذاك 18.000 دولار) في حالة نجاحه... " (134) .

احتكرت هذه العائلة تجارة تصدير الحبوب – وهو ما يعني السيطرة على إحدى أهم المواد الأساسية – حيث استطاعت أن تصدر ما بين 1793م و 1798م كميات كبيرة منها إلى فرنسا مما ساعدت على إبعاد شبح المجاعة عن المقاطعات الفرنسية المحاذية للبحر الأبيض للمتوسط الأمر الذي أدى إلى توسيع تجارة بكري في فرنسا وتنشيط مستودعاته في مرسيليا .

كانت هذه الشركة تنافس التجار الفرنسيين مما أثار غيرة هؤلاء ويظهر ذلك من خلال اتهامات سجلت ضد اليهود وضد عائلة بكري بالخصوص نتيجة احتكارها تصدير الحبوب ، كما اتهم بعض ملاك سفن مرسيليا عائلة بكري بتحريض الدّاي على حجز سفنهم في أعالي البحار وبيعها كغنائم في تونس عن طريق مزاد علني وقد أعلنت الغرفة التجارية بمرسيليا سنة 1810م أنه : " مادام اليهود هم السادة فإنه لا يمكن لفرنسي أن يغامر بإقامة تجارة هناك " (135) .

ويذكر القنصل الفرنسي جان بون سان أندري أن اليهود كانوا يستعملون نفوذهم لصالح بريطانيا وفعلاً فقد حاول الأنقليز سنة 1793م إقناع اليهود بتوقيف شحنات الحبوب إلى فرنسا ومن هنا بدأت فرنسا تماطل وتتأخر في تسديد ديونها للجزائر ، وقد صرح دي لاكروا " Delacroix " وزير خارجية فرنسا بكل وضوح : " أن سبب حجز أو احتفاظ هذه المبالغ يعود إلى هؤلاء اليهود " ويضيف : " ... وسنمنعهم مستقبلاً في إبعاد أنفسهم تماماً عن مصالحنا... " (136) .

لم يؤد هذا النفوذ الاقتصادي والسياسي إلى جعل اليهود أقلية فاعلة في المجتمع إذ في الحقيقة لم يتركوا عادات وتقاليدهم ولم يؤثروا اجتماعياً وذلك لأنهم عرفوا بالانغلاق خاصة أنه مورس عليهم الحصار من قبل البايات كما أنهم لم يندمجوا في المجتمع بل أُجبروا على ارتداء الألباش الدكنة لتمييزهم عن

البقية⁽¹³⁷⁾ ويذكر " Haedo " أن اليهود كانوا يرتدون في القرن الثامن عشر الأسود من الرأس إلى أسفل القدمين ولا يسمح لهم اتخاذ أحزمة من القطن الأحمر وأي لون برّاق وكانت حلاقتهم تشبه طربوشا أسودا ...، وقد خُصّص لليهود حارات خاصة بهم في الجزائر كما في بقية البلدان العربية والإسلامية الأخرى ولم يستطع اليهود حتى الاندماج في بعضهم البعض حيث اختلف لباسهم من فرقة إلى أخرى. هذه هي وضعية الأقليات اليهودية الاقتصادية واجتماعيا في الجزائر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحتى قبل ذلك فهل لعب الأندلسيون المسلمون – والمقصود هنا الموريسكيون الذين فروا مع اليهود من الأندلس بعد سقوط غرناطة 1492 م أو بعد قرار الطرد 1609 م / 1016 هـ إلى حدود 1614 م الذي اتخذته الملك الإسباني فيليب الثالث – نفس الدور وإن كانت هجرة هؤلاء بدأت حتى قبل سقوط غرناطة كما يؤكد ذلك عبد الجليل التميمي⁽¹³⁸⁾ ؟.

ب- الأقلية الأندلسية المسلمة : الموريسكيون

قُدِّر عدد الأندلسيين المسلمين بمدينة الجزائر سنة 1609 م حوالي 25 ألف مهاجر⁽¹³⁹⁾ وشملت هذه الهجرة أساسا المدن الساحلية ، وقد كانت الجزائر – إضافة إلى تونس والمغرب – قد استقطبت عددا هاما من هذا الصنف من الأندلسيين ورغم المضايقات والمشاكل التي واجهوها من الأهالي كما يذكر عبد الجليل التميمي⁽¹⁴⁰⁾ إلا أن الموريسكيين عرفوا بمهاراتهم في مجال الاقتصاد لذلك كان لوجودهم بالجزائر انعكاسا إيجابيا على الناحية العمرانية التي شهدت نموا ملحوظا لم تعرفه البلاد منذ العهد الحمّادي ، تمثل هذا النمو في إنشاء مراكز عمرانية سيكون لها الأثر الإيجابي على اقتصاد هذا البلد في جميع المجالات : الزراعي والصناعي والتجاري والخدماتي.

ففي المجال الفلاحي قام الموريسكيون باستصلاح مساحات شاسعة من الأراضي بنواحي متيجة ومرتفعات الساحل وجهات شرشال ونواحي وهران وتلمسان وعنابة فأصبحت سهول متيجة ومرتفعات الساحل القريبة من الجزائر – بفعل فلاحي بلنسية والأرغون – تتميز بزراعة الأشجار المثمرة كحب الملوك (الكرز) والأجاص والتفاح والبرتقال والعنب وتميزت نواحي عنابة بتركز غراسة الزيتون⁽¹⁴¹⁾ أما مدن البليدة والجزائر والقلعة فقد اقتصت بإنتاج الخضر والفواكه وهي منتوجات حسّن الأندلسيون أنواعها وطوروا زراعتها مثل التين بنواحي برشك. من ناحية أخرى قاموا بإدخال زراعات لم تكن محور اهتمام الأهالي مثل التوت الأبيض والأسود بمنطقتي القليعة وشرشال والأرز والقطن بجهات مستغانم ومليانة والعنب بإقليم عنابة. إذن نلاحظ أن الجزائر تميزت بالتخصص الزراعي – أي أن كل مدينة تتميز بإنتاج معين وهو أمر مرتبط بنوعية المناخ والتربة.

لم يركز الموريسكيون اهتماماتهم فقط على المجال الفلاحي بل اقتحموا أيضا المجال الصناعي حيث تمكنوا من إقامة المشاغل وإنشاء الورشات واشتهروا بالصناعات اليدوية كالحدادة والنجارة والخياطة ومعالجة الخزف والجلد والحريز حتى أن مصانع الحريز الأندلسية بمدن الجزائر والقليلة أصبحت ذات صيت كبير وذلك لجودة إنتاجها الذي غطى الحاجيات المحلية الجزائرية وتعداها إلى التصدير إلى الأقطار المجاورة مثل تونس⁽¹⁴²⁾ وأبرز الصناعات التي استحدثها الأندلسيون بالجزائر نسيج القطيفة " المخمل " وهي صناعة أتى بها مهاجرو غرناطة⁽¹⁴³⁾ وصناعة الشبيكة.

هناك صناعات كانت موجودة في الجزائر قبل قدوم هذه الفئة ولكن هذه الأخيرة طورته واعتنت بها مثل صناعة الشاشية (الطربوش) التي أصبحت تحظى بسوق خاص بها وهو سوق الشواشي⁽¹⁴⁴⁾ وكذلك صناعة نسيج الزرابي بالنواحي الغربية للبلاد. طُبِعَ مجال الأسلحة هو الآخر بالبصمات الموريسكية من صناعة الأسلحة وتحضير البارود إلى تطوير صناعة السفن بمينائي الجزائر وشرشال.

الخاتمة

أردنا من خلال هذا المقال أن نبين دور المدونة التونسية في التأريخ للجزائر خلال القرن التاسع عشر و المساهمة في تأييد المكتبة التاريخية الجزائرية و إختيارنا لمحمد بيرم الخامس و مؤلفه " صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار " و أحمد بن أبي الضياف و كتابه " إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان " له ما يبرره حيث أردنا قراء تاريخ و صورة الجزائر بعيون غير جزائرية وبالتحديد تونسية لأن الجزائريين إهتموا بالجانب السياسي و بالتحديد الفترة المعاصرة وتاريخ حركتهم الوطنية و لم يقتحموا بعد التاريخ الذهني ، كما أردنا المقارنة بين رؤيتين أولى لمحمد بيرم الخامس الذي زار الجزائر ووصف ما شاهده بعينه فكان بالتالي شاهد عيان لذلك نراه يدقق في كل كبيرة و صغيرة فجاءتنا صورة الجزائر واضحة و إن كانت صورتها السياسية مقتضبة و بين رؤية أحمد بن أبي الضياف - وهي رؤية سياسي كتب من خلال التقارير الرسمية لم يزر الجزائر - التي إقتصرت على الجانب العسكري و علاقة الإيالة بالإمبراطورية العثمانية مهملا بقية الجوانب و لما نجمع بين الرؤيتين تكتمل صورة الجزائر.

الاحالات والهوامش :

- ¹- عبد السلام (أحمد) ، المؤرخون التونسيون في القرون 17 م و 18 م و 19 رسالة في تاريخ الثقافة ، ترجمة أحمد عبد السلام و عبد الرزاق الحليوي ، قرطاج ، بيت الحكمة ، 1993 ، الطبعة الأولى ، ص 385
- ²- عبد السلام (أحمد) ، المؤرخون التونسيون ... مرس ، ص 389
- ³- مثل المفتي المالكي الأول إسماعيل التميمي وإبراهيم الرياحي وعبد الرحمان الكامل والقاضي المالكي محمد المجري بن عبد الستار والمفتين بالمذهب الحنفي محمد بيرم الثالث ومحمد بن الخوجة وأحمد الأبي والشيخ محمد بن ملوكة والكاتب محمد المناعي.
- ⁴- المذهب الحنفي هو المذهب التركي (العثماني) والمالكي هو المذهب الرسمي للأهالي (التونسيون) .
- ⁵- عبد السلام (أحمد) ، المؤرخون التونسيون ... مرس ، ص 392
- ⁶- عبد السلام (أحمد) ، المؤرخون التونسيون ... مرس ، ص 393.
- ⁷- نفس المرجع ، ص 394
- ⁸- تم اتهام ابن أبي الضياف بإعانة البايع أحمد على عدم التقيد بالنسب المعتادة في تعيين رجال الشرع.
- ⁹- صدر عهد الأمان سنة 1857م في عهد محمد باي ومن بين بنوده تأكيد الأمان لسائر الرعية والمساواة بين المسلم وغيره الإتحاف ... مص.س ج 4 ، ص 242. 243.

¹⁰ - JDEY (Ahmed), *AHMED IBN ABI DHIAF , son oeuvre et sa pensée: essai d'histoire culturelle*, Zaghuan , FTERSI , Janvier1996,pp : 48-49.

- ¹¹- من قبيلة أولاد عون بجهة سليانة.
- ¹²- سجن والده الحاج بالضياف والإستيلاء على أملاكه من قبل السلطة سنة 1815 م بعد إغتيال الوزير يوسف صاحب الطابع وكان آنذاك ابن أبي الضياف عمره 13 سنة.
- ¹³- يشير أحمد جدي إلى أن ابن أبي الضياف تزوج من خمسة نساء وأن أحمد باي كان قد أهداه أمتين وهنا يمكن - من خلال هذه الملاحظة - التطرق إلى مسألة تعدد الزوجات في تونس في القرن التاسع عشر ومسألة علاقة صاحب الإتحاف بالسلطة وكذلك مسألة الرق في عصره .
- JDEY (Ahmed), *AHMED IBN ABI DHIAF , son oeuvre et sa pensée ... op.cit , p : 48*
- ¹⁴ - عبد السلام (أحمد) ، المؤرخون التونسيون ... مرس ، ص 383.
- ¹⁵- عبد السلام (أحمد) ، المؤرخون التونسيون ... مرس ، ص 409.
- ¹⁶- نسخة مكتبة الخلدونية محفوظة تحت رقم 731 ومختومة بختم " مكتبة الخلدونية " بتاريخ 1319 هـ / 1951 م / نسخة الخلدونية كاملة في أربعة مجلدات : - الرقم : 16640 / الخط : مغربي / المقياس : 31 x 20.5 / تاريخ النسخ : دون تاريخ : أنظر الإتحاف مص.س ج 1 الصفحات الأولى المتعلقة بتقديم الكتاب ، بقلم خليفة شاطر.
- ¹⁷- ابن أبي الضياف (أحمد) ، إتحاف أهل الزمان ... مص.س
- ¹⁸- محفوظ (محمد) ، ابن أبي الضياف حياته نظرات في تاريخه ، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ، 1983 ، ط1.
- جدي (أحمد) ، أحمد بن أبي الضياف آثاره وتفكيره: محاولة في التاريخ الثقافي، منشورات: مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات (متبعم) ، زغوان ، جانفي 1996.
- ¹⁹- عبد السلام (أحمد) ، ابن أبي الضياف حياته ومنزلته ومنتخبات من آثاره ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1984 ، ص 20.
- ²⁰- الإتحاف ... مص.س
- ²¹ - عبد السلام (أحمد) ، المؤرخون التونسيون ... مرس ، ص 448.

- 22 - القاسمي (فتحي) ، الشيخ محمد بيرم الخامس حياته وفكره الإصلاحي ، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ، بيت الحكمة ، قرطاج ، طبعة أولى ، 1990 ، ص 54 - 55. أنظر أيضا المؤرخون التونسيون ... مرس.
- 23 - نفس المرجع ، من ص 54 إلى 56.
- 24 - عبد السلام (أحمد) ، المؤرخون التونسيون ... مرس ، ص 455.
- 25 - هناك عديد الطبقات ولكننا إعتدنا الطبعة الأولى ، مصر 1303 هجري .
- 26 - عبد السلام (أحمد) ، المؤرخون التونسيون ... مرس ، ص 456 .
- 27 - الخامس (محمد بيرم الخامس) ، صفوة الإعتبار ... مرس ، ج 1
- 28 - القاسمي (فتحي) ، الشيخ محمد بيرم الخامس ... مرس ، ص 67.
- 29 - (الخامس) محمد بيرم ، صفوة الاعتبار ... مرس ، ج 4 ، من ص 2 إلى 21.
- 30- نفس المصدر ، ج 4 ، ص 2 - 21..
- 31- (الخامس) محمد بيرم ، صفوة الاعتبار ... مرس ، الأجزاء الأربعة الأولى
- 32- نفس المصدر ، ج 2 ، ص 33
- 33 - عبد السلام (أحمد) ، المؤرخون التونسيون ... مرس ، ص 459.
- 34- صفوة الاعتبار .. مرس ، ج 4 ص 96 ، أنظر أيضا المؤرخون التونسيون ... مرس ، ص 459 والشيخ محمد بيرم الخامس ... مرس ص 92
- 35 -القاسمي (فتحي) الشيخ محمد بيرم الخامس ... مرس ، ص 92. انظر أيضا المؤرخون التونسيون ... مرس ، ص 459.
- 36 - لعرج (عبد العزيز محمود) ، الزليج في العمارة الاسلامية بالجزائر في العصر التركي دراسة أثرية فنية ، منشورات عويدات ، بيروت ، لبنان ، ص 12.
- 37 - نفس المرجع ، ص 12.
- 38 - تعيين سنان باشا رمضان بن حسين التركي من جند الجزائر أمير لواء في تونس أثناء حملته عليها واجتثاث حكم بني حفص سنة 1573م واعتقال محمد بن الحسن الحفصي.
- 39 - بونة هي عنابة
- 40- ابن أبي الضياف (أحمد) ، إتحاف أهل الزمان ... مرس ، ج 2 ، ص 124.
- 41 - الشريف (محمد الهادي) ، ماذا يجب أن تعلم عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الإستقلال ، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة ، دار سيرا لل نشر ، تونس ، 1980 . ص 86.
- 42 - ابن أبي الضياف (أحمد) ، إتحاف أهل الزمان ... مرس ، ج 2 ، ص 153
- 43- نفس المصدر ، ج 3 ، ص 84.
- 44 - " إن صاحب تونس كان يبعث مقدار من الزيت لإعانة عسكر المسلمين بالجزائر والآن ابنه امتنع " ، المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 76.
- 45 - ابن أبي الضياف (أحمد) ، إتحاف أهل الزمان ... مرس ، ج 3 ، ص 74
- 46- ابن أبي الضياف (أحمد) ، إتحاف أهل الزمان ... مرس ، ج 3 ، ص 164 .
- 47- المقصود التدخل وحل مسألة التجار الفرنسيين الذين أكدوا أن لهم دينا على بقري. نفس المصدر ، ج 3 ، ص 164.
- 48- المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 164.
- 49 - ابن أبي الضياف (أحمد) ، إتحاف أهل الزمان ... مرس ، ج 3 ، ص 165.
- 50 - نفس المصدر ، ج 3 ، ص 166.

- 51 - مسألة فدية الأسرى مثل هايدو الذي ألف كتابا عن الجزائر والشاعر الإسباني فيجيل دي سيرفانتس ، ورد بكتاب " تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي " ، مكتبة دار الشرق ، بيروت ، 1979 لمحمد خير فارس.
- 52 - الخامس (محمد بيرم) ، صفوة الإعتبار ... مص.س ، ج 4 ، ص 7.
- 53 - تم تحرير وهران والمرسى الكبير في 1792م.
- 54 - الشريف (محمد الهادي) ، ماذا يجب أن تعرف ... مرس ، ص 84
- أنظر أيضا : ابن محمد بن عبد العزيز (حمودة) ، الكتاب الباهي ، تحقيق الشيخ محمد ماضور ، الدار التونسية للنشر ، ج 1 ، 1970 ، ص 47
- 55 - ابن أبي الضياف (أحمد) ، إتحاف أهل الزمان ... مص.س ، ج 2 ، ص ص 111 - 113 - 130 - 140 ...
- 56 - نفس المصدر ، ج 2 ، ص ص 63 - 64 - 66.
- 57 - نفس المصدر ، ج 2 ، ص 76.
- 58 - 1705 م - 1735 (في 1740 م تم قطع رأس حسين بن علي بعد هزيمته على يد ابن أخيه هلي باشا الذي ثار عليه نتيجة إبعاده عن المسؤوليات بتمكينه من وظيفة باشا واسناد وظيفة ولي عهد إلى أحد أبنائه) . ورد في كتاب إتحاف أهل الزمان ... مص.س ، ج 2 ، من 106 إلى 116. أنظر أيضا : " ماذا يجب أن تعرف عن تاريخ تونس ... مرس ، ص 84.
- 59 - 1209 هـ / ماي ، جوان 1795م.
- 60 - ابن أبي الضياف (أحمد) ، إتحاف أهل الزمان ... مص.س ، ج 3 ، ص 29.
- 61 - نفس المصدر ، ج 3 ، ص 29.
- 62 - يقول الوزير السراج متحدثا عن الحرب بين أحمد والأخوين محمد باي وعلي باي : " ...وأتى قوم الجزيريين يزحفون بخيلهم ورجلهم... " ، الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تقديم و تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط 1 م 2 ، 1984 ، ص ص 518 - 520 - 523 - 525. وفي . بخصوص التدخل الجزائري في الفتنة الباشية - الحسينية أنظر أيضا : ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، دار المسيرة ، لبنان ، ط 3 ، 1993 ، ص 295.
- 63 - ابن أبي الضياف (أحمد) ، إتحاف أهل الزمان ... مص.س ، ج 3 ، ص 134.
- 64 - كان الصلح في 20 مارس 1821م ، نفس المصدر ، ج 3 ، ص 134.
- 65 - الخامس (محمد بيرم) ، صفوة الإعتبار ... مص.س ، ج 4 ، من ص 2 إلى 21.
- 66 - مدينة بونة هي عنابة الحالية تقع في شرق الجزائر على الحدود مع البلاد التونسية
- 67 - إنظر مقال لأرنولي (فرانسوا) " الأقليات الأوروبية في شمال إفريقيا خلال القرن 18م " ، م ، ت ، ع ، د ، ع ، ، عدد 25 و 26 ، 1997
- 68 - ريمون (أندري) ، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ، ترجمة لطيف فرج ، قسم الترجمة ، القاهرة ، 1985.
- 69 - الخامس (محمد بيرم) ، صفوة الإعتبار ... مص.س ، ج 4 ، ص 3.
- 70 - نفس المصدر ، ج 4 ، ص 2.
- 71 - المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 3.
- 72 - ريمون (أندري) ، المدن العربية الكبرى ... مرس ، ص ص 72 - 74 - 75.
- 73 - نفس المرجع. ص 171.
- 74 - نفسه ... ، ص 172.
- 75 - الخامس (محمد بيرم) ، صفوة الإعتبار ... مص.س ، ج 4 ، ص 4.
- 76 - نفس المصدر ، ج 4 ، ص 5.
- 77 - نفسه ... ، ج 4 ، ص 4.

- 78- يصف لين الحانوت بأنه مكان صغير مربع الشكل يبلغ ارتفاعه ستة أو سبعة أقدام وطول ضلعه بين ثلاثة وأربعة ، وقد ذكر أندري ريمون أن الجزائر كانت تحتوي في القرنين السادس عشر والسابع عشر ألفي حانوت.
- 79- ريمون (أندري) ، المدن العربية الكبرى ... مرس ، ص 178.
- 80 - نفس المرجع ، ص 178.
- 81- يتعرض محمد بيرم الخامس إلى الشيخ أحمد أبو قندورة المفتي الحنفي ... ، صفوة الاعتبار ... مص.س ، ج 4 ، ص 16.
- 82- الخامس (محمد بيرم) ، صفوة الاعتبار ... مص.س ، ج 4 ، ص 5.
- 83- نفس المصدر ، ج 4 ، ص 6.
- 84 - الخامس (محمد بيرم) ، صفوة الاعتبار ... مص.س ، ج 4 ، ص 19.
- 85 - الجوزويت هم نصارى من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الخاضعة للبابا قهرتهم دولة فرنسا في فرنسا بالذات بتبرير أنهم يمزجون في تعليمهم الأحوال السياسية على الأحوال الاستبدادية بما لا يوافق سياستها. ورد في نفس المصدر ، ج 4 ، ص 19 - 20.
- 86 - ذكر محمد بيرم الخامس أنه حضر امتحانا في هذه المواد بإحدى مدارس البنات بعناية ، صفوة الاعتبار ... مص.س ، ج 4 ، ص 20.
- 87- ابن أبي الضياف (أحمد) ، إتحاف أهل الزمان ... مص.س ، ج 2 ، ص 75.
- 88- نفس المصدر ، ج 2 ، ص 75.
- 89 - ضابط تركي قضى على الحكم المرادي سنة 1702 م ودخل في صراع مع الجزائر لكنه هزم وتم أسره سنة 1705 م . الشريف (محمد الهادي) ، ماذا يجب أن تعرف عن تاريخ تونس...مرس ، ص 80.
- 90- سبب الثورة أنه أبعد عن المسؤوليات بعد أن رزق حسين بن علي بأولاد ولم يعد علي باشا وليا للعهد.
- 91 - الشريف (محمد الهادي) ، ماذا يجب أن تعرف عن تاريخ تونس...مرس ، ص 84.
- 92- كان علي باشا حليفا للجزائريين الذين ساعدوه على افتكاك السلطة ولكنه دخل معهم في صراع بعد ذلك نتيجة كبريائه وصرامته في كل ما يتعلق بشؤون السيادة ومطالبته أترك الجزائر بدفع ضريبة سنوية ...
- 93 - ثار يونس على والده علي باشا نتيجة تشريك هذه الأخير أبنائه الآخرين في الحكم والحال أن يونس كان يرغب في الإنفراد بالحكم بمعونة والده ، إتحاف أهل الزمان ... مص.س ، ج 3 ، من ص 135 إلى 141.
- 94- نفس المصدر ، ج 3 ، ص 154.
- 95 - الخامس (محمد بيرم) ، صفوة الاعتبار ... مص.س ، ج 4 ، ص 15.
- 96- وطن الجزائر (في الوسط يمتد من الشط شمالا إلى الصحراء جنوبا) ، وطن وهران غرب وطن الجزائر ووطن قسنطينة شرق وطن الجزائر. ولكل وطن قاعدة (أظن يقصد عاصمة) وهي المدينة المسماة باسمه ، صفوة الاعتبار ... مص.س ، ج 4 ، ص 6.
- * - يقول محمد بيرم الخامس أن عدد النصاري مائتا ألف ونيف وحسب العدد الجملي وعدد المسلمين واليهود نستطيع أن نستخرج عدد النصاري بالضبط وهو مائتين و ثلاثين ألف.
- 97- مستغانم والمرسى الكبير سنة 1505م ، الجزائر سنة 1508م ، بجاية 1512م ثم عنابة . ورد في كتاب " الزليج في العمارة الإسلامية ... مرس ، ص 11 ..
- 98- الخامس (محمد بيرم) ، صفوة الاعتبار ... مص.س ، ج 4 ، ص 7.
- 99 - نفس المصدر ، ص 9. أنظر أيضا " إتحاف أهل الزمان ... مص.س ، ج 2 ، ص 20 وما بعدها.
- 100- الخامس (محمد بيرم) ، صفوة الاعتبار ... مص.س ، ج 4 ، ص 7.
- 101 - ركزنا على اليهود لأن هذه الفئة سيكون لها دورا فاعلا في الاقتصاد الجزائري رغم قلة عددها ولكن ذلك لا ينفي أهمية الأقليات الموريسكية التي سنتحدث عنها أيضا لاحقا.
- 102 - تابليت (علي) ، " يهود الجزائر في الفترة العثمانية (1516 - 1830) " ، م . ت . ع . د . ع . ، ع 11 - 12 ، ص 167.

- 76

136- هناك أخطاء تركيبية ولكننا حرصنا على المحافظة على التركيب الذي ورد في مقال علي تابليت " يهود الجزائر... مرس ، ص

181.

137 - Haedo : « Le costume de tous les juifs (d'Alger) est identique ; ils ont des culottes de toile , une chemise et un pourpoint long comme une soutane et de couleur noire, et par-dessus, ils revêtent un bournous noir et quelquefois blanc » , M. Eisenbeth, « Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque (1516 – 1830) », R . A , 1952, p 142.

138- التميمي (عبد الجليل) ، " تأملات جديدة حول مصيرية الموريسكيين – الأندلسيين بعد سقوط غرناطة وحتى طردهم من الأندلس 1609 " ، م . ت . م ، العدد 75 – 76 ، ماي 1994 ، ص 355.

139- يؤكد عبد الجليل التميمي " أن نصف مليون نسمة أجبروا على ترك وطنهم الأندلسي ما بين سنة 1485 م 1615 وأن نفس هذا العدد وقع دمجه تماما في المجتمع الإسباني ، بعد أن فرض عليه التعميد القسري والتخلي عن جميع مقوماته " ، نفس المرجع ، ص 355 .

140- يؤكد عبد الجليل التميمي أن بعض المدن والموانئ المغاربة قد أساءت إستقبال الموريسكيين في وهران وتطوان والعرايش وخاصة تلمسان حيث قام البدو بسلبهم وقتلهم إلى درجة أنهم كانوا يرغبون في الرجوع إلى إسبانيا ليموتوا مسيحيين ويستدل عبد الجليل التميمي بـ H.Ch.Lea الذي ذكر في كتابه « *The moriscos of Spain : their conversion and Expulsion* » في الصفحة 363 " أن فظائح البدو يتمثل في القضاء على ثلثي عدد المهاجرين " كما يذكر " أن الإحصاء العام قدرهم بثلاثة أرباع " . ورد في دراسات في التاريخ الموريسكي الأندلسي ، م . د . ب . ع . م . ت . م ، زغوان 1993 ، ص 26.

141- تم غرس 30.000 عود زيتون من طرف شيخ الأندلسيين مصطفى قردناش الذي كان لجأ إلى عنابة. سعيدوني (ناصرالدين) ، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى 1424 هـ – 2003 م ، ص 30.

142- أخذ من " Topographie et Histoire général de l'Algérie " د " F.D. de Haédo " ترجمة " Monnerau et Berbrugger " ، م . إ . رقم 14 – 1870 . ص 175 . ورد في "دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر" ، د (سعيدوني) ناصرالدين ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى 1424 هـ – 2003 م ، ص 32.

143- آخر معقل لمسلمي الأندلس ، سقطت بأيدي المسيحيين سنة 1492 م.

144- اشتهرت بصنعها عائلة القلانسي " بوناتيرو" بحي باب الواد بالجزائر العاصمة ، نفس المرجع ، نفس الصفحة.

علم اللغة بين ميتافيزيقا الصوت و مادية الكتابة

مقاربة في سيميائيات العلامة الخطية

د. معرف مصطفى

أستاذ فلسفة

جامعة الجيلالي ليايس سيدي بلعباس

تمهيد :

التفكير حول الكتابة و بالتالي العلامة الخطية الكتابية *signe écrit* , يقودنا ولا شك إلى التفكير في إشكالية مكانتها ضمن منظومة اللغة، و كذا في وضعها السيميائي في أفق نظرية المعنى والدلالة ، إذا سلمنا سيميائيا. أن التعريف العام الذي يمكن إعطائه للغة هي أنها " نسق من العلامات *signes*"⁽¹⁾ تقوم من أجل حدوث المعنى .

لا شك ان كلا من الكلام *la parole* و الكتابة *l'écriture*، هما الكلمتين المحوريتين اللتين يمكن أن يبدأ بهما فهم الإنسان، نظرا لتمتع هاتين الكلمتين بدلالة و موقع خاص في المفاهيم التقليدية للغة.

و اللغة، باعتبارها خاصية إنسانية، تمثل " مؤسسة اجتماعية تشير إلى عقد واسع بين الناس"⁽²⁾، و هذا التوافق *convention* أو العقد الذي يعقده البشر فيما بينهم يهدف إلى التفاهم و التواصل ، إما لسانيا من خلال الكلام الشفوي المباشر، أو من خلال ما يدونه أو يخطه الإنسان كتابيا لأجل حفظ الكلام الذي يزول فور إلقائه، أو بغية نقله إلى أماكن بعيدة عن المكان الذي ألقى فيه، وهو ما يفسر تمكن الشعوب على مرّ العصور من الحفاظ على أثر إنتاجاتهم الدلالية المختلفة*. حيث ارتبط اختراع الكتابة بمرور الإنسان وانتقاله من مرحلة ما قبل التاريخ *préhistoire*، إلى مرحلة التاريخ *Histoire*، اي التاريخ باعتباره تاريخا مكتوبا .

1 - مثالية الصوت وجسدية الكتابة :

إن حركية الفعل الكتابي كوسيلة للتعبير والتواصل ، تهدف أساسا إلى نسخ و تسجيل الكلام، وجراء ذلك يتحدد دور الكتابة المباشر في التواصل، وفي ترجمة الفكر ترجمة مادية خطية على دعامة أو سند أو سطح معين ، هو سند لغة الحروف المكتوبة.

و تبعا لذلك ، نجد أن الكتابة نظر إليها على أنها مجرد تمثيل للكلام ، فهي تعد شفرة code تواصل من الدرجة الثانية، مقارنة باللغة المنطوقة كشفرة تواصل من الدرجة الأولى، نتيجة المقابلة الثنائية العتيقة التي نشأت بين اللغة المنطوقة و اللغة المكتوبة في التقاليد الميتافيزيقية ،و الفلسفية ،واللغوية ، التي تقول بأسبقية وأفضلية الكلام على الكتابة ، حتى أننا نجد أن " المعنى الشائع ينظر إلى الكلام ، على أنه اللغة "(3) نظرا للامتياز الذي يمنحه الصوت و الكلام الشفوي الحي ، رغم أن الكلام ليس هو اللغة، وإنما هو بشكل من الأشكال يمثل " عملية استخدام اللغة"(4).

من مستوى لساني، نجد أن معنى الكلام" يمثل كل فعل صوتي يتمظهر كتقابل مع النسق اللغوي الذي يرجعه ممكنا "(5). و طبقا لنظرية اللغة لدى دوسوسير De Saussure (1857- 1913) فان اللغة عنده نسق system، أو نظام من الإشارات تعبر عن الأفكار.

يتميز دوسوسير بين اللسان البشري Langue، واللغة language، والكلام parole، فاللسان عنده متعدد الجوانب غير متجانس، و يشمل عدة جوانب في آن واحد كالجانب الطبيعي، النفسي، الوظيفي، زيادة على أنه ملك للفرد و المجتمع، فاللسان يخص الجماعة كذاكرة و خبرة مشتركة، بينما الكلام هو فردي، لذلك نجد في التقسيمات الثنائية dichotomies السوسورية أن الفرق بين اللغة واللسان من جهة، و الكلام من جهة ثانية، هو فرق بين ما هو جماعي و ما هو فردي، و بين ما هو جوهري و ما هو عرضي، لأن " ما يميز اللغة بوجه عام هو كونها تشكل نظاما " (6) أو نسقا . و الكلام كمظهر صوتي للغة الملفوظة، يتبادر كتلفظية على هيئة كلام داخلي، كتلفظ باطني و حديث يرافق الفكر، أو كحوار يسمح بالتواصل بين الناس و يساعد على ظهور المجتمعات الثقافية.

ورغم أن الكتابة تقوم بتسجيل الكلام، إلا أن اللغة المكتوبة يمكنها أن تقابل اللغة الملفوظة عن طريق المفردات، ونتيجة بنية الجمل والعبارات التي قد تكون أكثر تعقيدا، نتيجة الجهد والانتباه الذي يبذل في الكتابة أثناء صياغة النص المكتوب، عكس ما نجده في الكلام.

إن التقليد الفلسفي الذي ينتصر للكلام وللصوارة phonè ، يمتد إلى عمق تاريخ الميتافيزيقا التي انتهت على القول بأن الكلام" هو أقرب ما يكون إلى المعنى sens ، اللوغوس logos، والأصل "origine"(7) ،وعليه فإن الطبيعة المادية للكتابة ستكون سببا - بحسب نفس تلك التقاليد- إلى نعتها بالقصور

وبالثانوية ، مقابل الصوت والكلام الذين يمكنهما الاستغناء عن الكتابة ، طالما أن المعنى يتم بالفعل من خلال جوانية ومثالية الصوت الحي *voix vive* ، "إن الصواتة تقع في خارجانية *exteriorité* المادة" (8)، و هذا التمرکز الميتافيزيقي سيستمر - كما سوف نرى - في ثنايا المسلمات النظرية و المفاهيمية لعلوم اللغة و اللسانيات تحديداً .

2 - جينياالوجيا الكتابة :

من مستوى مقارنة اشتقاقية نجد أن " الكتابة *écriture* ، من اللاتينية *scriptura* ، من الفعل *écrire : scribere* ، أي كتب ، و خط (9) ، و في اللغة العربية التي هي اللغة السامية ، نجد أن الجذر العربي " كتب " تربط دلالاته من جهة إلى الآثار *traces* التي تخلفها أرجل المشاة على الأرض، ومن هنا قال العرب قديماً باقتفاء الأثر كعلامة *signe* و دليل على وجود الشيء ، أو كإشارة تقود إلى الاهتداء إليه ، ومن جهة أخرى ترتبط دلالة معنى كتب بفكرة جمع الأحرف ، أو جمع الخيول و منه كتيبة أو سرية .

و إذا كان الجذر " كتب " هو الجذر الدلالي الأكثر انتشاراً و استعمالاً في اللغة العربية، نجد أن هناك جذراً آخر و هو الزبر و يعني النحت في الحجارة، أو وضعها فوق بعضها البعض من أجل البناء ، و بالتالي فإن فعل " زبر " يحيل بدوره إلى معنى فعل " كتب " كما جاء في القرآن الكريم عن الزابور، الكتاب الذي أوحى إلى داوود عليه السلام، و منه أيضاً المزبار أي القلم، و هكذا نجد في العربية أن الجذور اللغوية للكتب و الزبر يشتركان في فكرة الكتابة.

أما في اللغة الفرنسية، فنجد أن فعل كتب *écrire* ينحدر من المصدر اللاتيني *scribere* ، و الذي يعني خط أو رسم أشكالاً كتابية ، لذلك يسمى الكاتب أو الخطاط أو الناسخ *scripteur* ، و الجذر اللاتيني بدوره يحيلنا إلى الجذر *ker/sker* الهندو أوروبي الذي يحمل معنى قطع *inciser /couper* ، و في السنسكريتية *sanscrit* نجد مفردة *krtih* التي تعني معنى السكين *couteau* ، و هكذا فالكتابة و من مستوى لغوي اشتقاقي هي حزة *Incision* (10) ، و هي ذات الفكرة التي نجدها في الإغريقية *grapho* ، أو في الهندو أوروبية *gerbh* و تعني " خدش " *égratigner* ، و في الهولندية *rejte* و تعني مزق *déchirer* ، و السويدية *rita* و تعني رسم *déssiner* ، و أيضاً في الجذر السنسكريتي *likh* الذي يعني الرسم أو الكشط *grattage*.

هذا التقارب الاشتقاقي لمعنى الفعل كتب *écrire* أو قطع *inciser /tailler*، يدعو إلى الاعتقاد أن كلا من الطين *argile* و الحجارة *pierre* ، هما الدعامتین الأساسيتين للكتابة مع بدايات ظهورها، إضافة لهذا، اقترنت الأسماء عند بعض الشعوب، مثل شعب الرون *runes*، ببعد كتابي دلالي آخر هو السر

و التخفي و الغرابة، كما في كلمة Runar في الإسكندنافية، التي تعني السر secret أو run أي السر و التخفي، أو كما عند شعب الغالوا Galois في rhin أي السر.

و في استقراء أولى للدلالة الاشتقاقية للكتابة، نلاحظ أن معنى الكتابة من منظور لغوي بحث، لا يحيل مباشرة إلى فكرة أن الكتابة ذات تبعية وصلة بأصوات اللغة، و يمكن القول أن مفهوم الكتابة من هذا المستوى يقودنا إلى استنتاج ثلاث نقط أساسية :

أ- فكرة القطع : tailler, inciser, couper، و هذا يحيل و يلمح إلى الكيفية و التقنية كبعد رمزي في فعل الكتابة.

ب- فكرة الجمع : rassemblement للأحرف أو الخيل أو الحجارة.

ج- فكرة السر و التخفي : و هو بعد مهم أيضا في الرسوم و المخطوطات الكتابية التي لا تكشف بسهولة عن المعنى الذي تحمله، و هو ما يفسر تأخر فك الرموز للعديد من الكتابات كما حدث مع الكتابة المصرية الهيروغليفية hiéroglyphe، و تعذر حل العديد من الكتابات الأخرى أيضا إلى يومنا هذا.

بينما و من منظور فلسفي، نجد أن المفهوم العام للكتابة عرف " كتمثيل جرافيكي للفكر المشكل للغة " ⁽¹¹⁾، و ذلك مهما كان نسقها سواء كان صوتيا phonétique، أو تصويريا pictographique أو غيره، أي أن الكتابة هي تمثيل الكلام و الفكر عن طريق علامات كتابية، أو خطية اصطلاحية .

الكتابة في التقاليد الفلسفية، هي هذا الما بعد، الذي يأتي لأجل إعادة ما ينتجه الكلام، من خلال العمل على حفظه، و تسجيله و تخزينه جرافيكيا، فالكتابة مبدئيا نسق ثانوي، وهذه الرؤية الفلسفية للكتابة، شأنها شأن التمرکزات الميتافيزيقية الغربية، تنصير لامتياز الصوت و الدال الصوتي في تصور مفهوم العلامة و المعنى، في مقابل مادية الكتابة و العلامة الخطية التي هي دال لدال، أي دال من درجة ثانية.

لقد تم و منذ الانطولوجيا اليونانية ممثلة في أفلاطون، النظر إلى الكتابة كصدى ضعيف لا يمتلك إلا وجودا مخادعا، يعمل على تكرار لوغوس أصلي يمتلك وجودا حقيقيا، حتى أن أفلاطون كان يعتقد أن اختراع الكتابة لم يعمل إلا على تشجيع الكسل!، و هو ما يفسر عزوف العديد من فلاسفة اليونان عن الكتابة واحتقار ما هو مادي، مقابل الامتياز الذي اعطوه لمثالية الصوت و حيوية الكلام الحي ممثلا في الجدل المباشر، الذي يعبر عن لب الفلسفة اليونانية.

الكتابة التي هي في عمومها، تمثيل *représentation* اللغة المملوطة بواسطة علامات كتابية *signes graphiques*، سوف تنحدر نتيجة طابعها المرئي الحسي، و المادي البراني إلى خانة الثانوية، وهذا الوضع الذي نجد أثره في عمق الإرث الفلسفي الميتافيزيقي الغربي، سيستمر ويتواتر صده مع مسلمات علوم اللغة، وينسحب أيضا على طروحات العديد من الفلاسفة وموقفهم من الكتابة.

يظهر تاريخ اللغة، كيف أن جوهر تصور العلامة في التقاليد الميتافيزيقية والفلسفية الغربية ، انبنى في جوهره على صوتنة phonétisation الرّمز الكتابي symbole écrit والمنقوشات الكتابية epigraphes، وهذا التقليد كثيرا ما اصطدم مع نوع من الكتابات لا تخضع لنظام الصوت كما هو حال الكتابة الهيروغليفية أو الكتابة الصينية ، ففي عرف التقاليد اللغوية يظل التفكير في الكتابة كنموذج مرئي خارجي غريبا عن نمط التفكير الفلسفي الغربي، الذي هو تفكير لوغوسي يلتف أساسا حول الامتياز المعقود لمثالية الصوت.

لقد اعتبر الكلام الحي، بعكس الكتابة، ضمن تلك الفرضيات الميتافيزيقية ، الوحيد القادر على المستوى الذهني، أن يعكس الأشياء المجردة من دون إعطائها صبغة مادية أو تجسيمية، وهو ما يشكل مع فرضيات اللسانيات وعلوم اللغة منتهى نظرية العلامة اللسانية، بينما يتراجع تأثير العلامة الكتابية الخطية إلى حدود المادية والثانوية والخارجانية، وهي صفات تحكم على الكتابة البقاء في دائرة الرؤية الفلسفية ، التي هي امتداد وترسيخ للرؤى الميتافيزيقية المتمركزة حول الصوت الذي تعتبره قريبا من المعنى، وتنفر من الطابع المادي والمرئي للكتابة، التي هي مجرد إعادة لما ينجزه الكلام.

ان الامتياز الذي تمنحه الفلسفة الغربية للصوت والكلام، يعود إلى نموذج تصور الحقيقة المبني على التقسيمات والمقابلات الثنائية التي وسمت التفكير الغربي، في تمييزه بين ماهو محسوس sensible، وماهو ذهني معنوي intelligible ، ومنه المقابلة بين الصوت المثالي والكتابة المادية، لأن امتياز الكلام ينبع أساسا من الفرضيات الميتافيزيقية التي تقول بقرب المعنى من مثالية الصوت الجواني المعنوي، في مقابل برانية ومادية الكتابة التي نظرت لها الفلسفة كمظهر للغة الطبيعية الملفوظة" عن طريق دال significiant، ذو طبيعة مرئية كتابية أو تصويرية pictographique" (12).

أما اصطلاحيا، فإن معنى الكتابة لا يخرج عن كونه تلك الأداة والوسيلة التي تعمل على حفظ وتخزين الفكر وتسجيل الكلام، إذ لا ينفصل وجودها وتمظهرها المادي المرئي عن بعدها التقني والتجسدي، باعتبارها " نسق من العلامات التصويرية أو الخطية التي ترتبط بالعلامات الكلامية signes vocaux للغة، و التي تصلح لتمثيلها بشكل أكثر استمرارية و دوام " (13)، وإذا كانت عضوية الكلام و سهولة النطق مضافا إلى ذلك الإيماءات التي ترافقه ، وهي شكل التواصل المتجذر و الطبيعي لدى الإنسان ، فإن الكتابة و على العكس، تتطلب معرفة و دراية و إتقان، و تخضع لضوابط تععيدية و نحوية، زيادة على متطلبات الممارسة و التمرن .

الإنسان يتكلم، ثم يكتب بعد ذلك فيما هو شائع ، و أسبقية الكلام هذه، هي التي ستستمر بشكل أكثر تعقيدا و راديكالية مع علوم اللغة، و على رأسها اللسانيات و علم الأصوات phonologie، التي

تأسست على دراسة الصوت و اعتباره الأساس في قيام علوم اللغة ، ما يؤكد امتداد التمرکز حول الصوت أو ما عرف بالتمرکز الصوتي phonocentrisme ، أي ذلك التمرکز الذي يجعل الصوت شرطا معرفيا و ابستميا في نشأة اللسانيات، وضرورة عقلية أملتھا اشتراطات اللوغوس، الذي بات تأثيره قويا على حقول الميتافيزيقا و الفلسفة و علوم اللغة، هذا اللوغوس عينه هو الذي يقدر مثالية الصوت و يحتقر مادية الكتابة .

الكتابة بهذا، سينحصر وجودها في مجرد إعادة خطية لما أنجزه الصوت بالفعل من خلال الكلام، تماما مثلما صرح بذلك فرديناند دوسوسير مؤسس علم اللسانيات ،الذي لم ير من بد أو ضرورة لوجود الكتابة، إلا لتسجيل جرافيكى للكلام بغية الاحتفاظ به، و إمكانية تكرار ما أملاه الكلام و أنجزه مسبقا بالفعل .

لذلك، و توازيا مع هذا، نجد أن مفهوم الكتابة في ظل تاريخ التجربة العلمية ، منظورا إليه من زاوية ابستمولوجية épistémologique ينحصر في حدود منحها دورا وظيفيا fonctionnel ، و تقنيا technique .

لم تخرج هذه الرؤية بدورها، من الإرث الفلسفي الغربي الذي حدد مفهوم العلم ،و شروط العلمية ، ضمن نفس تلك التمرکزات ، إذ ليس غريبا أن تنحدر فرضيات و مسلمات الشروط المعرفية لعلوم اللغة، التي حددت تبعا لذلك إبستمية مفهوم الكتابة من " عدد متباين من مفاهيم و سيل من الأفكار، و المعتقدات و التماثلات التي تساق نحوها طوعا، كلما أردنا التاريخ للأفكار"⁽¹⁴⁾ .

لذلك فان الكتابة، شأنها شأن العديد من المفاهيم، لم تفلت من هذا الإرث الفلسفي و الميتافيزيقي الذي يتغلغل في عمق العلم و العلمية ذاتها؛ و مفهوم الكتابة بهذا، يتلخص في كونها تقنية وظيفتها التسجيل الغرافيكي للكلام، و حفظ ما ينتجه كتابيا .

3 - الكتابة و تثبيت الكلام:

الكلام الملىء بالحضور ، ينبعث منسوبا أثناء الحوار لأجل الإخبار، الوصف، الإقناع، الطمأنينة... أو حتى إحداث التناقض و المغالطة أحيانا، و نتساءل أنى للكتابة بعد هذا، ان تقبض على الكلام الذي سرعان ما يزول، و هي التي تتدخل دوما في لحظة تبدو متأخرة مقارنة بلحظة حيوية الكلام و سيولته، معتمدة في نفس الوقت أيضا على غياب المتكلم. ألا يمكن نعتها عندئذ، بأنها وسيط لا يمتلك حرارة الإقناع التي ينقلها الكلام الحي ؟ و هل يجب تبعا لذلك، إدانة الكتابة و هي التي اتهمت بأنها الخطر المميت للكلام ، و السجن الذي يجمد الفكر ويكبل طاقته.

إن الكتابة و هي تحاول الإمساك بالكلام الحي، حتى يصبح ضبطه بالتالي قارا خطيا كما في النسق الكتابي الأبجدي alphabétique، تعمل على تثبيته من وجهتين:

أ- انطلاقا من تحليل لغوي، تبحث الكتابة تسجيل صارم لمختلف وحدات الأصوات sons التي تدخل في تكوين الكلمات ، الكتابة كذاكرة ملموسة لحفظ الكلام.

ب- كما تحمل الكتابة - فيما وراء تسجيل الكلمات- قلق النقل الوفي للانفعالات emotions، والنبرات intonations ، والتغيرات الصوتية inflexions التي ترافق لحظة الكلام، فتقوم الكتابة حينئذ بابتكار علامات حدرة، وأخرى خرساء كلية مثل النقط والفواصل، التي تزيد من حيوية النص المكتوب ، مكثفة بذلك ، من ثراء المعاني المخفية التي تتخلله.

إن الكتابة الأبجدية تبدو هنا، كتثبيت وفي لسلسلة الكلام المشكلة من مختلف الأصوات الملفوظة من اللغة، الأبجدية (الألفبائية) تظهر كمرآة مثالية تعكس شفافية وأمانة تسجيل الكتابة، لكل ما يمليه الكلام.

وبالمثل، يساهم الإملاء orthographe بدوره، في تجديد المعنى من خلال بلورته للكلمة بلورة مرئية، إنه يسمح بقراءة إيديوغرافية idéographique إيحائية، تتيح بتفرقة سيميائية كما في الجنس الناقص للكلمات التالية: زجاج verre ، خضرة vert ، نحو أو اتجاه vers ،..... إلخ التي تنطق بكيفية واحدة، غير أن خطية الكتابة تعطي جسما للصوامت consonnes، والصوائت voyelles ، وتمنح صورة للفكر كذلك. وعن طريق عملية القراءة التي تعيد وتمكن الكتابة من التجذر في الكلام، تعطي الكتابة الحياة للنص، مبدية بالتوازي مع ذلك، التشكيلات الصوتية المختلفة التي تكونه ، حتى أن الفلسفة اليونانية ومن مستوى سيميائي، ربطت تعلم اللغة بتعلم القراءة والكتابة توازيا مع تعلم النحو⁽¹⁵⁾ .

الكلام يندثر ويتلاشى، والكتابة تبقى، هكذا كان يقول المثل اللاتيني verba volant, scripta manent ، إذ يستحيل تدارك الكلام بعد إلقائه، أما الكتابة وعلى العكس من ذلك، تمتلك فرصة العودة لمحو وتصويب الكلمة المكتوبة، لأنها تتركز على سطح خارجي يؤهلها لإمكانية المعالجة والتصحيح والمراقبة ، أو حتى إتلافها كلية متى أريد ذلك " فبينما تتم عملية الكلام في الزمن وتزول بمروره، تأخذ الكتابة من المكان سندا يحفظها"⁽¹⁶⁾. ومع هذا ، تبدو الكتابة في نفس الوقت هشة ، ومهددة بالزوال فور إتلاف السطح أو السند الذي يحملها، فالوثيقة الكتابية إذا ما أُلُفَت مثلا، تصبح متعذرة القراءة illisible، أو مبتورة المعنى في حالة ضياع نص من النصوص التي تكون الوثيقة.

4 - فضائية الكتابة:

أن تكتب، هو أن تنتقل دائما بأداة الكتابة من نقطة إلى أخرى ، وهذا الانتقال يتم في المكان ، فالكتابة نظام سيميائي مرئي مكاني، أي يرى بالعين ويحتل حيزا في المكان ، إذ أن الخط هو الذي يبني معمارية سطح الكتابة، وليس من المصادفة أن نجد ارتباط خطية الكتابة على صفحات الورق ، مع خط وأثر الحرث sillon ، إذ نجد أن كلمة صفحة page تنحدر من اللاتينية pagus التي تعني حقل الزراعة.

تنتشر العلامات الكتابية على سطح كتابي معين، تندرج ضمنه مختلف أشكال الموارد الكتابية مثل : الخشب bois ، الشمع cires ، المعدن métal ، الحجارة pierre إلخ، بواسطة الوسائل والأدوات المستخدمة في تحقيق ذلك مثل المنحت pointe، المرقاش pinceau أو القلم stylo وغيرها، أين تتناوب مساحات الفراغ والملاء، البياض والسواد، البروز والنتوءات ، مشكلة حقلًا مرئيًا كتابيًا ، تنتظم من خلال حروف الكلمات ،أو المنقوشات ،أو الصور الكتابية التي تعمل على تنظيم تجانسية الفكر، وربط سلسلة الكلام التي تنبع من صميم اللغة.

الكلمات المخفية التي تشكل اللغة ، تصبح بعد تثبيتها مكانيا على الصفحة عبارة عن صور، وأثار مرئية تعبر عن مختلف الأبعاد الانفعالية، الرمزية والسميائية التي يمثلها الفكر، فالكتابة تولد على سطح، على مكان يبدأ شيئًا فشيئًا في الامتلاء النقطي والتحول بواسطة وسيلة كتابية، أو طبع ترسم كل حرف ضمن تتابعه داخل سلسلة علامات الكتابة، كما في الكتابة الأبجدية الألفبائية، أين يتم تجميع الحروف بعضها إلى بعض حسب خط كتابي مستمر.

إن تعليم الكتابة في لغة من اللغات، يبين أهمية اتقان جسم الحروف بشكل واضح ومتناسق، فهو يوضح عدد الخطوط التي يتوجب انجازها، حجمها، واتجاهاتها، زيادة على سرعة الحركة حسب أسلوب الكتابة المختار، وشكل العلامات التي تنتظم في كلمات وجمل ، ومن ثم في نص كامل، علما أن قدرة الكاتب على الإبداع تضاف أيضا من خلال انتقائياته لوسيلة وسطح الكتابة، وحرية خياله في ابتكار الخطوط والرسومات البيانية غير المسبوقة، وهو ما يجعل الكتابة أفقا مفتوحا على كل ما هو جديد، خلاق وخارق، وغريب أحيانا كما في كتابة السرياليين.

5 - الكتابة كعلامة مشفرة:

إذا كانت العلامة تعرف على العموم بأنها " كل رمز قادر على تحقيق التواصل بين الناس" (17) ، فإن العلامة الخطية هي العنصر السيميائي sémantique في الكتابة، من خلال قاعدة التواصل المشترك التي تمكن جماعة من البشر من التواصل فيما بينهم كتابيا.

وهكذا فكل كتابة تنبئ عن مفهوم الشفرة code ، وهذا التشفير codage ، كثيرا ما ارتبط في العديد من الميثولوجيات بأنه مجرد هبة don إلهية، وبالتالي فإن مثالية الشفرة تأتي من أعلى ، بينما في التقاليد الإغريقية نجد أن الشفرة ترجع إلى أسطورة هرمس Hermes الإله الأكثر انسانية من بين جميع الآلهة، والرسول الذي أعطى مفاتيح تأويل العلامات، وبالتالي حسب هذه الميثولوجيا، فإن شفرة العلامة الكتابية تنحدر من أسفل ، أي من رحم المجتمعات التي تشكلت فيها هذه العلامات.

ان طبيعة كل كتابة ترتبط بالتشفير، وبالتخفي، حتى أننا نجد على سبيل المثال أن شعب الساكسون ، ارتبط لديه مفهوم الكتابة بمفهوم الهمس، لذلك فإن الناسخ scribe كثيرا ما كان يعتمد إلى تطعيم كتاباته بتشفير نوعي، يركز على انتقاء وإبداع علامات كتابية، يتراوح تمظهرها بين الوضوح والغموض، البساطة والعمق، الظهور والتخفي.

وقد يحدث في بعض الأحيان أن تضيق الشفرة، مما يستدعي البحث عن السبل والإشارات الممكنة التي تقود إلى فك ألغاز الكتابة المجهولة*⁽¹⁸⁾ ، والبحث " في الشروط التي يجب توافرها حتى يكون للكلمات أو الجمل معنى " ⁽¹⁸⁾ ، وهذا ما حدث مع العديد من الكتابات التي تبقى مطعمة باللغز، بسبب استحالة اختراق وكشف شفرة العلامات الخطية التي تكون تلك الكتابات، فتصمد بذلك محتفظة بشفرتها التي يستمر غموضها ولغزها، مع استمرار تاريخ الإنسان الطويل.

6 - الكتابة والسر:

كل كتابة في عمقها ترتبط بمعنى السر secret ، فهي بمعنى من المعاني فعل اخفاء رسالة أو خطاب، فهي تمثل القدرة على القول من دون أن تسمع، وكل كتابة من هذا المنطلق تمتلك وجهين: وجه ملغز يظهر في المستوى المرئي المباشر للكتابة، ووجه آخر مقروء موجه لمن يمتلك مفاتيح قراءة و تأويل العلامات الخطية.

العلامة التي هي " كل شيء يمثل شيئا آخر غير نفسه " ⁽¹⁹⁾ ، مثلها مثل العلامة الخطية، قد يحدث وأن تكون شفرتها مشوشة أو مضمرة، بقدر يجعل القراءة مستحيلة كما في حالة الرسائل الكتابية الموجهة إلى الآلهة والأرواح، أو كما في حالة الكتابات التي غايتها عسكرية، أو دبلوماسية أو دينية، أين تنحصر قراءة وفك شفرة العلامة الكتابية على بعض المؤهلين والمتدربين على ذلك، وأحيانا تقتصر قراءتها على الكاتب وحده الذي ينفرد بهذا الامتياز، حين يقوم بتحريف الرموز الكتابية، أو ايجازها بشكل مكثف وملتحم، للحد الذي تصبح فيه الكتابة غير معروفة، أين تتخفى فيما وراء الصورة ، أو بفعل السرعة أو بفعل الممنوع .

بالموازاة، يمكن للنص المكتوب والمقروء، أن يختصر بشكل يجعله يتبدى شبه لا مرئي، ومثال ذلك نجده في الكتابة الميكروجغرافية التي تخفي النص، لتطعمه بقيم أخرى للعب، للسُر، للتمويه، جالبة جمالية الحركة الكتابية، ولذة اتقان التمكين لكتابة تضمر معنى عميق.

لا شك، أن العلامة الخطية، سايرت وكيفت طاقتها وأدواتها الجغرافية، حسب نوع وطبيعة الرسالة التي أريد لها أن تعبر عنها أو ترمز إليها، حينما طورت الكتابة بحسب حاجيات كل كاتب قدرتها على التواصل وعلى حفظ الفكر، وأحيانا على الإحتفاظ بالسِر** كذاكرة أمينة، لا تسلم مفاتيح فكها إلا لمن يمتلك ناصية وحكمة فك أَلغاز شفراتها، التي هي انكشاف المعنى على نفسه وعتبة تأويل العلامة الخطية.

وعموما، فإن الكتابة هي الوسيلة تمكن الفكر من أن يصبح مرئيا، ومن المعنى أن يتخذ شكلا، ومن الكلام أن يتثبت خطيا، والكتابة هي التي تسمح بالحوار مع اللامرئي invisible، وباستحضار الغائب كما لو كان موجودا.

الكتابة، هي التي تسجل ما يبدو زائدا غير ذي أهمية، وتحفظ ما هو مهم وضروري، وما هو مقدس أيضا، وبهذا فهي تكشف من مجالات استعمالاتها السيميائية، وتنوع من وحداتها الكتابية، وتخلق علاماتها الخاصة بها باستمرار، و ذلك بحسب الثقافة الاصلية التي نشأت وتطورت فيها، وبالتالي فالعلامات الخطية تعكس نمط الثقافة التي تشكلت فيها، وأسلوب التواصل الذي يبتغيه الإنسان، بحسب المستوى الحضاري الذي يصل إليه وقيمة الرسالة التي يريد تبليغها.

الإحالات والهوامش :

- 1 - Vendryes, Joseph ; le langage, introduction linguistique à l'histoire, édit : Albin Miché, paris, 1969,p19.
- 2 - صديق، يوسف، المفاهيم والألفاظ في الفلسفة الحديثة، الدار العربية للكتاب 1976، ليبيا - تونس، ص135.
- * يبدي تاريخ الإنسان أن الكتابات التي عرفها الإنسان وأبدعها كانت تميل إلى طابع الثبات النسبي والاستمرارية نظرا لصلابة الطابع الميثولوجي والديني الذي حدد أصولها وهو ما يفسر التحفظ الذي تواجهه محاولات التصرف في العديد من الكتابات المعاصرة التي تواجه صمودا أمام أي تغير في شكل وبنية كتابة الكلمات المتواضع عليها في هذه اللغات، ورغم هذا فإن تاريخ الكتابة يشهد أن الكتابة عرفت تطورا يصل إلى الجذرية أحيانا سيما نتيجة التأثير والاحتكاك بين الشعوب الذي ساهم في انتشارا لكتابات واستلهام بعض الشعوب لكتابات شعوب أخرى وتطورها، وكونولوجيا، نجد أن السومريين sumériens و الإيلاميين elamites بخليج الفرس هم أول من عرف الكتابة حوالي 3500 سنة ق.م، تبعهم بعد ذلك عن قرب المصريون والهنود حوالي 300 سنة ق.م، ثم الصينيون 2000 سنة ق.م، أما شعوب المايا والأزتك المعزولين في القارة الأمريكية فقد عرفت الكتابة مع بداية القرن الأول الميلادي.

3- Dubois , Jean et autres , 1973 dictionnaire de linguistique ; edit ; librairie larousse ; paris, p358.

- 4- يودين روزنتال وآخرون ، الموسوعة الفلسفية ، ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ، 1985 ، ط 5 ، ص 392 .
- 5- Auroux.S, encyclopédie philosophique universelle,T2,les notions philosophiques, PUF;, 2^{ème} édition , 1998 ,paris, p743
- 6 - تودورف وآخرون، المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، ترجمة عبد القادر قنيني، دار أفريقيا، ط 2 ، دت، ص 10.
- 7- Auroux.S, encyclopédie philosophique universelle, op cit,p743
- 8- ibid , p743.
- 9- Baraquin ,Noëla ,et autres, dictionnaire de philosophie, édit: Armand colin, 2^{ème} édition 2000, paris, p89.
- 10- Jean Calvet,Louis. Histoire de L'écriture, édit : Plon, 1996 , paris, p25.
- 11- Durozoi,Général et andré roussel ; dictionnaire de philosophie, édit ; Natan, 1990, paris, p104.
- 12- Greimas. A.J, J. Courtes ; Sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage, T1, édit : Hachette,1979, Paris, p115.
- 13- Mounin, Georges ; 1974 Dictionnaire de linguistique, édit :PUF ;,1^{ère} édition, 1974, Paris ,p120.
- 14- فوكو، ميشال، حفريات المعرفة :ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب 1986، ط 1، ص 61.
- 15 - ينظر: توسان، برنار، ماهي السيميولوجيا، ترجمة: محمد نظيف، دار أفريقيا الشرق 1994، ط 1، ص 37.
- 16 - بركة، بسام علم الأصوات العام، مركز الإنماء القومي، بيروت، دت/ دط، ص 151.
- 17- Vendryes, Joseph ; le langage, introduction linguistique à l'histoire, op cit, p19.
- **على سبيل المثال يعود الفضل في فك لغز الكتابة الهيروغليفية وقراءتها déchiffrement إلى الفرنسي جون فرانسوا شامبوليون J. Champollion (1790، 1882) الذي استطاع أن يظهر أن المبدأ الصوتي principe phonétique يشكل عمق الكتابة المصرية الهيروغليفية من خلال مقارناته التي أجراها على حجر الرشيد rosette ، اكتشف هذا الحجر المنقوش ضابط فرنسي إبان الحملة الفرنسية على مصر سنة 1799، وهذا الحجر عبارة عن مرسوم ملكي صدر في مدينة منف أصدره الكهان تخليدا لذكرى بطليموس الخامس Ptolémée وكتب النص المنحوت على الحجر بثلاث لغات: الهيروغليفية والديموطيقية والإغريقية.
- 18 - فهي زيدان، محمود ، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية ببيروت 1985، دط، ص 95.
- 19- Mounin, Georges ; 1974 Dictionnaire de linguistique, édit :PUF ;,1^{ère} édition, 1974, Paris, p299.
- ***إن مغامرة الكتابة ، تترجم رحلتها التي سائرت مختلف الحقب والأزمنة وكذا مختلف التشكيلات الكتابية والمواد التي كانت سندا لها مثل المخطوطات اليدوية manuscrits ، ورق البردي papyrus ، وغيرها وكلها تعكس التنوع الثقافي للكتابات الغنية بالمعاني، وبالألغاز والغموض أحيانا الذي يدعو إلى التساؤل عن طبيعة وقصدية التعبيرات الخطية التي أرادت تلك الشعوب حفظها جرافيكيا وتسريب كل أنواع الرسائل التي تدعو طبيعتها الغامضة أحيانا إلى التساؤل والدهشة لأجل تحليل وقراءة ما تريد إبلاغه تلك الكتابات، مثل كتابات ملحمة جلجامش البابلية التي ذكر فيها الإله نبو Nabu حامل إزميل الكتابة.

المدينة في الجزائر بين مشروع الدولة ومشروع المجتمع

فريد مرحوم

أستاذ علم الاجتماع

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -

مدخل:

جرى الحديث في جزائر السبعينيات و الثمانينيات عن "مشروع التنمية الوطنية"، كما يجري الحديث اليوم عن "التنمية المستدامة" كمصطلح جديد بديل (على الموضة الغربية). فهل انتهينا من التنمية حتى نستطيع أن نتحدث اليوم عن التنمية المستدامة؟! إن السؤال الذي يهم موضوعنا هو مكانة المدينة و المجتمع الحضري ضمن مشاريع التنمية الوطنية.

ننتقل في تفكيرنا هنا من فرضية أنه إذا كانت الدولة قد وضعت برامج لبناء المدن و إعمارها في سعيها وراء الحداثة و العصرية، فإن مشروع المجتمع الحداثي لم يكن واضح المعالم، إذ جرى الحديث - نظريا - عن المواطن و عن الساكن في كثير من النصوص القانونية و التنظيمية التي رافقت مشاريع و مخططات البناء و العمران، بعيدا عن الساكن الحقيقي الذي كان موجودا في الميدان يمارس و يسير حياته اليومية داخل فضاء المدينة، يملك فضاءاتها و يستعملها حسب معايير تختلف كثيرا أو قليلا عن تلك التي تعرفها أو تؤمن بها الدولة المخططة و البانية.

1. مشروع التنمية الوطنية أو مشروع الدولة؟

لقد كان مشروع التنمية الوطنية مشروعاً لبناء "الدولة الجزائرية" بالاعتماد على امتلاك القرار السياسي ذي الجوهر الاقتصادي المحض، الذي كان يهدف إلى تحديث المجتمع و الفرد الجزائري لمسايرة ركب التطور العالمي، و الخروج من فرضية القابلية للاستعمار. مارست الدولة بهذا المشروع نوعاً من الهيمنة التي يمكن وصفها بـ "الاستلاب الذي يحمل مظهراً سياسياً، ويسمح بتمييز الاستلاب السياسي، الاستلاب من طرف الدولة و الجهاز"⁽¹⁾. و يمكن أن يشير الجهاز هنا إلى الحزب الحاكم سابقاً "حزب جبهة التحرير الوطني".

يدور الرهان في المدينة حول "الملكية" و منها تلك الرغبة الإنسانية في تملك الأشياء و الفضاء و الزمن، لكن الطابع السياسي للاستلاب يجعل الحياة اليومية مبرمجة و مقننة. و بالتالي فإنه يلاحظ أن السياسات قد تتعارض في بعض الأحيان مع هذه الرغبة في التملك، ذلك أن الاستلاب يعني عند Henri Lefebvre "اعتراض الممكن في السير العادي للحياة اليومية التي يتطلب تحريرها من الاستلاب أن يمتلك الأفراد الحياة بصفة عامة و حياتهم الشخصية بالخصوص"⁽²⁾.

مشروع الدولة اتخذ قرار إعطاء الأولوية لتطوير و تنمية المدينة على حساب العالم الريفي⁽³⁾، و كان صادراً من الاعتقاد أن الصناعة هي باب الحداثة و أنه يمكن تدارك التأخر بـايديولوجية اشتراكية تجعل الدولة هي الضامن لسعادة الشعب و المعبئة لقوة عمله في اتجاه تحقيق الرقي و الرفاهية للجميع، باختصار تجسيد شعار "من الشعب و إلى الشعب".

2. المسألة الحضرية في مشروع التنمية.

لقد أحر مشروع التنمية الوطنية الاهتمام بالمدينة و هو ما يعني - بالنسبة لنا - تأخر الاهتمام بالمجتمع أو بالحياة اليومية للأفراد بتفاصيلها، أو بالواقع كما هو موجود في الزمان و المكان. هو نوع من "التهميش" لدور المجتمع كفاعل اجتماعي قائم بذاته و شريك مهم في معادلة صنع و تشكيل المدينة و إنزالها من المخطط على الورق إلى المنجز على أرض الواقع. من أجل فهم إشكالية التنمية في المدينة الجزائرية، يمكن أن نطرح تساؤلات كلاسيكية من قبيل: هل التنمية تخص المدينة أم تحدث فيها؟ أين يقع المجتمع من صيرورة التنمية التي يفترض أنه يتم إنجازها به و لفائدته؟ أين تقع المدينة التي تحتوي هذا المجتمع؟ هل مشروع التنمية الوطنية في الجزائر هو قرين التنمية المستدامة؟

سوف نحاول تحليل هذه الأسئلة - و ربما ليس الإجابة عنها- من خلال هدم جزئي لفلسفة التنمية في الجزائر المستقلة منذ السبعينيات، مع التركيز على التغيرات الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية التي كانت المدينة مسرحا لها في غالب الأحيان، مع التوقف عند العثرات التي حالت دون الوصول إلى الأهداف المسطرة في الإستراتيجيات التنموية المتتالية. فقد كان الاهتمام الأول لدى إطلاق مشروع التنمية الوطنية مع المخطط الثلاثي الأول (1967- 1969) منكباً على بناء القاعدة الاقتصادية المعتمدة أساساً على التصنيع، و احتفظ مجال العمران بالإجراءات و القواعد السارية في الحقبة الاستعمارية، و كان يجب انتظار المخطط الرباعي الثاني (1974- 1977) حتى يصبح للمدينة أدوات تخطيطها⁽⁴⁾، و تجد المسألة الحضرية كذلك، بما فيها العمران و الإسكان، مكانتها ضمن جدول أعمال الدولة، ذلك أن المدينة بدأت تطرح بعض المشاكل الاجتماعية و الديمغرافية. حيث ورد في الميثاق الوطني لسنة 1976، ما يلي:

"... و ترمي سياسة التوازن الجهوي إلى إقامة هيكل عمراني يوزع توزيعاً منسقاً على كافة مساحة البلاد و ذلك باستعمال مدروس لطاقة الإنسان. إذ الأمر يتعلق هنا بمضاعفة الجهود الحضرية حيث يجد الإنسان وسائل اندماجه التام و حيث تتوفر لكل فرد الظروف الكاملة لازدهاره الثقافي و الاجتماعي و الاقتصادي".⁽⁵⁾

يتعارض هذا الوضع بشكل ما مع نص الميثاق الوطني، الذي كان يريد محاربة ظاهرة النزوح الريفي، حين يؤكد قبل الفقرة السابقة الذكر: "... إن سياسة التوازن الجهوي بما تتيحه للجميع من ظروف متماثلة في المعيشة تسمح بتوزيع سليم للسكان بين مختلف أجزاء البلاد، كما يؤدي إلى التخفيض من التنقلات الداخلية للسكان... كما ينتج عن تلك التنقلات تركز السكان في بعض النقاط من البلاد، و تطور مدن ضخمة حيث تتخذ المشاكل الاقتصادية و الاجتماعية مظاهر مفرجة. إن التجمعات السكنية الضخمة في المدن تساعد على تفكك النسيج الاجتماعي... بحيث يجد الإنسان نفسه وسط محيط شكلي و مادي تزداد فيه متاعبه و أسباب توتره. و زيادة على ذلك، لا يوجد مبرر اقتصادي لهذه التجمعات ما دام انجازها و السهر على صيانتها و تسييرها يتطلب تسخير أموال طائلة تتحمل أعباءها الأمة بكاملها".⁽⁶⁾

إن ما حدث هو عكس ما كان مسطراً، فالتناقض موجود من البداية في نص الميثاق الوطني بدليل أن الفقرتين وردتا متابعتين الثانية ثم الأولى. و بما أن الجزائر كانت في تلك الفترة - بعد الاستقلال - في

معظمها ريفية؛ حيث لا تتعدى نسبة الساكنة الحضرية 25% ، فإن المدن عرفت ما سمي حينها بـ "الترييف" أو "الأريفة" من ناحية تركيبيتها البشرية، والثقافية بالنتيجة.

فالوافدون الجدد على المدينة استوطنوا السكنات أو البيوت القصديرية الشاغرة التي أخلاها السكان الحصريون عندما انتقلوا إلى السكنات و الفيلات التي خلفها المعمرون. يمكن التعبير عن هذه الحركية بإعادة تملك الفضاء الحضري من طرف مجتمع جديد يختلف في ثقافة سكنه عن الساكنة الأوروبية. حيث يقول عبد الحليم فايد و هو مهندس معماري فاز بجائزة رئيس الجمهورية للهندسة المعمارية لسنة 2013 (الطبعة 14)، في هذا السياق، في تصريح لإحدى القنوات الفضائية الجزائرية (الشروق TV)، أن: "الأوروبيين غادروا الجزائر دون أن يتركوا لنا طريقة استعمال (mode d'emploi) المدن و المساكن التي بنوها...".

3. التغير الاجتماعي في المدينة الجزائرية.

في صيرورة التغير الاجتماعي يمثل استرجاع المجتمع الجزائري للمدينة التي غادرها المعمرون الأوروبيون، إعادة تنظيم أو إعادة تركيب للمجتمع الجزائري الشاب الفخور بتحرره، و المتعطش للنجاح الاجتماعي و المعرفة و الانفتاح الثقافي و الرقي الاقتصادي، و الطامح إلى تملك فضائه الحضري و الريفي على السواء و في آن واحد.

إعادة التنظيم الاجتماعي هذه، و إن كانت غير مرئية بشكل واضح بالنسبة للدولة، أسهمت في رسم صورة المدينة و أشكال تملكها، كما وجهت طرق تعامل الدولة مع المشاكل التي بدأت تطرحها المدينة و العمران بشكل عام. يمكن التعبير عما حدث "بإعادة تشكيل المجتمع الريفي داخل المدينة"؛ حيث أن ممارساته الجديدة للفضاء الحضري أصبحت فعالة في إثارة التغير الاجتماعي، بل أصبح المجتمع فاعلا اجتماعيا قائما بذاته.

يقول علي الكنز في هذا السياق: "... إن اكتشاف التجربة الاجتماعية هو وليد نشاط نظري و حركية اجتماعية انتهت إلى فرض المجتمع لنفسه كموضوع مركزي يستدعي الدراسة... فكل شيء تغير، أنماط المعيشة كما التصورات... لقد توسع الفضاء الحضري على حساب العالم الريفي الذي لم يستطع الحفاظ سوى على ثلث السكان الإجمالي. إن إعادة التشكيل هذه تجعل الحركية التاريخية تنتقل من الريف نحو المدينة... و في المدينة - حتى و إن كانت غير منظمة و كان السكن في الأحياء القصديرية

الضعيفة التجهيز- يتم اكتشاف حاجيات جديدة: كالعامل المأجور والصحة و المدرسة و وسائل الإعلام العصرية. إن الذي حصل لم يكن تغييرا لنمط الإقامة فقط، إنه تغيير لنمط الحياة..."⁽⁷⁾.

بالنسبة لعلي الكنز، فإن هذا التغير يعبر عن الانتقال من نظام "الجماعة" (communauté) إلى نظام "المجتمع" (société)؛ حيث يلاحظ ظهور أنماط جديدة من العلاقات الاجتماعية المتميزة بالمصلحة الواعية أكثر من أشكال التضامن الجماعية التقليدية: علاقات مبنية على منطق الحساب (الربح السريع) أكثر مما هي مبنية على منطق الاجتماع العاطفي (المصلحة العامة و أقل من ذلك المصلحة الوطنية)، مبنيا على الإستراتيجية أكثر من التجنيد الطوعي. باختصار أننا كنا بصدد ميلاد ثقافة العقد الاجتماعي⁽⁸⁾. الانتقال في الواقع ليس آليا، و ليس من قبيل وضع شيء مكان شيء آخر، حيث يكف النظام الأول عن التواجد، و لكنه يقوم كما أكد على ذلك Ferdinand Tönnies في كتابه الموسوم: "الجماعة و المجتمع"، على نمط أن "نظام المجتمع يزدهر بانحلال نظام الجماعة"⁽⁹⁾.

يمكن وصف الوضع بما عبر عنه Henri Lefebvre في كتابه الموسوم: "الحق في المدينة"، عندما يقول: "... أنه حول المدينة تشكلت ضاحية مفرغة من الحضرية، و لكنها تابعة للمدينة. و بالفعل لا يكف سكان الضواحي و ملاك السكنات الفردية عن كونهم حضريين رغم أنهم لا يعون ذلك، و يرون أنفسهم أقرب من الطبيعة... حتى نعبر عن المفارقة [نقول] إنه عمران مضاد للتحضر و مفرغ من الحضرية في آن واحد..."⁽¹⁰⁾.

مع أن سياسة العمران في الجزائر، تمكنت نسبيا من حصر النزوح الريفي، إلا أن ذلك لم يمنع من انتشار السكن الفوضوي - غير اللائق- و الأحياء القصديرية العارضة على أبواب المدن الكبرى و حتى داخل وسط المدن، فإنه يمكن الحديث عن النقائص في العناية بالنسيج العمراني الموجود، من جهة، و عن العجز في تطوير التوسع العمراني العشوائي الذي يسير بسرعات مختلفة، من جهة أخرى.

فاختلاط الأمور على الأجهزة المكلفة بالتخطيط العمراني، و خرق المجتمع للمخططات الموجهة للتهيئة و العمران و مخططات شغل الأراضي (PDAU et POS)، جعل العمران يتعداها إلى الأراضي الفلاحية الخصبة و يسهم في انحسار النشاط الفلاحي الممّن للمدينة من ضواحيها المباشرة. و هو ما يطرح إشكالا آخر في التسيير الوظيفي للمدينة و التقسيم العقاري للأراضي حسب الأنشطة الاقتصادية (زراعة، صناعة، سياحة، خدمات...).

و حسب احتياجات المرحلة و مواكبة لمسار التصنيع و التحديث و العصرية، كان الاتجاه إلى البناء الجاهز في الخيار التكنولوجي، و التجمعات السكنية الكبرى من ناحية الخيار العمراني (ZHUN)، بتصاميم معمارية جامدة، فقيرة، متكررة و صماء حتى في تسمياتها (حي 1500 سكن، حي 520 سكن، حي 1090 سكن...)، غير كاملة التجهيز بالمرافق العامة و مهياة للتمهيش مستقبلا (les cités dortoirs). و يمكن القول أن السياسي صنع و لا يزال يصنع صورة المدن في الجزائر⁽¹¹⁾.

4. المجتمع الحضري ورهانات الديمقراطية و المواطنة.

عرفت عشرية التسعينيات تحولات سياسية و اجتماعية كادت أن تعصف بالبلد دولة و مجتمعا، إلى درجة سميت "بالعشرية السوداء"⁽¹²⁾. فضيها أرسيت الديمقراطية و التعددية الحزبية و حرية التعبير و وُلد المجتمع المدني بنفس جديد... وفيها كذلك اختير اقتصاد السوق كبديل عن النهج الاشتراكي و مركزية الإدارة، و فيها عرف سوق العقار و السكن انفتاحه في الإنتاج و الاستهلاك مع سيادة منطق السوق الحرة⁽¹³⁾.

هذا التحول أدى إلى إقحام المدينة في خضم التحولات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية، فقد أصبحت فضاء مفضلا بامتياز لممارسة الديمقراطية و المواطنة، و يحدث فيها الصراع بين الدولة و المجتمع حول تملك الفضاء العام و التموقع فيه، و يجسد فيها المجتمع ممارساته الثقافية للإنتاج و إعادة الإنتاج الاجتماعي، متملكا بذلك تجربة الحياة الحضرية. يتعلق الأمر هنا بالاستعمال الآني للمدينة، لشوارعها و ساحاتها و بناياتها و معالمها، بطرق و حسب دلالات مختلفة و أحيانا متعارضة بين الفاعلين الاجتماعيين المعنيين⁽¹⁴⁾.

من ناحية القيمة السلعية التبادلية للمدينة أسهم انفتاح السوق العقارية في جعل العمران يسير بسرعتين مختلفتين: أحدهما تشرف عليه الدولة، و الثاني يقوم به المجتمع، من خلال شبكة العلاقات الاجتماعية حيث يتم تبادل ملكية الفضاء و المساكن، و يتم استغلال الفضاء العام في التوسع السكني و التجاري، مما يجعل استجابة التخطيط و التهيئة العمرانية تكون تابعة - في غالب الأحيان - لديناميكية المجتمع في شغل فضاء المدينة.

و هكذا يتم إسقاط مواصفات المجتمع الذي ما انبث يطبع الفضاء باختلافه الثقافي و فروقاته الاجتماعية على فضاءات المدينة، بل هو إسقاط كذلك للتصورات المستبطنة عن الفضاء و المدينة، عن

الفردى والجماعى، عن العام والخاص، عن الأنا والغير والآخر على أرض الواقع. ولهذا يمكن أن نرى بأن ساكنة المدينة "هجنة" تتجاذبها ثقافة ريفية عميقة على مستوى القيم، و "ثقافة حدائية" سطحية على مستوى السلوك⁽¹⁵⁾.

و لكن وجب أن نشير إلى أن غزارة الأحداث والاضطرابات السياسية، قد أجلت الحديث عن التنمية كمرحلة فعلية في فترة التسعينيات، ذلك أن الوضع الأمني والسياسي للبلد أخذ كل حيز النقاش واحتوى الرأي العام، واستحوذ على تفكير الساسة في طرق ونماذج الخروج من الأزمة السياسية والأمنية الضاغطة داخليا وخارجيا.

هذا الوضع يوحي لغير المتبصر بوجود صراع بين الدولة والمجتمع، وبأن الثاني يقف ضد الأول، و كلاهما يرفض إشراك الآخر كفاعل فعلي في مشروع التنمية. لكن يمكن الاستناد إلى ما أكده علي الكنز في رده على تعقيبات زملائه حول مداخلته المذكورة سابقا، عندما يوضح: "... أنا لم أقل و لم أكتب أن المجتمع لا بد أن يكون ضد الدولة، بل بالعكس حاولت أن أبين أن عملية التنمية وتنوع وتعقيد المشاكل المطروحة تجعل من الضروري إعادة هيكلة الدولة... إنه مشكل عصرنة هياكلها الدوتنية (étatiques). إن المجتمع ليس ضد الدولة، إنه أكثر تقدما عنها..."⁽¹⁶⁾.

لقد أسهم الوضع الأمني في تزايد الحركية البشرية من المناطق "الخطيرة غير الآمنة" نحو المدينة (المفترض أنها أكثر أمنا)، حيث يحتمي النازحون بالدولة. لكن هذا طرح مشاكل أخرى للأجهزة القائمة على تسيير المدن وتخطيط العمران والإسكان؛ مع الإشارة إلى أن هذه الحركية انعكست على وعي الناس من خلال إعادة إنتاج القرية والدوار في الضواحي المباشرة للمدينة، مع الانفتاح عليها ثم الانتماء إليها لاحقا، حيث تصبح هذه الأحياء الفوضوية جزءا من المدينة بفعل التوسع العمراني.

إن الوعي النقدي الذي ظهر لدى ساكنة المدينة (الأصليين والجدد) استهدف استجابات الدولة تجاه مطالبهم الاجتماعية من السكن والعمل والصحة والتعليم والمرافق العامة وحتى التهيئة العمرانية. هذه الأخيرة التي يبدو وكأن الأجهزة القائمة على تجسيدها أصبحت شبه عاجزة عن احتواء التوسع العمراني المتسارع، و غير متفرغة للاهتمام بالنسيج العمراني الموجود، الذي يحمل التاريخ والتراث العمراني للمدينة وساكنتها، و غير قادرة من جهة أخرى على توجيه الممارسة الحضرية في اتجاه البناء والمحافظة على البناء للأجيال القادمة.

الملاحظ هنا هو أن مسألة المواطنة بدأت تطرح نفسها كقضية مركزية، فالمجتمع تشكل كفاعل قائم بذاته يرى عن وعي - ليس سياسيا بالضرورة- أن الدولة مسؤولة أمامه و ليس عنه. "...الدولة مسؤولة في كلشي... بصح ما تنجشم تدخل لداري توريني وين نرقد و وين ناكل و كيفاه نسكن... أنا اللي نحاسبها *normalement*..."

إذن كيف كان يجب تجنيد هذا المجتمع حول مشروع التنمية؟ علما أن مشروع التنمية الذي انطلق في السبعينيات تعرض إلى انكسارات و تعديلات ميزت تغير الرؤساء على رأس السلطة خلال المراحل التي مرت بها الجزائر بعد الاستقلال⁽¹⁷⁾، وأنه يمكن تسميتها "مشاريع دولة" و ليست "مشاريع مجتمع".

5. التنمية المستدامة والمجتمع المستديم.

هناك فرقا بين المدينة المرسومة على الورق أو المنجزة في شكل مجسم، و تلك المنجزة فعليا على أرض الواقع، زد على ذلك الفرق الواضح بين المدينة كجماد من الإسمنت و البلاط و الإسفلت... و المدينة الاجتماعية المأهولة بالأفراد و الجماعات المنتظمين في مجتمع ثقافي بالدرجة الأولى. إن الناس يطبعون و يسمون الفضاء بثقافتهم و ممارساتهم للحياة اليومية، إذ يقول لنا Henri Lefebvre: "... إن سوء حالة المدن الكبرى يعود إلى أن الطبقات المهيمنة تستعمل الفضاء كوسيلة، يهدفون في الواقع من خلالها إلى تفريق و توزيع الطبقات العمالية إلى أماكن تناسب مكانتهم كعمال، و ذلك من أجل التحكم في الفضاء..."⁽¹⁸⁾.

من جهة أخرى، فإن بعض الدراسات حول الأمراض الحضرية قامت على افتراض أن المدينة تشكل عاملا مهما في اختلال التوازن النفسي للأفراد، و أن نمط العمران يعمل على إنتاج السلوك المنحرف و الأمراض العقلية و يزعزع العلاقات الاجتماعية، حيث يقول Georg Simmel: "... إن الاكتظاظ البيئي الذي يميز هذه الأماكن (المدن الكبرى) الغنية و الاصطناعية، حيث تتقلص المساحات الخضراء و يغلب عليها الطابع العمودي، تشكل - حتى من خلال تنوعها - مصدر إزعاج و قلق للسكان... هذا الاكتظاظ يشكل عائقا أمام حريتهم، فهم لا يتحكمون في أي شيء... و لهذا فإن سكان المدينة يحلمون (يرغبون) بالهروب إلى الريف..."⁽¹⁹⁾.

يشير Jean-Pierre Paulet إلى أن المشكل الذي يجب الإشارة إليه، يكمن في صعوبة الجمع بين الرفاهية و الحداثة التي توفرهما المدينة - و التي من الصعب التنازل عنها بالنسبة للسكان الحضري-

وفرص الراحة و الهدوء التي يتوفر عليها الريف، من جمال الطبيعة الخضراء و نقاوة الهواء و نعومة الشمس... حيث تنفتح النفس على الترفيه و التسلية و ممارسة الرياضة و رعاية الحديقة الصغيرة. و هو أمر شبه مستحيل أن تحققه مخططات التهيئة العمرانية في المدينة⁽²⁰⁾.

قد يكون تكيف الساكن الجديد مع وسط سكنه الجديد صعبا - في البداية على الأقل - و لكن عدم القدرة على تكيف السكن حسب تصوراته و تمثلاته للفضاء، و استحالة إعادة التصاميم المعمارية، يحتم على هذا الساكن أن يتكيف هو مع نمط سكنه أحيانا. يقول الجغرافي Marc Côte أن "... خيارات الدولة بعد الاستقلال، كانت تهدف إلى تنشئة المجتمع على الحداثة و إنتاج فرد جزائري حديث. و لكن النتيجة كانت عدم انخراط هذا المجتمع في المشروع الحداثي و التنموي على حد سواء..."⁽²¹⁾، و خرجنا بعد سنوات بمجتمع "شائع" في طرق حيازته و شغله للفضاء، في طرق عمله و دراسته في أشكال استهلاكه، و في طرق تعامله مع الآخر، على حد تعبير جمال غريد⁽²²⁾.

إن هدف العمران هو الإنسان بالدرجة الأولى، و اختطاط المدن إنما هو من أجل استعمال الفضاء بما يوفر للإنسان و المجتمع شروط الراحة و الدعة و السكون بالتعبير الخلدوني، مع الحفاظ على البيئة أو الطبيعة التي تسمح باستمرار حياة المجتمع في المدينة من خلال ماضيها و حاضرها، حفظا للذاكرة و التاريخ، و تطلعا إلى مستقبل الأجيال التي لم تولد بعد. ولا يمكن للقوانين و القواعد أن تحافظ على العمران ما لم تأخذ في الحسبان تاريخ المدينة و تراثها، و التي تسهم من جهة في فهم المدينة و تحليل ديناميكيتها، و تنبئ عن تطور المجتمع، من جهة أخرى. "...فالتجربة تعلمنا أن القواعد القانونية التي لا تترجم، أو تستبق، تطور المجتمع تبقى مجرد كلمات ميتة..."⁽²³⁾.

خاتمة:

تقوم التنمية المستدامة على تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية ذكرها بالتفصيل J-P. Paulet في كتابه "الجغرافيا الحضرية" المشار إليه سابقا، وهي: *People, planet, profit* (راحة السكان، و حماية البيئة، والفعالية الاقتصادية (الربح)).

العناصر الثلاثة متوفرة، و لا يتطلب الأمر سوى العمل على تنمية الإنسان و تنشئته على التمتع بعيش تاريخ مدينته بكل فخر، و الحفاظ على البيئة التي يعيش فيها، بدءا بفضاءه الخاص (من الغرفة إلى البيت إلى الحي إلى المدينة) وصولا إلى الاهتمام بمشاكل كوكب الأرض، و تحفيز قيم العمل و الاجتهاد، و التضامن و التكافل الاجتماعي التي تزخر بها الثقافة الإنسانية، من أجل تحقيق الفعالية الاقتصادية للمدينة.

و بهذا فإنه لا يمكن اعتبار الإنسان مجرد عنصر من النظام الإيكولوجي للمدينة، إنما هو الفاعل المركزي مهما كانت مكانته: ساكنا أو مسيرا أو حاكما.

فالتنمية - و هي إحدى المرادفات اللغوية للتربية (ربا، يربو= نما، ينمو) - تعتمد على نمط التنشئة الاجتماعية الذي نرى من خلاله المدينة، لذا يجب أن يحسن الساكن استغلال منتجات الحداثة، من خلال اشتراك كل مؤسسات التنشئة الاجتماعية من الأسرة (النوعية و الموسعة) إلى المدرسة إلى جماعة الرفاق إلى وسائل الإعلام، مع ضرورة إشراك كل الفاعلين الاجتماعيين الدولة كما المجتمع المدني، الأطفال و الشباب و الشيوخ كما النساء و الرجال، في مشروع واحد هو "مشروع مجتمع مستديم"، أو مجتمع المواطنة.

- 1 - Henri Lefebvre, Du rural à l'Urbain, op.cit, p 8.
- 2 - Ibid, p 90.
- 3 - Cf. Hadjidj El djounid, « Urbanification » et appropriation de l'espace, le cas de la ville d'Oran, op.cit.
- 4 - Ibid, p 214.
- 5 - الميثاق الوطني، الجريدة الرسمية الجزائرية، العدد 61، 1976، ص 926.
- 6 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 7 - علي الكنز، من "الإعجاب بالدولة إلى اكتشاف الممارسة الاجتماعية"، في سعيد بن سعيد العلوي وآخرون، المجتمع المدني في الوطن العربي و دوره تحقيق الديمقراطية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، 2001، ص 211.
- 8 - المرجع نفسه، ص 212.
- 9 - Cf. Ferdinand Tönnies, Communauté et société, Paris, PUF, Coll Le lien social, 2010.
- 10 - Henri Lefebvre, Le droit à la ville, op.cit, pp 26-27.
- 11 - Sidi Boumediene, Rachid ; Taieb, Messaoud, op.cit, pp. 20-21.
- 12 - نحن نستعمل هذه التسمية بتحفظ، لأنها في رأينا، من ترويج الأوساط الصحفية التي لا تلتزم غالبا بالموضوعية العلمية، وهي ترتبط بالحس المشترك الذي يفرض نفسه على الرأي العام.
- 13 - بعد تخلص الطبقات الفقيرة من منطق الإدارة في الإقصاء من السكن، جاء منطق السوق ليقصدهم مجددا و يصنفهم حسب إمكانياتهم الاقتصادية والمالية.
- 14 - Henri Lefebvre, *Le droit à la ville*, op.cit, p 12.
- 15 - هذه الفكرة تقترب من مفارقة العمران المضاد للتحضر/ الفاقد للحضرية.
- 16 - علي الكنز، نفس المرجع السابق، ص 226.
- 17 - يمكن أن نسمي هذه المراحل بأسماء القادة السياسيين: كمرحلة هواري بومدين في السبعينيات، ثم مرحلة الشاذلي بن جديد في الثمانينيات، ثم مرحلة المخاض السياسي و التنموي العسيري من محمد بوضياف إلى المجلس الأعلى للدولة إلى اليمين زروال، إلى مرحلة عبد العزيز بوتفليقة بداية من 1999 إلى يومنا هذا.
- 18 - « ...Les malaises des grandes métropoles sont dus au fait que les classes dominantes se servent aujourd'hui de l'espace comme instrument. Leur objectif serait, en effet, de disperser la classe ouvrière et la répartir dans des lieux assignés, afin de contrôler l'espace... ». Cité par : Jean- Pierre Paulet, Ibid, p 241.
- 19 - « ...La surcharge environnementale : pour caractériser ces lieux riches, artificiels où les espaces verts sont réduit et où domine la verticalité. La ville serait, par sa diversité, une source de nuisance pour les habitants... la surcharge constitue une entrave à leur liberté, ils ne contrôlent rien. Il est impossible de se soustraire à des stimuli environnementaux si nombreux et si puissants. Et c'est pour ça que les citadins veulent s'en aller (fuir) vers les campagnes. Cité par : Jean- Pierre Paulet, Ibid, p 243.
- 20 - Ibid, p 245.
- 21 - Marc Côte, op.cit, p 65.
- 22 - Djamel-Eddine Guerid, op.cit, p 201.
- 23 - Marcel Roncayolo, Cité par : Sidi Mohamed El Habib Benkoula, « Comment peut-on être un bon citoyen quand on n'aime pas sa ville ? », in Le Quotidien d'Oran du 05/01/2008, N° 3968, Rubrique Opinion, p 08.

وضعية المرأة التونسية في الريف والحضر قبل الاستقلال واليوم

فتحية مقديش

باحثة في علم الاجتماع

جامعة صفاقس تونس

مقدمة:

لم يكن وضع المرأة عبر التاريخ ثابتا ولا مستقرا، بل شهد عدة تقلبات وعرف عدة تحولات اختلفت بحسب اختلاف الحضارات وبحسب تنوع الديانات. فلقد قدسها الرجل وألّٰها⁽¹⁾ وذلك بفضل قدرتها على الولادة وعلى بعث الحياة تارة، و تدنت مكانتها واحتقرت. ومورست عليها شتى أنواع القهر والقمع تارة أخرى.

ونظرا لأهمية المسألة، أردنا البحث في محور وضعية المرأة التونسية وذلك عن طريق الخوض في الإشكالية التالية: إلى أي مدى تغيرت وضعيتها في الريف والحضر اليوم بالمقارنة بما كانت عليه قبل الاستقلال؟ وماهي العوامل المساهمة في ذلك؟

اخترنا النظر في تلك المسألة لدوافع عديدة يتمثل أولها في الحضور البارز للمرأة التونسية وأهمية موقعها في الحياة الاجتماعية بمختلف جوانبها. أما الدافع الثاني، فيكمن في أن هذه المسألة لم تحظ في ظلّنا بالاهتمام العلمي اللازم، بعد أن ران على معظم الدراسات الإطار النظري وأهم الجانب المبريري. ولا نخالنا مبالغين إن قلنا إن هاجسنا الميداني حدا بنا إلى اختيار تونس نموذجا وتحديد ولاية صفاقس الواقعة بالوسط الشرقي للبلاد التونسية كمجال أجرينا داخله الدراسة الميدانية. وركزنا على صفاقس تحديدا باعتبارها تمثل ثاني أهم الولايات التونسية وتتميز بوزنها الديمغرافي والاقتصادي والسياسي، كما أنها خضعت للعديد من التغيرات الاجتماعية بعد الاستقلال، ثم إن معرفتنا الجيدة لهذه المدينة واستقرارنا بها منذ أمد طويل ييسر علينا عملية فهم بعض الظواهر والالام ببعض جوانبها.

تم اختيار العينة من مختلف مناطق هذه الولاية. وقسمت إلى مجموعتين، الأولى تعد 10 نساء من الأوساط الريفية. وتعد الثانية 10 من نساء الأوساط الحضرية من مختلف الأعمار والشرائح الاجتماعية. وزعنا العينة على النحو التالي: 6 يشتغلن في القطاع الخاص و6 يشتغلن في القطاع العمومي و4 يشتغلن في المنزل و4 صاحبات مشاريع خاصة. وتم اختيار هذه العينة بطريقة عشوائية.

تسعى هذه الدراسة إلى بلوغ أهداف معينة، تتمثل أساسا في التعريف بأهم الأدوار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تضطلع بها المرأة التونسية اليوم وإلى الكشف عن تأثير ذلك على وضعيتها وبالتالي على مكانتها داخل المجتمع وإلى تبين العوامل التي ساعدت على ذلك.

ولبلوغ تلك الأهداف، اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي، فوصفنا أهم المعطيات التي جمعناها وحللناها عن طريق تقنية الملاحظة البسيطة وبواسطة المقابلات نصف الموجهة التي أجريناها مع أولئك النسوة، هذا فضلا عن الاستعانة ببعض الإحصائيات التي كنا قد تحصلنا عليها من خلال الدراسة الميدانية التي قام بها برنامج الأمم المتحدة للتنمية في 2013. وكذلك التقرير الذي أعدته رابطة الناخبات التونسيات في 2014 حول المسار الانتخابي و مشاركة المرأة في تونس. وكانت هذه الاحصائيات بمثابة الإثبات والدعم لبعض المعطيات أو المعلومات التي كشفتها لنا الدراسة الميدانية، كما كانت بمثابة الأداة التي ساعدتنا على التوسع في بعض المسائل والتعمق فيها.

1- لمحة عن وضعية المرأة التونسية قبل الاستقلال:

شهدت المرأة التونسية قبيل الاستقلال وضعية حرجة، جراء ما خلفه المستعمر من تأخر اقتصادي وتخلّف فكري، فقد عانت التهميش والإقصاء الاجتماعي. وكبلت بشتى القيود الاجتماعية من عادات وتقاليد حالت دون تقدمها ودون إثبات دورها كذات فاعلة في المجتمع.

(1) التبعية المادية:

كانت النظرة الموجهة للمرأة التونسية الريفية والحضرية، على حد سواء، قبل الاستقلال نظرة احتقار وازدراء ودونية. وقد ظلت صورتها المتمحورة حول على أنها ذاك الكائن الضعيف الذي يتبع الرجل ماديا وفكريا، محفورة في الذاكرة الشعبية الجماعية لعدة عقود خلت. وساهم هذا التصور في حرمانها من إحدى أهم حقوقها وهو حقها في التشغيل أو في العمل المأجور، فخضعت إلى مبدأ التقسيم الجنسي للعمل وانحصر دورها على وظيفة الإنجاب وتربية الأبناء وتلبية حاجات الزوج والقيام بشؤون المنزل. فكان الفضاء الداخلي (البيت) هو المجال المخصص لتمارس فيه الأعمال الموكولة لها. وفي مقابل ذلك، خصص الفضاء الخارجي مجالا للرجل، ليشغل فيه ويعمل على توفير متطلبات عائلته. وحرّم هذا الفضاء على النساء. هذا إذا استثنينا مساعدتها للزوج في القيام ببعض الأعمال الفلاحية الشاقة غير المأجورة داخل الأوساط الريفية. في المقابل، كان يعاب على الرجال أن يمكثوا وقتا طويلا في الفضاء الداخلي بعد انتهائهم من أعمالهم.

هكذا أصبحت المرأة تشهد تبعية مادية مطلقة للرجل حالت دون النهوض بدورها كذات فاعلة داخل مجتمعها⁽²⁾، مما حال دون مساهمتها في عملية التنمية الاقتصادية للمجتمع. ولعل التصريح الذي أدلت به إحدى المستجوبات الريفيات التي عاشت فترة الاستعمار يلخص المكانة الدونية التي كانت تحتلها المرأة ويدعم تغييب دورها كعنصر فعال في الحياة الاقتصادية آنذاك، إذ تقول: "كنا كالبهائم نعمل طيلة النهار داخل البيت وخارجه مقابل لقمة ونمنع حتى من التعبير عن الملل أو الكلال أو التعب".

(2) التبعية الاجتماعية:

لعل حالة التبعية المادية التي مرت بها المرأة التونسية قبل الاستقلال انجرت عنها تبعية اجتماعية بما تشمله كلمة اجتماعي من بعد ثقافي وسياسي، فقد أدى حرمانها من المشاركة في الحياة الاقتصادية حرمان من أبسط حقوقها الاجتماعية كحقها في التعبير عن رأيها. وفي اتخاذ قرارات تخصها أو تتعلق بأسرتها، إذ توكل مثل هذه المهمات للأب أو الأخ الأكبر قبل الزواج ثم إلى الزوج بعد الزواج. ولقد لعبت العادات والتقاليد والمعتقدات الاجتماعية التي كانت ترفع من شأن الذكر على حساب الأنثى دورا هاما في ذلك، فقد رسخت مثل هذه العادات في الذاكرة الشعبية الجماعية القدسية للذكر. وميزته عن الأنثى، وذلك من خلال منحه شرعية مطلقة في اتخاذ قرارات تخص حياتها وتحدد مصيرها من الزواج إلى الطلاق إلى الإنجاب. وهذا ما أكدته إحدى المستجوبات بقولها: "كنا نعيش تبعية مفرطة للرجل سواء كان أبا أو أخا أو زوجا. نتبع توجيهاته ونقبل قراراته وننفذ أوامره، فقد زوجني أبي من شخص لا أعرفه عندما بلغت اثنتي عشرة سنة، ثم طلقني ذاك الشخص دون أن يستشيرني، فزوجني إثر ذلك أخي الأكبر من ابن عمي الذي يفوقني سنا بعشرين سنة". لعل هذه الشهادة مثال بارز يلخص الوضعية الاجتماعية الدونية التي كانت تعيشها المرأة التونسية الريفية أو الحضرية قبل الاستقلال. لكن تبعية الرجل لم تقف عند مستوى التعبير عن آرائها في مسائل تخصها وفي اتخاذ قرارات تخص حياتها أو تتعلق بأسرتها وحسب، وإنما امتدت لتشمل الجوانب الفكرية والثقافية، فقد ظلت المرأة الريفية والحضرية آنذاك حبيسة للرجل تتبنى أفكاره وتؤمن بما يؤمن به وتعتقد فيما يعتقد فيه دون جدل أو نقاش، نتيجة انتشار الأمية التي كرسها بعض العادات والتقاليد والمعتقدات التي حطت من شأن المرأة ومن مكانتها وأعاقت مشاركتها في الحياة الثقافية وحالت دون إثبات ذاتها كفاعلة في التنمية الثقافية للمجتمع، عملا بالمثل الشعبي الرائج آنذاك "بنتك لا تعلمها حروف ولا تسكنها غروف" وهو ما يمثل دعوة صريحة إلى عدم تعليم الفتاة. ولعل التصريح التالي الذي أدلت به إحدى المستجوبات يلخص ما تم ذكره سابقا "دخلت محو

الأمية منذ بضع سنوات، حتى أدرك كيفية الإمساك بالقلم لكتابة اسمي والقيام بإمضاء عندما يستوجب الأمر ذلك، فقد أصبحنا جهلة ومتخلفين نتيجة حرماننا من القراءة والكتابة. كنا مثل الدواب، عندما يقال لنا امش نمشي وعندما يقال لنا قف نقف".

وإذا كان هذا هو حال المرأة التونسية المادي والاجتماعي والثقافي قبل الاستقلال، فإنه يمكن القول إن وضعها السياسي لا يقل تدهورا عن ذلك الحال. فإذا كانت تعاني الازدراء والتحقير والتهميش على الصعيد المادي والاجتماعي والثقافي، فإنها عاشت الإقصاء في المجال السياسي، فقد كانت مشاركتها في السياسة منعدمة وكان وضعها داخل هذا المجال أكثر تخلفا من المجالات الأخرى. لقد منعت المرأة من ممارسة حق الترشح لخوض غمار العمل السياسي وحرمت من المشاركة في الانتخاب والتصويت. ويجد ذلك تفسيره في طبيعة بنية المجتمع وفي ما كان يسوده من قيم ومبادئ تجعل من العمل السياسي حكرا على الرجل دون المرأة. ولعل قبول الرجل منع المرأة من المشاركة في الحياة السياسية، هو نتيجة لاحتكاره السلطة.

II - التغيرات الاجتماعية لوضعية المرأة التونسية اليوم:

إذا ما اعتبرنا التغير هو مختلف التحولات التي تطرأ على هياكل المجتمع في كل مجالاته وخاصة من خصائص الحضارة نفسها (3)، فإن التغيرات الاجتماعية هي مختلف الاختلافات التي حدثت في بناء اجتماعي معين من فترة زمنية إلى أخرى.

على إثر بناء الدولة الوطنية، عرف المجتمع التونسي جملة من التغيرات التي لحقت ببناء الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، فقد برزت أنماط إنتاجية واستهلاكية جديدة عوضت الأنماط التقليدية وانجرت عنها بعض التغيرات في مستوى أدوار الأفراد وفي وضعياتهم وفي مكاناتهم الاجتماعية، فتغيرت على إثر ذلك وضعية المرأة في تونس وتغيرت أدوارها داخل المجتمع. هكذا، لم تعد المرأة ذاك الكائن الضعيف الذي يتبع الرجل ويخضع لقوانينه ولسيادته، بل استطاعت عبر نضال طويل من أن تخرج من قوقعتها وأن تقطع أشواطاً هامة في مسار تحررها. وحتى يتسنى لها مواصلة طريقها بثبات وتتجاوز مرحلة النكوص التي كانت قد عاشتها في فترة ما قبل الاستقلال، أعادت تشكيل تصوراتها ورسمت مسارا مغايرا مكنها من بلوغ أهدافها حتى لا تكون كائنا ممثلا للرجل تابعا له، وذلك عبر التغيير في أدوارها داخل المجتمع، إذ تمكنت من المشاركة في الحياة المجتمعية بمختلف جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، كما تمكنت من أن تثبت أنها عنصر فاعل فيها وقد تبع ذلك أن تغيرت وضعيتها ومكانتها داخل المجتمع.

1) دور المرأة في الديناميكية الاقتصادية:

لعل ما يمكن ملاحظته هو أن المرأة في تونس اليوم، أصبحت تحظى بمكانة هامة داخل المجتمع خولت لها المشاركة الفعلية فيه وفي مختلف مجالاته ومن أبرزها في المجال الاقتصادي، فلقد استطاعت أن تلحق بركاب الجنس الآخر وأن تسترد مكانتها باعتبارها ذاتا فاعلة في هذا القطاع، وذلك من خلال قدرتها على الاضطلاع بجملة من الأدوار داخل الفضاء الخاص وخارجه، كما تمكنت من أن تتجاوز العديد من العراقيل التي حالت دون تجسيد مطامحها واستطاعت أن تنتزع العديد من حقوقها المهنية وأن تحتل العديد من الوظائف التي كانت حكرًا على الرجال، وذلك بفضل ما بلغته من تطور وتقدم فكري مكنها من الاستقلال عن الرجل وجعلها قادرة على كفالة نفسها. أصبحت عونًا له تشاركه أعباء الحياة المادية وتتولى مسؤولية نفقات أسرته كاملة. وهذا ما أكدته إحدى المستجوبات الريفيات العاملة بالقطاع الخاص حين قالت: "لقد تحملت مسؤولية الإنفاق على عائلتي منذ سنوات عندما أقعد زوجي إثر إصابته بحادث مرور". لقد تمكنت المرأة من أن تتخذ لها موقعا إلى جانب الرجل لا خلفه، فتحوّلت من عنصر مستهلك إلى عنصر منتج وفاعل ومن عبء ثقيل على الرجل إلى شريك له في النهوض بأسرتها والمشاركة في تنمية المجتمع اقتصاديا.

ولعل التطور الذي لحق بعض القطاعات كالزراعة والصناعة والخدمات اليوم بالمقارنة عما كانت عليه قبل الاستقلال، استوجب خروج المرأة الريفية والحضرية على حد سواء إلى العمل وتطلب مشاركتها في عملية الإنتاج إذ رأت الدولة التونسية بأنه لا يمكن أن تستقيم التنمية إلا باستثمار طاقات المرأة والاستفادة من خبراتها وكفاءتها ومساواتها بالرجل، فألغت مبدأ التقسيم الجنسي للعمل الذي كان سائدا في الماضي، وفتحت المجال واسعا أمامها لتمتع بأدوار جديدة، فأصبح العنصر النسائي مبعوثا في كل القطاعات الخاصة والعامة. بل يقارب عددهن عدد الرجال أحيانا مثلما هو الشأن في قطاع التعليم والصحة، حيث بلغت نسبة النساء اللواتي يعملن في سلك التعليم الابتدائي 49% والثانوي 44% والتعليم العالي 29%. كما فاق عددهن عدد الرجال في بعض القطاعات مثل الصحة حيث شكلت المرأة نسبة 38% من عدد الأطباء و62% من أطباء الأسنان و71% من عدد الصيادلة⁽⁴⁾. ويعتبر قطاع الأعمال من المجالات الهامة الذي اقتحمته المرأة التونسية، حيث دخلت مجال الأعمال الحرة في مختلف الاختصاصات، فأصبحت تدير وتمتلك العديد من المشاريع الخاصة التجارية والصناعية وحققت فيها نجاحا ملموسا⁽⁵⁾ حيث يوجد ما يفوق 1500 امرأة تدير مؤسسات ومشاريع اقتصادية، بالإضافة إلى أن 13% من الشركات التجارية تعود ملكيتها إلى نساء⁽⁶⁾ ولعت بعض الأسماء في هذه المجالات في الداخل والخارج فأصبحنا نتحدث اليوم عن صاحبات المشاريع الخاصة وعن مساهمتهن في عملية التنمية الاقتصادية سواء في المجال

الفلاحي أو الزراعي داخل المناطق الريفية. أو في قطاعات أخرى وخاصة منها قطاع الخدمات والصناعة في المناطق الحضرية. وقد أكدت ذلك صاحبة مصنع لصناعة الملابس الجاهزة حيث تقول: "لقد تلقيت تكويننا بالخارج في هذا المجال بعد أن أتممت تكويننا أكاديميا بالجامعة التونسية ساعدني على أن أفتح مصنعا في هذا الاختصاص وأن أتولى إدارته. وأنا الآن بصدد تشغيل عدد لا بأس به من النساء والرجال. وأروج منتوجي داخل السوق التونسية وخارجها، حيث أستورد المواد الأولية من بعض البلدان الأجنبية، ثم أقوم بتصدير البعض من منتوجي باتجاههم. وعلى هذا الأساس، فإنني أساهم من جانبي في دوران عجلة الاقتصاد التونسي". والجدير بالملاحظة أن مثل هذه المرأة كثيرات داخل الأوساط الحضرية أو حتى الريفية. ولعل التشريعات القانونية المختلفة التي وفرتها الدولة لفائدة الرأسمال الخاص كانت أرضية ملائمة لتعدد الانتهاكات الاقتصادية والاجتماعية خاصة للمرأة العاملة في قطاع النسيج بالرغم مما تساهم فيه هذه الشريحة من العاملات من مداخل هامة للدولة تمثل 1/4 من قيمة الصادرات التونسية أي بنسبة تناهز 20,31% من إجمالي الناتج الداخلي الخام للصناعات المعملية. وبالرغم من ذلك، نلاحظ بأن المرأة الحضرية العاملة في قطاع النسيج تكاد تكون شبه غائبة في السياسات الاجتماعية للدولة رغم ما تعانيه هذه الفئة العريضة من اليد العاملة من مستوى أجر متدن وتآكل قدرتها الشرائية، كما نلاحظ بأن العاملات في القطاعات غير المهيكلة والمهمشة على غرار قطاع الحظائر والنساء العاملات في المجال الفلاحي (مثل جمع الحلفاء) يعانين من نفس الانتهاكات والتهميش الاقتصادي الذي تعانيه عاملات النسيج. وهذا ما أكدته "عبد الرحمان الهذيلي" رئيس المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية في تصريحه لإحدى وسائل الاتصال التونسية في سنة 2015، بأن العاملات في قطاع الحظائر يعشن ظروفًا صعبة، حيث لا يتمتعن بالتغطية الاجتماعية ولا بالصحية ولا عقود عمل رسمية، بل يعملن يوما كاملا مقابل أجر زهيد لا يقابل الجهد الذي يبذلنه طيلة يوم كامل والمخاطر التي يتعرضن لها. ويعيد الهذيلي ما تتعرض له المرأة اليوم من استغلال في مثل هذه القطاعات، إلى هشاشة الوضعية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للعاملات مما يجعلهن في موقع استغلال من قبل أصحاب المصانع أو أرباب العمل إلى جانب غياب المراقبة...، فتفقدية الشغل غائبة تقريبا بعد الثورة بالرغم من الدور الذي لعبته المرأة التونسية في بعض المعارك النضالية. ويقول الناشط الحقوقي المذكور أنفا أيضا "المرأة كانت حاضرة في جميع النضالات وخاصة في اعتصام "هتريفا" في مكنين واعتصام "كوفرتاكس" في سوسة حيث خلقت النساء أشكالا جديدة في النضال وكن أول من قادت الاحتجاجات في قطاع النسيج وقامت بتنظيم الاعتصامات في تحركات "الرديف". فبالرغم من تحسن وضعية المرأة العاملة خارج ميادين الوظيفة العمومية نسبيا بالمقارنة مع ما كانت عليه منذ عقود خلت، فهي مازالت تعاني من تواصل التمييز على مستوى الأجر

مقارنة بالرجل ومن عدم تسوية وضعيتها القانونية في الشغل، فهي الأكثر تعرضا للطرد إذا ما اعترضت على ظروف عملها القاسية. ومع ذلك، نجدها غالبا ما ترضى بتلك الظروف مقابل الإبقاء على أجر أدنى ومكانة دونية وبالرغم من أن أغلبية المنخرطات في الاتحاد العام التونسي للشغل هن نساء فإن تمثيليتهن النقابية تكاد تكون غائبة. وقد يعود ذلك إلى العقلية الرجالية المتخلفة وإلى مسألة ذاتية ترتبط بعقلية المرأة في حد ذاتها، فهي ترى أن عملية تقسيم وقتها بين عملها وبيتها أهم من أن تتخذ مسؤولية نقابية تستوجب منها تفرغا وعملا إضافيا.

لكن ما يمكن ملاحظته، هو أنه مهما كانت طبيعة ونوع عمل المرأة التونسية الريفية أو الحضرية ومهما كان الدخل الذي تتقاضاه مقابل ذلك العمل، فإن ذلك من شأنه أن يسهم في إثبات كونها عنصرا فاعلا في التنمية الاقتصادية. ولعل ما يشهد بذلك أن محدودية المستوى التعليمي لدى بعضهن لم يقف حاجزا أمام البعض حتى يشاركن في التنمية الاقتصادية للبلاد ويثبتن أن مهامهن لم تعد تقتصر على القيام بشؤون البيت من طبخ وتنظيف واعتناء بالأبناء، بل إن قيامهن ببعض الحرف اليدوية والصناعات التقليدية داخل المنزل أو ببعض الأنشطة الفلاحية والزراعية التي توفر لهن دخلا، من شأنه أن يساعدهن على تلبية حاجياتهن وحاجيات أسرتهن وأن يحسن ظروف عيشهن.

(2) تحسين وضعيتها الاجتماعية:

لئن عاشت المرأة التونسية لمدة قرون طويلة حياة يسودها الجهل والجمود والانحطاط، ولئن فرض عليها ذلك بحجة التفوق الطبيعي المزعوم للرجل على المرأة، وبفعل العادات والتقاليد والحفاظ على الشرف، فإن وضعيتها الاجتماعية تغيرت اليوم وتطورت بفضل التعليم واقتحامها مجال العمل المأجور، فهذان الأخيران مكناهما من أن تفرض وجودها داخل أسرتها وداخل المجتمع إذ نلاحظ أن معدل 95% من نساء العينة سواء في الأوساط الريفية أو الحضرية، أكدن على أن التعليم والعمل أكسبهن الشعور بقيمتهن داخل أسرهن وداخل المجتمع، فبفضل هذين العاملين وبفضل بعض التشريعات القانونية، عملن على "سد الفجوة في التمييز بين المرأة والرجل في المكانة الاجتماعية، وفي دور كل منهما ومساهمتهما في التنمية الاجتماعية واستمتاعهما بحاصلها"⁽⁷⁾ واكتسبن ثقة في أنفسهن مكنتهن من أن يصبحن قوة فاعلة في مختلف مجالات الحياة الخاصة والعامة واكتسبن حرية التعبير عن آرائهن وعن اتخاذ بعض القرارات المتعلقة باختيار شريك الحياة أو بتحديد عدد الأبناء المراد إنجابهم أو بالطلاق. بالتالي، أصبحت المرأة تشارك في اتخاذ بعض القرارات التي تتعلق بحياتها الخاصة، وتخص حياة أسرتها ليصل ذلك أحيانا حد الانفراد بسلطة القرار في تسيير شؤون مجتمعها الصغير. تقول إحدى نساء العينة في هذا الشأن: "

غالباً ما أأخذ القرارات التي تتعلق بعائلتي لوحدي. فأنا التي تتولى تربية أبنائي وتعليمهم وأنا التي تختار لهم المدارس المخصصة لذلك وتوجههم في اختيار مستقبلهم العلمي والعملية وأنا التي تتولى عملية التخطيط لإدارة البيت بالكامل تقريباً، وعندما أعلم زوجي بذلك يوافقني في الغالب، لأنه لديه ثقة في آرائتي وفي قراراتي."

لقد تغيرت وضعية المرأة داخل الأسرة عندما أصبح الزوج يثق بها. كما تحسنت وضعيتها عندما أصبح يشاركها في القيام بالأعمال المنزلية ويساعدها على تربية الأبناء، فلم تعد هذه المهام توكل للزوجة فقط، بل أصبح الزوج يشارك المرأة في القيام بها منذ أن دخلت سوق الشغل وأصبحت تساهم في تسيير شؤون البيت مادياً. أصبحنا نتحدث اليوم عن تقاسم الأدوار داخل العائلة التونسية. وقد أثبتت بعض الدراسات الأنثروبولوجية إمكانية أن يلعب الرجل هذا الدور مناصفة مع المرأة، كما أثبتت قدرته على مشاركتها في تربية الأبناء. وأثبتت أيضاً أن تقسيم الأدوار يتوقف على طبيعة النظم الاجتماعية والثقافية وأن لا دخل للجنس والتكوين البيولوجي في ذلك، خاصة بعد ما بلغته المرأة من تطور فكري اليوم. ولعل هذا ما أكدته "مارغريت ميد" عندما درست قبيلة الأرابيش (Arapesh) وخلصت إلى أن القوالب النمطية الشائعة للسمات الأنثوية والذكورية ليست نظرية بل هي نتاج للتكيف الثقافي، فالفوارق بين الجنسين ما هي إلا نتيجة موضوعية لتربية تمارس الحيف على الإناث، على الرغم من أن الرجال والنساء كما يقول "توماس" Thomas من نفس البناء الاجتماعي ومنتوج لنفس المؤسسات الاجتماعية⁽⁸⁾ بمعنى أن القوة الجسدية والشجاعة الأخلاقية والقوة الفكرية والعيوب والفضائل ذات هوية مشتركة بين الرجال والنساء إلا أن المجتمع والتربية الذكورية هي التي تجعل منها فوارق اجتماعية مؤسسة على فوارق بيولوجية⁽⁹⁾ لذلك يمكن للرجل أن يتعاون مع المرأة في رعاية الأبناء دون أن يمس ذلك من رجولته، بل إن هذا التعاون يحقق التوازن النفسي للأبناء. وعليه نلاحظ اليوم بأن الزوج أصبح "مسؤولاً عن أعمال البيت وتربية الأولاد بالتساوي مع زوجته العاملة، وأن واجبات الأبوة مساوية لواجبات الأمومة"⁽¹⁰⁾. وقد انتشرت هذه الظاهرة في المجتمع التونسي وبشكل خاص في الأوساط الحضرية، في حين ظلت محتشمة في الأوساط الريفية. ويعود ذلك إلى هيمنة بعض العادات والتقاليد التي تؤمن بمبدأ التقسيم الجنسي للعمل، فتحت من قيمة الرجل عندما يقوم بمثل هذه الأعمال، فيجد الرجل صعوبة في تقبل إمكانية مشاركة زوجته الأعمال المنزلية اليومية، بل يرى في ذلك استنقاصاً من رجولته. والجدير بالملاحظة أنه مهما ترقى المرأة في الدرجات العلمية ومهما شغلت مراكز مهمة داخل المجتمع، فإن مساعدة الرجل لها تظل محتشمة في هذه الأوساط. لقد تبع تغير وضعية المرأة المتزوجة داخل مجتمعها المصغر وانعاقها من سلطة قرارات الرجل وهيمنته، تغير في وضعيتها كمطلقة. حيث لم تعد المرأة ريفية كانت أم حضرية، أسيرة تسلط الرجل الذي

كان يتمتع بالحق المطلق في عملية الطلاق دون رقيب أو حسيب، ويتمنح "حرية الفوضى في الطلاق"⁽¹¹⁾، بل أصبحت المرأة بفضل بعض التشريعات القانونية تعبر عن رأيها في قضية الطلاق فترفضه أحيانا وتطالب به أحيانا أخرى وتتمسك بحقوقها القانونية كاملة. ويفضل هذه الحقوق التي منحها إياها المشرع التونسي تغيرت نظرة المجتمع التونسي للمطلقة، حيث لم يعد ينظر إليها نظرة الازدراء والاحتقار والإقصاء، بقدر ما أصبحت، مثلها مثل المرأة العزباء أو المتزوجة، قادرة على الاندماج داخل المجتمع وعلى الاختلاط بالجنس الآخر سواء في مقاعد الدراسة أو في سوق الشغل. وهو ما مكنها من تكوين علاقات اجتماعية داخل المجتمع ومن ربط علاقات اجتماعية مع أطراف أخرى خارج حدود الوطن، فأصبحت تسافر وتتغرب وتكون علاقات مع أطراف خارجية للدراسة أو للعمل أو حتى لأسباب أخرى.

وإذا ما ارتكزنا في هذا السياق على الاستطلاع السنوي الثالث الذي أجرته مؤسسة تومسن "رويترز" بالتعاون مع خبراء عرب متخصصين في مجال قضايا المرأة العربية والذي ظهرت نتائجه في 2013 وقدمت فيه لمحة عن وضع حقوق النساء في العالم العربي بعد مرور ثلاث سنوات على أحداث 2011، فإننا نلاحظ بأن تونس تحتل المرتبة السادسة من بين الدول الأحسن معاملة للمرأة في العالم العربي ككل وتتصدر طليعة دول المغرب العربي من حيث ضمانها لحقوق المرأة، حيث تحصلت على أدنى درجات من حيث المعاملة السيئة للمرأة. ويبلغ مجموع تلك الدرجات 58.545، في حين نجده يصل إلى 59.130 في الجزائر و60.229 في المغرب و61.097 في ليبيا ليبلغ إلى 61.490 في موريتانيا. وهو ما يفسر أن المرأة التونسية المطلقة غالبا ما تحصل على حقوقها المادية والعقارية عند الطلاق أو الانفصال. كما أن تنظيم الأسرة مقبول على نطاق واسع وتدعمه حملات توعية تديرها الدولة وهي مسائل لا نجدها متاحة في بعض الدول العربية الأخرى⁽¹²⁾.

(3) تحسن وضعيتها التعليمية والثقافية:

لم يكن التعليم في تونس متاحا للجمهور بشكل حر قبل عام 1958، إذ يتمتع به 14% من المواطنين فقط وأغلبهم من الذكور. ولكن الحكومة التونسية تبذل في الوقت الحاضر جهودا كثيرة لتحسين القطاع التعليمي وتنفق عليه حوالي 6% من إجمالي الناتج المحلي. وبموجب قانون التعليم الصادر في 1991 أصبح التعلم في المدارس إجباريا للشبان والبنات حتى سن 16. ولعل الجدول التالي خير دليل على ارتفاع نسبة التمدرس في صفوف الإناث اللاتي يتراوح سنهن بين 6 و11 سنة، بل إنها تفوق أحيانا نسبة التمدرس لدى فئة الذكور.

جدول رقم (1): معدل نسبة التمدرس من 6 إلى 11 سنة حسب الجنس في تونس					
السنة	2009/2008	2010/2009	2011/2010	2012/2011	2013/2012
إناث	98.0	98.5	98.6	99.1	99.2
ذكور	97.4	97.9	98.0	98.8	98.9

المصدر: وزارة التربية، إحصائيات سنة 2014.

يتضح الارتفاع الواضح في معدلات التمدرس في صفوف الإناث مقارنة بالذكور. وهذا ما يكشف تطور نسب تعليم المرأة التونسية الناتج عن استيعاب حقيقي للنصوص القانونية والتشريعية التي خدمت مصالحها في هذا الشأن وضمنت حقها في التعليم. نتيجة لذلك، تحسنت وضعية المرأة الثقافية اليوم وأصبحت تحظى بمكانة هامة في المجتمع، فقد ساهم تعليمها بدرجة أولى في تنوير عقلها وتعميق وعيها بأهمية موقعها في الحياة الاجتماعية وبحثها على الارتقاء بمستواها الثقافي والفكري، كما مكنها من الآليات والوسائل التي بفضلها أصبحت تعي المشاكل والمخاطر التي تواجه مجتمعتها لتعمل على تغيير واقعها نحو الأفضل⁽¹³⁾. لقد مكنها التعليم من المشاركة الفعلية في الحياة الثقافية للمجتمع. ومن استرداد مكانتها كذات فاعلة في المجموعة الاجتماعية، قادرة على الاضطلاع بجملته من الأدوار والوظائف الثقافية داخل فضاءها الخاص وخارجه، فمن خلاله تمكنت من أن تلعب دور المربية داخل البيت وخارجه وأن تساهم في إعداد النشء فكريا ومعرفيا وتربويا وأن تبني أجيالا صاعدة تتكيف والتقدم العلمي والتقني، تبعا لمستواها التعليمي.

تمكنت المرأة التونسية بفضل التعليم من أن تتحرر من سلطة بعض العادات والتقاليد التي رسمت لها صورة دونية وحالت دون الاعتراف بها كذات فاعلة في المجتمع، كما هيأها لأن تقوم ببعض الأدوار الثقافية ولأن تكون مشاركتها في الحياة الثقافية مشاركة فعلية من خلال انتمائها إلى بعض النوادي أو الجمعيات وممارستها لبعض الأنشطة الثقافية داخل أوقات العمل أو خارجه وهو ما أكدته إحدى الطالبات المنتميات إلى إحدى الأوساط الحضرية: "أمارس العزف على إحدى الآلات الموسيقية في ناد مخصص لذلك في آخر الأسبوع وأكتب الشعر في أوقات الفراغ"، ومثلها كثيرات داخل الوسطين الحضري والريفي، حيث نعثر على من يتخذن هذه الأنشطة كمهنة، فنجد الرياضية والرسم والنحاتة والمسرحية والشاعرة والكاتبة والعازفة... وقد لمعت في الساحة الثقافية العديد منهن كل حسب اختصاصها. والجدير بالملاحظة هنا، أن مثل هذه الأنشطة الثقافية لا تنتشر بالكثافة نفسها داخل الأوساط الريفية كما هو الحال في الأوساط الحضرية. ولعل ذلك ما جعل المرأة الريفية تتذمر أحيانا وتشكو أحيانا أخرى من نقص مثل هذه الفضاءات وترى أن هذا النقص يقف حاجزا أمام استثمار طاقاتها والاستفادة من كفاءاتها وإبداعاتها داخل المجال الثقافي.

(4) دورها في الديناميكية السياسية:

يمكن القول إن حال المرأة التونسية سواء في الريف أو في المدينة، تأثر بالتحويلات التي طرأت على بنى المجتمع. إذ تغير وضعها السياسي على إثر تغير وضعها الاقتصادي والاجتماعي. ومثلما ترسخ مفهوم مشاركتها أكثر فأكثر في مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية، فقد تبعه ترسخ في مفهوم مشاركتها في الحياة السياسية، وذلك بفضل بعض النصوص القانونية التي أكدت على منح المرأة حقوقها السياسية، حيث سادت قناعة بأن حرمانها من هذه الحقوق يتنافى مع قواعد الديمقراطية التي تجعل الحكم للشعب كله دون استثناء أي فرد أو فئة أو جنس. والجدير بالملاحظة أن ممارسة العمل السياسي في تونس لم يعد اليوم حكرا على فئة دون أخرى أو على جنس دون آخر، بل أصبحت المرأة التونسية الريفية والحضرية تخرج اليوم وتتجه نحو صناديق الاقتراع لتنتخب وتختار من تراه مناسبا لخدمة مصالحها وخدمة مصلحة بلادها. وهذا ما أجمعت حوله كل نساء العينة تقريبا اللاتي أكدن على أنهن يشاركن في العملية الانتخابية، كما أكدن على أنهن غير مستعدات للتنازل عن هذا الحق المشروع، حتى لا يساهمن في رجوع زمن العهد البائد. بل نلاحظ أن المرأة التونسية الريفية والحضرية، أصبحت تدخل البرلمان والوزارات وتشارك في اتخاذ بعض القرارات أحيانا وتترأسها أحيانا أخرى. كما أصبحت تشارك في الحياة الحزبية، فتولت مناصب قيادية داخل تلك الأحزاب وذاع صيت بعض الأسماء في هذه الميادين. وباتت عنصرا فاعلا ومؤثرا في عملية الإصلاح السياسي التي شهدتها البلاد خلال الفترة الأخيرة.

يتجسد ذلك من خلال تمثيل النساء على مستوى مكاتب الاقتراع ومراكزه. فقد ضمت الهيئة العليا المستقلة للانتخابات عددا محترما من النساء على مستوى عضوية مكاتب الاقتراع قارب التناصف بين النساء والرجال. ويعود ذلك إلى أن أغلب المترشحين والمترشحات كانوا من المنتمين إلى سلك التعليم ومن المباشرين بالمدارس والمعاهد التي تحولت إلى مراكز اقتراع. وبما أن النساء تحتل نسبة هامة في سلك التعليم، فإن تواجدهن كان مهما. في هذا الاطار، ومن خلال الملاحظة غير المباشرة تم استجواب إحدى عضوات الهيئة المركزية للانتخابات، فأكدت أن المكاتب التي أشرفت عليها النساء كانت الأقل أخطاء والأكثر حرفية. كما لاحظ أعضاء رابطة الناخبات التونسيات أن جل النساء المعينات في مكاتب الاقتراع كن الأكثر التزاما باحترام الوقت والاجراءات، كما تعاملن مع الناخبات والناخبين بطريقة مرنة. هذا بالإضافة إلى مشاركتها الفعالة في الانتخابات التشريعية التي تجاوزت التوقعات الممكنة. حيث فاقت نسبة النساء في سجل الناخبين نسبة الرجال، إذ بلغت 50,5% في سنة 2014. ولعل هذا الاقبال المكثف في صفوف النساء يعكس اهتمامهن بالشأن العام، كما يعكس الحس الوطني والوعي المسؤول لدى المرأة التونسية

بهدف تحقيق الديمقراطية الفعلية بعد "الثورة". كما مكن تفعيل مبدأ التنافس من تواجد 48% من النساء على مستوى الترشح للانتخابات التشريعية، وهذا العدد فرضه القانون الانتخابي. كما بينت نتائج الملاحظة أن النساء سواء كن ملاحظات أو ممثلات لمرشحين، بقين إلى حدود غلق باب التصويت والمرور إلى مرحلة الفرز وأنهن لم يتعرضن إلى أي شكل من أشكال التمييز. وقد فاق معدل مشاركة المرأة في عملية فرز الأصوات 98% تقريبا في كل من الانتخابات التشريعية والرئاسية. ومكنت انتخابات سنة 2014 من أن تكون تونس الأفضل بين دول الربيع العربي في تعزيز حضور النساء في البرلمان بنسبة تناهز 31% مقارنة بنسبة تمثيلهن في المجلس الوطني التأسيسي التي بلغت 27%. وتختلف تلك النسبة بحسب اختلاف الانتماءات الحزبية، فقد بلغت نسبة النساء النائبات المنتخبات في كل من "نداء تونس" و"النهضة" 40,6% بالنسبة للحزب الأول و39,1% للحزب الثاني، وهي تمثل نسبة هامة. وتعتبر أغلب النساء المنتخبات شابات على اعتبار أن ما يقارب 40% منهن يبلغن من العمر أقل من 40 سنة و26% فقط يبلغن أكثر من 50 سنة. وحظيت المرأة أيضا بفرصة الترشح لرئاسة الجمهورية، فقد ترشحت القاضية "كلثوم كنو" لرئاسة الجمهورية. ويعتبر ترشحها للانتخابات الرئاسية من بين المؤشرات التي تعكس مستوى الوعي والقدرة والكفاءة التي تميز المرأة التونسية اليوم. وهو مؤشر يدل على أن النساء التونسيات مؤهلات للوصول إلى السلطة.

هكذا جاءت المرأة التونسية لتضيف لتاريخها عملا بطوليا جديدا، وهو مشاركتها في "ثورة 14 جانفي"، فوقفت جنبا إلى جنب مع الرجل وشاهدها العالم وهي تتعرض للضرب والتعذيب. ولم يفرق الرصاص الحي والمطاطي بينها وبين الرجل في الميدان. وتطور الأمر إلى استشهادها وما يزال التاريخ إلى اليوم يسجل للمرأة التونسية ما تتعرض له في المظاهرات من تعنيف مادي ومعنوي. وشاركت النساء التونسيات في كل الأعمال النضالية في فترة "الثورة التونسية"، فقد كانت الشابات المدونات والناشطات على الفايس بوك والتويتر في المقدمة، وكن مع الشباب مبادرات ومنتظمات. كما شاركن في التنظيم والخطب والاعتصامات، وكن يسرن مع الشبان جنبا إلى جنب ومازلنا نشاهدها وهي تمارس حقها في الإضراب وفي التظاهر من أجل إبداء رأيها والتعبير عن سخطها وغضبها تجاه بعض القضايا العربية أو تجاه بعض الأوضاع الاجتماعية أو المهنية. بل نجدها على شاشات التلفزيون تشارك في بعض البرامج التلفزيونية التي تتناول قضايا سياسية، فتحلل وتناقش وتنقد بعض الأطراف السياسية أو بعض من يمتلكون سلطة القرار ويمسكون بزمام السلطة، بكل ثقة في النفس وبكل حرية ودون خوف.

III- العوامل المساعدة على تغيير وضعية المرأة في تونس:

1) الحركات الإصلاحية:

لقد أسهم زعماء الإصلاح، وعلى رأسهم "قاسم أمين" في مصر و"الطاهر الحداد" في تونس، في تغيير وضعية المرأة وتحسينها عندما أدركوا بأنه لا نهضة للمجتمع العربي مادامت نساؤه عاجزات منفصلات عن الحياة الاجتماعية والعملية، سجينات البيوت والجدران. ورأوا أن معيار تقدم المجتمع وتطوره يتحدد بوضعية المرأة. فحالها مقياس لتقدم الشعوب أو تأخرها. ويؤكد "الطاهر الحداد" على أن وضع المرأة والعائلة هما أساس ما يعيشه المجتمع من جهل وجمود⁽¹⁴⁾.

وحرصا على تقدم المجتمع وتطوره، نادى هؤلاء بتحسين وضعها داخل العائلة والمجتمع مؤكدين على ضرورة احترام المرأة مستنكرين التغافل عن هذه المقاصد وإهمال كل ما يؤهل المرأة ويمكنها من التمتع بحقوقها وأدركوا جميعا قيمة المرأة وأهمية دورها داخل الأسرة والمجتمع وأمنوا بأنه يجب أن تكون كائنا فاعلا وليست مجرد تابع للرجل. وخلص "الحداد" بعد أن استقرأ وضعها في المجتمع وأماط اللثام عن حالها داخل العائلة وكشف عن معاناتها الناتجة عن سلبها حقوقها، إلى النتيجة التي اتفق عليها كل زعماء الإصلاح وهي ضرورة تحرير المرأة من الظلم والحيث السلطين عليها والاعتراف بقيمتها كذات فاعلة. ومن هذا المنطلق الفكري نادوا بضرورة تحريرها من أسر القيود الاجتماعية التي ميزت بينها وبين الرجل وجعلتها تابعة له. كما نادى زعماء الإصلاح بضرورة تعليم المرأة والاعتناء بتربيتها وإعدادها الإعداد الحسن قبل ولوجها الحياة الاجتماعية، حتى تكون مؤهلة للمشاركة الفاعلة، وحتى تتمكن من الخروج من واقع الجهل الذي كانت تعيشه. فقد آمن "محمد عبده" بالدور الكبير للتربية في إرساء التحديث واعتبرها السبيل المثالي للتغيير⁽¹⁵⁾. وبالمثل، أكد "الطاهر الحداد" نفس الفكرة ودعا إلى ضرورة إعداد المرأة لتلعب دور الزوجة والأم على أكمل وجه، مشيرا إلى جملة من العلوم والثقافات التي يجب أن توجه إلى المرأة، ليتسنى لها بفضلها ضمان مستقبلها ومستقبل أولادها⁽¹⁶⁾.

ومثلما آمن زعماء الإصلاح بضرورة تعليم المرأة، فإنهم لم يروا بأسا في عملها، بل نادوا بعدم حرمانها من التمتع بحقوقها في العمل، لأنهم رأوا أن حرمانها من العمل هو الذي أضاع حقوقها وسمح للرجل بأن يمتلكها⁽¹⁷⁾، بعد أن أفقدها شخصيتها واستقلالها وحولها إلى كائن مسلوب. ورأى "الطهطاوي" فيها قوة عمل معطلة وهو ما جعله يدعو إلى إمكانية تعاطيها الأعمال المنتجة ومشاركتها الرجل في تنمية الثروة الوطنية، حتى تتمكن من الخروج من دور التبعية التي ظلت تعاني منه قرونا طويلة⁽¹⁸⁾.

2) التشريعات القانونية:

• الدستور:

جاء دستور 1959 ومن بعده الدستور الجديد لسنة 2014 بجملة من المبادئ التي تنص على ضرورة المساواة بين كل المواطنين وخاصة بين الرجل والمرأة، كما اعترف بالحقوق الإنسانية الضامنة لحريتها وألزمها مجموعة من الواجبات إزاء نفسها وإزاء عائلتها وإزاء المجتمع دون تمييز بينها وبين الرجل. كما حرص على أن يمنحها حقوقها المدنية ليضمن مشاركتها في تسيير شؤون المجموعات. ومن ضمن الحقوق المدنية التي أقرها المشرع التونسي حقها أمام القانون وحقها في العمل وحقها في التعليم. وهذا ما يلخصه الفصل 45 الذي ينص على أن الدولة تضمن حماية حقوق المرأة وتدعم مكاسبها، وتضمن تكافؤ الفرص بينها وبين الرجل في المجالس المنتخبة⁽¹⁹⁾. كما أكد الدستور على إلزامية التعليم وعلى مجانيته. حيث نص الفصل 38 على أن الدولة تضمن الحق في التعليم العمومي المجاني بكل مراحله إلى سن السادسة عشر⁽²⁰⁾ ولم يستثن المرأة من ذلك.

• مجلة الأحوال الشخصية:

كانت تونس منذ استقلالها سباقة في الاعتراف بحقوق المرأة من خلال تدعيمها بإصدار مجلة الأحوال الشخصية في 13 أوت 1956. وبمقتضى التنقيحات التي أدخلت على المجلة بمقتضى القانون عدد 74 المؤرخ في 12/7/1993، تعززت مكانة المرأة وتدعمت حقوقها باعتبارها إنسانا كامل الحقوق⁽²¹⁾. ومن أبرز ما احتوته مجلة الأحوال الشخصية اعترافها بحق المرأة في العمل، إذ نصت على ضمان حقها في التمتع بنفس فرص التوظيف وفي التمتع بالترقيات وفي تلقي التدريبات المهنية، إضافة إلى ضرورة ضمان حقها في المساواة بينها وبين الرجل في الأجر، وفي التغطية الاجتماعية، وفي تمتعها بإجازة مدفوعة الأجر. ولقد قطعت تونس أشواطاً كبيرة في هذا الشأن وتجاوزت أحيانا ما حققته جل البلدان العربية في هذا المجال.

(3) الاتفاقيات الدولية:

لقد صادقت تونس على اتفاقيات دولية مختلفة في شأن حقوق الإنسان ومن أبرزها الاتفاقية المتعلقة بالقضاء على كل أشكال التمييز ضد المرأة التي وقعت عليها في يوليوز 1980 أثناء التثام مؤتمر الأمم المتحدة الخاص بالمرأة، فضلا عن بعض الاتفاقيات الأخرى التي تسعى إلى ضمان حقوق الأفراد بما فيهم المرأة، مثل الاعلان العالمي لحقوق الانسان، والميثاق الدولي المتعلق بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية، والميثاق الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، والاتفاقية الدولية حول الحقوق السياسية للمرأة.

(4) الهياكل الرسمية:

من بين هذه الهياكل نجد وزارة شؤون المرأة والأسرة، وتعتمد هذه الوزارة على بعض الهياكل الأساسية لتنفيذ سياستها، ومن أهمها المجلس الوطني للمرأة والأسرة الذي هو عبارة عن فضاء لتبادل الآراء وتدعيم العمل بين الوزارة والهياكل الأخرى. ويتابع صورة المرأة في الإعلام وتطبيق القوانين وتحقيق تكافؤ الفرص بين الجنسين، كما يعد التظاهرات الوطنية والدولية الخاصة بالمرأة والأسرة.

كما اهتم مركز الدراسات والبحوث والتوثيق والإعلام حول المرأة (الكريديف) بإنجاز دراسات وبحوث حول تطور وضع المرأة ومكانتها داخل المجتمع. واعتنى أيضا بتوثيق وبتجميع المعطيات والإحصائيات والوثائق ذات الصلة بالمرأة والعمل وحرص على نشرها، مما ساهم في تغيير نظرة المجتمع إلى دور المؤسسات. كما قام بإنجاز وإعداد تقارير حول مكانة المرأة في المجتمع التونسي بالاعتماد على الدراسات والبحوث وذلك لإحكام تجميع المعلومات وتوظيفها التوظيف الأمثل. كما كانت لديه مهمة أخرى لا تخلو من أهمية تتمثل في فسح المجال للنساء المبدعات للتعريف بفنهن.

ساهمت مؤسسات المجتمع المدني أيضا ومن أهمها الجمعيات النسائية في إبراز مشاركة المرأة في الحياة العامة للتعبير عن حريتها وحقوقها في إبداء الرأي في إطار إشراكها في الحركة الوطنية بعد الاستقلال وخاصة بعد السبعينات. وسميت بالحركة النسائية وهي تعبر عن الحراك الاجتماعي النسائي. وقد أدت هذه الحركة إلى تبلور تنظيمات أو جمعيات نسائية جديدة مثل الجمعية التونسية للنساء الديمقراطيات والجمعية التونسية للأمهات وجمعية النهوض بالأسرة والمرأة المهاجرة والغرفة الوطنية لصاحبات المؤسسات التي تعمل تحت إشراف الاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والصناعات التقليدية.

(5) أهم البرامج الموجهة للمرأة الريفية:

بالإضافة إلى كل العوامل التي تم ذكرها سابقا، فإن هناك بعض البرامج الأخرى التي وجهت خصيصا إلى المرأة الريفية وتهدف إلى تحسين وضعية هذه الشريحة بالذات من المجتمع. ومن أهم هذه البرامج نجد مراكز تكوين الفتاة الريفية، فقد تم في مجال التكوين بعث العديد من المراكز داخل الأوساط الريفية منذ 1966 لاستقبال الريفيات، وذلك بمبادرة من برنامج التنمية الريفية ووزارة الشؤون الاجتماعية والاتحاد الوطني للمرأة التونسية، وذلك في إطار سياسة ترمي إلى تحسين وضعية المرأة داخل الأسرة وداخل المجتمع حين يقدم لها تكوين في مجال الخياطة أو التطريز أو الطبخ... وتستقبل المراكز الفتيات المنقطعيات عن التعليم اللاتي تتراوح أعمارهن بين 12 و18 سنة. وتتمثل المهمة الرئيسية لهذه المراكز في الرفع من المستوى التربوي للريفيات وإعدادهن للاضطلاع بأدوارهن كزوجات وكأمهات في المستقبل. ويعتبر هذا عاملا ومظهرا من مظاهر التغير الاجتماعي داخل الأرياف التونسية. وقد كان له

تأثير على أدوار المرأة داخل الأوساط الريفية. إضافة إلى مراكز تكوين الفتاة الريفية، نجد أيضا مراكز الديوان القومي للصناعات التقليدية، التي يؤمن فيها الديوان القومي للصناعات التقليدية، منذ تأسيسه عام 1959، تكوينا مهنيا في قطاع الصناعات الحرفية. ويوجه للفتيات اللاتي لديهن مستوى تعليمي لا يقل عن السادسة ابتدائي واللاتي تتراوح أعمارهن بين 14 و 18 سنة. وكانت الغاية من هذه المراكز، تحقيق التغير الاجتماعي في الريف التونسي، وذلك من خلال إعداد الفتيات الريفيات وتكوينهن مهنيا وتأهيلهن لولوج سوق الشغل. وبناء عليه أصبحت المرأة الريفية تسهم في تحسين دخل أسرتها وتحقيق ذاتها. وبشكل عام تغيرت أدوار المرأة التونسية بفضل هذه المراكز، حيث لم يعد الرجل المسؤول الوحيد عن تسيير حياة أسرته المادية، بل أصبح للمرأة أيضا دور مهم في ذلك، وأصبح لديها القدرة على أن تشارك الرجل في المصروف اليومي وفي أخذ القرارات المتعلقة بالأسرة.

خاتمة:

هكذا، يمكن القول إنه بفضل الحركات الإصلاحية، والتشريعات القانونية، وبفضل متابعة الهياكل الرسمية الحكومية والهياكل الجمعياتية، تضافرت الجهود ليساهم كل من موقعه وبحسب إمكاناته، في تغيير وضعية المرأة التونسية الريفية والحضرية نحو الأفضل. فقد استطاعت المرأة بفضل ذلك من أن تلحق بركاب الجنس الآخر، وبلغت من الوعي والتطور الفكري والمعرفي ما مكنها من إثبات وجودها كذات فاعلة داخل الحياة المجتمعية بمختلف جوانبها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية. بل أصبحت اليوم مشاركا رئيسيا مهما فعالا في عملية تحقيق التنمية الشاملة للمجتمع. وتمكنت بفضل ذلك من التحرر من سلطة الرجل وسيطرته ومن التحرر من قيود بعض العادات والأعراف المجتمعية التي كبلتها سنوات عدة قبل الاستقلال وحالت دون تقدمها وتطورها، ودون الاعتراف بها كذات فاعلة داخل أسرتها وداخل المجتمع.

الإحالات والهوامش :

- 1 - جمانة طه، المرأة العربية من منظور الدين والواقع، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص 33.
- 2 - علياء شكري وأحمد زايد، المرأة في الريف والحضر، دار المعرفة الجامعية، مكة، ط. 1، ص 188.
- 3 - صابر محيي الدين، التغير الحضاري وتنمية المجتمع، سيرا، لبنان، 1942، ص 73.
- 4 - جريدة الشرق الأوسط، العدد 8142، 2001.
- 5 - عائشة بنت الشيخ محمد الخزرجي، التوجهات المستقبلية لدخول المرأة في مجالات العمل، مركز الدراسات والإعلام حول المرأة، قطر، 2002، ص 10.

- 6 - جريدة الشرق الأوسط، مرجع سابق الذكر.
- 7 - شرين شكري، "المرأة والجندر في الوطن العربي"، ضمن كتاب: المرأة والجندر، إلغاء التمييز الثقافي والاجتماعي بين الجنسين، سلسلة حوارات لقرن جديد، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط.1، 2002، ص 105.
- 8 - Elisabeth Badinter, Un et autre: relation entre homme et femme, Jacob, 1974, p: 125.
- 9 - feminine, la pensée de la difference, Jacob, Paris, 2004, p: 75. Françoise Hériter, Masculin/
- 10 - نوال السعداوي، "المرأة والجنس"، ضمن كتاب دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط.2، 1990، ص 136.
- 11 - نوال السعداوي، معركة جديدة في قضية المرأة، دار سينا للنشر، القاهرة، ط.1، 1992، ص 202.
- 12 - نتائج الاستطلاع السنوي الذي أجرته مؤسسة تومسون "رويترز"، 2013.
- 13 - عبد الباسط محمد حسين، التنمية الاجتماعية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1980، ص 90 - 100.
- 14 - الطاهر الحداد، امرأتنا في الشريعة والمجتمع، الدار التونسية للنشر، تونس، ط.5، 1989، ص 204.
- 15 - محمد عمارة، الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، دار الشروق، بيروت، ط.1، 1993، ص 156.
- 16 - الطاهر الحداد، امرأتنا في الشريعة والمجتمع، مرجع سابق الذكر، ص 119.
- 17 - قاسم أمين، تحرير المرأة، موقف للنشر، 1990، ص 26.
- 18 - فرج بن رمضان، قضية المرأة في فكر النهضة، دار محمد علي الحامي للنشر، صفاقس - تونس، ط.1، 1988، ص 14 - 15.
- 19 - الفصل 45 من الدستور التونسي الجديد لسنة 2014.
- 20 - الفصل 38 من الدستور التونسي الجديد لسنة 2014.
- 21 - الفصل عدد 23 نقح بالقانون عدد 74 لسنة 1993 المؤرخ في 12/07/1999، مجلة الأحوال الشخصية، دار إسهامات في أدبيات المؤسسة، 2000، ص 9.

قراءة في مناهج الصوفية وغيرهم في التربية والسلوك

مداح عبد القادر

أستاذ تاريخ

جامعة ابن خلدون تيارت

مقدمة

كل ثورة قام بها الإنسان ورمى فيها بثقله ، إلتذ بانتصاره على خصمه فيها ، وما ينضك أن يقف لِيُقَيِّمَ ما قام به ، وما حققه من أهداف . إلا أن الغاية تبقى بعيدة المنال، لأن من قام بالثورة يذكر محاسنها فقط، ويتجاهل مساوئها. وتقييمه لها يخضع إلى حد بعيد لمعايير يغلب فيها الهوى على المنطق والصواب. وسيظل يمجّد عمله ويَتَحَسَّبُ ويباهى به. فالنهضة الأوربية التي انطلقت من إيطاليا كانت ثورة روحية بكل ما تحمل الكلمة من معنى، أعادوا فيها إحياء التراث وبعثه من جديد، حيث انتهوا إلى ثورة صناعية أفادت منها البشرية جمعاء. أردت أن أقارن بين حالة أوروبا اليوم وما حققه الأوروبيون عندما تحرروا من جمود الماضي والقطيعة معه منذ القرن الخامس عشر . حيث أدركوا غاية نهضتهم في القرن التاسع عشر. الذي بدأت فيه نهضتنا (النهضة العربية) وقيل أنها إصلاحية . هدفها إخراج العربي من التقليد والتخلف ، ويا ليتها بقيت نهضة طي الكتب فقط ، لكنها انتهت إلى ثورات عارمة بلون أحمر، وسماها أصحابها بثورات الربيع العربي _والتي غلب فيها اللون الأحمر على اللون الأبيض_ شملت أغلب أجزاء العالم العربي أعادتهم من زمن الحاضر من ناحية التطور التكنولوجي إلى زمن القرون الوسطى ولا داعي لذكر المساوئ ، أما الحسنات لا تكاد تذكر. فهل كنا في حاجة إلى مثل هذه الثورات ؟ .

بل نحن في حاجة إلى ثورة روحية ولا نجدها إلا في ثنايا التصوف. ولو بدأنا بالثورة الروحية لانتبهنا إلى أفضل مما انتهى إليه غيرنا فهم طبقوا ما كان في عصورنا الوسطى (العصر الذهبي) ونحن طبقنا بحزم ما مروا به في عصورهم الوسطى من صراعات طبقية وحروب على المستوى السياسي وجهل وتخلف على المستوى الثقافي والحضاري أدت إلى ما نحن عليه الآن. فالمجتمعات العربية حاولت من خلال النهضة العربية أن تشكل أنسانا عربيا تشكيلا جديدا ، يكون النواة التي تؤسس للعلوم والصناعات المادية ، وللقيم الروحية والأخلاقية التي ترفع من قدره وتعلي من شأن إنسانيته . وبالتالي تفك أسرته من شهوات

النفس الحيوانية و ضرورها ، غير أنها ما فتئت تهدر هذه النواة ، وتنشر القيم المادية المستوردة بدعائهم من طرائق للعيش وأنماط ثقافية غربية ، غلب عليها التقليد والسطحية ، وافتقدت للعمق والإبداع ، فتراجعت الروحانية الأخلاقية أمام المادية الفردية ، وليس للمصلحة الجماعية العامة مكان . وأخذ الجهل نصيبه يغطيه العلم الزائف ، والتطور الوهمي فطال كل المناحي الحياتية للإنسان حتى اللغة العربية كان لها نصيب من الضرر ، والخطب الأعظم هي النفس وأخلاقها وسلوكياتها التي غلبت عليها المادية ومن أهم مظاهرها فقدان الأمن والطمأنينة ، فساد الخوف وتزعزعت الثقة بين أفراد المجتمعات العربية الإسلامية وترجمتها الليالي والأيام ، بل والشهور الدامية التي أتت على الحرث والنسل ولإصلاح ما فسد علينا بالعودة إلى ما تركه العلماء من تأليف حول التربية والسلوك ولاسيما التربية الصوفية الإسلامية والسلوك ، ولعلها السبيل الوحيد لإعادة بناء المجتمع المتماسك المتراس بأبعاد روحية و مادية معا ، وبما أن الموضوع يدور في فلك التربية الصوفية ، وغالبا ما توجه لأصحابها الاتهامات من خلال عزلتهم وانطوائهم على النفس . أنهم لا يقفون المواقف الايجابية اتجاه الواقع ، و الركون إلى كل ما هو سلبي الذي يتجسد في رفض الذات والآخر معا طلبا للكسل والخمول الباعث على الأمل والمثبط للعمل . فيقع اللوم على المتصوفة في تقصيرهم وعجزهم عن القيام بدورهم في المجتمع ، واتهامهم بالزيف والتحريف لكل ما يمت إلى الإنسان المسلم بصلة . لذلك ارتأيت أن تكون الورقة حول " قراءة مناهج الصوفية وغيرهم في التربية والسلوك " لنرى ما علاقتها بالمجتمع ؟ وكيف عالج كبار العلماء من المتصوفة وغيرهم مسألة التربية الصوفية ؟ و كذلك معالجتهم للنفس و إصلاحها ليصلح المجتمع وما هي الطرق التي اتبعوها في ذلك ؟ والغايات المرجوة من أهداف التربية النفسية الصوفية ؟ وهل كان لها اثر ايجابي غفلنا عنه أو أريد لنا أن نغفل عنه حتى أصبحنا ما نحن عليه في ظل التغريب المتزايد والذي شكل بحق أزمة في التربية والأخلاق في العالم الإسلامي عوما والوطن العربي خصوصا والجزائر على وجه التخصيص .

رسالة القدس في محاسبة النفس :

كتاب: " رسالة القدس في محاسبة النفس"⁽¹⁾ لمحي الدين بن عربي (560هـ - 638هـ)⁽²⁾ اختصره وقدم له وعلق عليه الدكتور أحمد الرفاعي شريف. يحمل بين دفتيه منهج فريد في التربية والسلوك لو عملنا على نشره لأفدنا منه أعظم فائدة. من منطلق أن التصوف قاعدة فعالة لقدرته على استثمار التجربة الدينية على نحو منظم ، وهو ينشأ كعلم الكلام في مرحلة راقية من مراحل التطور الديني⁽³⁾، والشيخ الأكبر سلك أحد الاتجاهات الصوفية الكبرى ، وهو التصوف السني⁽⁴⁾ ، الذي عرف تعريفات بلغت الألف و أكثر ، وكلها تعني بالنفس وسلوكها مع خالقها ، وعلاقتها به من جهة ، وتصرفها في حياتها الاجتماعية وعلاقتها بغيرها من الناس ، كما قال محمد بن علي القصاب ، التصوف أخلاق كريمة ، ظهرت في زمن

كريم ، من رجل كريم ، مع قوم كرام⁽⁵⁾ وهو يعني أن التصوف مبني على القرآن الكريم والسنة النبوية الكريمة ،وقد جعله ابن عربي منهجا أراد من خلاله توجيه رسالة روحية في التربية الصوفية والسلوك وهو في مقام شيخ تربية بكل ما تدل عليه الكلمة من معنا من منطلق أن التصوف نزعة زهدية تصوفية ، وما فيها من تأمل ، وسعي لإدراك التجربة الدينية محكوم مضبوط بقوة القبول للوحدانية المنزهة ، وبمبدأ الواجبات في القرآن⁽⁶⁾ ، وهو عند ابن عربي عقيدة كما بينها في رسالته ، وإن كان للتصوف ثلاثة اتجاهات كبرى وهو نفسه له أول ، ووسط ، وآخر⁽⁷⁾ فهناك شيخ تربية ، وشيخ ترقية ، وشيخ تعليم ، فلا بد أن يكون لأهله ثلاثة أصناف من المريدين ، مريد طالب ، ومتوسط سالك، ومنتهى واصل، والشيخ محيي الدين، وجه رسالته للصنف الثالث ، يريد تربية الصنف الأول ، وهذا دأب العلماء، ومشايخ الصوفية في التربية عن طريق النصح لإخوانهم ، حيث يريدون تربية غير هؤلاء المقصودين، وقد كتب إبراهيم بن أدهم إلى أخ له " بسم الله الرحمن الرحيم "أما بعد : فإني أوصيك بتقوى الله من لا تحل معصيته ولا يرجى غيره ، ولا يدرك الغنى إلا به ، فإنه من استغنى عز وشبع ، وروى ، وانتقل عندما أبصر قلبه ، كما أبصرت عيناه من زهرة الدنيا ، فتركها و جانب شبهها . فارض بالحلال الصافي منها، أي ما لا بد منه، من كسرة يشد بها صلبه وثوب يوارى به عورته، أغلظ ما يجده، وأخشنه، والسلام. ورسالة ابن عربي جاءت من موقع تجربة ، وهذه التجارب تبدو في الحالات المرضية التي تحل بالمجتمع ، كالاضطرابات ، و الثورات والفتن ، و الانقلابات ، وهذا لم يغب عن ابن عربي وهذا ما جعله يشخص الحالة الاجتماعية ، وجعل لها مقارنة⁽⁸⁾ في ما يصيب النفس من أمراض باطنية علاجها المحاسبة المرحلية ، التي تقتضي التدرج مع المريد الطالب إلى المتوسط السالك وغالبا ما تنتهي إلى المنتهى الواصل ، والمعروف عن الرسائل أنها تحتوي على مسائل يجيب عنها السائل على هذا الشكل ، ولكنه وضع منهاجا لمحاسبتها ، بحيث يمكن لكل إنسان ، وبالخصوص المسلم أن يحاسب نفسه وفقه . لأن حديث النفس لا ينقطع ورخصها لا تنتهي حتى توقعك. والذي يقرأ هذه الرسالة يكتشف أمورا غفل عنها علماء النفس و رواد النظريات السيكلوجية في العصر الحديث. فكان منهاج ابن عربي في التربية السلوكية للنفس في حوارها ولم يكن على شكل خطبة، أو محاضرة أو درس، ولكن على شكل رسالة. ومن سمة الرسالة العود إليها للذكرى، و خاصة إن اشتملت على النصيحة و الأخص من ذلك، النصيحة في الله التي لا يراد منها الجزاء و الشكر. وهو في منهاجه ناصحا لنفسه راجيا بها غيره و يبين لنا الشيخ المنافذ إلى النفس حتى تقبل النصيحة بل وتطبق ما جاءت به ويبدأ بإدانة نفسه المقصرة وفي المقابل يعدد مناقب وخصال المراد نصحه وفي ذات الوقت يشير إلى الزمان وما يحدث فيه من مغريات و شهوات و معاصي ومنكرات و آفات أصبحت أدوات تعين الشيطان و يتقوى بها .والنصيحة من مقتضيات الدين وواجبات المسلم كما جاء عن عطاء بن يزيد الليثي قال : سمعت تميم الداري يقول : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الدين نصيحة " ثلاث مرات ، قالوا يا رسول الله لمن ، قال لله وكتابه وأئمة المسلمين عامتهم . ومن طريق آخر ، عن زياد بن علاقة الثعلبي قال : سمعت جرير بن عبد الله يقول : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم ، وقال سفيان وزاد مسعود عن ابن مسعر عن زياد أو عن آخر إن جريرا قال وأنا لكم ناصح . وقالها هذا المسلم منفردا و وردت جماعة فعن قيس عن جرير بن عبد الله قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم⁽⁹⁾ .

يشخص ابن عربي ظواهر اجتماعية وطبقات من حكام جور وعلماء سوء⁽¹⁰⁾ ، وصوفية صوف⁽¹¹⁾ ويستشهد بذلك بسادة الطائفة الصوفية وهو يصف زمنهم بتلك الصفات الشنيعة ، ثم يعود إلى وصف أهل زمانه فيقول ((... وأما أهل زمانك فوالله لو اطلعت عليهم لرأيت إن نظرت إلى وجوههم عيون جامدة متحركة غير هامة ، وإن نظرت إلى نفوسهم رأيت نفوسا سامدة⁽¹²⁾ ، وإن نظرت إلى قلوبهم رأيت قلوبا من العمارة العلوية و القدسية خالية على عروشها خاوية آجاماً لأسود ضارية ، ومرابض لذئاب عاوية ، نسأل الله سبحانه وتعالى عند رؤيتهم العافية ..)) وهذا الوصف لا يتركه بل يأتي بعكس ما هو كائن وليس كالذي تقع عيونه على المساوئ ولا يرى أي محاسن. فيذكر صفات الصفوة من خلق الله ويستشهد بقول ذا النون المصري⁽¹³⁾ حيث قال: إن لله لصفوة من خلقه وإن لله لخيرة ، قيل له يا أبا الفيض ما علامتهم قال : إن خلع العبد الراحة وأعطى المجهود في الطاعة أوجب سقوط المنزلة ، ثم قال :

مَنْعَ الْقُرْآنُ بَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ❖ ❖ مُقْلَ الْعُيُونِ بِلَيَالِهَا أَنْ يَهْجَعُوا
فَهَمُّوا عَنِ الْمَلِكِ الْكَرِيمِ كَلَامَهُ ❖ ❖ فَهَمًّا تُذَلُّ لَهُ الرِّقَابُ وَتَخْضَعُ

هذا المنهج عند ابن عربي فريد من نوعه ، يعتمد على المقارنة ومقارنة الحجة بالحجة ، حيث يبين طرق النقد التي تعتمد على الهوى ولا تتصف بالعمق ويبين أن الغرور ينتج عن استعمال مقاييس وموازين دنيوية يمكنه من خلالها وضع نفسه في المقام الذي يرغب فيه جميع الخلق ، وهذا منهج قل ما يلتفت إليه . لأن الألقاب تنسيهم أنفسهم وخاصة ما تعلق منها بالحق والواجب والمصلحة العامة. غير أن ابن عربي في منهجه يحاصر النفس من كل المداخل حتى تقر بالواقع، وتعترف بصدق الأحوال. لأن النفس من شأنها العدول والميل إلى المراوغة. وفي نفس السياق نجد الشيخ ينفرد بمنهجه في التربية الصوفية حيث لا يتخذ سبل الوعظ مثل ما نراه اليوم ، فبدل البحث عن من تعظه ، تنتظر منه أن يأتيك ولا تنزل إليه ولذلك فالفائدة عقيمة فيبدأ بالمناصحة لكن ، معايب النفس كثيرة وكيف تنصحها . لأنها تداهنك مثلما يداهنك الصديق، يقول ابن عربي : لما لزمنا البحث والتحقيق لم يتركنا لي في الأنام صديق . ذلك أن الدعاة اليوم يشبهون الملوك في الملبس والمأكل والمركب، وفي الدعوة بأهل التقوى والتصوف. والتربية عند

ابن عربي عملية تواكب كل تطور وليس نظرية كما يراها علماء الغرب وان كانت ناتجة عن دراسات نمطية بطابع مادي.

مناهج الغرب في التربية والسلوك:

في نظر lettre ، أن التربية هي العمل الذي نقوم به لتنشئة طفل أو شاب، و أنها مجموعة من العادات الفكرية أو اليدوية التي تكتسب، ومجموعة من الصفات الخلقية التي تنمو⁽¹⁴⁾.

وهي عند هربارت ، موضوع علم يجعل غايته ((تكوين الفرد من أجل ذاته ، بأن نوقظ فيه ضروب ميوله الكثيرة))، وفي نظر وليم جيمس ، مادة فن ((يكتسب في الصف عن طريق ضرب من الحدس وعن طريق الملاحظة، والتعاطفية للوقائع و لمعطيات الواقع)) ، أما دوركهايم فيرى فيها تكوين الأفراد تكويناً اجتماعياً ، و أما جيمس ميل الفيلسوف النفعي يرى أن موضوع التربية ((أن نجعل الفرد أداة سعادة لنفسه ولغيره))، ويضع ستوارت ميل فيها جميع المؤثرات التي يعايشها الإنسان سواء أتت من الأشياء أو من المجتمع ، أو من الناس⁽¹⁵⁾ ، وجميع هذه التعريفات تقصد النفس أو الروح . ولكن تبقى حبيسة التنظير ، قد تصدق على مجتمعات مرتبطة بواقع لا يتعدى الوجود أو من ثقافتها تعنى بالجسد أكثر من الروح ، وبالرغم من هذا فإن هناك من علماء الغرب وخاصة المربون منهم ، و أصحاب القيم اسندوا عملية التربية إلى الروح ، حيث يرون أن التربية عمل تقوم به روح في روح . إنها نداء توجهه الروح التي وصلت إلى الآفاق العليا من الوجود إلى الروح التي تتطلع إلى اللحاق بها تطلعا غامضا بعض الشيء ، ولقد جهد أصحاب نظريات القيم من أمثال إدوارد شبرانغر ، و المربون من أمثال كرشنشتاينر ، و أصحاب مذهب الظاهريات من أمثال ماكس شيلر في تحليل هذه الصلة بين الأرواح أو إذا شئنا هذه الصلة بين الآن و الأنت التي تكون التربية حالة خاصة منها⁽¹⁶⁾ أما تبرانغر فيصف في كتابه المسمى ((أشكال الحياة)) الأوضاع الستة ، أو الأفعال الأساسية الستة للروح التي هي الأشكال النموذجية⁽¹⁷⁾ الستة الكبرى للنظر في الأشياء : الشكل النظري الذي يرى العالم مجرد موضوع للمعرفة ، والشكل الجمالي الذي لا يبحث عن الحقيقة الموضوعية أو العلمية ، وإنما يبحث عن المعنى الذاتي للواقع . أما الشكل الاقتصادي فهو الذي يعيش للأشياء كلها و يحكم عليها من خلال نفعها. والشكل المسيطر أو السياسي الذي يتضمن الرغبة في ممارسة السلطة⁽¹⁸⁾ ، والذي يرى في معرفة الناس لصنعهم من أجل غايته السياسية الشخصية ، والشكل الديني، الذي يستهدف المعنى الكلي والكمال للحياة . وأخيرا الشكل الاجتماعي الذي قوامه محبة الآخر منظورا إليه كخالق أو كحامل ممكن للقيم. أما المربون ، فينقسمون إلى نموذجين مختلفين ، النموذج الجمالي (نموذج المربي المأخوذ ((بالمحبة)) الذي تجذبه رشاقة الشبيبة وجمالها ، والمربي من النموذج الاجتماعي يحب كل طفل

مهما يكن قبيحا ضعيفا، لأنه يحمل في نفسه إمكانية الشعور بالقيم وخلقها ولأنه في حاجة إلى أن نمده يد العون

فالنموذج الاجتماعي تجد في نفسه نوعين، النوع الغيري، الذي يوجه نشاطه نحو أشخاص يعينهم. والنوع الاجتماعي الحق الذي تسيطر لديه إرادة إنقاذ المجتمع الذي يكون جزءاً منه، بل إنقاذ الإنسانية جمعاء وتخليصها من الفساد ، و خاصة ظاهرة الخلاف بين أفراد المجتمع واستفحالها بين أبنائه في مناهج التفكير و أسلوب الحياة وفلسفتها بل حتى في بعض الأصول و القيم الجوهرية وهذا الخلاف متعدد ومتنوع الأطراف⁽¹⁹⁾.

وقد نجد في بعض المذاهب السياسية تصوف ، فأصحاب((هتلى)) هم اليوم صوفية ، والصادقون من أنصار((موسيليني)) صوفية ، وأولئك وهؤلاء لهم أشباه في التاريخ الإسلامي ، فالخوارج في حقيقة الأمر سياسيون ولكنهم في صدقهم⁽²⁰⁾ إلى أبعد غايات التصوف، ولهم أخبار هي نهاية النهايات في الروحانية كما يقول، زكي مبارك⁽²¹⁾ ، وكذلك نقول فيمن تشيعوا لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقدموه على سائر الخلفاء ، فهم في حقيقة الأمر سياسيون ، و ما حاربهم الأمويون ، و العباسيون إلا خوفاً من سيطرتهم على المنافع الدنيوية ، وصدق أولئك وهؤلاء في الثبات على مبادئهم السياسية ، وهو نضجة من التصوف ، وذلك الصدق هو الذي سجل أخبارهم على جبين الزمن⁽²²⁾ . إن التربية الصوفية والسلوك الصوفي هو السبيل إلى تهذيب النفس كما قيل غير أننا لا نحتاج معه إلى تأسيس نظرية في الأخلاق، ولا نحتاج إلى رأس مال ثقافي ننفق فيه بقدر. فالتصوف علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، أو تصفية البواطن من الرذائل. فأوله علم ، و وسطه عمل و آخره موهبة⁽²³⁾ ، و لكل فريق طريق ، فللعامي، تصوف حوته كتب المحاسبي، و من هنا نحوه ، و للفقيه تصوف رحاه ابن الحاج في مدخله ، وللمحدث تصوف حام حوله ابن عربي في سراجيه ، و للعابد تصوف دار عليه الغزالي في منهاجه. وللمتريخ تصوف ، نبه عليه القشيري في رسالته وللناسك تصوف حواه القوت والإحياء ، وللحكيم تصوف أدخله الحاتمي في كتبه ، وللمنطقي تصوف هنا إليه ابن السبعين في تأليفه، وللطبايعي تصوف جاء به البوني في أسرارهِ وللأصولي تصوف قام الشاذلي بتحقيقه فليعتبر كل بأصله من محله⁽²⁴⁾ . وفي اختلاف المسالك راحة للمسالك ، ومناهج الصوفية تختلف في التربية لأن التصوف وليد لعوامل اجتماعية وسياسية ودينية و ثقافية ، ساعدت على ظهوره فكان له سلطان كبير على النفوس ، و لكن الروح الصوفية قد وجدت مع الإسلام منذ اليوم الأول وفي حياة الأئمة الصحابة⁽²⁵⁾ والتابعين تابعيهم ، وها هو عبد الرحمن السلمي رحمه الله يكتب في التربية والسلوك بل ويقصد النفس مباشرة في رسالة في التربية الروحية⁽²⁶⁾ وهو عمل لم يسبقه إليه سوي المحاسبي في مؤلفه ((الرعاية لحقوق الله)) ، وقد اتخذ من الأوضاع الاجتماعية

والسياسية في تلك الحقبة من التاريخ مُطلقاً لإيجاد العلاج الحقيقي والتي شهدت انتشار الفساد العام تمثل في حروب السلاطين والأمراء وانعدام الأمن والاستقرار ، وكثرة الاضطرابات التي أشعلت الفتنة ، وبعد أن شخص الداء وعرف العلة ، وليس كما يراه الغرب كمّاً ونظريات كما مر معنا حول مناهج الغرب في التربية والسلوك ، بل سلوكاً وممارسةً ، ولا تخلو رسالته من تشخيص الداء ووصف الدواء فحسب ولكن أيضاً يتفق منهاجه مع مناهج ابن عربي في التربية الصوفية والسلوك ن فهو يستخلص العلاج من القرآن والسنة النبوية ، وبالرغم من وصفه الدقيق للعلاج وكأنه يعيش هذا العصر بل وكأنه يعانيه لما يحدث فيه من فتن . ولو أننا قمنا بنشر هذه الرسالة وعملنا على بثها في أوساط الخاص والعام وتنبهنا لها كما تنبه المسلمي إلى الحالة المرضية التي أصابت المجتمع الإسلامي منذ أن دب الخلاف بين المسلمين لأمسينا في وضع يسوده الأمن والرخاء ومطية لحاضر يحمل السلام والاستقرار ، فمستقبل هذه الأمة رهن بعودها إلى منابع الثقافة الإسلامية وفهم غاية التصوف وأدوات الصوفية⁽²⁷⁾ في تربية الناس ، وجعلهم قادة في الأخلاق وهداة للناس ودعاة سلام ، فعبد الرحمن المسلمي يشحن رسالته بأقوال الصوفية ، وكأنه يشخص الأدوية ويصف الأدوية من خلال نصائح المتصوفة ، ولا يمكن ألا يتضمن هذا البحث ما ضمنه في رسالته وهو ينقل قول حكيم لآخر حيث أورد هذه النصيحة وكفى بها لو تضمنتها الرسالة دون سواه إذ يقول : ((كتب حكيم إلى حكيم : أما بعد فإن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر إلى العقوبة نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن لم يحلم ندم ، ومن صبر غنم ، ومن خاف أمن ، ومن اعتبر أبصر ، ومن فهم علم ، ومن استعجل أخطأ ، ومن تأنى أصاب ، وزارع البر يحصد السرور ، والتقوى نجاة ، والطاعة ملك ، والجاهل الصادق متعوب ، فإذا جهلت فأسأل الناس ، وإذا غضبت فأمسك ، ومن أسلف المعروف كان ريحه المحمودة⁽²⁸⁾ ومن كفاً بلا شكر فقد أحياء الحق ، ومن أقرضك فاقرضه الصنيعة ، ومن بدأك بالخير فقد شغلك بشكره ، ومن جفاك فمكافأته الصفح والإعراض ، ودونك أن تتدبر ما وجهته ، إليك واجعله مثلاً بين عينيك والسلام⁽²⁹⁾ ، فهذه نصائح ينقلها إلينا المسلمي تربية وتوجيها وإرشادا منهاجاً إسلامياً صوفياً سلوكياً خالصاً . وهي كثيرة من أقوال الحكماء من الصوفية وأهل التربية والسلوك ، فهذه قراءة في مناهج الصوفية وغيرهم نخلص منها إلى الطرق القويمية التي تجمع الروح والمادة دون طغيان أحدهما على الآخر في قالب تربوي سلوكي صوفي ، الغاية منه غرس في أنفس المجتمع من يؤمنون بالقيم الروحية ، والوطنية ، ويحافظون على التقاليد ، ويتمسكون بالمبادئ التي لا تقبل الجدل في مقابل طائفة اتخذت من مناهج الغرب في التربية التي تنشد أحياناً المادة وتميل أحياناً أخرى إلى الروح صرفاً ، ففي كلتا الحالتين تجعل من هذه الطائفة متنكرة لذواتها ، ولقوميتها ، ودينها ، باسم التقدمية ، حيث تجعلهم في حل من القيود الأخلاقية والاجتماعية باسم الحرية فأفسدوا ما أصلح الدين باسم التطور ، وشددوا وغالوا باسم الأصالة

فهدموا ما أقامه الدين من دعائم تحدد المسافات بين البشر كيفما كانت جنسياتهم ولا نجد ذلك التصديق والتفصيل والتربية إلا عند أهل التصوف .

الإحالات و الهوامش

- 1 - العنوان الأصلي هو : رسالة روح القدس في مناصحة النفس
- 2- هو محمد بن علي بن محمد ابن أحمد بن عبد الله الطائي الحاتمي المعروف بالشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي توفى بدمشق ليلة الجمعة ، الثامن والعشرون من شهر ربيع الآخرة سنة 638هـ ، ودفن بسفح قاسيون ، وقد أرخ الكلشنى محمد بن سعد بقوله :
إِنَّمَا الْحَاتِمِي فِي الْكَوْنِ فَرْدٌ ♦ ♦ هُوَ غَوْتُ وَسَيْدُ وَإِمَام
كَمْ عُلُومٍ آتَى بِهَا مِنْ غُيُوبٍ ♦ ♦ مِنْ بَحَارِ التَّوْحِيدِ بِاسْتِثْمَام
إِنْ سَأَلْتُمْ مَتَى تُوفِّيَ حَمِيداً ♦ ♦ قُلْتُ أَرَحْتُ مَاتَ قُطْبٌ هَمَام
ابن عربي (محي الدين) ، مختصر رسالة القدس في محاسبة النفس اختصار وتقديم وتعليق أحمد الرفاعي شريف ، دار الهدى ، عين مليلة الجزائر ، ص 25 ، ابن عربي محيي الدين ، الفتوحات المكية ، دار صادر ، المجلد الرابع ، ص 561 ، دط
- 3 - هاملتون جيب ، دراسات في الحضارة الإسلامية ، دط ، ص 275.
- 4- يعتقد الكثير أن تصوف ابن عربي ، تصوف فلسفي ، من خلال كتبه ، وخاصة فصوص الحكم غير أن الحكمة تقتضي الحجاج بالتأويل ، من يقرأ لابن عربي يجده يفرق في كتاباته بين التصوف يستثمر فيه التجربة الدينية كرسالته هذه والتصوف تأويلا يقتضيه الحال ، وعليه لابد لنا من التمييز بين التصوف ذوقا ، أو تجربة ، وبين الوصف أدبا وفكرا ، يترجم فيهما الصوفي معاناته ، وما يكابده في طريقه إلى الله ، خياطة نهاد ، دراسة في التجربة الصوفية ، دار المعرفة ، نشر - توزيع - طباعة - ترجمة ، دمشق ن 1414/هـ 1994م ، ط 1 ، ص 29.
- 5-أبو القاسم القشيري ، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، تحقيق وإعداد ، معروف زريق ، علي عبد الحميد أبو الخير ، دار الخير ، 1416هـ / 1995م ، ص 280
6. هاملتون جيب ، المرجع السابق ، ص 277.
- 7- في معنى التصوف ، و أحوال الصوفية ، و أدبهم مع الحق و الخلق قال الأئمة : أول التصوف علم ، و أوسطه عمل ، و آخره موهبة ، فالعلم يكشف عن المراد ، و العمل يعين على المطلوب ، و الموهبة تبلغ غاية الأمل . المكي أبو طالب ، سراج القلوب وعلاج الذنوب ، دار الفكر للطباعة والنشر ، و التوزيع ، ج 1 ، ص 267.
- 8 - إن أوجست كونت لم يكن يقصد بالتجربة تلك التي تتم في المخبر ، التي تجرى على علوم ، كالطبيعات والكيمياء والحياة ، و إنما كان يرمي من وراء ذلك إلى تلك التجربة التي تقوم على المقارنة بين حالتين مختلفتين في ظروف معينة ، ولكنهما متشابهتان في الطبيعة والأصل . خضير إدريس ، التفكير الاجتماعي الخلدوني وعلاقته ببعض النظريات الاجتماعية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983م ، ص 69.
- 9- ابن القيسراني (المقدسي) ، صفوة التصوف ، تحقيق عادة مقدم عدرة ، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط 1 ، 1416هـ / 1995م ، ص 495
- 10- دور علماء الدين هو العمل على إطفاء نار الفتنة لا تأجيجها كما هو الحال في الثورات العربية التي وضعوا فيها خطبهم وأقلامه وألسنتهم فزادوا لهيبا بدل إخمادها ، وسئل الحسن البصري رحمه الله عن الفتنة الكبرى فقال : فتنة لم أغمس فيها سيوفي فكيف أغمس فيها لساني . فشتان بين قول هذا الصوفي ، وما قاله علماء السوء وهؤلاء من قصدهم ابن عربي .
- 11 - من يتزى بزي الصوفية وهو ليس منهم في شيء .
- 12 - ابن عربي رسالة روح القدس في محاسبة النفس المرجع السابق ص .
- هوأبو الفيض ذو النون ثوبان بن إبراهيم المصري (توفى 245هـ / 859م) : من أقواله : مدار الكلام على أربع : حب الجليل ، وبغض القلي
- 13- التنزيل وخوف من التحويل " وهو قريب من قول علي بن أبي طالب عندما سئل عن التقوى فأجاب : الرضى بالقليل والخوف من

- الجليل والاستعداد ليوم الرحيل " القشيري أبو القاسم ، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، تحقيق و إعداد ، معروف زريق ، وعلي عبد الحميد أبو الخير، دار الخير لط. ن.ش.ت. ط2 1416 هـ / 1995م ، ص433.
- 14 - رونية (أوبير) ، التربية العامة ، ترجمة عبد الله عبد الدائم ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1 ، كانون الثاني ، يناير 1967، ص2
- 15- رونية أوبير ، نفس المرجع ، ص23 .
- 16-المرجع نفسه ، ص270
- 17-النموذجية جمعها النماذج : مفردا نموذج و أنموذج ، وهي لفظة فارسية تعني مثال الشيء .
- 18- من عيوب النفس طلب الرئاسة بالعلم و الافتخار به ، المباهاة به على أبناء جنسه ، السلمي عبد الرحمن ، عيوب النفس ومداواتها ، تحقيق وتعليق أحمد الرفاعي شريف ، دار الهدى ، للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2006، ص97
- 19- رسالة المسجد العدد الثاني ، صفر 1426 هـ / مارس -أفريل 2005م، التهامي نكرة ، العقيدة وتقويم السلوك ، ص27
- 20 - العجاج (محمد الخطيب) ، أصول الحديث ، علومه ومصطلحه ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1 ، 1419 هـ / 1998م ، ص278.
- 21-هو أديب مصري ولد بقرية سنسريس بمصر ، في صيف 1892م، ويقول عن نفسه :
- وَفِيَّ آبِ مِيلَادِي تَعَلَّتْ صَبَابَةٌ ❖ ❖ لَهَا آبٌ فِي دُنْيَا الصَّبَابَةِ
- وَلِدَتْ مَعَ الْأَعْنَابِ وَالنَّسِيلِ ثَائِرٌ ❖ ❖ يَجُورُ بِأَرْجَاءِ الْبِلَادِ فَيَعْدِلُ
- فاصل خلف ، زكي مبارك ، بين رياض الأدب والفن ، عرض ونقد وتحليل ، مكتبة الآداب ومطبعتها دط ، ص26
- 22- مبارك (زكي)، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، صيدا، بيروت، ج1، ص24
- 23 - الشيخ عبد الله أحمد بن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تقديم و تحقيق د. عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء ص4
- 24- الشيخ زروق الفاسي ،قواعد التصوف ،تقديم وتحقيق ، عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ط2007، ص3، ص51
- 25 -ابن القيسراني (المقدسي) ، المرجع السابق ، ص56¹
- 26-المؤلف الثاني في مناهج الصوفية في التربية الصوفية والسلوك للإمام أبي يزيد عبد الرحمن السلمي وهي رسالة في التربية الروحية بعنوان ((عيوب النفس ومداواتها)).
- 27 - هذا عنوان كتاب ((غاية التصوف وأدوات المتصوف))، لمؤلفه ، ضياء مجيد الموسوي ، يعرض فيه الغاية المأمولة للمتصوف ، كما يبين بشرح مستفيض أدوات المتصوف لبلوغ هذه الغاية ن وكلها تحوم حول رياضة النفس أي تربيتها لتحصل على السعادة ، مجيد الموسوي (ضياء) ، غاية التصوف وأدوات المتصوف ، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع ، 1432 هـ / 2011م
- 28- قيل : الحمد على الأنفاس والشكر على نعم الحواس، وقيل : الحمد ابتداء منه والشكر افتداء منك ، القشيري ، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، المرجع السابق ، ص187
- 29 -السلمي (أبو زيد عبد الرحمن) ، عيوب النفس ومداواتها ، تحقيق وتعليق ، أحمد الرفاعي شريف ، دار الهدى، عين مليلة ، الجزائر ، 2006، ص149

الأزمة التركية - السورية العام 1998، وأثرها على العلاقات الأميركية - السورية

علي صالح حمدان حامد

أستاذ تاريخ

جامعة زاخو/ هيئة العلوم الإنسانية/ قسم التاريخ العراق

مقدمة :

أدى انفجار عدد من الأزمات الإقليمية دوراً مهماً في حدوث المزيد من الشرخ في بنية العلاقات الولايات المتحدة مع سوريا، بسبب تباين مواقف كل منها، ومدى تأثرها سلباً أو إيجاباً بها، وبخاصة الأزمة السورية - التركية، والتي أطلت برأسها وكادت أن تؤدي إلى نشوب حرب بين الدولتين الجارتين، قبل انتزاع فتيلها بجهود إقليمية ودولية.

يكتسب البحث أهميته وحيويته في أنه يحاول دراسة الأزمة السورية - التركية العام 1998، وتأثيرها على مختلف الأطراف وشرح أبعادها، وطبيعة الأسباب التي أدت إليها، ودور الدول المعنية فيها، والموقف الإسرائيلي والأميركي المريب منها، والتي صرح عنها الجانب السوري مرات عدة.

اعتمد البحث على المنهج التحليلي الوصفي في تناوله جذور الأزمة السورية - التركية والتي تعود إلى حقبة سابقة، عبر إيراد الوقائع المختلفة، ومقارنة المواقف الحاصلة وكشف الأساس الذي استندت عليه، والتي كانت قضية الحزب العمال الكردستاني أبرز الأسباب التي أسهمت في تفجرها، كما استفاد البحث من مصادر متنوعة أغنته بمعلوماتها، والتي لولاها ما خرج بالصورة الحالية، والتي تباينت بين الكتب العربية والعربية، والدوريات المهمة بالأوضاع السياسية في المنطقة.

أولاً/ جذور العلاقات التركية مع سوريا والولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل:

تعود علاقات تركيا مع كل من الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل إلى مرحلة سابقة لعلاقاتها مع سوريا، إذ تلقت تركيا المساعدات الأميركية منذ العام 1947، زاد من وتيرة علاقاتها اشتراك تركيا في الحرب الكورية، وانضمامها إلى الحلف الأطلسي في شباط 1952⁽¹⁾، أما علاقاتها مع إسرائيل فتعود إلى يوم اعترافها بها رسمياً في العام 1949، وقيام رئيس حكومة إسرائيل بن غوريون (1886 -

(197) بزيارة سرية لتركيا في أواخر آب 1958، والتوقيع على اتفاقية مهمة بين تركيا وإسرائيل⁽²⁾. ومقابل ذلك، كانت العلاقات السورية - التركية في وضع غير مستقر في أغلب الأوقات⁽³⁾، وخصوصاً عندما كان طلبت تركيا في آذار 1987 من السفير السوري في أنقرة أن تتخذ بلاده إجراءات لمنع تسلل عناصر حزب العمال الكردستاني عبر الحدود التركية - السورية، على إثر تعرض إحدى القرى القريبة من نصيبين للاعتداء، كما قام رئيس وزراء تركيا توركوت أوزال بزيارة رسمية إلى سوريا في 15 تموز 1987، التقى فيها بالرئيس السوري وطلب منه عدم السماح للمسلحين باجتياز الحدود، و توقيع اتفاقية أمنية تقضي بوضع سوريا حداً لنشاطات حزب العمال الكردستاني⁽⁴⁾. وتجدر الإشارة إلى أن الرئيس السوري حافظ الأسد اعتقد أنه بتحالفه مع الحزب الكردي سيتمكن من إجبار أنقرة على الاعتراف بحصة سوريا من مياه الأنهار المشتركة (الفرات ودجلة)، التي توجد منابعها في تركيا⁽⁵⁾.

كان من الواضح، أن المصالح الإستراتيجية التركية - الإسرائيلية المتفقة مع المصالح الإستراتيجية الأميركية، قد طفت على السطح في أعقاب الحرب الباردة (1945 - 1990)، إذ حصلت تغييرات أدت إلى نشوء ظروف مختلفة، سمحت لدول الشرق الأوسط باعتماد مفاهيم إستراتيجية جديدة، وكانت تركيا من الدول الرئيسية في هذه اللعبة⁽⁶⁾. فقد قلقت المؤسسة التركية الحاكمة منذ انهيار الاتحاد السوفيتي على مركزها في الحلف الأطلسي، ولم تكن متأكدة من الدرجة التي تحرص فيها أميركا على دورها داخل الحلف، ولذلك بحثت عن مدخل آخر غير مدخل الأطلسي لضمان صداقة أميركا لها، فكان التقارب مع إسرائيل لعلها تستطيع من خلالها إقناع الولايات المتحدة الأميركية بالفائدة من التحالف معها⁽⁷⁾.

ثانياً/ التحالف التركي - الإسرائيلي:

استغلت تركيا المتغيرات الدولية والإقليمية لإيجاد دور إقليمي جديد يحفظ لها مكانتها في الإستراتيجية الغربية والأطلسية، عبر تطوير دورها المحوري في إطار الإستراتيجية المتغيرة للولايات المتحدة الأميركية، لتكون قوة التوازن في أي تنظيم إقليمي مستقبلي⁽⁸⁾. وكان من اللافت أن الولايات المتحدة الأميركية قد أدت دوراً مهماً في رفع مستوى العلاقات الدبلوماسية بين تركيا وإسرائيل بما يستجيب لتوجهاتها الإستراتيجية في المنطقة، حتى وصلت إلى درجة سفير في آذار 1992، ووصلت إلى ذروتها مع زيارة تانسو تشيلر رئيسة وزراء تركيا إلى إسرائيل في 13 تشرين الثاني 1994، وعدت أول زيارة يقوم بها مسؤول تركي بهذا المستوى منذ قيام إسرائيل، ونتج عنها التوقيع على مجموعة من الاتفاقيات في المجالات الاقتصادية⁽⁹⁾.

كما توجت تركيا علاقاتها بإسرائيل باتفاقية عسكرية وقع عليها الطرفان في 23 شباط 1996، أثناء زيارة نائب رئيس هيئة أركان القوات المسلحة التركية لإسرائيل، وذكر وزير الخارجية التركي بخصوص ذلك "أنقرة ليست في حاجة لمساعدة إسرائيل على ضرب سوريا وليست لديها الرغبة أو النية في ذلك". وذلك في إطار حملة إعلامية وسياسية تركية ضد سوريا، وتردد في أنقرة احتمال استعداد تركيا للقيام بعمل عسكري محدود ضد سوريا في إطار تحالفها العسكري مع إسرائيل وبالتنسيق مع الولايات المتحدة⁽¹⁰⁾. ومما يعزز هذا الرأي، دعوة الرئيس الأمريكي الرئيس التركي سليمان ديميريل لزيارة واشنطن في 29 آذار 1996 وقبوله الدعوة، وعدها فرصة لتأكيد العلاقات الوثيقة بين الولايات المتحدة وتركيا، وهذا الأمر يؤيد مثل تلك التكهات⁽¹¹⁾.

أسفرت التحركات الدبلوماسية بين البلدين إلى تعزيز التعاون بينهما، فقد أصبح بموجب إعلان تركيا وإسرائيل التوصل إلى اتفاق التعاون العسكري، بمقدور الطائرات الإسرائيلية التي لم تكن تستطيع القيام بأي تدريبات إلا فوق البحر الأبيض المتوسط منذ أن أعادت سيناء إلى السيادة المصرية، القيام بالتدريبات فوق مناطق شاسعة من الأراضي التركية. وإزاء تلك الأخطار المحدقة بها، سعت سوريا لإيجاد تحالف قوي في وجه التحالف التركي - الإسرائيلي، وتمثل ذلك بقيام عدد من ضباط الجيش الروسي بزيارة سوريا لبحث تقوية التعاون العسكري والأمني بين البلدين⁽¹²⁾.

حذرت سوريا في 7 نيسان 1996، من خطورة اتفاق التعاون العسكري بين إسرائيل وتركيا وذكرت صحيفة تشرين في مقالها الافتتاحي أن الاتفاق يضر بمصالح العرب والدول الإسلامية، ووصفته بالعذر الجديد للتوتر وعدم الاستقرار في المنطقة، وأن الخطوات التي أقدمت عليها أنقرة لا تساعد على خلق انفراج في العلاقة السورية التركية، ولا تتفق مع حرص دمشق على بناء علاقات ودية معها⁽¹³⁾.

ازدادت العلاقات السورية - التركية سوءاً، عندما وجه رئيس الحكومة التركية إبان زيارته الإسكندرية في 20 نيسان 1996، تهديدات مباشرة لسوريا، بذريعة دعمها لحزب العمال الكردستاني، وأن تركيا سترد على أي اعتداء، لأنها غير مستعدة للتنازل عن أي جزء من أراضيها، وكانت تلك التصريحات قد جاءت في إطار حملة إعلامية وسياسية تركية على سوريا، وترددت أحاديث في أنقرة عن احتمال استعداد تركيا للقيام بعمل عسكري محدود ضد سوريا، في إطار تحالفها العسكري مع إسرائيل، وبالتنسيق مع الولايات المتحدة الأميركية موافقتها⁽¹⁴⁾. والجدير بالذكر، أن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية أصدرت هي الأخرى بياناً في 22 نيسان 1996، أعربت فيه عن الدهشة البالغة لتصريحات رئيس الوزراء التركي ووزير خارجيته، التي تضمنت هجوماً على دولة عربية⁽¹⁵⁾.

أيدت واشنطن موقف أنقرة، خصوصاً تحذير رئيس الوزراء التركي مسعود يلماز سوريا في 9 أيار 1996، من مخاطر استمرار دعمها لحزب العمال الكردستاني، كما أكدت واشنطن وعلى لسان المتحدث باسم خارجيتها دعمها الموقف التركي بذريعة أن سوريا تدعم الحزب وعليها التوقف عن ذلك، وكانت المساعدات السورية للحزب أحد أسباب وضعها ضمن قائمة الدول التي تتهمها الولايات المتحدة الأميركية برعاية الإرهاب في تقرير الإرهاب الدولي السنوي الصادر عن وزارة الخارجية في أيار 1996⁽¹⁶⁾.

حدث انفراج نسبي في العلاقات السورية - التركية، إثر تشكيل حكومة تركية جديدة في 29 حزيران 1996، برئاسة نجم الدين أريكان (1926 - 2011)، فقد جرى تبادل الرسائل مع الرئيس السوري بخصوص الرغبة المشتركة في توثيق العلاقات بين البلدين⁽¹⁷⁾. ويبدو أن الأمر شجع وزير الخارجية السوري والطلب من تركيا في 4 تموز 1996، إعادة النظر في الاتفاق التركي - الإسرائيلي، والتذكير بأنهم ضد الأحلاف، وأن من مصلحة تركيا والعرب أن تكون بينهما علاقة طيبة، كما رحب بالحوار مع تركيا⁽¹⁸⁾.

عموماً، تحسنت العلاقات التركية - الأميركية، فقد أوضح مسؤول كبير في الإدارة الأميركية في 1 أيلول 1996، أن لديهم علاقات واسعة النطاق مع الحكومة التركية، ومما عزز كلامه أن الطرفين شهدا تعاوناً وثيقاً، إلى حد كبير كون تركيا عضوة في منظمة حلف شمال الأطلسي⁽¹⁹⁾. وزيادة في التعاون بين الجانبين، عقدا اتفاقاً لتجنب الازدواج الضريبي في 3 أيلول 1996⁽²⁰⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن الاتفاق التركي - الإسرائيلي كان مقدمة لترتيبات أمنية إقليمية، في إطار الالتزام الأمريكي بالحفاظ على تفوق إسرائيل العسكري، واحتكارها للسلاح النووي كرادع إستراتيجي، ويتفق مع الإستراتيجية العسكرية الأميركية القائمة على مبادئ الدفاع الوقائي والهيمنة والسعي لبناء منظومة أمنية في الشرق الأوسط ووضعها في أيدي قوى حليفة يمكن الوثوق بها كإسرائيل وتركيا للحفاظ على المصالح الأميركية في المنطقة في مواجهة قوس الأزمات الذي يشمل إيران وبعض الدول العربية⁽²¹⁾.

كما أكد رئيس الوزراء التركي مسعود يلماز أن العلاقات العسكرية المتنامية لبلاده مع إسرائيل، ستساعد على تحقيق الاستقرار في الشرق الأوسط. فيما ذكرت صحيفة البعث أن زيارة الأخير إلى إسرائيل هي خطوة عدائية وعلى الدول العربية والإسلامية مواجهتها وتطوير نتائجها بحزم. وجددت انتقاد علاقات الأردن مع كل من إسرائيل وتركيا ومشاركتها في المناورات العسكرية البحرية التي جرت في البحر المتوسط بمشاركة قوات إسرائيلية وتركية وأميركية. ونددت بحكام تركيا لعدم إصغائهم إلى

النداءات العربية والإسلامية التي حثتهم على التخلي عن علاقاتهم مع إسرائيل من أجل تعزيز صلاتهم مع العرب والمسلمين. وقالت "على الرغم من التحذيرات التي أطلقتها الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي وحركة عدم الانحياز، والتي نبهت إلى خطورة التحالف التركي - الإسرائيلي، يبدو أن الحكومة التركية أصمت أذانها عن النداءات والمبادرات الصادقة وراحت تصعد من مواقفها" وأشارت إلى أن مواقف تركيا اتسمت بالتلويح بإجراءات عسكرية استفزازية والاندفاع نحو التحالف المشبوه مع إسرائيل، إذ بدأ مسعود يلماز زيارة فريدة من نوعها إلى إسرائيل، واستعادت صحيفة تصريحات رئيس الوزراء الإسرائيلي، حيث أعلن فيها أن علاقات إسرائيل بتركيا تعد المحور الرئيسي للترتيب الأمني في المنطقة، مشيرة إلى أن إسرائيل تريد إقامة تحالف أمني يكون طوقاً أمنياً نارياً يحيط بسوريا والعراق وإيران⁽²²⁾.

ثالثاً/ تفجر الأزمة السورية - التركية وتداعياتها:

بلغت الخلافات السورية - التركية أوجها باندلاع الأزمة بينهما في بداية تشرين الأول 1998، والتي لم تكن أمراً مفاجئاً بالنسبة للكثير من المراقبين، فقد كان التوتر سيد الموقف بين البلدين خلال الأسابيع التي سبقت الأزمة، حيث اتهمت صحيفة تشرين السورية في 22 أيلول 1998 تركيا بان لديها أطماعاً توسعية، وانتقدت التحالف التركي - الإسرائيلي الموجه ضد العرب⁽²³⁾.

اشتدّت أنقرة تسليماً عبد الله أوجلان⁽²⁴⁾. قبل أي حوار مع دمشق، حيث حاولت أنقرة فرض قضية حزب العمال الكردستاني على أنها القضية الأولى، وهو موقف وصفه الأخير في إحدى المقابلات الصحفية، التي أجريت مع مسؤول الحزب بأنه موقف غريب "سوريا لا تقدم أي دعم أو مساندة ملموسة للحزب، بل هي ترى أن ليس لها مصلحة في معاداة القضية الكردية وحزبنا بشكل عام، بينما تحاول أنقرة خلق هذا العداء، ومثلما تحالفت مع إسرائيل لشن حربها على الكرد تريد أن تعتمد على سوريا لمزيد من الضغط علينا". مذكراً في الوقت نفسه "أن السياسات الأميركية والتركية لا تتضمن أي منفعة للكرد"⁽²⁵⁾.

المهم في الأمر، كان حزب العمال الكردستاني بقيادة زعيمه أوجلان خلال الأعوام الماضية، قد أصبح شوكة في خاصرة السلطات التركية، فقد أجبرها ذلك على الاحتفاظ بعشرات الآلاف من جنود ثاني أكبر جيش في حلف الأطلسي مشغولين بعمليات عسكرية وصلت تكاليفها إلى نحو ثمانين مليار دولار. وفي الوقت الذي وصفت دول كثيرة حزب العمال بالمنظمة الإرهابية بسبب عمليات التفجير والكمائن، أجرى الحزب تغييراً على تكتيكاته إذ لم يعد يطالب بالاستقلال أو حتى بالحكم الذاتي، بل بحقوق سياسية وثقافية، وإلى اشتراك الحزب في العملية السياسية التركية⁽²⁶⁾.

في 3 تشرين الأول 1998 عمدت السلطات التركية إلى تصعيد مفاجئ للتوتر في العلاقات السورية

- التركية بإطلاق كبار المسؤولين والعسكريين الأتراك تصريحات عدائية ضد سوريا، وذلك على الرغم من المحاولات الجادة التي بذلتها سوريا لإقناع تركيا برغبة سوريا في متابعة الحوار البناء لحصر الخلاف وإيجاد الحلول المرضية للمشاكل العالقة بين البلدين، حيث دعت سوريا باستمرار وبإلحاح الجانب التركي إلى اعتماد الحوار الودي، كما دعت إلى استئناف نشاط اللجان المشتركة المختصة بمناقشة القضايا الأمنية وغيرها واقتراح حلول ناجحة لها، غير أن الجانب التركي واصل تجاهله لهذه الدعوات واستمر بمقاطعة هذه اللجان وتعطيلها، تزامن هذا التصعيد مع تصعيد التعاون العسكري مع إسرائيل في تحالف كشف رئيس الحكومة الإسرائيلية عن أغراضه وأهدافه الحقيقية في إعادة الشرق الأوسط إلى سياسة الأحلاف والمحاور التي رفضتها شعوب المنطقة⁽²⁷⁾.

دفعت تركيا بالمزيد من قواتها المسلحة إلى منطقة الحدود المشتركة مع سوريا 4 تشرين الأول 1998، حيث تلقى أعضاء البعثة الدبلوماسية التركية في دمشق تعليمات بترحيل عائلاتهم إلى أنقرة خلال أسبوع تحسباً لاندلاع أعمال حربية. وفي الوقت نفسه، حذر الرئيس التركي سليمان ديميريل، سوريا صراحة من عواقب الاستمرار في دعم حزب العمال الكردستاني. وأكد أن بلاده في موقف الدفاع عن النفس ضد سوريا، ووصف الموقف بين البلدين بأنه خطير. كما ذكرت صحيفة "ميلليت" أن فريق إدارة الأزمة في أنقرة وضع ثلاثة سيناريوهات محتملة، ويفترض أولها أن تدعن سوريا لجميع المطالبات التركية المتعلقة بتصفية وجود القادة الكرد، نظراً لعدم قدرتها على سحب قواتها من خطوط المواجهة مع إسرائيل، وفي حالة الرفض فإن السيناريو الثاني يقضي بشن غارات جوية محدودة على قواعد حزب العمال الكردستاني في سهل البقاع اللبناني، أما السيناريو الثالث فيتضمن شن ضربة جوية مكثفة على معسكرات الحزب داخل الأراضي السورية، ومن ثم اندلاع حرب شاملة بين الدولتين، بسبب إصرار أنقرة على ضرورة تسليم دمشق عبد الله أوجلان كشرط لوقف التصعيد بين البلدين⁽²⁸⁾.

حذر الرئيس السوري في مباحثاته مع الرئيس المصري في 4 تشرين الأول 1998، أن الوضع بين تركيا وسوريا يتسم بالخطورة، وأن الأزمة يجب أن تعالج بالحوار الدبلوماسي، وليس عبر المواجهة أو التهديدات التي ترفضها سوريا، كما أوضح أن الموقف العربي يدعم حل المشكلات القائمة بين سوريا وتركيا في إطار من الحوار الودي، وعبر عن شعوره بالاستغراب والمفاجأة من تصريحات المسؤولين السياسيين والعسكريين الأتراك. وذكر أنه ليس هناك أي شيء جديد يستدعي التصعيد⁽²⁹⁾.

تبرأت إسرائيل أن يكون لها يد في إثارة الخلافات بين سوريا وتركيا، حيث أعلن بنيامين نتانياهو في 4 تشرين الأول 1998، أن بلاده ليس لها علاقة بالنزاع بين تركيا وسوريا، وأن إسرائيل اتخذت خطوات لطمأنة سوريا إلى أنها ليست معنية بالتدخل في مثل هذا النزاع، كما أوضح إسحق مورديخي أن قوات جيشه تلقت أوامر بتخفيف مناوراتها الروتينية على الحدود المشتركة مع سوريا، بغرض تأكيد عدم وجود نيات عدوانية تجاه دمشق⁽³⁰⁾.

تجلى موقف الولايات المتحدة الأمريكية إزاء اشتداد تآزم الوضع بين سوريا وتركيا، بإعلانها في 5 تشرين الأول 1998، عن مساندتها الكاملة لجهود الوساطة التي يقوم بها الرئيس حسني مبارك لنزع فتيل الأزمة التركية - السورية، حيث صرح المتحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية جيمس فوللي، أن واشنطن أجرت اتصالات بالجانبين التركي والسوري، ودعا حكومتي البلدين إلى التوصل إلى حل سلمي⁽³¹⁾. يبدو أن طلب الولايات المتحدة الأمريكية من الرئيس حسني مبارك التدخل أثمر في إجراء الأخير مباحثات في 6 تشرين الأول 1998 مع الرئيس ديميريل في أنقرة ومع الرئيس السوري في دمشق لحل الأزمة وتفادي وقوع حرب بين البلدين⁽³²⁾. عموماً، اتسم الموقف الأمريكي من الأزمة بعدم التوازن، بحكم رعايتها ودعمها للتحالف بين تركيا وإسرائيل ومشاركتها للأخيرتين في اتهام سوريا بدعم الإرهاب، لذلك جاءت مطالبة وزير الخارجية السوري في 8 تشرين الأول 1998 الحكومة الأمريكية بأن يكون موقفها موضوعياً ومتزناً⁽³³⁾. وجدت سوريا أن ما تقوم به تركيا هو أمر مدروس ومنظم، هدفه خدمة المصالح الإسرائيلية ليس أكثر، حيث اتهم مسؤولون في حزب البعث السوري في دمشق، الحكومة التركية في 7 تشرين الأول 1998، بتصعيد التوتر في المنطقة من خلال تهديدها لسوريا بضربات عسكرية، مؤكدين أن ذلك يصب في النهاية في مصلحة السياسة الإسرائيلية، كما ذكر عبد الله الأحمر الأمين العام المساعد لحزب البعث أن التصريحات العدوانية لبعض المسؤولين الأتراك، هدفها استفزاز سوريا وتصعيد التوتر في المنطقة وتهديد أمنها، وهو ما يتكامل مع سياسات إسرائيل ومواقفها وممارساتها العدوانية⁽³⁴⁾.

كما دعا وزير الخارجية السوري الولايات المتحدة الأمريكية خلال اتصال هاتفي مع مارتن أندريك مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية في 8 تشرين الأول 1998 إلى اتخاذ موقف واضح ومتوازن من الأزمة السورية التركية، وتؤيد واشنطن للموقف السوري المطالب بالتسوية الدبلوماسية للأزمة، كما أعلن وزير الخارجية الإيراني كمال خرازي، والذي ترأست بلاده منظمة المؤتمر الإسلامي، في محاولة لنزع فتيل الأزمة بين تركيا وسوريا عن مهمة وساطة بين أنقرة ودمشق، تزامنت مع الجهود التي بذلتها مصر لإنهاء التوتر⁽³⁵⁾. وفي 9 تشرين الأول 1998 ذكر إسماعيل جيم وزير الخارجية التركي عقب استقبال الرئيس

التركي سليمان ديميريل لوزير الخارجية الإيراني أن بلاده لا ترغب في دخول حرب مع سوريا، لكنها عاقدة العزم هذه المرة على حمل دمشق على وقف مساندتها لحزب العمال الكردستاني⁽³⁶⁾.

أيدت الولايات المتحدة الأمريكية على لسان المتحدث باسم البيت الأبيض في 10 تشرين الأول 1998 جهود حل الأزمة وتأمل في أن يقوم الجانبان بتسوية النزاع سلمياً، كما دعا وليام كوهين وزير الدفاع الأمريكي إلى تفادي حدوث نزاع مسلح بين سوريا وتركيا، وطالب دمشق بالامتناع عن إيواء مسلحي حزب العمال الكردستاني، وجدد دعم واشنطن في الحفاظ على استقرار المنطقة. كما صرح وزير الخارجية السوري عقب استقبال الرئيس المصري له، أن الأزمة مفتعلة ومؤسفة ومصدر قلق للجميع، وقال "إننا في سوريا رفضنا مثل هذا التهديد، وأكدنا رغبتنا الصادقة في التوصل إلى حلول دبلوماسية لكل المشكلات المتعلقة بين البلدين". وذكر كذلك "أننا نخوض في تفاصيل موضوع اتهامنا بمساندة بعض المنظمات، أن هناك مشكلات تركية داخلية وبعداً إسرائيلياً في المسألة"⁽³⁷⁾.

استنفر الرئيس حسني مبارك الدبلوماسية المصرية لمنع نشوب حرب تركية - سورية تحت لافتة دعم الأخيرة لحزب العمال الكردستاني المناوئ لأنقرة وإيواء زعيم الحزب، وحين بدأت ملامح التصعيد هذه المرة من جانب تركيا جاءت الزيارة المفاجئة التي قام بها الرئيس المصري إلى العاصمة السعودية ولقاؤه الملك فهد بن عبد العزيز لتدارس أخطار التصعيد التركي والعمل على احتوائه، كما اتصل الرئيس المصري بالرئيسين السوري والتركي وزار البلدين على رأس وفد كبير، وأجرى قبل الزيارتين اتصالات هاتفيتين مع رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتانياهو ووزير دفاعه أسحق مردخاي وشدد على ضرورة التزام إسرائيل بالهدوء وألا تتخذ أي إجراءات تصعيديه في الجولان السوري المحتل من شأنها تعقيد الموقف، وكان الرئيس المصري قد بلور مبادرة خاصة باحتواء النزاع السوري - التركي قبل زيارة البلدين وتلخصت شروط المبادرة في وقف الحملات الإعلامية المتصاعدة بين البلدين، واستضافة اجتماع لوزيري خارجيتي سوريا وتركيا في القاهرة لبحث تسوية عاجلة للتصعيد الحدودي، وفي حالة نجاح هذا الاجتماع يجري الترتيب لقمة بين حافظ الأسد وسليمان ديميريل لبحث المشاكل العالقة والحساسة مثل المياه وقضية حزب العمال الكردستاني، وعقد اجتماعات أمنية بين الجانبين لتبادل المعلومات وتأمين الحدود البرية وبحث أوجه التعاون الأمني، والحفاظ على الحد الأدنى من العلاقة بين البلدين بحيث يسمح بإمكانية وقف التصعيد وعدم الدخول في الحرب، وعودة الأوضاع على الحدود إلى ما كانت عليه قبل التصعيد العسكري الجديد، والبدء فوراً بإجراءات لبناء الثقة بين البلدين ومناقشة الملفات بشكل مفتوح من دون تصورات مسبقة، وعدم تدخل أي دولة في شؤون الأخرى مستقبلاً⁽³⁸⁾.

المهم في الأمر، أن المباحثات بين وفدي البلدين على مستوى الخبراء الفنيين في المجال الأمني وخبراء السياسة الخارجية، بدأت في 19 تشرين الأول 1998، على الحدود السورية - التركية وسط تأكيد كلا الطرفين أهمية التوصل إلى حل سلمي للنزاع. وذكرت الصحف التركية أن الوفد السوري قدم لنظيره التركي قائمة بأسماء المعتقلين في سجون سوريا من عناصر حزب العمال الكردستاني، وأن السوريين رحبوا بزيارة محققين أتراك لهذه السجون لاستجواب معتقلين الحزب. ومن ناحية أخرى، أعلن عبد الله أوجلان أنه لم يعد يقيم في سوريا وأنه نقل نشاطه إلى المناطق الكردية⁽³⁹⁾.

لقد نجحت جهود الوساطة المصرية والإيرانية في إنهاء التوتر بين سوريا وتركيا وتسوية الأزمة، حيث عقد اجتماع أمني سوري - تركي في منطقة أضنة التركية تم فيه التوصل إلى توقيع اتفاق أمني في 21 تشرين الأول 1998، عرف بـ " اتفاق أضنة " . وأهم ما اتفق عليه كان تعهد سوريا بإغلاق معسكرات حزب العمال الكردستاني في أراضيها وفي وادي البقاع اللبناني الذي يخضع لسيطرتها، وتنسيق التعاون الأمني بين الجانبين وفي المقابل تعهدت تركيا بعدم السماح بانطلاق أي نشاط من أراضيها يهدد استقرار سوريا⁽⁴⁰⁾.

اضطرت دمشق وتحت تهديد أنقرة بالاجتياح العسكري، إلى توقيع اتفاقية أضنة والتي تنازلت فيها عن مطالبها السابقة، وقبلت بأن تضع حداً لنشاط حزب العمال الكردستاني على أراضيها، وأن توقف مختلف أشكال الدعم للقضية الكردية التركية في سوريا ولبنان، بل أن تركيا حصلت أكثر من ذلك، على جائزة ترزية استثنائية هي تكريس الاعتراف بضمها لواء الإسكندرونة، الذي ما انفكت سوريا تطالب بعودته منذ استقلالها⁽⁴¹⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن الرئيسين السوري والمصري، أجريا مباحثات في شرم الشيخ في 1 تشرين الثاني 1998، تناولت تطورات العلاقات السورية - التركية وعملية السلام في الشرق الأوسط⁽⁴²⁾. كما أكد بيان وزراء خارجية دول إعلان دمشق في 12 تشرين الثاني 1998، حرصهم على التمسك بالمواقف المبدئية الثابتة لتعزيز التضامن العربي بما يخدم المصالح العليا للأمة العربية واستعادة أراضيها ومتابعة التحرك العربي الفعال⁽⁴³⁾.

أعطت الولايات المتحدة الأميركية الضوء الأخضر لأنقرة للضغط على دمشق لإنهاء وجود عبد الله أوجلان ومعسكرات مقاتليه في سوريا والبقاع اللبناني، غير أن سوريا ولبنان طالما نفيا الاتهامات التركية وقبلًا قيام فريق من المفتشين الأتراك بجولات في أي أماكن زعمت حكومتهم وأحزابهم أنها مخصصة لحزب العمال الكردستاني، وكانت تلك الأزمة قد أدت في 12 تشرين الثاني 1998، سقوط

زعيم الحزب في فخ اللجوء السياسي في روما بعدما أُلقي القبض عليه بمطار روما ومع ردود الفعل الكردية العاصفة التي شهدتها أنقرة وروما وبضعة عواصم أوروبية أخرى، بدا أنه فقد موقع يمكن اللجوء إليه بعد أن أقفلت دمشق مرغمة تحت التهديد بعدوان تركي عسكري أبوابها وحدودها ورفضته موسكو وتخلت عنه روما، رغم وعودها له باستقباله لاجئاً⁽⁴⁴⁾. بسبب انتقادات حكومة بولنت أجاويد، الحكومة الإيطالية لسماحها له بمغادرة إيطاليا⁽⁴⁵⁾.

بدا واضحاً من مجريات اعتقال زعيم حزب العمال الكردستاني في 15 شباط 1999، أن ملامح صفقة أميركية - تركية سرية كانت وراء اعتقاله في كينيا، كما أن الدبلوماسية الأميركية مارست ضغوطاً على العواصم التي لجأ إليها لإغلاق الباب أمام طلبه اللجوء السياسي وترحيله من أراضيها، واعترف وزير العدل اليوناني بخرق الموساد للمخابرات اليونانية⁽⁴⁶⁾.

الخلاصة

يمكن الاستنتاج مما سبق، أن الأزمة السورية - التركية، كانت ميداناً آخر شهدت فيه العلاقات الأميركية - السورية تراجعاً ملحوظاً، نتيجة اختلاف وتباين كل طرف إزاء الأزمة، ففي الوقت الذي شكل فيه التهديد التركي خطراً حقيقياً على سوريا، واعتمادها في ذلك على ذريعة إيواء الحكومة السورية لعناصر حزب العمال الكردستاني، كانت إسرائيل قد وجدت أن المجال قد أصبح متاحاً بصورة أكبر لتمتين علاقاتها مع تركيا، إذ شهدت علاقاتها معها نمواً متزايداً خلال الفترات السابقة، ومع أن الولايات المتحدة الأميركية كررت أكثر من مرة أنها تقف المسافة نفسها من أطراف الأزمة، إلا أن الأدلة تؤكد أنها كانت الراعية الحقيقية للتحالف الإسرائيلي - التركي، لأن سياسات البلدين كانت تصب في مصلحة تعزيز الهيمنة الأميركية في المنطقة بعدة أشكال، وهذا ما دفعت سوريا إلى التوجس من الولايات المتحدة، والتصريح أنها المحرك الأساسي فيما تشهده من الأزمات الخانقة في محيطها الإقليمي.

الإحالات والهوامش :

- 1 - باتريك سيل، الصراع على سورية دراسة للسياسة العربية بعد الحرب 1945 . 1958، ت: سمير عبده، محمود فلاح (بيروت، 1968)، ص 13. تندرج العلاقات التركية . الأميركية في سياق مزدوج، الأول: هو اتجاه تركيا إلى الارتباط بالغرب، والسياق الثاني فهو: مد الولايات المتحدة الأميركية مظلتها الأمنية والإستراتيجية إلى المنطقة، عقيل سعيد محفوض، سوريا وتركيا الواقع الراهن والمستقبل، (بيروت، 2009)، ص 170.
- 2 - علي صالح الميراني، العلاقات التركية . الإسرائيلية 1949 . 2009، (دهوك، 2010)، ص 22: خليل إبراهيم الناصري، التطورات المعاصرة في العلاقات العربية التركية، (بغداد، 1990)، ص 201: خورشيد حسين دلي، سياسة تركيا الخارجية، (دمشق، 1999)، ص 59.

- 3 - يتمثل جوهر الأزمة التركية . السورية في الموقف السوري الرسمي من لواء الاسكندرونة، والذي تعده دمشق جزءاً من سوريا، بينما يسمى الأتراك ذلك الإقليم بـ "هاتاي" ويعدونه جزءاً من بلادهم، توفيق المديني، العرب وتحديات الشرق الأوسط الكبير ، (دمشق، 2010)، ص 294.
- 4 - خليل علي مراد، العلاقات السورية . التركية في ضوء أزمة أوجلان تشرين الأول/ أكتوبر 1998، مركز الدراسات التركية، أوراق تركية المعاصرة، جامعة الموصل، العدد(16)، ربيع 2001، ص 73.
- 5 - مع إعلان عبد الله أوجلان الحرب ضد النظام التركي في العام 1993 وتنفيذ حربه عدد من الهجمات ضد المصالح التركية في الخارج، بدأت الصحافة التركية تشن حرباً إعلامية ضد سوريا، متهمه إياها بدعم الحزب، ينظر. وليد رضوان، مشكلة المياه بين سوريا وتركيا، (بيروت، 2006)، ص 39.
- 6 - مجلة المشاهد السياسي "تطمينات ديميريل لم تنجح في إزالة القلق السوري" العدد(81)، 28 أيلول . 4 تشرين الأول 1997، ص 22.
- 7 - مجلة الحوادث "مع اشتداد الأزمة السياسية بين اربكان وقيادة الجيش يتحول التعاون العسكري مع إسرائيل إلى قضية خطيرة" العدد(2117)، 30 أيار . 5 حزيران 1997، ص 33.
- 8 - ماجد محمد شددود، التحالف الاستراتيجي بين تركيا وإسرائيل، اتحاد شببية الثورة، سلسلة الثقافة السياسية، العدد (5)، 15 تشرين الأول 1998، ص 36.
- 9 - المصدر نفسه، ص 47.
- 10 - هيثم الكيلاني، البعد الأمني لمعاهدة السلام الأردنية والاتفاقية العسكرية التركية . الإسرائيلية في سمعان بطرس فرج الله وآخرون، أعمال ندوة مستقبل الترتيبات الإقليمية في منطقة الشرق الأوسط وتأثيرها على الوطن العربي، (القاهرة، 1998)، ص 120.
- 124 : جلال عبد الله معوض، صناعة القرار في تركيا والعلاقات العربية . التركية، (بيروت، 1998)، ص 221.
- 11 - THE WHITE HOUSE, Office of the Press Secretary, (Hackensack, New Jersey), STATEMENT BY THE PRESS SECRETARY, March 11, 1996.
- 12 - مجلة المشاهد السياسي "تطمينات ديميريل ..."، ص 22.
- 13 - جريدة الأهرام، العدد (39935)، 8 نيسان 1996.
- 14 - ماجد محمد شددود، المصدر السابق، ص 60.
- 15 - مجلة الحوادث "تحرك سوري نشط لمتابعة المستجدات الخطيرة" العدد(2117)، 30 أيار . 5 حزيران 1997، ص 14.
- 16 - هيثم الكيلاني، المصدر السابق، ص 120. 124.
- 17 - قصي غريب عليوي، السياسة الخارجية الأميركية تجاه سورية في المدة الواقعة بين 1989 . 2004، أطروحة الدكتوراه غير منشورة قدمت إلى مجلس كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، (بغداد، 2007)، ص 87.
- 18 - خليل علي مراد، المصدر السابق، ص 74.
- 19 - ينظر نص تصريح وزير الخارجية السوري فاروق الشرع، يطالب فيه تركيا بإعادة النظر في الاتفاق التركي الإسرائيلي، في مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد(28)، المجلد 7 (خريف، 1996)، ص 217.
- 20 - THE WHITE HOUSE, Office of the Press Secretary (Little Rock, Arkansas), PRESS BRIEFING BY SENIOR ADMINISTRATION OFFICIAL Filing Center Robinson Center Little Rock, Arkansas, September 1, 1996.
- 21 - THE WHITE HOUSE, Office of the Press Secretary, TO THE SENATE OF THE UNITED STATES, September 3, 1996 .
- 22 - ماجد محمد شددود، المصدر السابق، ص 63 . 64.
- 23 - مجلة الحوادث "جهود لإحياء التضامن العربي الفعال وجبهة إسلامية متراصة وتفعيل دور أوروبا" العدد(2149)، 9 . 15 كانون الثاني 1998، ص 13.
- 24 - ينظر حياة أوجلان، في رجائي فايد، أحمد بهاء الدين شعبان، أوجلان الزعيم والقضية، (القاهرة، 1999)، 108 وما بعدها .
- 25 - خليل علي مراد، المصدر السابق، ص 75.
- 26 - مجلة المشاهد السياسي "دمشق تشكك في أهداف التعاون التركي . الإسرائيلي" العدد(131)، 13 . 19 أيلول 1998، ص 14.
- 27 - نقلاً عن: إبراهيم حميدي "أوجلان: التقارب السوري التركي لا يخيفنا" مجلة الوسط، العدد(324)، 13 نيسان 1998، ص 18.

- 28 - مجلة المشاهد السياسي "14 عاما على حزب العمال الكردستاني أوجلان يغير أهدافه وتكتيكاته " العدد(131)، 13 . 19 أيلول 1998، ص26.
- 29 - ينظر تصريح المصدر السوري المسؤول بشأن التوتر في العلاقات السورية . التركية في مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 10، العدد 37 (شتاء 1999)، ص 214.
- 30 - [The New York Times, Turkey's Ties To Syria Sink To War in All But the Name](#), October 04, 1998.
- 31- The New York Times, Mubarak Visits Syria in Effort To Defuse Crisis With Turkey, October 05, 1998.
- 32 - جريدة الأهرام، العدد(40845)، 5 تشرين الأول 1998.
- 33 - جريدة الأهرام، العدد(40846)، 6 تشرين الأول 1998.
- 34 - جريدة الأهرام، العدد(40847)، 7 تشرين الأول 1998.
- 35 - يوسف إبراهيم العيسى، السياسة الخارجية السورية والانفتاح على الغرب بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، أطروحة الدكتوراه غير منشورة، قدمت إلى كلية العلوم السياسية والإدارية والدبلوماسية، الجامعة الإسلامية في لبنان، (بيروت، 2008)، ص254.
- 36 - جريدة الأهرام، العدد(40848)، 8 تشرين الأول 1998.
- 37 - جريدة الأهرام، العدد(40849)، 9 تشرين الأول 1998.
- 38 - جريدة الأهرام، العدد(40850)، 10 تشرين الأول 1998.
- 39 - نقلاً عن: جريدة الأهرام، العدد(40851)، 11 تشرين الأول 1998.
- 40 - مجلة المشاهد السياسي "القاهرة تسعى إلى تسوية الحد الأدنى بين القاهرة ودمشق " العدد(137)، 25. 31 تشرين الأول، ص15.
- 41 - جريدة الأهرام، العدد(40860)، 20 تشرين الأول 1998.
- 42 - خليل علي مراد، المصدر السابق، ص81.
- 43 - Mahmut Bali Aykan, The Turkish-Syrian crisis of October 1998, **Middle East Policy** 6.4 (Jun 1999),p. 174.
- 44 - جريدة الأهرام، العدد(40873)، 2 تشرين الثاني 1998.
- 45 - ينظر نص بيان وزراء خارجية دول إعلان دمشق في 12 تشرين الثاني 1998، في مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 10، العدد 37 (شتاء 1999)، ص 219 .
- 46 - بام اوتول، كريس موريس "أوجلان ضحية صفقة مشبوهة تهدد أحلام الأكراد بدولة كبرى " مجلة المشاهد السياسي، العدد(142)، 29 تشرين الثاني 1998، ص 21. 18 .
- 47 - مجلة المشاهد السياسي "اختفاء أوجلان" العدد(150)، 24. 30 كانون الثاني 1999، ص5.
- 48 - مجلة الحوادث "السي إيه إيه والموساد فخختا الاستخبارات اليونانية بالاختراقات" العدد(2209)، 5 آذار 1999، ص 18.

اغتراب الشخصية عامل للهجرة غير الشرعية

مريم خير الدين غابري
أستاذة فلسفة
جامعة تونس

مقدمة :

مما لا شك فيه أن موضوع الهجرة غير الشرعية أخذ مكانا بارزا في اهتمامات الرأي العام المحلي والعالمي على حد سواء، وتكمن خطورة هذا الفعل كونه يعد ثقافة تدميرية للذات وللمجتمع، وتلك هي الحقيقة التي يستند عليها المشرع في كل الثقافات لإعداد القانون المجرم لهذا الفعل.

إن المشكلة في مجتمعات المغرب العربي على غرار المجتمعات الأخرى اتخذت بعدا مأساويا منذ انتشار ما يسمى بـ "الحرقان" في اللهجة التونسية و"الحرقة" في اللهجة الجزائرية، وهذا المفهوم حديث العهد بالثقافة في المنطقة المغاربية، وهو يعكس إلى حد بعيد أزمة الاغتراب التي تعاني منها الثقافة المغاربية في أبعادها المختلفة.

أولا : مفاهيم الدراسة

أ- الشخصية :

يصعب تعريف الشخصية تعريفا جامعاً مانعاً، وفي عام 1937 قام "جوردن ألبورت" Gordon Allport، ضمن جهد توضيحي بإحصاء خمسين تعريفا للشخصية، وخلص إلى القول بأن "الشخصية هي تنظيم دينامي لوضعيات نفسية فيزيائية تحقق للفرد تكييفية مع الوسط الاجتماعي" ويخلص من هذا التعريف أن الشخصية ليست كيانا ماديا فحسب، بل هي بناء متناسق من التصورات والأحاسيس الروحية والمشاعر والاتجاهات النفسية⁽¹⁾.

ويطرح "أحمد زكي" تعريفا للشخصية بأنها : "نظام متكامل من الخصائص الجسمية والوجدانية والإدراكية التي تبنى على أساسها هوية الفرد وتميزه عن غيره من الأفراد تميزا ظاهرا"⁽²⁾.

ويعرفها "جان ديبو" Jean Dubois بأنها : "مجموعة العناصر التي تشكل السلوك وردود أفعال للأشخاص إزاء المواقف الحياتية"⁽³⁾.

فالشخصية هي بناء متكامل من العناصر الروحية والمادية التي تجعل شخص ما ينفرد بخصائص نفسية، ثقافية، بيولوجية، فكرية، وعقلية تميزه عما سواه وتجعله يشعر بالاستقلالية وبالانتماء إلى الثقافة التي عاش فيها وكل نظمها.

ب- الاغتراب :

الاغتراب مفهوم يضرب بجذوره في أعماق الجذور الإنساني، لذا يحتل المكانة الخاصة في الفلسفة القديمة والمعاصرة.

ويمكن فهم الاغتراب في فلسفة "ديكارت" في عدة أبعاد ⁽⁴⁾ :

- الاغتراب الميتافيزيقي حيث اغتراب الأنا عن الذات.
- الاغتراب الأنطولوجي ويفيد استرداد الحياة إلى آلية الأرواح الحيوانية.
- الاغتراب الوجودي، حيث تعيش الذات تجربة الانفعال في نطاق "الأنا أفكر" الديكارتية "أنا أفكر إذن أنا موجود".

والاغتراب في معناه العام يعني الانسلاخ عن المجتمع، وقد استخدمه الفيلسوف الفرنسي "جان جاك روسو" بمعنى تحول الإنسان إلى عبد للمؤسسات الاجتماعية والأنماط السلوكية التي أنتجها، وذلك في سياق تطور التاريخ الإنساني.

ويتضمن مفهوم الاغتراب معاني عديدة منها : اللاوعي، اللاانتماء، الهامشية، السلبية والبيعية، ويحدد "مولفان سومان" خمسة أبعاد أساسية لمفهوم الاغتراب هي : الحرمان من السلطة، غياب معنى الحياة، غياب المعايير، غياب القيم وإحساس بالغربة عن الذات ⁽⁵⁾.

ويبدو أن التصور الذي يقترحه الفيلسوف "شاخ" يعتبر أكثر التصورات قبولاً، وهو يرى أن هناك خمسة أبعاد أساسية للاغتراب هي : انعدام القوة، فقدان المعنى، فقدان المعايير، العزلة الاجتماعية، غربة الذات، ولهذه الأبعاد الخمسة انعكاسات وآثار على الشخصية الإنسانية في جوانبها الفردية والاجتماعية ⁽⁶⁾.

ومن هذا المنطلق فإن مفهوم الاغتراب في الشخصية يتحدد بالأبعاد التالية ⁽⁷⁾ :

- حالات عدم التكيف النفسي التي تعانيها الشخصية : عدم الثقة بالنفس، القلق المستمر، الإرهاب الاجتماعي، المخاوف المرضية.
- غياب الإحساس بالتكامل والتماسك الداخلي للشخصية.
- حالات ديمومة العقد النفسية التي تعترى الشخصية : عقدة أوديب، عقدة الخصاء عقدة النقص، عقدة الاضطهاد.

- ضعف أحاسيس الشعور بالهوية : الشعور بالانتماء، الشعور بالجهد المركزي، الشعور بالحب، الثقة بالنفس، الشعور بالمكانة، غياب الإحساس بالأمن.

هذا وقد تعددت الاتجاهات النظرية في تعاملها مع مفهوم الاغتراب :

فالنظرية الماركسية تعرضت للمفهوم في ضوء الصراع بين الطبقات، وتقسيم العمل وتناولت النظرية البنائية الوظيفية المفهوم في ضوء الصراع القيمي وتعدد العلاقات الاجتماعية وسيادة البيروقراطية، والاعتماد على الآلة، أما نظرية العلاقات الإنسانية فقد تناولت المفهوم من المنظور الاجتماعي النفسي، حيث ركزت كل الأبعاد النفسية لاغتراب الفرد، ومن مظاهرها العزلة عن الآخرين وعن المجتمع ككل⁽⁸⁾.

وإذا كان البحث في الاغتراب يفرض ضرورة استثمار نتائج المعرفة العلمية في تنمية المجتمع سعياً لتحقيق المساواة الاجتماعية، فإن الدراسة هنا يقصد بها رصد وتحليل العوامل التي تؤدي إلى الاغتراب المفضي إلى ممارسة الهجرة غير الشرعية، ولما كانت هذه المسألة تتعدى حدود الباحث الواحد والبحث الواحد، كونها تتسم بطابع الشمول فإن هذه المقالة تكتفي بالإشارة لأبرز العوامل المرتبطة بالثقافة المعاصرة.

ج- الهجرة غير الشرعية :

يصعب تأكيد وجود تعريف واضح ومحدد للهجرة غير الشرعية، ويمكن الإشارة إلى :
تعريف "تابونز" الذي يشير إلى الحالات الثمانية المفسرة للهجرة غير الشرعية هي⁽⁹⁾ :

- 1- الدخول الشرعي والإقامة الشرعية لكن العمل غير الشرعي.
- 2- الدخول الشرعي ولكن الإقامة غير شرعية والعمل غير شرعي.
- 3- الدخول الشرعي ولا يوجد عمل ولكن الإقامة غير شرعية.
- 4- الدخول غير شرعي والإقامة مشروعة ولكن العمل غير شرعي.
- 5- الدخول غير شرعي والإقامة غير شرعية والعمل غير شرعي.
- 6- الدخول غير شرعي والإقامة غير شرعية ولا يوجد عمل.
- 7- الدخول الشرعي والإقامة الشرعية ولكن بلا عمل.
- 8- الدخول غير الشرعي والإقامة مشروعة ولكن بلا عمل.

وتأخذ الهجرة غير الشرعية أنماطاً متعددة، يمكن الإشارة إلى :

- الدخول غير القانوني إلى دولة أجنبية دون وثائق سفر أو ترخيص مسبق، ويتم الدخول عبر الحدود سرّيا أي عبر منافذ نقاط التهريب بكل أشكاله.
- الدخول إلى دولة أجنبية باستخدام وثائق مزورة.
- الخروج عن الوضع القانوني، ويخض المهاجرين الذين استفادوا من وضع قانوني يسمح لهم بالدخول إلى دولة أجنبية، ولكن الوضع تقادم وأصبحوا في وضعية الإقامة غير الشرعية.

ويستخدم "Frant" عدة مصطلحات للإشارة إلى الهجرة غير الشرعية ومنها : الهجرة غير النظامية، الهجرة غير الشرعية، الهجرة غير الموثقة، الهجرة غير المصرح بها رسمياً⁽¹⁰⁾، ويحدد البعض مفهوم الهجرة غير الشرعية من وجهة نظر الدول المتلقية والدول المرسلة : فمن وجهة نظر الدول المتلقية تمثل الهجرة غير الشرعية دخولا غير شرعي، والإقامة أو العمل في دول معينة غير شرعي.

أما من حيث الدول المرسلة فإن غير الشرعية ينظر إليها من حيث الحالات التي من خلالها يعبر الشخص الحدود الدولية بدون جواز سفر صالح أو وثيقة سفر أو لم يملأ المتطلبات الإدارية لمغادرة الدولة. ويوجد اتجاه يقيد استخدام مصطلح "الهجرة غير الشرعية" على حالات تهريب المهاجرين وتشير دراسة إلى أنه في ظل ظروف الأزمات الاقتصادية المتلاحقة تنشط حركة تهريب الأشخاص الذين يبحثون عن فرص عمل لتحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وتقوم بالتهريب البشري عصابات الثراء غير المشروع والفاحش التي تحسن الاصطياد في الماء العكر بالأزمات الاقتصادية والحروب والكوارث التي تصيب المجتمعات الفقيرة وبعض الدول النامية⁽¹¹⁾. وتشير دراسة "تميم" إلى أن أرباح تجارة تهريب البشر إلى أوروبا تقدر بنحو خمسة مليارات دولار سنوياً، يذهب نصفها تقريباً لصالح مافيا السلاح والإرهاب⁽¹²⁾.

ثانياً : من الاغتراب إلى سلوك للهجرة غير الشرعية حالة المغرب العربي :

وهنا يمكن طرح سؤال جوهري : لماذا تعاني الشخصية المغاربية من الاغتراب المفضي إلى كل أشكال الانحراف الجنائي ؟ ها يعاني الإنسان المغاربي من فكر مشوش، ممزق ومن ثقافة مشوهة ؟

عاشت الشخصية المغاربية بصورة عامة إكراهات شروط الحياة في الجوانب الثقافية الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية والتاريخية : فقر، أنظمة سياسة مستبدية، استعمار بغيض مؤسسات مالية عالمية مهيمنة، جماعات متطرفة، العنف المسلح وكل أشكال القهر والموت والخراب التي ظهرت وتظهر في ظل الثقافة المعاصرة تلك هي الحقيقة التي يحياها الإنسان في الوطن العربي عامة.

إن عوامل الشخصية المغاربية وأسبابها متعددة، ويمكن القول أن هذه الشخصية تعيش حالة أزمة دائمة وحقيقية، وهو ما أدى إلى وجود شخصيات إنسانية غير واثقة من نفسها، توجه عدوانها نحو ذاتها، وما الهجرة غير الشرعية إلا مظهرها من المظاهر المأساوية التي تقتل المشاعر الإنسانية النبيلة. وعلى هذا فإن

سلوك الهجرة غير الشرعية الذي يتجه نحو الارتقاء في المجهول دون أي إحساس بالذنب أو العواقب أو الضمير يصدر عن أشخاص فقدوا روح الانتماء للثقافة الأصلية وحبهم لها، وهم بذلك يفجرون مكبوتات القهر والمعانات والألم الصاعق بالعدوان على الذات وتدميرها بعيدا عن مراقبة المجتمع.

لقد شهدت دول المغرب العربي، منذ العقد الأخير من نهاية القرن العشرين تزايدا في أعداد المهاجرين الذين يحاولون عبور البحر الأبيض المتوسط، ما عرض جلهم إلى أخطار جمة ولا يمر الشهر دون سماع أخبار بالفاجعات التي تقع عن غرق قوارب، وجثث تلقيها المياه على الشواطئ، وأخبار عن أشخاص نجوا من ويلات البحر ليقعوا في قبضة جماعات متطرفة فرضت عليهما القيام بمهمات "قدرة" ... إذ يلاحظ أن بعض المهاجرين الذين يعبرون منطقة البحر الأبيض المتوسط، هم ضحايا الاتجار بالبشر، وبعضهم من النساء والأطفال الذين يقعون ضحايا للاستغلال وإساءة المعاملة مدى الحياة لمن وصلوا إلى البر بأمان.

وتعد دول المغرب العربي من المعابر الرئيسية للهجرة غير الشرعية إلى معظم دول أوروبا الغربية. وبناء على تقارير مجلس الوحدة الاقتصادية التابع لجامعة الدولة العربية، فإن نسبة البطالة تتزايد سنويا في الدول العربية بمعدل 3%، حيث تبلغ 13.7% في الجزائر، 15% في تونس 12% في المغرب، وقد أشار تقرير التنمية البشرية للدول العربية لعام 2014، إلى أن عدد المغاربة الذين يعيشون تحت خط الفقر يبلغ 6 ملايين شخص يمثلون نحو 19% من إجمالي للسكان وقد أصبح من الأولويات القصوى لدول المغرب العربي المشاركة في الاستراتيجيات الرامية إلى حصد الهجرة غير الشرعية ومكافحتها، فقد وضعت المملكة المغربية في عام 2003 قانونا جديدا ينص على عقوبة السجن، ضد كل من يتورط في فعل الهجرة غير الشرعية، واستفادت المغرب من مساعدات مالية من الاتحاد الأوروبي، للسيطرة على الظاهرة، وتعزيز أمن حدودها، واتخاذ إجراءات صارمة ضد تهريب البشر، وتحسين الإطار القضائي.

وسارعت الجزائر كذلك إلى وإرساء معالم كل الأطر القانونية والتنموية التي تعالج الظاهرة وتصددها : تشريع جزائي، حملات توعية والمساجد والمؤسسات التعليمية، إنشاء جمعيات لمرافقة الشباب، قروض لإنشاء مؤسسات صغيرة...

وأقر المشرع التونسي قانونا خاصا بجوازات السفر ويهدف إلى محاربة ظاهرة الهجرة غير الشرعية : ويحدد هذا القانون فئتين من الأشخاص المتورطين في جرائم الهجرة غير الشرعية :

- الفاعلين الأصليين الذين يمارسون الأفعال المشكلة لأركان الجريمة : الهجرة غير الشرعية، التهريب...

- المشاركين، وهو الأشخاص الذين يسهمون في وقوع الجريمة. يعاقب المشرع التونسي الأشخاص الذين تورطوا في جريمة الهجرة غير الشرعية بالسجن لمدة تتراوح ما بين 3 أشهر و20 عام،

وبغرامات مالية تصل إلى نحو 100 ألف دينار تونسي، مع وضع المجرمين قيد المراقبة الإدارية أو منهم من الإقامة في أماكن محددة إذا ذلك يساعدهم في مباشرة الجريمة.

وفي المقابل، يستفيد الأشخاص الذين انخرطوا في تنظيم عمليات الهجرة غير الشرعية من البراءة، بشرط قيام هؤلاء الأشخاص بإعلام للسلطة بوجود "المخطط الإجرامي" أو مدها بمعلومات تسهم في إحباط المخطط والقبض على أصحابه.

هذا وترفض جل المنظمات الحقوقية والمجتمع المدني بدول المغرب العربي الحلول الأمنية لمحاربة الظاهرة، وتطالب باعتماد رؤية تنموية متكاملة الأبعاد، تحد من العلاقات الاجتماعية المتفككة، الفقر، الاستبعاد، التسلط المؤسسات، العولمة المتوحشة، وهي المظاهر التي تعد الأسباب الحقيقية للهجرة غير الشرعية.

ثالثا : مظاهر الاغتراب الاجتماعي في شخصية المهاجر غير الشرعي :

لا تختلف سمات الشخصية في المجتمعات المغاربية عن النموذج السائد في المنطقة العربية حيث تظهر المعاناة من عدة إكراهات نفسية واجتماعية وثقافية وتاريخية، وهي الاكراهات التي تمكن في أصل اغتراب الفرد ووقوعه في قبضته للهجرة غير الشرعية، وقد رصد "فوائد زكرياء" سمات قائمة التصقت بالشخصية العربية، قوامها : الخداع، النفاق، اللامسؤولية، الخضوع الاستسلام، الخوف، العيش في الأحلام، الخجل، القلق⁽¹³⁾.

انطلاقا من هذه المعطيات، تمت مراجعة مجموعة من الدراسات التي أجريت في منطقة المغرب العربي حول دواعي الهجرة غير الشرعية، ويظهر أن المهاجرين غير الشرعيين من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين 22 سنة و35 سنة، يعانون في ظل الثقافة المعاصرة أزمة متعددة الأبعاد (اجتماعية، ثقافية، سياسية، اقتصادية، دينية...) ولعل أبرز خلفيات مظاهرها :

أ- التسلط التربوي :

تفيد الدراسات، أن للطفل العربي، يعيش في فضاء أسري يجسد إلى حد كبير التطرف واعتباط السلطة الأبوية⁽¹⁴⁾، ويصف "هشام شرابي" في كتابه "مقدمات لدراسة المجتمع العربي" أشكال العنف والقهر التي يعاني منها الطفل العربي، ويشير إلى أن وسائل التنشئة الاجتماعية في الثقافة العربية تتمثل على وجه الخصوص في العقاب الجسدي والاستهزاء والقمع والتشهير، وكل هذه الممارسات تؤدي إلى عقد العار والشعور بالنقص والدونية⁽¹⁵⁾، وفي هذا الصدد يقول "خلدون نقيب" أن الأزمة الثقافية في الوطن العربي تكمن في الشكل التربوي : أن العنف ينتقل إلى المؤسسات التعليمية التي تعيد إنتاج عناصره، والنظم

التربوية العربية تسعى إلى فرض الانصياع بهدف المحافظة على الوضع القائم بدلا من تعليم سلوك الحرية في اكتساب المعرفة والعلم⁽¹⁶⁾، لقد تبين من نتائج الدراسات التي أجريت حول أبعاد الهجرة غير الشرعي في المجتمع الجزائري، أن المهاجرين غير الشرعيين مورست ضدهم أشكالاً متعددة من القهر النفسي والجسدي⁽¹⁷⁾.

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن ممارسة سلوك الهجرة غير الشرعية دون أي إحساس بتبعات هذا السلوك غير المحمود العواقب، يصدر عن أشخاص فقدوا الشعور بالانتماء الأسري وهم بذلك يفجرون مكبوتات التسلط التربوي.

لقد بينت الأبحاث الأنثروبولوجيا، حول التنشئة الاجتماعية عند بعض قبائل الميلاينزيا في جنوب شرق آسيا، أهمية أساليب التنشئة ومدى تأثيرها في بناء شخصيات عدوانية أو متسامحة⁽¹⁸⁾ وتبين نتائج الدراسات التي أجرتها الباحثة الأنثروبولوجيا الأمريكية (مارغيت ميد) في بعض القبائل في غينيا الجديدة، الاختلاف الواضح بين سمات الشخصية القاعدية بالقبائل المجاورة : ففي قبيلة "دأرابش" التي يعرف أهلها بالوداعة والمسالمة والرفقة، يتميز الرجال والنساء بسمات للرفقة والنعمية والوداعة والطيبة، وهذا على خلاف الحال في قبيلة "موند وغومور" التي يعرف رجالها ونسائها الشدة والعدوانية وقساوة القلب.

وأرجعت "مارغيت ميد" الاختلاف الواضح بين سمات الشخصية القاعدية في القبائل المتجاورة إلى التسلط التربوي : ففي قبيلة "الأرابش" ينظر للأهالي إلى الطفل على أنه كله خير يستحق كل أشكال الرعاية والحب والحرية... أما الطفل في قبيلة "الموند وغومور" فيربى على قيم العدوانية والتسلط حيث يتم فطامه فجأة ولا يسمح له بالرضاعة إلا لفترة قصيرة، والأمهات يرضعن أطفالهن وقوفا⁽¹⁹⁾، إن حياة الأطفال في قبيلة "الموند وغومور" مشحونة بالعنف والقهر والعناء، ولحظات الرضاعة هي لحظات بؤس وشقاء وفي مثل هذه الممارسات تكمن الشخصية المثقلة بالاستلاب والعقد النفسية والمكونة للتطرف والعدوان ضد الذات وضد المجتمع وما الهجرة غير الشرعية الأشكال من أشكال هذا الوضع للمتأزم.

ب- العلاقات الاجتماعية الجافة :

إن المجتمعات المغاربية أضحت ممزقة بين عدة اتجاهات وما نتج عن ذلك من تشتت في الهوية الاجتماعية والثقافية، ولذلك تظهر العلاقات الاجتماعية متفككة بسبب الجفاء والازدواجية في التعامل وفقدان الثقة والشعور بالخوف وغيرها من أنساق المخاوف والمخاطر التي تحاصر الإنسان المغاربي خاصة أمام :

- تنامي الظاهرة الإجرامية العابرة للحدود بكل أشكالها.

- اندثار القيم العربية مثل صلة الرحم، المشاركة في المناسبات الدينية والوطنية، التضامن السخي... إلخ.

- تنامي الشعور بالقلق والخوف من المستقبل من كثرة الفتن المتعددة الأبعاد.

- الشرور والأنماط الثقافية المستجدة التي تفرضها العولمة المتوحشة وغيرها من الإكراهات الدخيلة على منظومة القيم والتراث المغربي العريق.

وبالنتيجة يمكن القول أن أسلوب العلاقات الاجتماعية المشوهة والمبتورة توجد في أصل اغتراب شخصية المهاجر غير الشرعي إن الإنسان في ظل الثقافة المعاصرة أصبح منفصلا انفصالا حادا، عن الطبيعة وعن المجتمع وحتى عن نفسه وأفعاله، وبالتالي أصبح مغتربا، غير قادر على التفكير السليم والعمل الجاد⁽²⁰⁾، وهذا ما يفسر وقوع هؤلاء الشباب في براثن الهجرة غير الشرعية.

ج- المشكلات المجتمعية المستعصية :

المتتبع للحياة اليومية في المجتمعات العربية، يلاحظ أن المواطن أصبح محاصرا بنسق من المخاوف والاضطرابات الاجتماعية المختلفة... وفي أصل كل خوف تكمن المخاطر والمشاعر المكبوتة، التي تمنع التواصل والتفاعل الاجتماعيين على جميع المستويات : في الحي، في أماكن العمل، وحتى في دور العبادة. هذه التراكمات أوقعت المجتمعات العربية في مشكلات بنائية هدامة، متنوعة ومتعددة في مضامينها وأبعادها الثقافية، ولعل في طليعتها الانفعالات الشخصية المصحوبة بالعنف والسلوك البغيض، وما السلوك البغيض الموجه من شخص ضد شخص آخر إلا تعبير ظاهرا عن الشحنة والعداوة التي نشأت بين أفراد المجتمع الواحد، أن الفوضى والعشوائية ممارسات بارزة في الحياة اليومية بالمجتمعات العربية، وهذه الحالة كافية لتشحن الشخصية بالضعف والسلبية وغير ذلك من السمات التي تؤدي إلى الاغتراب المفنى للهجرة غير الشرعية.

ج- الاستبعاد الاجتماعي :

يصف "ماكس فيبر" الاستبعاد الاجتماعي بمظهر من مظاهر الانغلاق الاجتماعي والذي يفيد بأنه سلوك تمارسه جماعة معينة بهدف تأمين وضع خاص بها على حساب جماعة أو جماعات أخرى، ويظهر ذلك جليا من خلال عمليات الهيمنة والسيطرة والإخضاع...

والملاحظ أن المصطلح ظهر حديثا واستعمل في فرنسا للإشارة إلى الأشخاص الذين يتم استبعادهم من قبل الدولة، وفي أمريكا يختص مصطلح "الاستبعاد الاجتماعي" بجماعات "Gueto" وهم يمثلون الطبقات الدنيا المهمشة والأقليات اللاتينية التي تعيش في الأحياء الهامشية، أما في بريطانيا فإن المفهوم يشير إلى أربعة عوامل هي : عدم التمكن من استهلاك السلع والخدمات، عدم وجود فرص فعلية للمساهمة

في أنشطة ذات قيمة اقتصادية واجتماعية نقص المشاركة في صنع القرار، ضعف التفاعل الاجتماعي مع الثقافة المحلية.

ويبدو أن المجتمعات العربية تعاني منذ عقود طويلة من أشكال متعددة للاستبعاد الاجتماعي، وإن كانت طبيعة هذا الاستبعاد وأبعاده تختلف من منطقة عربية إلى أخرى باختلاف أبعاد الظاهرة ومتغيراتها : فالاستبعاد من المشاركة الشعبية في إدارة الشأن العام والخوف من الآخر ورفضه، وتفسخ علاقات السلطة، واندثار قيم الحكم الرشيد، وخضوع الممارسات السياسية لتنازع أصحاب سلطة المال، والتخلي عن القيم الباعثة للأمل والحاجة عن الأمن والسلم والتنمية والتضامن الاجتماعي... مظاهر تدل هلى أن الثقافة العربية تعاني أزمة عميقة⁽²¹⁾.

ففي دراسته حول "الشخصية العربية بين صور الذات ومفهوم الآخر" يشير "السيد يسين" إلى أن جسامه الصدمة التي حلت بالثقافة العربية ترجع إلى عوامل عديدة منها :

- تضخيم صورة الذات نتيجة الأوهام التي زرعت في أذهان الجماهير العربية.
- السياسات الدعائية والتي كان وراءها طبقة مثقفة من العرب تفتقر إلى بعد النظر.
- خيبة الأمل الجسيمة التي أصابت الجماهير العربية بسبب فشل السلطة الحاكمة ومنظمات جماهيرية مزيفة مع إقصاء المشاركة الشعبية المنظمة وقهر أصوات الجماهير في ظل نظم سياسة هشّة رفعت شعار الليبرالية والتعددية السياسية الشكلية⁽²²⁾.

ويشخص "برهان غليون" المأزق العربي بتركيزه على الأسباب الداخلية للأزمة الثقافية العربية ومنها⁽²³⁾ :

- الانتشار السوقي للممارسات التي تكرس الطائفية والتمييز من أجل إعادة توزيع عناصر الثروة والمواقع الاجتماعية والسياسية الحساسة.
- زوال العام وصعود الخاص إلى مقدمة المسرح الاجتماعي.

أما "هشام شرابي" فإنه يربط أزمة الثقافة العربية بالتخلف الذي يعانيه المجتمع العربي، وأصل هذا التخلف "الأبوية المستحدثة" ومن مظاهرها : التراجعات المستمرة، الانكسارات المتكررة، التناقضات والصراعات الداخلية، الحلم الزائد، نظام سياسي يتسع لأصحاب الثراء الفاحش وذوي النفوذ والسلطة وبالمقابل يهشم الآخر ويدفعه نحو الاغتراب والاستبعاد الاجتماعيين⁽²⁴⁾.

هـ- مآسي العولمة :

الواقع أن المجتمعات العربية انخرطت في التوسع العالمي للرأسمالية دون أن تعمل حسابا كبيرا لمدى جاهزيتها لهذه المغامرة، يذكر "جوزيف ستيفليتز" أنه كان شاهدا على معظم الأحداث الاقتصادية في العقد الأخير من القرن العشرين، ورأى باستمرار صانعي السياسات يلجئون إلى النماذج الاقتصادية التي تخدم أهداف "أمريكا" واكتشف لدى مؤسسات العولمة الكبرى، رغبة مدمرة في السرية⁽²⁵⁾.
إن الفلسفة التي تركز عليها أمريكا التعميم سياسات حققت نتائج كارثية على الدول العربية تجسدت على وجه الخصوص في :

- ارتفاع نسبة البطالة في المجتمعات العربية.
- انخفاض عوائد العمل وتفكك المؤسسات الاقتصادية المحلية.
- الانحراف عن مسار التنمية المستدامة والحكم الرشيد.
- التطرف في ممارسة الحرية والديمقراطية والمساواة والفاعلية الاقتصادية.
- بروز الثراء الفاحش الذي يخدم كل أشكال الجريمة المنظمة : طبقة واحدة تهيمن على كل المشروعات - طبقة بورجوازية فوق العادة تفرض نفسها على المجتمع.

خلاصة :

حاولت في الصفحات السابقة تبين أثر الاغتراب في الهجرة غير الشرعية مع الحديث عن العوامل البارزة في مجتمعات المغرب العربي...

إذن ما المطلوب لتجاوز أزمة الاغتراب المفضي إلى الهجرة غير الشرعية ؟
أعتقد أن الحل يكمن في :

- ردم الهوة بين التنظير والممارسة على جميع المستويات.
- الانخراط في عالم اليوم، عالم بناء الحضارة والثقافة الإنسانية المشتركة والعلم والمعرفة الإبداعية.
- ترشيد للخطاب (الاجتماعي، السياسي، الثقافي، الأمني...) في المجتمع وإضفاء البعد الإنساني في السياسات المنتهجة مع إحداث قطيعة مع الذات المفترطة في كل أبعادها وعلى جميع المستويات.
- بناء الاقتدار المعرفي وإرساء دعائمه : ثقافة الإنجاز والإبداع، الصحة النفسية، الانتماء وحصانة الهوية والشخصية المغاربية، الحصانة القيمية والكفاءة في التواصل والحوار الاجتماعيين.

وفي هذا الإطار لابد من تجديد الاهتمام المشترك بين الباحثين في دول المغرب العربي، والمؤسسات البحثية، والتوجه بإصرار قوي نحو المستقبل بالبحث في كل الأفعال غير السوية التي تنخر جسد الأمة في هذه المجتمعات والبحث عن علاجها من خلال الاقتدار المعرفي.

إن ظروف الحياة في ظل الثقافة المعاصرة غير مسبقة في شدتها ووطأتها، فالفساد مستشري وأسياد الجريمة منتشرون، والاستسلام لهذا الوضع ينذر بمزيد من الخراب والدمار للثقافة المغاربية المشتركة ومزيداً من التضحيات والضحايا الأبرياء، فضلاً عن المساس بالعلاقات المشتركة بين شعوب المنطقة ومن تم النيل من مقومات الانتماء والمصير المشترك...

الإحالات والهوامش :

- ¹- على وطفة " المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، بحث في إشكالية القمع التربوي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم الفكر، المجلد 27، العدد الثاني، 1998، ص 241 - 280.
- ²- أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت، مكتبة لبنان، ص 211.
- ³- jeu Dubois : Dicrionnaire francais contemporain : lorouse, Paris, 1989, P 3.
- ⁴- محمد خضر عبد المختار : الاغتراب والتطرف نحو العنف، دراسة نفسية اجتماعية، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع 1999، ص 23 - 24.
- ⁵- madelaine Grawitz : lexique des dcienes sociales, dalloz, paris, P 12.
- ⁶- شاخت ريتشارد : الاغتراب ترجمة كامل يوسف حسني، القاهرة، دار شرقيات، 1995، ص 12.
- ⁷- علي وطفة : المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، مرجع سابق، ص 247 - 248.
- ⁸- خالد أحمد الشلال : الاغتراب الأسري وأثره في تنمية أفراد الأسرة الكويتية، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت العدد 28، 2007، ص 19.
- ⁹- محمد سعيد عبد المجيد، وجدي شفيق عبد اللطيف : العولمة والهجرة غير الشرعية في المجتمع الريفي - دراسة ميدانية، الكويت حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، العدد 32، 2011، ص 20.
- ¹⁰- محمد سعيد عبد المرجع : مرجع سابق، ص 21 - 22.
- ¹¹- عمر معن خليل : الآثار الاجتماعية لظاهرة تهريب المهاجرين غير الشرعيين، الملتقى الدولي حول : "أثر تهريب المهاجرين غير الشرعيين" قسم البرامج التدريبية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، السعودية، 2004، ص 5.
- ¹²- عثمان الحسن، ياسر عوض : الهجرة غير المشروعة والجريمة، الرياض جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2008، ص 20.
- ¹³- علي وطفة : مرجع سابق، ص 253.
- ¹⁴- مصطفى حجازي : التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور، بيروت، معهد الأنماء العربي، ط 9، 1989، ص 82.
- ¹⁵- هشام شرابي : مقدمات لدراسة المجتمع العربي، بيروت، دار الطليعة، ط 4، 1991، ص 31 - 83.
- ¹⁶- خلدون حسن النقيب : الشكل التربوي والثورة الصامتة، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة، المستقبل العربي، عدد 174، 1993، ص ص 67 - 86.
- ¹⁷- محمد رمضان، أبعاد الهجرة غير الشرعية في المجتمع الجزائري، مشروع بحث في إطار المخطط الوطني للبحث، 2013 - 2014، ص 176.
- ¹⁸- علي وطفة، مرجع سابق، ص 251 - 253.
- ¹⁹- علي وطفة : مرجع سابق، ص 255.

- ⁻²⁰ محمد خضر عبد المختار : الاغتراب والتطرف نحو العنف، دراسة نفسية اجتماعية، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر، 1999 ص 11.
- ⁻²¹ للتوسع يرجع إلى : السيد يسين : الشخصية العربية بين صور الذات ومفهوم الآخر، بيروت، دار التنوير، ط 3، 1983.
- ⁻²² للتوسع يرجع إلى : السيد يسني : الخريطة المعرفية للمجتمع العالمي، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 2008، ص 16 - 18.
- ⁻²³ برهان غليون : اغتيال العقل بين السلفية والتبعية، دار التنوير، 1985، ص 6 - 9.
- ⁻²⁴ هشام شرابي : النظام الأبوي واشكاليته خلف المجتمع العربي، الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط 4، ب ت، ص 22 - 73.
- ⁻²⁵ للتوسع ينظر : جوزيف إ. ستيعليتز : خيبات العولمة، ترجمة ميشال كرم، بيروت، دار الغارابي، ط 1، 2003.

أشكال التسيير بين المرجعية الثقافية التقليدية والتوجه الحداثي في المؤسسة الصناعية الجزائرية

بوريش محمد

طالب دكتوراه علم الاجتماع التنمية لبشرية

جامعة ابي بكر بلقايد - تلمسان -

المقدمة :

تعتبر المؤسسة الصناعية حقلا مهما للدراسة السوسيولوجية وميدانا هاما للملاحظة ممارسات وسلوكات الفاعلين الاجتماعيين داخل هذا النسق الاجتماعي أين يحاولون فيه تحقيق أهدافهم واستراتيجياتهم، هذا ما يجعل المؤسسة تحرص دوما على ضبط سلوكياتهم وأفعالهم وتوجيهها بطرق واساليب تسييرية حديثة تعكس مستوى الثقافة التنظيمية التي تتميز بها.

لقد أظهرت العديد من الأدبيات السوسيولوجية المتعلقة بالمؤسسة الصناعية، ولا سيما الجزائرية منها، بأن البيئة الاجتماعية وما يسود فيها من قيم ومعايير سلوكية لا زالت تؤثر بقوة في بلورة المنظومة التسييرية، بالرغم من اجتياز المجتمع الجزائري لفترة التحول وانخراطه في عملية التحديث.

يندرج تناولنا لموضوع أشكال التسيير في المؤسسة الصناعية الجزائرية ضمن الأدبيات المختلفة التي حاولت مقارنة الموضوع في ظل إشكالية التقاليد والحداثة في مشاريع التنمية بالجزائر. نسعى من خلالها هذه المحاولة إلى دراسة وفهم أشكال التسيير السائدة، ومدى تأثير البيئة المجتمعية والعوامل الثقافية المحلية على الممارسة التسييرية في المؤسسة الصناعية و لا سيما في ظل الحراك الاجتماعي الذي يعرفه المجتمع الجزائري، ولقد تركز اهتمامنا على بناء تصورنا حول مسألة تفاعل القيم المجتمعية مع القيم التنظيمية في ظل أشكال تسيير الموارد البشرية ومعرفة التغيرات والتحويلات التي مست الثقافة المجتمعية ومدى تأثيرها على مرجعيات الثقافة التسييرية للإطارات الجزائرية في المؤسسة الصناعية، بحيث اعتمدنا فيها على القراءة السوسيولوجية لبعض الدراسات التي تترجم واقع المؤسسة و تعكس الحقائق الاجتماعية والثقافية للممارسات المشكلة للبنية الذهنية للفاعلين في المنظومة التسييرية.

إن الأمر الذي نود التركيز عليه أساسا في هذا المقال هو معرفة علاقة القيم الثقافية التنظيمية بالقيم الثقافية الاجتماعية وحدود تفاعل وارتباط بعضهما البعض وذلك للإجابة عن التساؤل التالي: هل يمكن للقيم الثقافية التقليدية أن توجه الممارسات التسييرية داخل المؤسسة الصناعية في الجزائر؟

مبدئياً يرتكز تحليلنا على توضيح اشكالية التقاليد والحدثة التي فرضت نفسها على أشكال تسيير الموارد البشرية هذا من جهة، ومن جهة أخرى سنحاول قدر الإمكان تحديد العلاقة الموجودة بين المفهومين من خلال تفاعل القيم التنظيمية والقيم المجتمعية داخل المؤسسة الجزائرية.

1- المؤسسة والمجتمع:

لا تتمثل في الحقيقة ان المؤسسة الحديثة في عالم مغلق من شأنه ان يفرض ثقافة كاملة الاستقلال، بل على العكس فإنها شديدة الارتباط بمحيطها والتأثر به، سواء على الصعيد الاقتصادي أو على الصعيد الاجتماعي والثقافي، الذي يجسد قيمه الثقافية في أشكال التسيير علاوة على المنطق العقلاني الذي تخضع له.

إذ تظل المؤسسة الجزائرية مرتبطة بالمنظومة القيمية للمجتمع الذي تنتمي اليه وبالعادات والتقاليد التي يتقاسمها عمالها وإطاراتها فهي قبل أن تكون مجرد هياكل رسمية فإنها تشكل كيان اجتماعي غير منفصل عن المجتمع الذي تتواجد به، بحيث يمكن القول بأنه توجد علاقة لصيقة بين النظام الاقتصادي والنظام الاجتماعي في بنية المجتمع الجزائري، التي تخضع لمبدأ التفاعل بينهما.

فكما ورد في بعض الدراسات والتحقيقات في الميدان الصناعي إن المجتمع الجزائري لم يتبع نفس المسار الذي سلكته الدول المتقدمة بالرغم من تبنيه لنفس المنهج التنموي وذلك «للانتقال من مجتمع تقليدي الى مجتمع عقلاني ولكن بصفة سريعة "حرق المراحل"»⁽¹⁾. وبقيت الأطر التقليدية هي نفسها المتحكمة في تنظيم العمل داخل المؤسسة وبرزت بشكل كبير مقاومتها لكل ما هو دخيل، ما انعكس تماماً على وضع الثقافة التنظيمية في الجزائر.

2- الثقافة التسييرية:

إن الكثير من المدارس الاقتصادية والاجتماعية أعطت أهمية بالغة وكبرى للتسيير الذي ينسق بين الموارد البشرية والمادية والمالية قصد تحقيق الأهداف المرجوة بطريقة عقلانية. ولقد قدمت في ذلك تعاريف كثيرة للتسيير حسب رأي كل مدرسة ورأي كل عالم، ، وقد مر بعدة مراحل ليكون كما هو عليه الآن، وكان لذلك تأثيراً بالغاً وكبيراً على المؤسسة التي يتوقف نجاحها بطبيعة التسيير .

لذا يفهم تطور المجتمع بمؤسساته أو تخلفه بناء على مدى نجاعة تسييرها ،و التسيير هو فن أنجاز الأشياء من خلال تفعيل الآخرين ، يشير إلى كافة الوظائف التي يجب تأديتها على مستوى المؤسسة ، اذ يتمثل في تحديد و اختيار الأهداف ووضع الوسائل الكفيلة بتحقيقها انطلاقاً من سلطة المسير على اتخاذ

القرارات الملائمة في إطار السياسة التسييرية بالاعتماد على جهاز تنظيمي فعال لضمان نمو واستمرار أي تنظيم.

و يمكن تعريفه على أنه: "عملية ديناميكية تتضمن عدة نشاطات متواصلة و متكاملة كالتخطيط و التنظيم و المراقبة و التوجيه لإعمال الآخرين ، و المسؤولية هي العمل على تنسيق و تعديل و تكامل هذه النشاطات بحيث يحقق الهدف في الوقت المحدد بفعالية"⁽²⁾.

يقودنا هذا التعريف إلى أن الممارسة التسييرية تنتج ثقافة معينة ، تشير إلى المميزات التي يتصف بها التسيير في حدود معينة ، فمستوى تبلور ثقافة مجتمع ما له تأثير مباشر على تبلور ووضوح الثقافة على مستوى المؤسسة في هذا المجتمع أو ذاك ، لأنه لا يمكن فصل هذه الأخيرة عن بيئتها المادية والاجتماعية و ما يسود فيها من قيم ومعايير سلوكية، و هي نسق من أنساق الثقافة التنظيمية ترتبط أساسا بطرق وكيفيات ممارسة العملية التسييرية.

و عليه فقبل تعريف الثقافة التسييرية لا بأس أن نشير إلى كل من مفهومي الثقافة و الثقافة التنظيمية و ذلك لاستخلاص بعض المعاني التي قد تساعدنا على الفهم و التوضيح. تظهر الثقافة التنظيمية من خلال الممارسات التنظيمية و معايير السلوك المرتبطة بها، و اللذان استخلاصا مبادئها من خلال دراسة الممارسات التنظيمية مثلا التوظيف و التكوين و الحوافز و الترقية و نسق الأهداف و العلاقات المهنية.

فيعرفها " شين " بأنها: "مجموع المبادئ الأساسية التي اخترعتها الجماعة أو اكتشفتها أو طورتها أثناء حل مشاكلها للتكيف الخارجي و الاندماج الداخلي و التي أثبتت فعاليتها، و من ثم تعليمها للأعضاء الجدد كأحسن طريقة للشعور بالمشاكل و إدراكها وفهمها."⁽³⁾

إن المبادئ التي أشار إليها " شين " هي احترام البيئة الطبيعية و التفتح على العالم الخارجي و هذه الأخيرة تساعد على التكيف الداخلي و احترام القواعد، فالنظرة إلى الثقافة التنظيمية قد تطورت من مجرد مجموعة من الأحداث و السلوكيات المشتركة بين الفاعلين داخل التنظيم إلى اعتبارها مجموعة من المعارف التي توجه التفكير و الفعل داخل التنظيم.

و بناء على هذا المعنى الأخير للثقافة التنظيمية فإن الثقافة التسييرية مرتبطة أساسا بممارسة العملية التسييرية التي تضم مجموعة من العمليات المنسقة و المتكاملة ، و التي يمكن اعتبارها على أنها مجموعة من المبادئ أو الافتراضات التي يعتمد عليها المسير في ممارسة العملية التسييرية ومعايير السلوك المرتبطة أساسا بادراك الطبيعة الإنسانية ، البعد السلطوي، و الوقت ، و رؤية المستقبل و النظرة للعلاقات الإنسانية⁽⁴⁾.

الثقافة المجتمعية والثقافة الصناعية: أية علاقة؟

إن التحولات التي مست البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري، اثر عملية التحديث، أفرزت بعض التغيرات في عمق منظومته الثقافية وولدت قيما جديدة تعكس الفكر العقلاني ما أجبر بعض المسيرين على التشبع بها من خلال تنشئتهم الاجتماعية داخل المؤسسة الصناعية التي ينتمون إليها محاولين تكييف ثقافتهم التقليدية الموروثة من أسرهم مع هذه القيم الثقافية السائدة في المؤسسة، التي تحث على النزعة الفردية والتحرر من الروابط الأسرية والتركيز على الاستقلالية والمبادرة الشخصية والانجاز. في مقابل ذلك نجد أن واقع المؤسسة الجزائرية يثبت عكس ذلك بحيث أن الممارسات التسييرية لا تشجع المبادرة الفردية وتفضل عدم المخاطرة وتميل إلى الاهتمام بالكم على حساب النوع، بحيث أن التوظيف لا زال يتم على أسس جماعية ورمزية ويخضع للاختيارات السياسية والاجتماعية بدل الخيارات الاقتصادية التي لا تقوم على أساس انتقاء أفضل الأشخاص من أجل شغل الوظيفة، ولا تعتمد على المعايير التي تعتمدها المؤسسات الصناعية الحديثة في التوظيف كمبدأ العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص أمام الجميع، ولا تحبذ أن يكون الاختيار على أساس الجدارة والاستحقاق، والاستعانة بالخبرات السابقة التي يقصد بها مجموع ما يملك الفرد من المعلومات والمهارات والمعارف التي اكتسبها خلال حياته العلمية والتي تمكنه من أداء دوره وعمله داخل المؤسسة بسهولة، ومدى قدرته واستعداده على تحمل مسؤوليته.

فبالنسبة للترقية فإنها مرتبطة بدرجة كبيرة بالأسس التي تقوم عليها عملية التوظيف والانتقاء، وعليه بما أن التوظيف لم يرق فعليا على أسس الكفاءة فإن الترقية بدورها لا تقوم على أساس الكفاءة والاستحقاق والاقدمية على أساس الخبرة لا على أساس الحضور في المؤسسة، فكل هذه العناصر تعتبر كمعايير أساسية في عملية الترقية، بحيث المزج بينها يكون هو الأساس السليم الذي تقوم عليه الترقية.

و من المفروض أن تكون عامل تحفيز يساهم في تدرج العامل في السلم المهني وعنصر من عناصر تنمية الموارد البشرية بالمؤسسة، باعتبارها ضرورة ملحة لضمان تحقيق الأهداف المرسومة، فإننا نجد أنها أي الترقية لازالت تمنح في مجملها وفق معايير ذاتية تدخل فيها الوساطة والقربة والعلاقات الشخصية، مزيحة لعامل الكفاءة، الفعالية والإنجاز التي لا نلمسها إلا في الخطابات والإجراءات التنظيمية الرسمية. هذه العوامل اللاموضوعية هي نفسها التي تعيق نظام التقييم لإنجازات العمال ومساهماتهم وجعله ينحرف عن دوره الأساسي المرتبط بالقيم الصناعية الحديثة، ليصبح بدون جدوى لأن النموذج الجزائري في التسيير تنعدم فيه آليات حقيقية لقياس الأداء والإنجاز التي نتج عنها قيمة سلبية تكرست لدى الأجراء

حتى صاروا لا يتقبلون فكرة التقييم بتاتا و إذا ما تم ذلك و لم يتحصلوا على تقييم جيد فإنهم يرجعونهم إلى التحيز و تصفية الحسابات من منطلق عدم وجود مساواة بينهم.

يرجع عدم التعامل المؤسسة مع منطق الأهداف و انعدام مؤشرات القياس الى الذهنيات الموروثة التي لا زالت قديمة ، بحيث انها ترفض كل ما هو جديد لإحساسها بالقلق و شعورها بعدم الارتياح للمواقف الغامضة أو المخاطرة و عدم التأكد و النفور منها خوفا من التغيير في الوضعيات و الأدوار الاجتماعية اثر سياسة التسريح التي يمكن أن تعتمدها المؤسسة و ما ينجر عنه من فقدان للاستقرار المادي والمعنوي.

نجد أن غالبية الأجراء يحرصون على أداء ما تم تخطيطه من طرف الميسرين و لا مجال للتصرف بانفراد فالمؤسسة لا تشجع على المخاطرة أو التجريب أو الحرية في العمل ، فهي تحرص على القيام بالمهام المقدمة وفق ما تحدده هي ، لذلك نجد أن الأفعال دائما تتكرر و يغلب عليها الروتين و بالتالي تقل فرص التكوين و التعلم و يضيق مجال عدم الثقة في قدرات عمالها و تؤدي إلى الخشية من الوقوع في الخطأ و من الإخفاق و الخوف من تحمل المسؤولية و التعرض للعقوبات.

تنظر المؤسسة في الجزائر تنظر لكفاءاتها كمجرد عمال يربطهم بها عقد عمل بمعنى ان العلاقة القائمة بين هؤلاء و المؤسسة هي علاقة مادية تقوم على تقديم خدمة متفق عليها مقابل أجر مادي معين ، فهم يعملون فيها ما دامت تحقق لهم حاجاتهم المادية و لا علاقة لهم بالجوانب الاستراتيجية للمؤسسة أو مصيرها ، و هذا يقودنا إلى الرجوع إلى التصور التايلوري القائم على أن الإنسان مادي بطبعه و الشيء الوحيد الذي يحفزه هو المال، لا يرتبط هذا الواقع بفكرة الفعالية في الفكر المناجمتي القائم على عنصر النتائج و تحقيق الأهداف أي الإنجاز ، التي من وجهة نظر تنظيمية " قدرة التنظيم على تحقيق الأهداف (...) التي تعكس موازين القوى للجهات ذات التأثير و مصالح الجهات المعنية بالتقييم و مرحلة النمو و التطور التي يمر بها التنظيم"⁽⁵⁾

أما فيما يتعلق بتطوير قدرات الاجراء فظل حبيس النظرة السلبية وبقي خارج دائرة اهتمامات الميسرين بسبب غياب ثقافة التخطيط والاستشراف المستقبلي التي تفتقدها المجتمعات القدرية ولا سيما المجتمع الجزائري الذي يتميز بخاصية "ضعف مراقبة اللايقين"⁽⁶⁾.

مما يلاحظ كذلك إن العلاقات بين الميسرين والعمال تتخبط وتتهور مع اشتداد الصراعات والتوترات بينهما لأن العمل في الأصل كان مبنيا على اعتبارات شخصية وأسس تفاضلية تقوم على التمييز والتفريق مما انعكس على فعالية ومردودية التسيير في المؤسسة الصناعية.

توصف رداءة هذه العلاقات بين المسيرين و العمال توصف على انها علاقات لا تحتوي على الكثير من الاتصال، فيها عدم الثقة، و عدم الشعور بالأهمية من قبل العامل، مما يؤدي الى نشوء علاقة ضعيفة لا تحتوي على اهداف أو اهتمامات مشتركة، و من هنا تصبح العلاقة بين المسيرين و الأجراء تهدف إلى استغلال كل شخص للآخر، فالعامل داخل المؤسسة ليس لديه الإحساس بالانتماء ، و هذا كله يشير إلى أن العامل لا يتم إشراكه في أي شيء من العمليات التي تتم في المؤسسة ، ابتداء من القرارات الى المساهمة في رسم أهداف المؤسسة ، و هذا كله يولد تلك القطيعة في العلاقة بين العامل و المؤسسة.

ينتج عن هذا الشعور بعدم الانتماء للمؤسسة ضعف في درجة الولاء للمؤسسة، بحيث يبحث العامل عن الأفضل الذي يضمن فيه الزيادة في الأجر، و يسترجع قيمته بكسب احترام و تقدير المسؤولين هذا ما يظهر جليا ، لكن الخفي هو الذي يفسر لنا هذا الاغتراب وان الأجير يحقق حاجة الانتماء من الجماعة التي يقوى فيها التآزر و التضامن، بحيث تعوض له ما افتقده في المؤسسة.

فلقد أشادت الكثير من الدراسات السوسيولوجية بأهمية العلاقات المهنية والاجتماعية على مستوى مكان العمل ، الأمر الذي حدا بنا إلى إعطاء أهمية لتبيان مستوى العلاقات الاجتماعية وطبيعتها بالمؤسسة ، لما لذلك من أهمية في التأثير الايجابي على الانسجام والإحساس بروح المسؤولية وتقوية روابط التعاون ما ينعكس على مستوى الأداء الفردي للعامل ، و على مستوى المردودية الجماعية للعمال ، و عليه فكلما كانت العلاقة بين المسير و الأجراء مبنية على الثقة و الاحترام كلما زادت الروح المعنوية لدى أفراد المؤسسة ، و هذا ما أكدته بعض الدراسات السوسيولوجية المتمثلة في مدرسة العلاقات الإنسانية التي حثت على ضرورة توفير الجو المناسب للعمل و تنمية العلاقات الإنسانية بين العمال و تحسين ظروف الأداء.

مما لا شك فيه ان معظم الاستراتيجيات التي يتبناها افراد المجتمع الجزائري تقوم على مقدار التحكم في العلاقات غير الرسمية و توجيه سلوكياتهم و ممارساتهم مرتبط برأسمال العلاقات الشخصية و غير الرسمية التي يمتلكونها ، فمجتمعنا معروف عليه بهيمنة اللارسمي و العلاقات الشخصية على مختلف حقول التفاعل الاجتماعي بما فيها المؤسسة الصناعية.

من الممكن أن هذه الممارسات تشكل بعض المعوقات في التسيير بحكم ارتباطها بالمنتوج الثقافى التقليدي للمجتمع الذي ما زال يؤطره الولاء للجماعة بغرض الحصول على الحماية وتعزيز السلطة من خلال شبكتها الزبونية التي تعد "كقيمة ثقافية واجتماعية ... تتناقض مع روح العقلنة الاقتصادية الرأسمالية"⁽⁷⁾، اذ لا زالت تتعامل مع الأجراء باعتبارهم أفراد في قبيلة أو عشيرة أو منحدرين من جهة معينة.

إن هذا المنطق الذي تهيمن فيه ثقافة التبعية وتنتج فيه تطلعات الأجراء الى المكانة والمركز الاجتماعي في ظل غياب مبدأ الاستحقاق، يتصادم بشكل واضح مع الإطار التنظيمي (الرسمي) الذي تعتمده المؤسسة الصناعية في الجزائر.

يعود هذا الأمر أولا إلى صفة المقاومة لدى المجتمع الجزائري وبقاءه مجتمعا حذرا لا تخضعه عقلانية التحديث بل طور ممارسات وتصورات بالتوازي مع ذلك كرد فعل معادي لأي مشروع حداثي، بحيث تطفئ فيه الثقافة الجماعية التي توجه فيها الممارسات والسلوكيات وفق نظرة اجتماعية، يليها البعد التراتبي القوي الذي يتميز به هذا المجتمع أين تكون فيه السلطة في علاقة طردية مع الخضوع وبالتالي سلطة الرمز أكثر منها سلطة المنصب والصلاحيات.

لكن ما يمكن تأكيده هو وجود قيم لها صفة السيطرة والهيمنة، لا زالت يعاد انتاجها لأسباب ثقافية وتاريخية تتعلق بالمجتمع الجزائري، وقيما فرعية ذات أهمية ثانوية، كل ذلك هو مصدر توجيه الممارسات التسييرية في المؤسسة الجزائرية، بحيث يبرز من جهة أخرى مجتمع يجمع بين ما هو تقليدي وما هو عقلاني وهو محصلة يؤدي الى ما يسمى بـ «التمازج الثقافي»⁽⁸⁾ على حد تعبير احمد هني.

لكن حتى وان تشبع هؤلاء المسيرين بقيم صناعية حديثة فإنها لن تتمكن من تعويض قيمهم الثقافية الأصيلة التي تطبع ممارساتهم لأنه لا يمكنها أن تتجاوز حدود الجانب التقني، اذ ظلت مفاهيم مثل الكفاءة والنجاعة مجرد مصطلحات شائعة وشعارات جوفاء توظف فقط في تزيين صورة المؤسسة للحفاظ على سمعتها وتكريسا لثقافة الواجهة.

هذه الوضعية تبين لنا ان الذهنية الجزائرية لا زالت لم تتقبل المفاهيم الجديدة المتعلقة بالنموذج الليبرالي التي وجدت نفسها فجأة أمامه وفي مواجهته، اذ أنها تعودت على أشكال و أساليب ساهمت في البناء الاقتصادي والاجتماعي الجزائري خلقت معها فجوة عميقة في منظومتها المفاهيمية، بحيث ان اغفال المعطيات الثقافية والاجتماعية - في نظرنا - هي التي أدت الى كل أنواع الاضطراب و الفوضى والفشل الملاحظ في واقع التسيير، ذلك ما أشارت إليه الجماعة الكندية بخصوص هذه المسألة في دراستها الميدانية حول المؤسسة الجزائرية ، إلى «التباين الثقافي القوي»⁽⁹⁾ الذي يبين اختلاف العناصر الثقافية المشكلة للمؤسسة الحديثة عن الثقافة السائدة في المجتمع الجزائري.

ومنه يمكن الاستنتاج بان أساليب وأشكال التسيير بالرغم من اختلافها من مسير إلى آخر وبالرغم من تبدلها وتغيرها إلا أنها تسجل حضورا قويا لمنطق ذاتي مرتبط بالقيم الثقافية السائدة في المجتمع، تعكس نفس البيئة الحاضنة، بحيث لم تتمكن من الانفصال عن المنطق الموضوعي المعبر عن العقلانية، الذي كرسه المؤسسة الحديثة التي ينتمي إليها هؤلاء المسيرين. إنه نمط تتقاطع فيه الثقافتان

وتتزاوج فيه تزواجا بمفهوم الهيمنة لا تزواجا بمفهوم التكامل، بحيث تعتمد فيه الممارسات الفعلية على هامش ما هو تنظيمي على استراتيجيات أساسها التنوع.

فمن أهم مظاهر هذه الهيمنة نجد المنطق الاجتماعي الذي يكرس على أساس الحافز المادي المباشر وغير المباشر الموجه من أجل شراء الخضوع والسلم الاجتماعي، والذي أصبح ينظر إليه كحق من الحقوق على حساب الأداء والنتائج. خلقت هذه النظرة المادية قيمة سلبية وصار يظهر من خلالها عمق المنطق غير الرسمي، بحيث أن البيئة الاجتماعية هي التي تفرض منطقتها على المؤسسة حتى أضحت روح الولاء تتجاوز فكرة الإستراتيجية الفردية ويرتبط بفكرة الجماعية أن أي اتفاق اجتماعي يعقد على أساس هبات و مكافآت مقابل الخضوع يصبح دعما و تعزيز للمكانة الاجتماعية لصاحب السلطة و توسعة لشبكته الزبونية، مما يتنافى مع فلسفة العقلانية و الرشادة في العمل وتعكس ما أشار إليه سعيد شيخي بأن: " أشكال التسيير لقوة العمل انفصلت بكل بساطة عن متطلبات العقلنة الرأسمالية"⁽¹⁰⁾.

نسجل كنتيجة لكل هذه القراءات السوسيولوجية بروز ظاهرة عزوف عن التغيير وتفضيل إبقاء الأمور على حالها بدل الديناميكية والحراك وأن التسيير في حقيقة الأمر يرتكز على شخصنة السلطة، الزبونية والولاء، ويمتاز ببعد تراتبي قوي يشكل وسيلة فعالة للمسيرين من أجل الحفاظ على مصالحهم السلطوية بدل المصلحة التنظيمية، مع فرض لفكرة اللامساواة بين العمال كمبدأ للسيطرة وغرس ثقافة الخضوع والتبعية كمنطق لتكريس ثقافة الواجهة.

3- التسيير في المؤسسة الجزائرية: أية فعالية؟

تشير الأدبيات السوسيولوجية حول التنظيم والمؤسسة، خاصة تلك التي حاولت ربط واقع المؤسسة بطبيعة نظام الإنتاج، إلى أن الفعالية الإنتاجية والعقلانية هي سمات الإنتاج الرأسمالي، وبالتالي نحن نتحدث وفق هذا المنطق عن الكفاءة الاقتصادية، مقابل الكفاءة أو الفعالية الاجتماعية- الرمزية، ومن خلال هذا الجدل، نتساءل عن طبيعة الفعالية التسييرية في المؤسسة الصناعية الجزائرية؟ قبل ذلك، يجدر بنا الإشارة إلى أن الفعالية وفق طرحنا ليس بالضرورة تلك القيمة المرتبطة بالأداء والمردودية فقط، وإنما إجرائيا يتم تجاوز ذلك أحيانا إلى منطق البقاء، المقاومة والاستمرارية.

وفيما يتعلق بسياسة التسيير، أظهرت الشواهد الميدانية أن "السياسة التوافقية"⁽¹¹⁾ هي التي تطبع ممارسات التسيير عامة وتسيير الموارد البشرية بالخصوص، وذلك من خلال المزج بين التقليدي والحديث، فبالرغم من التواجد ضمن كيان يعرف تطورا في التكنولوجيات المستخدمة وأنماط التسيير العقلاني المدروسة علميا، وبالتالي نحن أمام النموذج الحداثي، لكن بالمقابل هناك استثمار في كل ما هو تقليدي ومجتمعي وبعاد إنتاجه في شكل ممارسات ذات طابع رمزي يمكن وصفه بعلاقات السيطرة التقليدية، والتي

يسعى فيها المسيرون عموما وحتى الفئات التنفيذية في استعمال كل رساميلهم الاجتماعية من جهوية وقبلية وتوظيف انتقائي، كسياسة مضادة ومقاومة، وكوسيلة لإدماج العامل في منظومة المصنع، الذي يتحول من الوظيفة الإنتاجية إلى وظيفة اجتماعية وسياسية، وقد أشار إلى ذلك سابقا الجيلالي اليابس معتبرا أن المؤسسة الصناعية في الجزائر تقوم ب "الاستثمار اليومي والمزدوج للاقتصادي والاجتماعي- الرمزي وكذا النظام الاجتماعي والسياسي"⁽¹²⁾

انطلاقا مما سبق، وكحوصلة لملاحظاتنا الميدانية وتلك المتعلقة بالإرث النظري حول الموضوع، تبين لنا أن ضمان استمرارية وجود المؤسسة في الواقع الجزائري، ارتبطت بمدى قدرت المسيرين على تكوين شبكاتهم الزبونية مصدرها التوظيف من أفراد العائلة، القبيلة، الجهة... الخ، وبالتالي الكفاءة المطلوبة في هذه الحالة ليست بالاقتصادية وإنما الاجتماعية والرمزية، التي تتمظهر من خلال مدى قدرة المسير على التحكم في توزيع الرمزي واستعماله. من هنا تصبح عناصر الصراع والتنافس في المؤسسة من توابع أو استراتيجيات هذه الممارسات، وبالتالي تبرز صورة هذا المنطق في عملية التوظيف التي تتم على أساس الشبكة العلائقية التقليدية ذات المرجعية الكاريزمية (العائلة، الجهة... الخ)، والتسيير قائم على مدى التحكم في العلاقات الشخصية واستعمال الرمزي، من خلال خلق شبكة من العلاقات على أساس المصالح المتبادلة، هذا بالإضافة إلى أن وجود المؤسسة مرتبط بالوجود النشط "للعائلة" و"الجماعة" وبالتالي يلعب الرأسمال الاجتماعي والرمزي دوره في التحكم وتوجيه مختلف الأنشطة فيه.

ما يمكن أن نستخلصه من هذا التحليل هو أنه يصعب تعايش نمطين متناقضين خاصة ما دامت السيطرة كانت لصالح التسيير والفعالية الرمزية، فالفعالية الاقتصادية القائمة على كل ما هو فني وعلمي وعقلاني، أين تلعب سلطة الصلاحيات دورا أساسيا ومهما و الأدوار محددة بدقة، والوقت يخضع لأقصى درجات العقلانية، كل هذه العناصر إن لم نقل إنها غائبة فهي محدودة في الممارسات وحتى التصورات لدى المسير والعامل الصناعي، فوجود هؤلاء في المؤسسة مرتبط بالفعالية المستمدة من عوامل اجتماعية ورمزية وهذا ما كان قد أكده أحمد هني، بأن "العلاقات القائمة على العقلانية الاقتصادية المعاد إنتاجها محليا في الأنماط التقليدية، خضعت للكفاءات الرمزية التي أعطتها فعالية أكبر، من تلك الكفاءة والوظيفة العقلانية القائمة على العمل البيروقراطي"⁽¹³⁾

الخاتمة:

لا زالت مسألة جدلية الثقافة والتنمية قائمة من خلال مفرزات التفاعل المتواصل بين مشاريع حاملة للثقافة الحداثية وواقع ونسق حامل لثقافة هجينة مستها مختلف التحولات وقاومت كل محاولات التغيير المتكررة.

فلا يمكن تحقيق التنمية من خلال تطبيق وصفات تنموية جاهزة، أو الأخذ بمبدأ المقايضة أو المماثلة والمثابهة بتقليد نماذج تنموية معينة، حققت، بشكل من الأشكال، نوعا من التقدم والازدهار. فلكل مجتمع خصوصياته الثقافية، وموارده الاقتصادية الخاصة به، كما تتشابه، في التنمية المعطيات المادية والمعنوية، وتتداخل فيها العوامل الاقتصادية والدينية. لذا ينبغي مراعاة مجموعة من الخصائص التي يمتاز بها مجتمع معين، وتقديرها استراتيجيا أثناء الأخذ بسبل التنمية، والعمل بآلياتها التنفيذية، فلا يمكن استيراد نظريات تنموية جاهزة، بغية تطبيقها بشكل آلي على مجتمعات مختلفة، تتنافى خصوصياتها الحضارية والثقافية مع مبادئ تلك النظريات والتصورات جملة وتفصيلا.

الإحالات والهوامش:

- ¹ - غريد جمال، العامل الشائع. عناصر للاقترب من الوجه الجديد للعامل الصناعي الجزائري، إنسانيات، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، 1997، ص 7 – 23.
- ² - بن رزوق جمال، الاتصال التنظيمي، الثقافة التسييرية و ادارة التغير داخل المؤسسة، مجلة الأبحاث و الدراسات في العلوم الانسانية، رقم 06، نوفمبر 2010، ص 239.
- ³ - المرجع السابق، ص. 240.
- ⁴ - Rubat (F), culture d'entreprise et management, école supérieur de commerce, Grenoble pp 8-9.
- ⁵ - محمد قاسم القريوتي، نظرية المنظمة و التنظيم، دار وائل للنشر و التوزيع، عمان، 2000، ص 104.
- ⁶ - Mercure Daniel et Al, Culture et Gestion en Algérie, Editions ANEP, Algérie, 1997, p12.
- ⁷ - بن عيسى محمد المهدي، مقاربة سوسيولوجية لتحليل أزمة العقلنة في التنظيم الصناعي الجزائري، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية الباحث، العدد 01، المركز الجامعي ورقلة، ديسمبر، 1998، ص 14.
- ⁸ - In OUFRIHA Fatima Zohra, Culture et développement en Algérie et dans les pays arabes Codesria , Dakar ,2012 ,p142.
- ⁹ - Mercure Daniel et Al, Culture et Gestion en Algérie, Op.cit, p17.
- ¹⁰ - Chikhi Said, l'Ouvrier, la Vie et le Prince ou la Modernité Introuvable, in l'Algérie et la Modernité, Codesria, Dakar, Sénégal, 1989, p185.
- ¹¹ - LIABES Djilali, Capital privé et patrons d'industrie en Algérie (1962-1982), CREAD Alger, 1984, p102.
- ¹² - Ibid, p15.
- ¹³ - HENNI Ahmed, Le Cheikh et le patron : usage de la modernité dans la reproduction de la tradition, OPU, Alger, 1993, pp28-29.

ضغوط العمل وتأثيرها على الصحة النفسية للعامل

غالم يمينه

طالبة دكتوراه تخصص علم النفس

جامعة ابن باديس – مستغانم

المقدمة:

تعتبر الضغوط النفسية للعمل كجانب هام من الضغوط الحياة هي ظاهرة نفسية ،لا يمكن إنكارها بل يجب التصدي لها من قبل المختصين لمساعدة العامل على التكيف مع عمله، وتتجلى هذه الضغوط في ما يلي: مثلا أن العامل يتعرض أثناء تأديته لعمله مجموعة من الضغوط التي ترجع إلى أسباب متعددة ،كثرة العمل ورتبته ،قلة الوسائل والامكانيات ،ظروف العمل السيئة ،رفض الترقية، عدم وضوح المسؤوليات الوظيفية ،غياب الدعم الاجتماعي ،غياب الاستقلالية ،غياب المشاركة في اتخاذ القرارات، ضيق الوقت ،ومتطلبات السرعة ،والدقة في الانجاز، ومشكلات التعامل مع الجمهور، والعلاقات السلبية مع المدراء وغير ذلك من الاسباب التي تؤدي إلى ضغط في العمل ،كل هذا من شأنه أن يعرض العامل إلى عدة أمراض التي قد يصاب بها في حياته، مع اختلاف نوعية ودرجة شدتها، لكن اللافت للنظر حاليا هو لانعكاسات التي قد تنجم عن ضغوط العمل تظهر جليا في ما يسمى ب " باضطراب النفس الجسمية"، إن مثل هذه الأمراض أضحت اليوم موضع اهتمام كبير لأطباء العالم ومراكز البحوث والجامعات على اختلاف الاهتمامات والتخصصات الطبية ، جرى التدقيق في هذه الأمراض فتوصلوا إلى ان من بين أسباب التي تنجم عنها هذه الامراض هي ضغوط العمل كما أسلفنا سابقا إضافة للظروف البيئية القاسية المحيطية بالعامل وتفاقم صعوبات الحياة وزيادة الأعباء وكثرة المشكلات والمعاناة في العمل ... وغيرها من الظروف الحياتية والمهنية الصعبة التي يترتب عليها حالات انفعالية شديدة قد لا يقوى العامل على تحملها ،مما يؤثر سلبيا على وظائفه النفسية والجسمية .

وبناء على ما سبق فإن ضغوط العمل يمكنها أن تؤدي إلى مشاكل صحية مهنية مدمرة للعامل ، وقد تكون هذه المشاكل مفعجة خاصة في حالة الاصابة بأمراض القلب ، ضغط الدم ،... لأنها تعد أول

مؤشر للضغط الحادة التي تؤدي إلى الموت المفاجئ ،وهذا ما أشارت إليه العيد من البحوث والدراسات النفسية أمثال " دراسة "والتر كانون" الذي كان اهتمامه منصبا حول كيفية استجابة الجسم للضغط وأثرها عليه ، أما دراسة "كوير" الذي وضع كيف للضغط العمل أن تؤدي إلى ظهور بعض الاضطرابات مثل :أمراض القلب والأمراض العقلية، الناتجة عن بيئة العامل التي أصبحت تشكل مصدر للضغط ، و التي أدت إلى وجود تهديد لحاجة من حاجات الفرد أو شكلت خطرا هدد العامل وأهدافه في الحياة فشعر بحالة من الضغط ، فضله في استخدام الاستراتيجيات للتوافق مع المواقف أدى إلى ظهور ما يسمى بالاضطرابات النفس الجسدية. وكذلك دراسة "مارشال" التي عرجت إلى أهم العوامل المسببة للضغط في العمل ، والأعراض التي تظهر على الفرد نتيجة تعرضه لضغط العمل ، وهي أعراض خاصة بالفرد وتؤدي به إلى "أمراض القلب ،ضغط الدم ،سرعة الاستثارة ، آلام الصدر ، أمراض السل .

ولهذا سنحاول في هذا المقال تسليط الضوء على " الضغط في العمل" وكل ما يتعلق بها من مفاهيم ،أنواع ،مصادر ،نظريات ، تأثيرها على الأداء..... إلخ.....منطلقين من الإشكالية التالية والتي مفادها ما يلي :

إلى أي مدى يمكن للضغط العمل أن تؤثر على الصحة النفسية للعامل ؟

وكيف يمكن التقليل من حدة الضغط على صحة العامل؟

الكلمات المفتاحية : ضغوط العمل – الأمراض النفسية والجسمية.

أهمية الموضوع :

فأهمية هذا الموضوع تكمن في توضيح أهم النقاط التالية:

- 1- التعرف على أهم الأعراض النفسية الجسمية التي يمكن أن ترجع إلى ضغوط العمل لدى العمال.
- 2- إعطاء نظرات عامة وشاملة حول تأثير الضغوط على الصحة النفسية والجسمية لدى العمال في مختلف المنظمات.
- 3- البحث عن المناخ التنظيمي الذي يؤدي العامل الجزائري فيه مهامه بغية الكشف عن مصادر الضغوط المهنية .
- 4- التعرف على الضغوط التي يتعرض لها العامل، حتى يتم وضع الاستراتيجيات الملائمة وتهيئة المناخ التنظيمي المناسب للعامل لمساعدته على التكيف والتأقلم مع ضغوط العمل.

❖ أهداف الموضوع:

إن البحوث العلمية مهما اختلفت وتعددت مجالاتها إلا أنها لا تخلو من الأهداف التي قامت من أجلها وذلك لغرض المشكلة المطروحة ومحاولة تحليلها ومعرفة أثر الضغوط النفسية للعامل وعلى هذا الأساس تتجلى أهمية الموضوع في ما يلي :

- الوصول إلى معرفة مدى تأثير ضغوط العمل في ظهور الأمراض النفسية والعضوية لدى العمال
- تحديد الحجم الحقيقي لهذا النوع من الأعراض عند العمال.
- التعرف على مصادر الضغوط الأكثر تأثيراً على العمال في مختلف المؤسسات.

❖ دواعي اختيار الموضوع:

يعود السبب اختيارنا لهذا الموضوع إلى كونه يدرس ظاهرة ضغوط العمل وتأثيرها على الصحة النفسية لدى العمال في مختلف المؤسسات ، ومن الأسباب الكامنة وراء اختيار هذا الموضوع ما يلي :

- 1- عدم أخذ بعين الاعتبار حقيقة المعاناة التي يتعايش معها العمال من الإصابة بمختلف الأمراض النفسية الناتجة عن ضغوط العمل .
- 2- الكشف عن أثر الضغوط العمل على الصحة النفسية للعمال..
- 3- التخفيف من حدة هذا المشكل والبحث عن أسبابه وعلاجه.
- 4- جهل معظم الهيئات بأثر هذه الضغوط على صحة العامل.
- 5- التعرف على مصادر الضغوط الأكثر تواجداً في العمال والبحث عن الحلول الفعالة للحد أو التقليل منها - التعاريف الاجرائية:

- **ضغوط العمل:** عملية إدراك الفرد بأنه غير قادر على إستيعاب ومواجهة مصدر الضغط .أيا كان نوعه و الضغط عادة يكون ناتج عن أسباب إدارية وتتمثل في عدم توفير كل الإمكانيات التي يحتاج إليها العامل كنقص في العتاد ، نقص بضغوط العمل لدى العمال في هذه الدراسة تلك الحالة النفسية المتأزمة التي تتميز بالضيق -التوتر -الصراعات -الاضطراب نتيجة مواجهة العامل لأعباء وصعوبات مهنية ومشاكل عديدة تتعلق بالمهنة والتي تنعكس سلباً على أدائه و توافقه النفسي والمهني

- الأمراض النفسية الجسمية :

- هي الأمراض أو الاضطرابات الجسدية ذات المنشأ النفسي ،حيث أن ضغوط العمل تتخذ أعراضاً جسدية في الفرد ،حيث تتحول المشاكل والمعاناة إلى أعراض جسدية .

- الاطار النظري :

1- تعريف الضغوط العمل:

- لغة: كلمة "الضغط" Stress: مشتقة من الكلمة اللاتينية Stringers والذي يعني: الضيق - الشدة - ومنه أخذ الفعل الفرنسي Etreinder بمعنى طوق ذراعه وجسمه، مؤدياً إلى الإختناق الذي يسبب القلق.⁽¹⁾ الضغط يعني أيضاً: القهر، الاضطراب، الشدة والمشقة.⁽²⁾

- إصطلاحاً: - هو عبارة عن حالة تنتج عن التفاعل بين الفرد والبيئة، بحيث تضع الفرد أمام عوائق أو فرص أو مطالب.⁽³⁾

- حسب "Cratch" الضغط هو عبارة عن حالة تنشأ بسبب التفاعل بين العوامل المتعلقة بالعمل مع خصائص العاملين - وتحدث تغيراً في الحالة النفسية والجسمية للفرد تدفعه إلى تصرف جسدي أو نفسي غير معتاد.

- عند علماء النفس: لقد تعددت التعاريف لضغوط العمل واختلفت وفقاً لمدارس واتجاهات الباحثين الذين تناولوا هذا الموضوع، فلا يوجد هناك تعريف واحد ودقيق لهذا المفهوم يتفق عليه جميع الباحثين والعلماء، وهذا راجع إلى تناول كل عالم لموضوع ضغط العمل انطلاقاً من تخصصه.

لقد ظهر مصطلح ضغوط العمل في المؤسسات والمنظمات حيث يفترض العاملون أن يقوموا بواجباتهم المهنية بأسلوب يتسم بالفعالية، وذلك لتقديم الخدمات المنتظرة منهم على أكمل وجه، إلا أن هناك بعض المعوقات في بيئة العمل تمنعهم من القيام بدورهم كما ينبغي، وهذا ما يؤدي بدوره إلى ما يسمى بالضغط الوظيفي (Job Stress) أو ضغط العمل، ويشير هذا المصطلح إلى التغيرات التي تحيط بالعاملين في بيئة العمل، وتسبب لهم الشعور بالتوتر والقلق، وتكمن خطورة هذا الشعور في نتائجه السلبية التي تتمثل في حالات مختلفة ومنها القيام بالواجبات بصورة آلية تفتقر إلى الاندماج والمشاركة الوجدانية، والتشاؤم، وتدني الدافعية، وفقدان القدرة على الابتكار - وهناك من الباحثين والعلماء من يتفقون في تحديد مسمى ضغوط العمل بالإشارة إلى الموقف الذي يكون فيه عدم الملائمة بين الفرد ومهنته، مما ينعكس سلباً على حالته الداخلية والتي تتجلى في خلق حالة من عدم الاتزان النفسي والجسمي داخل الفرد.⁽⁴⁾

كما يعرف بارون "Baron-1986" أن مصطلح ضغط العمل في مجال العمل يستخدم للدلالة على حالتين مختلفتين هما، فالحالة الأولى تشير إلى الظروف البيئية التي تحيط بالفرد في بيئة العمل، وتسبب له الضغط والتوتر ويطلق على هذا مصادر الضغوط، أما الحالة الثانية فإنها تشير إلى ردود الفعل الداخلية التي تحدث بسبب هذه المصادر، والمتتمثلة في الشعور الغير السار الذي ينتاب الفرد.

- ويعرف " سمير أحمد عسكر 1988 " ضغوط العمل على أنها مجموعة من التغيرات الجسمية و النفسية التي تحدث للعامل في ردود أفعاله أثناء مواجهته للمواقف المحيطة به والتي تمثل تهديدا له.⁽⁵⁾

- ويرى "بارون 1993-Baron " أيضا :في الدراسة التي أجراها بأن هناك ثلاث (3) اتجاهات لمفهوم الضغط في العمل هي :

1- الاتجاه الأول :تناول الضغط باعتباره أحد المؤثرات أو المنبهات التي توجد في البيئة ، ويحدث تأثيره على الفرد.

2- الاتجاه الثاني :والذي تطرق إلى الضغط على أساس أنه عبارة عن استجابة للمثيرات .(مسببات الضغط).

3- الاتجاه الثالث: عرج إلى الضغط باعتباره التفاعل بين يحدث بين هذين العنصرين، مسببات الضغط والاستجابات نحوها.

- خلاصة: الضغوط العمل هي حالة تصيب الفرد نتيجة عدم توافقه مع بيئة العمل، لتعرضه لمثيرات بيئية وذاتية، تفوق طاقته التكيفية وينتج عنها مجموعة من الآثار النفسية والفيزيولوجية والسلوكية. أشارت التعاريف السابقة إلى أن الإجهاد يحدث لإدراك الفرد للموقف المتواجد فيه على انه يهدده و غير قادر على التحكم فيه حين أشار تعريف آخر إلى انه توتر يحصل لعدة أسباب و ليس لسبب واحد فقد تكون مرتبطة بالفرد أو بالعمل أو كلاهما.

2- ماذا يعني الضغط في مجال العمل :

إذا حاولنا الإجابة على التساؤل بالاعتماد على وجهة نظر العاملين بمختلف مسؤوليات الدولة فإن الإجابات التقليدية على لسان هؤلاء تتضمن ما يلي على سبيل المثال :

عدم التأكد مما هو مطلوب مني أثناء الدوام ،عدم كفاية الوقت للمتطلبات الوظيفية - زيادة الحمل، اتخاذ قرارات تتعلق بالآخرين [المدراء ، ومسؤولي الأقسام الإدارية] ،محاولة التوازن بين متطلبات العمل والمسؤوليات الأسرية. (خاصة الموظفات)،عدم الحصول على الترقية لأنها في معظم الحالات لا تعتمد على الكفاءة ،مدى واقعية أهداف المهنة ،القلق من أن تصبح المهارات الوظيفية غير مطلوبة في ضوء التطور التقني والمعرفي ،التفرقة في المعاملة من جانب المسؤول ،الضوضاء في مكان العمل ،العمل المتواصل دون أخذ راحة ،خلو مكان العمل من التهوية المناسبة ،عدم مشاركتي في القرارات التي تخص عملي .⁽⁶⁾

3- مصادر ضغوط العمل :

يتعرض الأفراد في أعمالهم إلى مصادر كثيرة، سواء كان مصدرها العمل أم خارجه ، ككثرة العمل ، ورتينه ، وضيق الوقت ومتطلبات السرعة والدقة في العمل ، وبيئة العمل المزعجة ،ومشكلات التعامل

مع الجمهور ، والعلاقات السلبية مع رئيس العمل ، لذلك فإن جميع الوظائف معرضة لمصادر مختلفة من الضغط وذلك حسب طبيعة المهام المرتبطة بالوظيفة . لذلك يمكن تقسيم مصادر ضغوط العمل إلى أقسام هي :

- مصادر الضغوط المرتبطة بالفرد:

وهي ضغوط تسببها العوامل المرتبطة بالفرد الذي يشغل الوظيفة ، وليس بالعمل نفسه ، فبعض الأفراد يجد في ضغط العمل محفز النشاط والتحدي ، في حين أن البعض الآخر لا يستطيع التعامل مع الموقف الضاغط ، ومن بين مصادر الضغط المرتبطة بالفرد ما يلي :

1- **الحياة الاجتماعية للعامل :** إن الضغوط التي يواجهها الفرد في حياته الشخصية ، سوف تنسحب معه إلى عمله وتنعكس على نفسيته وأدائه ، فمن الصعب على الفرد أن يتجاهل الضغوط التي يواجهها خارج العمل ، ومن الأحداث الهامة في حياة العامل التي عادة ما تسبب له ضغوط نفسية هي : وفاة شخص عزيز - مشكلات الزواج والطلاق - المشكلات المالية - مرض العامل أو أحد أقربائه⁽⁷⁾ - الإحالة إلى التقاعد - التغير في المسؤولية الوظيفية ، المشاغل مع الرئيس - الاجازات والأعياد - ❖ إن هذه الأحداث وما تسببه من توتر ينتقل تأثيرها إلى العمل ، فتسبب للعامل الشعور بضغوط العمل ❖ .⁽⁸⁾

1- **2 نمط الشخصية :** تشير البحوث إلى أن بعض العمال يتصفون بمجموعة من الصفات التي تميزهم عن غيرهم من الأفراد ، بكونهم لديهم دافع للإنجاز عال ، ورغبة عالية في التنافس ، ويشعرون بإلحاح الوقت ، ورغبة في ذكر إنجازاتهم ، كما أنهم عدوانيون ، سريعين الغضب ، ويتسمون بالسرعة ، وقلة الصبر ويقبلون على الأعمال التي تتسبب بمسؤولية أكبر ومجازفة أعلى ، كما سميت هذه السمات بنمط الشخصية "أ" . أما النمط "ب" فلديهم قدر منخفض من هذه السمات ، وتشير البحوث أن العمال الذين يتسمون بالنمط "أ" يكونون أكثر عرضة للإصابة بأمراض القلب .⁽⁹⁾

1- **3 الإدراك :** يتفاعل الأفراد مع البيئة المحيطة بهم من خلال إدراكهم للواقع ، والإدراك ما هو إلا محاولة لفهم وتفسير الواقع ، وفي أحيان كثيرة لا يدرك الإنسان واقعه على صورته الحقيقية ، فالأفراد يختلفون في تفسير وقراءة واقعهم ، فهم يختلفون فيما بينهم في إدراكهم لنفس الموقف الضاغط ، فحين يطلب مسؤول العمل من أفراد القيام بعمل بساعات إضافية كي ينجز العمل في الوقت المحدد ، فإن بعض العمال ينظر إلى هذا العمل على أنه فرصة لكسب إعجاب مسؤوليه وإثبات ولائه للمنظمة ، في حين ينظر البعض الآخر إلى هذا الطلب بأنه أعباء إضافية غير مبررة ، وهذا ما يشعره بضغط نفسي أكبر .⁽¹⁰⁾

1- **4 الخبرة بالعمل :** الفترة الأولى من عمل الفرد تتسم بعدم الوضوح والغموض ، وضعف الثقة بالنفس ، بسبب أن الموقف جديد بالنسبة للفرد ، ويحتاج إلى إثبات ذاته ، كسب ثقة واحترام رئيسه وزملائه في العمل ،

وكاماً طالت مدة خدمته في وظيفته كلما اكتسب خبرة ومعلومات ستساعده في كيفية التعامل مع المواقف الضاغطة، أما الأفراد الذين يشعرون بضغوط مستمرة لا يستطيعون التعامل معها، فقد يميلون إلى ترك وظيفتهم أو منظماتهم إلى أماكن أفضل بالنسبة لهم، بحيث لا يبقى في المنظمة إلا من هو أكثر قدرة على التأقلم مع ضغوط العمل.⁽¹¹⁾

2- مصادر الضغوط المرتبطة بالوظيفة: وهي ضغوط ترجع إلى العوامل المرتبطة بالعمل نفسه، وليس بالفرد الذي يشغل الوظيفة ومن هذه المصادر ما يلي:

2- 1 غموض الدور: ويعني هذا أن العامل يواجه عدة صعوبات عندما يكتنف عمله غموض في الدور، إذ لا يتسنى له أداء عمله على الوجه الأمثل، مما يخلق له حالة من التوتر، والشعور بالضغط النفسي، ويزداد الغموض عندما لا تتوفر لدى العامل معلومات كافية عن الدور المناط به، وماهي حدود سلطته ومسؤولياته، وحسب "عثمان حمود الخضر" فإن غموض الدور يحدث عندما يكون العامل غير متأكد من المهام المطلوبة منه وكيفية أدائه لها، أو حين تكون نتيجة الخطأ في العمل غير معروفة، وهو مصدر للضغط أكثر وضوحاً لدى الموظفين الجدد، أو حين تقدم المنظمة على إحداث تغيير فيها.⁽¹²⁾

2- 2 صراع الدور: من المبادئ الأساسية في الإدارة، "مبدأ وحدة الأمر" الذي يقتضي بأن يتلقى الفرد الأوامر من جهة واحدة، من أجل التخلص من الارتباك، والتعارض المحتمل، ويحدث هذا نتيجة تعارض الدور المتوقع من الفرد في عمله، الدور المتوقع منه في أسرته، أو نتيجة تعارض ما هو مطلوب منه في عمله، كأن يطلب منه العمل بسرعة عالية وفي نفس الوقت المحافظة على جودة عالية للسلعة أو الخدمة التي ينتجها، كما يمكن أن يحدث "صراع الدور" نتيجة لتعارض متطلبات العمل مع قيم الشخص ومبادئه.⁽¹³⁾

2- 3 كثرة المهام المرتبطة بالعمل: وتحدث عندما تكون المهام أكثر مما يسمح به الوقت، وقد يكون كثرة العمل بسبب تكرار نفس المهمة لمرات عدة مما يسبب الملل، أو تكون المهام متنوعة لكنها كثيرة قياساً بالوقت المحدد للإنجاز، مما يتطلب السرعة في الأداء لإنجازها، وما يرافق ذلك من مشكلات في جودة الخدمة، كما تشير الدراسات أن كثرة المهام ترتبط بالمشكلات الفسيولوجية، والإرهاق، الإحباط، انخفاض الرضا الوظيفي.⁽¹⁴⁾

2- 4 قلة المهام المطلوبة من الفرد: فهناك بعض العمال يشكون من أن ليس لهم عمل، مما يشعروهم بالملل، وأن رؤسائهم لا يعطونهم الثقة الكافية، ولا يشعرونهم بالمسؤولية.

2- 5 صعوبة المهام: ونعني بها أن المهام في مستوى تعقيد أعلى من قدرة الفرد، خاصة في الوظائف التي تتطلب الدقة، وتركيز ذهني عالي، أو تلك التي تستخدم تكنولوجيا معقدة، بحيث قد يشعر الفرد بالخوف من ارتكاب خطأ فادح يؤثر على صحته وسلامته الآخرين.

2- 6: ضعف السيطرة على العمل :أي أن الموظف ليس لديه الحرية والاستقلالية الكافيتين لاتخاذ قرارات بشأن عمله، مع تحديد متى وكيف يؤدي العمل، أساتذة الجامعة لديهم الاستقلالية أكبر في تحديد ماهي المادة التي يدرسونها ضمن اختصاصهم ،أما العامل على خط الانتاج فنقيد بشكل دقيق بكل تفاصيل عمله، كما تشير بعض الدراسات أن ضعف الشعور بالسيطرة على العمل يرتبط بمستويات عالية من التوتر ،والأعراض الصحية والغياب .

2- 7 ضعف التأثير على صنع القرار:

قد لا يقع الكثير من الأفراد في حالة من الضغط حين لا يستطيعون إصدار قرار ما، أو التأثير في قرار ما بشأن مرض معين أو أحداث طارئة .مثل هؤلاء القوم يرون أن الأمر لا بد أن يترك في أيدي خبراء أو مختصين .

وعلى الطرف الآخر نجد فئة من البشر مهتمين كثيرا بإبداء رأيهم في الأحداث ويشعرون بالراحة حيث يؤثرون فيها ويقعون ضحية للضغط النفسي حين يخرجون عن هذه الدائرة التأثيرية .

2- 8مواجهات متكررة مع المسؤولين:

تعتبر العلاقات غير الموفقة مع المسؤولين في العمل إحدى المصادر المهمة خاصة إذا كان المسؤولون من الذين يتعمدون التأثير في الآخرين على نحو ما، فقد يتعمدون رفع شأن عاملين محددين أو خفض شأن آخرين أمام بقية العاملين، أو أمام من بيدهم أمر تجديد العقود أو إصدار قرارات الترقية أو صرف حوافز مالية أمام المسؤول الذي تعود التعرف على الآخرين معتمدا في ذلك على معلومات من الزملاء ،فهذه حالة أخرى قد تتسبب في كثير من المغالطات المتسببة في ضغوط على من حكم عليهم من أفواه غيرهم، فيقل لديهم الاستمتاع بمهامهم ويفقدون التطلع إلى مستوى عالي من الإحباط واللامبالاة.⁽¹⁵⁾

2- 9الإفراط في العمل وضغوط الوقت:

قليل من الناس يميلون إلى العمل المستمر دون أوقات للراحة ،ولكن الأغلبية تميل إلى أوقات للراحة مترادفة بين نهاية مهمة وبداية أخرى مثل هذه الأوقات هي لالتقاط الأنفاس وفرصة للتأمل فيما تم انجازه .وسبيلا لتجديد النشاط ،إن هذا الفاصل للراحة يمكن أن يخفف كثيرا من ضغوط العمل ويساهم في مزيد من التأنى والدقة في إنهاء المهام.⁽¹⁶⁾

2- 10سوء الاتصال في مجال العمل :

رغم ما يوجد بين العاملين في العمل الواحد من مهام الشركة فقد لا يوجد بينهم اتصال جيد مما يسبب ضغطا،ويتضح سوء الاتصال في عدم وضوح الأهداف والتعليمات وغموض المكاتبات و صعوبة

الحصول على المعلومات المطلوبة قبل البدء في المهمة، إضافة إلى عدم تأكدنا من الشخصية المسؤولة إدارياً أو فنياً وصعوبة الاتصال به وقد ينتج عن ذلك اتخاذ قرارات تفقد المعلومات أو الأهداف وضياع الوقت وكثرة الجهد دون داع نقد يحضر العاملون اجتماعات دون معرفة بجدول الأعمال أو الأهداف نفت ضعف مشاركتهم وتكبت كفاءتهم وقد يكون من أسباب سوء الاتصال عدم وجود العاملين في أماكن متقاربة وعدم وجود شبكات اتصال بين وحدات المؤسسة أن كل ذلك من المصادر الهامة للضغط (17).

3- ظروف العمل الطبيعية: والتي تتجلى في مايلي:

3- 1 الإضاءة: يحدث الأثر السلبي الضاغط في حالة الإضاءة المتطرفة، كما تساعد الإضاءة المناسبة على سهولة الإدراك، وبالمقابل تؤدي الإضاءة الغير المناسبة إلى مشكلات الصداع الناتج عن تكييف العضلات للتمكن من الرؤية الواضحة، ولا يقصر الاهتمام على درجة الإضاءة، بل ينبغي مراعاة موقع أجهزة الإضاءة من حيث الموقع، والاتجاه بالنسبة للعين. وقد تكون الإضاءة سبباً في ضغط العمل وذلك لما تخلفه من الآلام مثل: الصداع.

3- 2 الحرارة: قد تكون الحرارة مصدراً للضغط في حالة تطرفها من حيث الزيادة أو الانخفاض، وتتحكم المراكز العليا في الدماغ في عملية تنظيم درجة حرارة الجسم حيث تضبطها عند درجة حرارة 37 تقريباً، فإذا ما استشعر الفرد عن طريق حاسته الجلدية أنه يتواجد في وسط نقل درجة حرارته عن هذا المستوى فإنه يشعر بالبرد والعكس الصحيح. (18) كما تقرر الدراسات والبحوث العلمية بأن ارتفاع درجة حرارة تسبب للفرد الشعور بعدم الراحة، وأما إذا كانت كبيرة ومستمرة أي 37 فما فوق، فإمها تؤدي إلى حدوث إرهاق، و بالتالي تكون مصدر للضغط النفسي (19).

3- 3 الضوضاء: يعتبر الضجيج أو الضوضاء صور من صور التلوث الهوائي، ونحن لا نطلق لفظ الضوضاء على كل صوت يتحرك عبر الهواء إنما على الصوت الغير المرغوب فيه، والذي يسبب لنا الإزعاج أو اضطراب إما بسبب شدته أو بسبب وقوعه المفاجئ، أو بسبب الاستمرارية، والتي قد تمنع الفرد من التركيز في عمله ومن أكثر الخصائص الصوتية ارتباطاً بالضغط هي الشدة والتردد، وقد بينت الدراسات أن زيادة زيادة شدة الصوت تؤدي إلى استثارة الجهاز العصبي لدى الإنسان وزيادة الإفرازات الغدة الأدرينالية (الكظرية) مما يؤدي بالجسم إلى الاستجابة المادة من خلال زيادة ضربات القلب، ضغط الدم، والتي تدل على ارتفاع مستوى الضغط لدى الفرد.

4- الآثار الناجمة عن ضغوط العمل على صحة العامل:

❖ في الصحة النفسية :

1- الإحترق النفسي:

إذا كان بعض العمال يتمكنون من مواجهة الضغوط التي يتعرضون لها في أعمالهم فإن البعض الآخر لا يتمكنون من مواجهتها ومقاومتها، وبالتالي فإن تعرضهم المستمر المتكرر لتلك الضغوط يجعلهم يتعرضون للاحتراق النفسي (Burnout) وهو يعني أن تصاب جوانب شخصية الفرد المختلفة (البدنية، الوجدانية، العقلية) بالإرهاك و يكتسب الفرد اتجاهات سلبية نحو ذاته، فعلى المستوى البدني، يشعر الفرد بالصداع المستمر والغثيان والأرق وفقدان الشهية، وعلى المستوى الوجداني يشعر بالقلق وبالعجز المكتسب والندم على اختيار هذا العمل، وعلى المستوى العقلي يكتسب الفرد اتجاهات سلبية نحو الذات، فالفرد لا يكون راض عن أدائه الماضي، كما يكون متشائماً حول أدائه المستقبلي ويتوقع الفشل المستمر⁽²⁰⁾، بالإضافة إلى انخفاض قدرات وإمكانيات بعض الأشخاص العاملين وتنوع مشكلاتهم وحدتها أحياناً، قد يخلق لدى العديد منهم الشعور بالإحباطك وضعف الشعور بالإنجاز أو النجاح، الأمر الذي من شأنه أن يولد لهؤلاء العاملين الشعور بالضغوط النفسية والمهنية وبالتالي الوصول إلى الإحترق النفسي .

- أسباب الإحترق النفسي :

وفي هذا الصدد ذكرت إحدى الدراسات من خلال استعراض أربعة عشر دراسة بحث عن أسباب وأعراض الإحترق النفسي وتبين فيها وجود ثمانية أسباب رئيسية للإحترق النفسي وهي :

- 1- العمل لفترات طويلة دون الحصول على قسط كاف من الراحة 2- غموض الدور
- 3- فقدان الشعور بالسيطرة على مخرجات العمل أو الإنتاج 4- الشعور بالعزلة في العمل
- 5- الزيادة في عبء العمل وتعدد المهام المطلوبة 6- الرقابة والملل في العمل 7- ضعف استعداد الفرد للتعامل مع ضغوط العمل 8- الخصائص الشخصية للفرد⁽²¹⁾

2- القلق:

ويعرفه "فاروق عثمان" على أنه حالة من الخوف الغامض الشديد الذي يمتلك الإنسان، ويسبب له كثيراً من الكدر، الضيق، الألم، والقلق يعني أيضاً الانزعاج، والشخص القلق يتوقع الشر دائماً، ويبدو متشائماً، ومتوتر الأعصاب، ومضطرب، كما نجد أن الشخص القلق يعاني من فقدان الثقة في النفس، وفقدان القدرة على التركيز⁽²²⁾.

ويعرفه "عبد الرحمان واي" على أنه انفعال مركب من الخوف، وتوقع الخطر، والعقاب، أو هو الخوف من الخطر المحتمل الغير المؤكد الوقوع فيه، وهو انفعال مؤلم نشعر به حين لا نستطيع أن نفعل

شيئا أمام موقف خطير يهددنا بالخطر، وبعبارة عن حالة توتر شامل ومستمر، نتيجة توقع خطر فعلي أو رمزي قد يحدث، وعليه يمكن اعتبار القلق انفعال مركب من الخوف وتوقع التهديد والخطر⁽²³⁾.

أما الجمعية الأمريكية للطب النفسي فقد صاغت أكثر تعريفات للقلق شيوعا من فوصفته بأنه: خوف أو توتر أو ضيق ينبع من توقع خطر ما يكون مصدره مجهولا إلى درجة كبيرة، كما يعد كذلك مصدره غير واضح، كما يصاحب القلق عدد من التغيرات الفيزيولوجية⁽²⁴⁾.

❖ في الصحة البدنية :

تشير التقارير الطبية إلى أن العلاقة بين الضغط و الصحة البدنية قوية جدا، وهناك بعض الباحثين (FRESE. 1966) يعتقدون أن في حوالي 72% من الأمراض العضوية يلعب الضغط دورا مهما فيها، مع العلم أن الأمراض العضوية تضم ما هو خطير مثل أمراض القلب و القرحة المختلفة والسكري والسرطان. كما يذكر (WILLIAM SON & COHEN 1991) إن التعرض لمستويات الإجهاد العالية يزيد من قابلية الفرد للإصابة بالأمراض المعدية كنزلات البرد والزكام⁽²⁵⁾.

❖ المهنة :

في الأداء: ترى بعض الدراسات الحديثة أن للضغط تأثيرا سلبا على الأداء حتى وإن كان ضعيفا وهذا للأسباب التالية:

أن الضغط يمكن أن يصرف انتباه العامل عن العمل، فالعامل الذي يختبر مستويات الإجهاد يمكن أن يركز انتباهه على الحياة الوجدانية التي يعانها بدلا من التركيز على المهمة التي يقوم بها، كما أن التعرض المبكر أو المستمر لضغط الخفيف تكون آثاره وخيمة على الصحة حيث يصبح القيام ببعض المهام غير ممكن، أما مستويات الضغط الخفيفة يمكن أن تعمل على زيادة اليقظة، التي يمكن أن تشتبك مع الأداء وتعمل على خفضه. ومع ذلك تجدر الإشارة إلى أن بعض الأفراد يكون أدائهم متميز في ظروف الضغط لعدد من الأسباب أهمها :

- يمكن أن يكون هؤلاء الأفراد شديدي الخبرة في العمل الذي يقومون به.
- يمكن أن يرى الأفراد الضغط ضربا من ضروب التحدي ولا يرونه ضربا من التهديد الذي يهدد صحتهم.
- هناك الفروق الفردية بين الناس، فالأفراد ذووا الشخصية أ (A) يحبون الإثارة ويبحثون عنها لأنهم يكونون سعداء في مواقف الإثارة، عادة يكون أداء هذا النوع من الناس مرتفعا في ظروف الإجهاد.
- أما الأفراد ذووا طراز الشخصية (B) فهم يبتعدون عن مواقف الإثارة ولا يرغبون في التواجد فيها، وهؤلاء هم الأفراد الذين يمكن أن يتأثروا في مواقف الضغط⁽²⁶⁾.

5- عواقب استمرار ضغوط العمل :

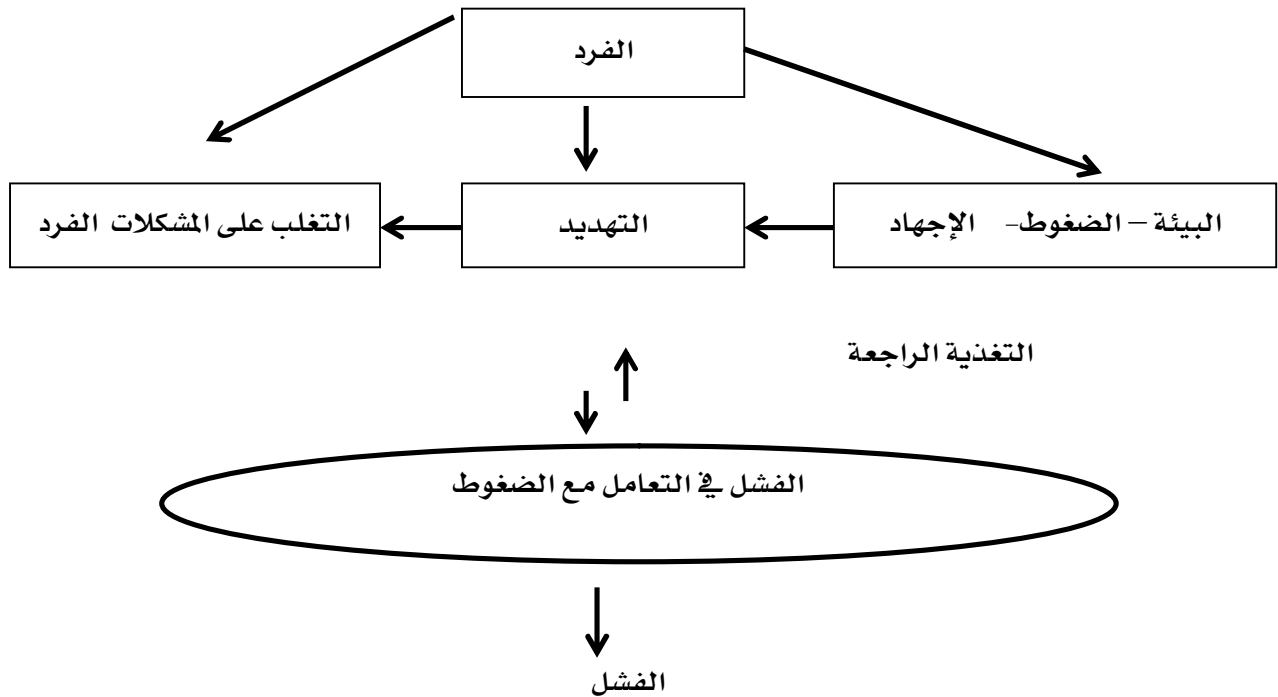
نجد الدول المتقدمة تعطي أهمية للعمل ودوره في الإنتاجية والدخل القومي، وينظر إلى العواقب أو تكلفة عدم التعامل مع مصادر الضغوط المهنية من جانبين :

أ- تكلفة مباشرة : ويعود ذلك إلى عدم الاستفادة التامة من الفرد العامل بسبب التغيب أو ترك العمل أو الأداء المتدني ، وفي بعض الحالات تضطر المنظمة لدفع تعويضات إذا تترتبت على الضغوط مشكلات فسيولوجية أو بدنية .

ب- تكلفة غير مباشرة : تتمثل في قنوات الاتصال السلبية بين الأطراف المختلفة في مكان العمل بسبب تقدير الذات المنخفض أو حالة عدم التوازن والمعنويات المنخفضة للذين يعانون من الضغوط⁽²⁷⁾

6- النظريات التي تطرقت لضغوط العمل :

-**نموذج كوبر Koper**: يوضح اسباب تأثير الضغوط على الفرد وذلك زان بيئة الفرد تعتبر مصدر للضغوط مما يؤدي إلى تهديد لحاجة من حاجات الفرد أو يشكل خطرا يهدد الفرد و اهدافه في الحياة فيشعر بحالة الضغط ويحاول استخدام بعض الاستراتيجيات للتوافق مع المواقف واذا لم ينجح في التغلب على المشكلات و اذا استمرت الضغوط لفترات طويلة فإنها تؤدي إلى بعض الامراض مثل: أمراض القلب و الامراض العقلية، كما تؤدي أيضا إلى زيادة القلق والاكتئاب وانخفاض تقدير الذات. وكما يمكن رصد نموذج "كوبر".



* الشكل: نموذج "كوبر" يوضح بيئة الفرد كنموذج للضغوط⁽²⁸⁾

- نموذج مارشال Marchale: يحدد العوامل المسببة للضغط في العمل والاعراض التي تظهر على الفرد نتيجة تعرضه لضغوط العمل وهي اعراض خاصة به و تؤدي به إلى امراض القلب واعراض خاصة بالمؤسسة تؤدي إلى العدوانية وتكرار الحوادث .

- نموذج هب Hebb:

اهتم بدراسة العلاقة بين الأداء الخاص بدور المدير و المتطلبات الملقاة عليه من ضغوطات العمل ومن هنا أكد هب على أن العمل والمتطلبات القليلة تؤدي إلى الملل حيث أن الزيادة في المتطلبات تعتبر حافزا ومنشطا ، لكن لو زادت المتطلبات على قدرة الفرد فإنها تؤدي إلى القلق و بالتالي يقل تركيز الفرد وقدرته على الأداء كما أن الزيادة المستمرة في المتطلبات تؤدي إلى التعب وفقدان القدرة على الأداء و بالتالي الإنهاك النفسي وما يتبعه من انطواء وإثارة لأتفه الأسباب⁽²⁹⁾.

♦ النموذج المهني ل " هاوس":

لقد صاغ "هاوس" نموذج لضغط المهني سنة 1974، وقد ركز في نمودجه على خمس (05) متغيرات ضرورية لفهم موضوع الضغط هي:

- 1- الظروف الاجتماعية والموضوعية المؤيدة للإجهاد.
 - 2- ادراكات الفردية للإجهاد.
 - 3- الاستجابات الفردية للإجهاد المدرك إنكار (معرفية)، انهيار (نفسية) تدخين (سلوكية).
 - 4- نتائج التحمل الكبير للإجهاد المدرك، التعب الفكري ومرض الأوعية القلبية.
 - 5- المتغيرات الشرطية الفردية و الموقفية، ادارة البيت ،رعاية الابناء، التزامات مالية.
- النموذج الكيميائي -الحيوي للضغط" هانز سيللي" :

تمت صياغة هذا النموذج من طرف "هانز سيللي" سنة 1956، بحيث يهتم بتحليل ظاهرة الضغط على أنها حالة تحددها أعراض محددة، تتكون من كل التغيرات المجهدة غير المحددة داخل النظام الحيوي. وطبقا لهذا النموذج نجد أن هناك العديد من المواقف المجهدة: المواد السامة، الظروف أو الحالات العاطفية، الآلام الجسمية...، التي تنتج عن الضغوط ،وقد اطلق عليها "سيللي" اسم :أعراض التكيف العام والتي تتكون من ثلاثة مراحل يسببها مصدر مجهود واحد، وهذه المراحل هي :

- مرحلة الإنذار (Alarme)
- مرحلة المقاومة (Résistance)
- مرحلة الإنهاك (Exhaustions)

ففي المرحلة الأولى : يبدأ الجسم باستكشاف المواقف الضاغطة كذلك يبدأ بشحن لمقاومة وفي

المرحلة الثانية تزداد المواقف الضاغطة وتزداد مقاومات هذه المواقف أكثر من المعدل الطبيعي لها ، وفي

المرحلة الثالثة يبدأ الجسم الإنهاك والتعب فتقل طاقة المقاومة⁽³⁰⁾ .

♦ الاستراتيجيات التنظيمية :

- هناك عدة استراتيجيات للتخفيف من الضغوط هي :

- **ممارسة الدعم العائلي:** قد تتعارض الأدوار العائلية مع ادوار العمل وإذا حدث هذا التعارض فإن المعني بالأمر يمكن أن يختبر الكثير من الضغط، كثير من المنظمات - وفي إطار مساعدتها لعمالها - تدرك هذه الحقيقة وتحاول بقدر المستطاع أن تخفف الإجهاد عن عمالها بعدد من الممارسات منها: برامج العمل المرنة والدعم الاجتماعي الذي يقدمه المشرفون وإفراد الإدارة للعمال ،هذه الممارسات تعمل بدون شك على تخفيف الإجهاد على الأفراد⁽³¹⁾

- **برامج إدارة الضغط:** تعني هذه البرامج تدريب العمال في منازلهم على أساليب مواجهة الإجهاد مثل : التأمل والاسترخاء ونظام النشاط والغذاء وغيرها من الأساليب التي يمكن ممارستها للتخفيف من الضغط ،وفي ما يخص التدريب فإن المنظمة تقدمه لعمالها إذا كان لديها من يستطيع تقديمه ،ولا فأنها تطلب الخدمة من جهة خارجية لتقوم بها وتحمل المنظمة المسؤولية عن ذلك .

- **أسلوب حل المشكلات :** يعتبر أسلوب حل المشكلة في بيئة العمل وسيلة فعالة في مواجهة ضغوط العمل ،

حيث أن التخطيط والتنظيم والاستفادة من التجارب السابقة ، إضافة إلى التعامل العقلاني يؤدي إلى

نتائج ايجابية في مواجهة الضغط كالتخفيف منه وإدارته بشكل ايجابي ،كما أن المواجهة الفعالة

للمشكلة وعدم الانسحاب منها يؤثر بشكل ايجابي في التخفيف من الضغط النفسي⁽³²⁾

- **التطبيق الجيد لمبادئ الإدارة والتنظيم :** أن المخالفات التي يقع فيها كثير من الإداريين في ممارستهم

اليومية بسبب عدم إتباعهم المبادئ المتعارف عليها في الإدارة والتنظيم تسبب الكثير من الضغوط النفسية

لمرؤوسيههم لذلك يتعين على المستويات الإدارية العليا ممارسة مبادئ الإدارة والتنظيم بشكل جيد .

- **تصميم وظائف ذات معنى:** تفقد الكثير من الوظائف معناها وقيمتها لبعض الأسباب منها زيادة حدة

التخصص بالقدرة التي يفقد الموظف أي متعة في العمل وينقلب العمل إلى روتيني ممل ،كما تفقد

الوظائف معناها وأهميتها من انعدام حرية التصرف فيها ،وعليه يكون العلاج متمثل في تصميم وإعادة

تصميم الوظائف بشكل يجعله ذو معنى وأهمية .- **تصميم الهيكل التنظيمي :** يمكن إعادة تصميم الهيكل

التنظيمي بعدة طرق لعلاج مشاكل الضغوط مثل إضافة مستوى تنظيمي جديد أو تخفيض مستوى

الإشراف أو دمج وظائف يضاف إلى ذلك إمكانية توظيف العلاقات التنظيمية بين الإدارات والأقسام .

- تطوير نظام الاختيار والتعيين: ذلك باختيار أفراد لديهم القدرة على العمل المطلوب وكذلك تخفيض أعباء الوظيفة من إعادة تصميم نظم تدريب متطورة وخلق نظم عادلة للحوافز وتقديم الأداء وتنشيط نظم الاتصال وقنواته وتطبيق نظم المشاركة في اتجاه القرارات والأخذ لأسلوب الإدارة الديمقراطية في المنظمة .

التحديد الدقيق لمتطلبات الدور بما يمنع أي تداخل أو تعارض مع الوظائف الأخرى في المنظمة مع توفير كافة التسهيلات التي تمكن الفرد من القيام بتلك المتطلبات.

ترتيب بيئة العمل المادية بالشكل الذي يمكن الفرد من أداء عمله بسهولة ويجعله اقل عرضة للمخاطر والأضرار⁽³³⁾ .

خلاصة:

انطلاقاً مما سبق التعرّيج إليه يمكن القول بأن ظاهرة ضغط العمل، هي جديرة بالاهتمام والدراسة لما لها من خطورة وتأثير على كثير من جوانب حياة العمال، والمجتمع برمته ، إضافة إلى ما تسببه من تكاليف باهظة من جراء علاج الأمراض ، والاضطرابات والمشكلات التي تنجم عن عنها ، وبالرغم من تعدد مصادر ضغوط العمل وتنوعها عند العمال إلا أن العمل يظل هو أحد أهم هذه المصادر وأخطارها .

فضغوط العمل كظاهرة نفسية عرفت ازدياد كبير في السنوات الأخيرة بين الموظفين في المؤسسات ، وذلك راجع إلى ما يشهده العالم المعاصر من أحداث و تغيرات في جميع الجوانب (الثورة المعلوماتية- المعرفية-) وهذه التغيرات هي الناتجة عن العولمة وما واکبها من تطورات التي أفرزت عدة نتائج سلبية منها : تدني في المردودية في المنظمة ، الاضطرابات النفس الجسدية... إلخ...، ولهذا لابد من التدخل وتظافر جهود الباحثين في علم النفس العمل والتنظيم ، بهدف الكشف عن أسباب هاته الظاهرة ، مع اقتراح استراتيجيات جديدة وفعالة للتقليل منها .

الإحالات والهوامش :

- 1- شحاتة حسن وزينب النجار: معجم المصطلحات النفسية والتربوية، دار المصرية اللبنانية، لبنان . 2003 . ص 208 .
- 2- فتيحة بن زروال: العنف كمظهر من مظاهر الاجهاد العنف ، المجتمع مداخل معرفية متعددة ، أعمال الملتقى الدولي الأول مارس 2003، جامعة محمد خيضر بسكرة ، دار الهدى للنشر ، الجزائر. ص 445 .
- 3 - محمد سليمان العميان: السلوك التنظيمي في منظمات العمل ، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن. 2004 . ص 161 .
- 4- شعبي نور الدين: مصادر ضغوط العمل واستراتيجية المواجهة لدى أستاذة التعليم الثانوي، رسالة ماجستير في علم النفس وتطبيقاته ، جامعة عبد الحميد ابن باديس . مستغانم ، الجزائر. 2011 . ص 27 بتصرف
- 5 - عسكر أحمد سمير ، متغيرات ضغط العمل – دراسة نظرية وتطبيقية في قطاع المصارف بدولة الإمارات العربية المتحدة، الإدارة ، الرياض. دس ص9.
- 6 - على عسكر: ضغوط الحياة وأساليب مواجهتها: الصحة النفسية والبدنية في عصر القلق والتوتر، دار الكتاب الحديث ، ط2، القاهرة . 2000 ص ص 94 - 95 .

- 7- عثمان حمود الخضرة: علم النفس التنظيمي، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى. 2005. ص 76 - 77
- 8- أحمد ماهر: كيفية التعامل مع الضغوط وإدارة ضغوط العمل، الدار الجامعية، الإسكندرية. 2005. ص 32.
- 9- عثمان حمود الخضرة: علم النفس التنظيمي، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى. 2005. ص 77 - 78
- 10 - المرجع نفسه ص 77 - 78 .
- 11 - المرجع نفسه ص 78 بتصرف
- 12- المرجع نفسه ص 80
- 13 - المرجع نفسه ص 79 - 80
- 14- المرجع نفسه ص 79 - 80
- 15 - حمدي علي الفرماوي، رضا عبد الله : الضغوط النفسية في مجال العمل والحياة، دار الصفاء للنشر والطباعة والتوزيع، عمان، الأردن. 2009. ص 70 - 71 .
- 16 - عبد الرحمن الطريري: الضغط النفسي، مفهومه، تشخيصه، وطرق علاجه، ومقاومته، مطابع شركة الصفحات الذهبية المحدودة الرياض، الطبعة الأولى. 1994. ص 227.
- 17- حمدي علي الفرماوي، رضا عبد الله : الضغوط النفسية في مجال العمل والحياة، دار الصفاء للنشر والطباعة والتوزيع، عمان، الأردن. 2009. ص 72.
- 18- على عسكر: ضغوط الحياة وأساليب مواجهتها: الصحة النفسية والبدنية في عصر القلق والتوتر، دار الكتاب الحديث، ط2، القاهرة . 2000. 107. بتصرف
- 19- المرجع نفسه ص 107 بتصرف
- 20- عبد الرحمن الطريري: الضغط النفسي، مفهومه، تشخيصه، وطرق علاجه، ومقاومته، مطابع شركة الصفحات الذهبية المحدودة الرياض، الطبعة الأولى. 1994. ص 233.
- 21- المرجع نفسه ص 18.
- 22- فاروق السيد عثمان: القلق وإدارة الضغوط النفسية، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر. 2001. ص 18. بتصرف
- 23- عبد الرحمن واي: الوجيز في الأمراض العقلية والنفسية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. 1999. ص 45 بتصرف.
- 24 - أمثال الهادي الحويلة: القلق والاسترخاء العضلي، مفاهيم ونظريات وعلاج، الطبعة الأولى. 2010 ص 25.
- 25 - عبد الرحمن الطريري: الضغط النفسي، مفهومه، تشخيصه، وطرق علاجه، ومقاومته، مطابع شركة الصفحات الذهبية المحدودة الرياض، الطبعة الأولى. 1994. ص 233.
- 26 - المرجع نفسه ص 223 .
- 27 - على عسكر: ضغوط الحياة وأساليب مواجهتها: الصحة النفسية والبدنية في عصر القلق والتوتر، دار الكتاب الحديث، ط2، القاهرة . 2000. ص 110.
- 28- فاروق السيد عثمان: القلق وإدارة الضغوط النفسية، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر. 2001. ص 103.
- 29 - المرجع نفسه. ص 102 - 104 .
- 30- العديلي ناصر محمد: السلوك الانساني والتنظيمي، معهد الإدارة العامة، الرياض، المملكة العربية السعودية. 1995. ص 88.
- 31- محمد سليمان العميان: السلوك التنظيمي في منظمات العمل، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن. 2004. ص 99
- 32 - المرجع نفسه ص 99.
- 33 - المرجع نفسه ص 171

من أعلام جمعية العلماء المسلمين، الشيخ عمار مطاطلة: ودوره الجهادي والتربوي في منطقة سبدو. 1956/1953

بن يوب محمد
أستاذ الأنثروبولوجيا
المركز الجامعي غيلزان

مقدمة:

شكلت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مكونا رئيسيا داخل الحركة الوطنية الجزائرية، واجهت المشروع الاستعماري بمشروع إصلاحى استمد من التعاليم الإسلامية والذي سيدعم نضال مكونات الحركة الوطنية الأخرى.

غير أن مثل هذا المشروع لم يكن ليتجسد في الواقع لولا أولئك الرجال الذين ضحوا بكل ما يملكون من أجل تبليغ رسالة الجمعية بمنطقة سبدو، ومن بينهم العلامة المرحوم الشيخ عمار مطاطلة حيث لاتزال مدرسة الجمعية وأعضاؤها وتلاميذته شواهد على الدور الكبير الذي قدمه في سبيل نشر العلم والمعرفة في هذه المنطقة. والتصدي الى المشروع الاستعماري الهادف الى محو الشخصية الجزائرية تماشيا مع مبادئ الجمعية.

نشأته في حاضنة علمية:

ولد عمار مطاطلة في 26 نوفمبر 1915 ببلدية عين القشرة ولاية سكيكدة. نشأ في بيئة دينية مشبعة بالتعاليم الإسلامية كان أبوه محمد بن رابح فقيها وقاضيا تأثر مبكرا بالحركة الإصلاحية التي قادها بن باديس في عشرينات القرن 20 قبل تأسيسه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ماي 1931 (1).

وهكذا توفرت الظروف العائلية والثقافية لأن يكتسب الطفل عمار ثقافة إسلامية على مراحل العمرية على يد كبار الفقهاء والمشايع. لقد تعلم أحرف الهجاء في سن الرابعة على يد معلم القرآن محمد بن علاوة وختم القرآن الكريم عند بلوغه سن الحادية عشر. مكنه ذلك من القيام بصلاة التراويح وإمامة الجماعة، ثم تتلمذ على يد الشيخ مسعود بن العيساني حيث أخذ عنه مبادئ النحو والفقه، ستتعمق مع مشايخ آخرين منهم الشيخ أحمد بن العابد و الشيخ عبد العزيز بن الحاج الصادق أمام مدينة القل.

وتبقى أهم ترقية حظي بها الشيخ عمار مطاطلة هي لحظة التحاقه ضمن عشرة طلاب بالجامع الأخضر بالقسطنطينية في شهر سبتمبر 1934 لحضور الحلقات الدراسية التي كان يشرف عليها الشيخ عبد الحميد بن باديس⁽²⁾، مما زاد تعلقه بهذا المعلم ومشروعه الإصلاحية. وكان أمله مواصلة دراسته في جامع الزيتونة، إلا أن قيام الحرب العالمية الثانية سنة 1939 وما تلاها من إجراءات حالت دون التحاقه بتونس.

رحلة عمار مطاطلة ورحلته القدرية إلى سبدو:

انتهت الحرب العالمية الثانية سنة 1945 تعالت الجمعية إلى النشاط بعدما تجذرت في الجسم الاجتماعي الجزائري. وقد راهنت منذ البداية على شبكة من المدارس الحرة لتمرير خطابها. وقد كان عمار مطاطلة من بين مجموعة من المعلمين التي ستعتمد عليهم الجمعية. عين في خريف 1945 وبقرار من لجنة التعليم بمدرسة التهذيب بشاطادون (شلغوم العيد حالب)⁽³⁾، فقبل هذا التعيين على الرغم من أن وضعه المادي كان أفضل حيث كان يتقاضى مرتبات تفوق بثلاث مرات ما يتقاضاه معلمو مدارس الجمعية. وفي سنة 1951 انتقل إجباريا إلى مدرسة التربية الواقعة بحي الحمري بوهراون دون رضاه ولا مراعاة لظروفه العائلية، ثم منحت له مسؤولية إدارة المدرسة بعد إقالة مديرها ليخلفه العربي سعدوني في نفس المدرسة، ثم يعين مديرا من جديد في مدرسة مديوي بنفس المدينة. وأخيرا يقرر مسؤولو الجمعية وعلى رأسهم الشيخ العربي التبسي تعيين الشيخ عمار مطاطلة إلى سبدو لتولي التدريس هناك وقد قبل ذلك دون تردد احتراما للشيخ العربي التبسي.

صاحب المبادرة في إنشاء مدرسة الإرشاد والتعليم بسبدو:

التحق الشيخ عمار مطاطلة بسبدو⁽⁴⁾ سنة 1952 وهو عازم على أداء رسالته التربوية لكنه تفاعا بغياب مدرسة مناسبة لمشروع الجمعية. فهي اصلا كانت عبارة مرآب كبير على طرف الشارع الرئيسي لسبدو أجرته الجمعية المحلية لاحتضان مدرسة لإقامة الصلاة والدروس الدينية. وقد صدر أمر تأسيسها في الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية تحت رقم 2998 ليوم 25 ماي 1945⁽⁵⁾.

لقد وجد الشيخ عمار مطاطلة هذه المدرسة في حالة كارثية حيث كانت تتشكل من غرفتين بدون مرافق كالماء ودوره المياه ولافناء للاستراحة. وكما يذكر في مذكراته فإنه لم يجد مدرسة وإنما قبوا مشكلا إلى جزئين في كل منها سبورة ومقاعد مرصوصة جلها محطم، فاشمأزت نفسه لهذا المنظر وأراد الرحيل لولا الاحترام الذي كان يكنه للشيخ العربي التبسي. وحفاظا على سمعته وسمعة الجمعية. قرر الشيخ عمار مطاطلة تغيير هذا الوضع بطرحه فكرة بناء مدرسة على الجمعية المحلية تتشكل من فصلين وإلى جانبها مسجد وتدعيمها بالمرافق الضرورية. وجد تجاوبا وإرادة قوية لدى أعضائها ومنهم الحاج احمد

الشيخاوي وابنه عبد القادر، تشاور وبن دالي والحسين ولد دحو ومحمد بن حلوش⁽⁶⁾. وفي اجتماع حضره الشيخ عمار المطاطلة وهؤلاء الأعضاء حظى المشروع بالموافقة وشرع في انجازه فورا حتى لا يتأخر أبناء القرية عن الدراسة. ومع بداية خريف 1953 اكتمل المشروع وأضحت كل من المدرسة والمسجد جاهزين لأداء دورهما.

نظم حفل بهيج بمناسبة افتتاح المدرسة يوم 23 سبتمبر 1953⁽⁷⁾، الذي أعلن عنه في صحيفة البصائر. وقد حضر هذا الاحتفال خلق كثير. فبالإضافة إلى سكان قرية سبدو استدعي لتشريف الحفل عضوين بارزين من الجمعية وهما الشيخ عبد اللطيف سلطاني أمين مال الجمعية والشيخ السعيد الزموشي بصفته ممثلا لها في القطاع الوهراني. كما حضر الحفل عدد كبير من معلمي مدارس الجمعية بالمدن والقرى المجاورة لسبدو ومنهم الشيخ مصباح حويذق الذي كان مدرسا بعين غرابية وعدة شخصيات تلمسانية ساهمت ماديا في تشييد المدرسة والمسجد وتجهيزهما بكل الوسائل الضرورية. وظلت هذه المدرسة البنت المدللة لدى رجال الإصلاح بتلمسان مرتبطة بالمدرسة الأم بدار الحديث بتلمسان. تتلقى الدعم منها من جميع النواحي حتى تؤدي رسالتها التربوية التي استند إليها رجالات الجمعية على رأسها ابن باديس في محاربتهم للمشروع الاستعماري حيث صرح في هذا الصدد بما يلي " انا احارب بالعلم، ومتى انتشر التعليم في ارض اجذبت على الاستعمار وشعر في النهاية كسوء المصير⁽⁸⁾".

وقد ظل الشيخ عمار مطاطلة متعلقا بمدرسة دار الحديث وأبيها الشيخ الإبراهيمي الذي يعتبر الرجل الثاني للجمعية بعد دعمها بعد زعيمها الأول الشيخ عبد الحميد بن باديس ويعترف له بدوره في قيادة النهضة الجزائرية الحديثة وجهاده في سبيل عروبتها وإسلامها. لكنه يتأسف كثيرا لما انتهى إليه هذا العلامة عندما فرضت عليه الإقامة الجبرية من طرف السلطات في بداية الاستقلال.

بين المدرسة والمسجد نشاط متواصل:

منذ تأسيسها سنة 1931 قدمت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نفسها على أنها حركة دينية ثقافية هدفها الدفاع عن الهوية العربية الإسلامية للجزائريين، بالعودة إلى القيم الإسلامية النقية، وتطهيرها من البدع والخرافات والتدنيس الذي أحل بالدين مع المستعمر دون الانغلاق على منجزات العلوم الحديثة وإبداعات الشعوب تماشيا مع فكر ابن باديس المنتحور حول ضرورة انبعاث الأمة الجزائرية وإعادة تشكيل الوطن المسلوب بالوسائل السلمية على المدى البعيد أي الحرص على الاستقلال كهدف مستقبلي⁽⁹⁾. وقد راهنت الجمعية في تحقيق هذا الهدف على مؤسستين المدرسة والمسجد. وعلى هذا الأساس احتضنت مدرسة الإرشاد بسبدو والتعليم صفوف دراسية تضم كوكبة من التلاميذ بإشراف من عمار

مطاطلة. كان يتلقى هؤلاء التلاميذ دروس في قواعد اللغة العربية والحساب والتاريخ الإسلامي وعلوم الدين بطريقة حديثة وبعيدة عن تلك المعتقدات والممارسات المالية التي كانت تنشره في الارياف الجزائرية بتدعيم من الحركة المرابطية بشكل يعاير المبادئ الاسلامية الاساسية التي عمل بها السلف الصالح كتقديس الاولياء واحترام الاموات، الاعتقاد بالوساطة بين الله والمعبد ، والانحراف ... الخ⁽¹⁰⁾.

واستطاعت المدرسة تحقيق نتائج نسبة نجاح 100 % في امتحان الشهادة الابتدائية خلال موسمين متتابعين 1954 و 1955 ومن التلاميذ الذين تتلمذوا على يد الشيخ عمار مطاطلة، بوبكر احمد نور الدين كروم، شيخاوي صليحة، وبكارة فاطمة. هذه التلميذة التي يعترف لها الشيخ باجتهادها وجراتها وخصالة لسانها وتجلى ذلك في تلك الكلمة الترحيبية التي ألقته أمام المدعوين لحفل افتتاح مدرسة سبدو عبرت فيها عن تضحيات رجال الجمعية من اجل تجسيد مشروع مدرسة سبدو والحفاظ على الهوية العربية الإسلامية بالجزائر أمام محاولات الفرنسة. وأبدت عن تعطش الناشئة المسلمة السبداوية في العلم والمعرفة و الحرية والاندماج وما جاء في كلمتها : " انس بدو ترحب بكم ومدرستها الفتية تفتح ابوابها تحتضنكم كما تحتضن الام الحنون ابناءها وان قدومكم الميمون يشرفنا ويملا قلوبنا غبطة وسرورا ويدفعنا الى الامام ويزيدنا ايمانا مع ايماننا بهذا المبدأ السامي مبدا جمعية العلماء الذي اسسه رجال صدقوا ما عهدوا اليه عليه ... وان شعوركم النبيل و عطفكم على هذا المشروع الذي سيعود بالخير على الجميع ليجعلنا ننبعث من جديد الى الامام مواصلين الخطى نحو الامل المنشود بادن الله وان كل خطوة قطعتموها من ارض الجزائر الحبيبة تشهدكم بانكم عرب مسلمون وانكم جزائريون لاتقبلوا بهذه الثلاثة بديا وان يومكم هذا وامثاله من ايامكم المشهودة برهانا ساطعا و حجة دامعة ضد __ الطغان الظالمون من انكم فرنسيون او مسلمون فرنسيون كما يعبرون⁽¹¹⁾

كما كان المسجد المجاور لمدرسة سبدو فضاء آخر كان ينشط فيه الشيخ عمار مطاطلة حيث كان يقيم الصلوات الخمس والجمعة ويقدم دروس الوعظ والإرشاد في أوقاتها وفي ليالي رمضان. وكانت خطب الجمعة مناسبات للتعرض إلى قضايا الأمة وفي مقدمتها القمع الاستعماري الفرنسي في الجزائر وحتمية التصدي له. ففي إحدى جمعات مارس 1955 وفي مرحلة كانت الثورة التحريرية المباركة قد امتدت في عدة مناطق من البلاد خطب الشيخ عمار مطاطلة في أهالي سبدو يحثهم فيها على إزالة غفلتهم والتصدي للمحتل بمثل ما فعل إخوانهم في جهات أخرى من الوطن حيث يقول : "لا تتخلف عن الركب. فتحرك لتلتحق بالقافلة قبل أن تدوسك الأقدام، فإياك أن تسدل على نفسك رداءة الغفلة ... وانهض للحاق بإخوانك الذين أعلنوها ثورة حتى الاستشهاد."

كان المستعمر الفرنسي منذ البداية يدرك خطر المشروع الإصلاحي للجمعية على مستقل وجوده في الجزائر. هذا المشروع الثقافي الاجتماعي ساهم في تحديد مجموعة سياسية دينية في الوضعية الاستعمارية على أساس تضرد الامة الجزائرية وتميزها واستحالة اندماجها في الامة الفرنسية" لان هذه الامة الجزائرية المسلمة ليست في فرنسا و لا تريد ان تصبح فرنسا ومن المستحيل ان تصبح فرنسا حتى لو جنسوها (12) "، وبالتالي حررت ديناميكية حفزت على تطور استقلالية المجتمع، السياسي الجزائري كما تبلورت مع الدعوات الاستقلالية لدعم الجمعية ابن باديس في السنوات الاخيرة من حياته وتجلت في دعواته الى الحرية بقوله: " تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا نحن الحاملين للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيا ونموت لاجلها (13) " ليشكل دعما للاتجاه الاستقلالي الذي نادى به حزب الشعب وتجسد مع قيام الثورة التحريرية. وعلى هذا الأساس ظل رجال الجمعية والمتعاطفين معهم محل ملاحقات وتوقيفات. ومن هنا يجب أن نفهم تعرض مدرسة الإرشاد بسبدو إلى مدامات ومساءلات للشيخ عمار مطاطلة وتلامذته حول البرامج الدراسية وعلاقة المدرسة بالثورة. وتنامت هذه المراقبة بعدما انتقلت نيران الثورة التحريرية إلى منطقة سبدو بعدما تشكلت خلية ثورية طلابية بدوار أولاد ورياش بنواحي درمام كان هدفها الإشراف على الثورة بالمنطقة في خريف 1955، ثم قيامها بأولى العمليات ضد احد المستوطنين بمنطقة سبدو المدعو دياز. قادها المرحوم بن بختي بومدين المدعو فاتح (14). لتنتقل القوات الاستعمارية بسبدو بعد ذلك اعتقال كثير من أعضاء الجمعية واغتيال عنصرين هامين كانا يدعمان الحركة الإصلاحية ماديًا ومعنويًا وهما بن حميدي على المدعو بوسدره وشقيقه عبد القادر في أفريل 1956 (15). ثم جاء دور المدرسة ومسجدها فقد طوقتها فرقة عسكرية مدججة بالسلاح يتقدمها حاكم تلمسان في 09 ماي 1956 واتخذت قرارا بإغلاق المؤسسات أمام التلاميذ وشيخهم عمار مطاطلة ومما ذكره هذا الحاكم لتبرير خطوته: " أننا بكل أسف نغلق اليوم أبواب المدرسة والمسجد حفاظا على الأمن وعندما تنطفئ هذه النار نعيد إليكم المفاتيح وتعودون إلى أعمالكم (16)".

وبعدها وُضِعَ الشيخ عمار مطاطلة تحت الإقامة الجبرية ريثما تحين محاكمته يكن الله حفظه ولم تتمكن القوات الاستعمارية من تحقيق هدفها حيث سهلت له فرقة من جيش التحرير الوطني مغادرة سبدو نحو وجدة المغربية في نهاية ماي 1956. وانتقاما منه أخرجت السلطات الاستعمارية عائلة الشيخ من مسكنها التابع للمدرسة. والأكثر من ذلك امتد القمع الاستعماري إلى أبيه وأخويه حيث هدمت منازلهم على رؤوسهم في ريف القل. أما ولداه أحمد وعبد الحميد اللذان كانا يدرسان بمعهد عبد الحميد بن

باديس بقسنطينة انتقلا إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة ثم ابلغ أنهما جندا في جيش التحرير الوطني في الجهة الشرقية.

وفي المغرب واصل الشيخ عمار مطاطلة عمله التربوي والجهادي من خلال دفعه اشتراكات للجبهة. وبعد الاستقلال ورغم المعاناة البيروقراطية فقد استمر الشيخ في العطاء سواء في المدرسة أو المسجد مدافعا عن الدين بالتي هي أحسن

استنتاج:

يعتبر الشيخ عمار مطاطلة واحدا من اعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذين — على ارض الواقع المشروع الثقافي — ابن باديس و التصدي لمشروع الاحتلال الفرنسي للجزائر وقد شاعت أن تكون سبدو وان تكون حاضنة للمشروع التربوي والنضالي بدءا من 1952 إلى غاية 1956 لقد شكل الشيخ عمار المطاطلة نموذج العالم العامل عند ضحى شبابه ومنصبه من اجل القضية الجزائرية من اجل تخليصها من براشين المستعمر عبر برنامج تربوي مستمر من مبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مخرجاته اعداد جيل متشبع بالوطنية ومستعد لمواجهة المحتل وقادر على تحمل المسؤوليات في مرحلة الاستقلال لبناء الدولة الفتية

الإحالات والهوامش :

- 1- Lahouari Addi ,l'impasse du populisme :l'Algérie collectivité politique et Etat en construction . ENAL Alger 1990 , p31
- 2- عمار مطاطلة ، مذكرات حياة و ذكريات أحداث ، الجاحظية ، الجزائر 2000 ، ص 7 .
- 3- المرجع نفسه ، ص 8 .
- 4- سبدو واحدة من بلديات ولاية تلمسان تقع جنوبا على بعد 37 كلم ، كانت تعرف ب : تافراوت ، و هي الموطن الأصلي لقبيلة بني ورياش التي كانت من بين القبائل التي احتضنت مقاومة الأمير عبد القادر ، احتلها الفرنسيون في 09 فبراير 1842 ، أنشأ بها مركز إستيطاني يضم الأوروبيون وبعض الأهالي الميسورين ، كما كانت مقر البلدية المختلطة التي أنشأت سنة 1867 .
- 5- جاءت صياغة نص قرار التأسيس كما يلي :
- « 09 Mars 1945 , déclaration à la sous préfecture de Tlemcen . Association de la culturelle musulmane de Sebdo . But : combattre les fléaux sociaux jeu de hasard , paresse , ignorance , ainsi que tous ce qui est par sa nature interdit par la religion , etc , siège social , chez le président Rue commerçant Sebdo »
- 6- كانت هذه الشخصيات نموذجا للبرجوازية الحضرية المحافظة المالكة لثروة عقارية و تجارية انخرطت في المشروع الإصلاحي لجمعية العلماء ، واستطاعت تعبئة سكان سبدو و ضواحيها حول هذا المشروع و تجلى ذلك من خلال تبرعاتهم لإنجاز المدرسة ودفع الاشتراكات .

- 7- عمار مطاطلة ، مذكرات حياة ، مرجع سابق ، ص 9 .
- 8- الشهاب ، أكتوبر 1934
- 9- بن يوب محمد ، القبيلة و الدولة في الجزائر من الغزو الاستعماري إلى عهد الدولة الوطنية ، رسالة دكتوراه دولة في الأنثروبولوجيا ، جامعة تلمسان 2010 ، ص 184 .
- 10 - A.Merad , le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940 Mouton , lahaye , 1967 , p270
- 11- عمار مطاطلة ، مذكرات حياة ، مرجع سابق ، ص 9
- 12- الشهاب ، أبريل 1936
- 13- عبد الحميد ابن باديس ، كتاب آثار ابن باديس ، أعداد و تصنيف عمار طالبي ، مج 2 ، ج 3 ، ص ص 331 - 332
- 14- بن يوب محمد ، مسيرة كفاح من سبدو إلى الشلف ، مذكرات المجاهد بلكبير محمد ، دار كنوز للإنتاج و النشر ، تلمسان ، 2014 ، ص 34 .
- 15- عمار مطاطلة ، مذكرات حياة ، مرجع سابق ، ص 10
- 16- المرجع نفسه ، ص 186 .

قراءة في سيكولوجية العقلية الخرافية

ميسوم ليلي

طالبة دكتوراه تخصص علم النفس

جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان.

مقدمة:

لا يكاد يخلو أي مجتمع سواء كان تقليدي أو عصري من وجود المعتقدات الخرافية، فهي تمثل جزء لا يتجزأ من ثقافته الشعبية، بما تحمله من عادات وتقاليد وأعراف وقيم، وهي التصديق الجازم بفكرة أو موضوع أو شيء لا يحتوي على أساس علمي منطقي أو موضوعي، فهي معتقدات مخالفة للمنطق والواقع، ويغلب عليها طابع الخيال والأوهام واللاواقعية في تفسير الأشياء، وتشمل مواضيع تتعلق بالصحة والمرض، والتفائل والتشاؤم، العين والحسد، والسحر والمس، والتطير أو "الطيرة" كما تسمى في المعتقد الشعبي الجزائري، رغم أنه يوجد مثل شعبي يؤكد عدم صحة ومفعول التطير مفاده أن (العين صح والطيرة باطلة)، إلا أن التفكير التطيري لا يزال يأخذ حيزا كبيرا في العقلية الخرافية.

أن المعتقد الشعبي هو الذي لا يؤمن به العقل الراقى، وهو المتعلق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي⁽¹⁾، فرغم التطور العلمي والتكنولوجي الحاصل في المجتمعات العربية والغربية، وما ينتج عنه من وجود التفكير العلمي الذي يعتمد على المنطق والحقائق العلمية في تفسير ظواهره، إلا أن ظهور وانتشار الخرافات والعقلية الخرافية ما زال يأخذ حيزا لا بأس به من معتقدات وثقافات هذه الشعوب، ففي دراسة للجوهري (1972) حول الجن في المعتقد الشعبي المصري، أوضح أن المعتقدات الدائرة حول الجن تعود في جانب منها إلى صورة اعتقادية قديمة، كما أوضح أن هناك ارتباطا بين المعتقدات الشعبية، والمعتقدات الدينية، فهذه المعتقدات الشعبية ما هي إلا نتاج لترسب الآلاف من المعتقدات المتجمعة من الديانات القديمة، وبقيت تلازم الفرد المصري رغم محاربة الدين الرسمي له⁽²⁾.

إن المعتقدات الدينية تختلف عن الأنواع الأخرى من المعتقدات في تأكيدها على قوى ما فوق الطبيعية⁽³⁾، والمعتقد هو التقبل الوجداني لقضية أو خبر يحتمل الصدق حسب ما يوجد لدى الفرد من أسباب وحجج، والحجج في المعتقدات غالبا ما يصعب فحصها، وتشتمل على درجات متفاوتة من اليقين الذاتي، أي أنها تختلف في قابليتها للتحقيق⁽⁴⁾، وقد كشفت دراسة خليفة (1995) أن أهم المعتقدات

الخرافية الشائعة في المجتمع الكويتي كانت تدور حول موضوع التفاؤل والتشاؤم، ثم تربية الأطفال، ثم مجال الصحة والمرض، وبعده موضوع الحمل والولادة ، وموضوع الحسد، ثم موضوع المحرمات وأنماط السلوك غير المرغوب فيها ، ووجد أن هناك فروقا بين أفراد العينة في كل من متغيري الجنس والمستوى التعليمي⁽⁵⁾ .

ويشير الهلي(2010) أن أكثر المعتقدات الخرافية شيوعا وانتشارا في التنشئة الاجتماعية لأبناء منطقة ورقلة بالجزائر هي المعتقدات الخرافية التي تدور حول موضوع السحر، ولا يعني هذا أن بقية الأفكار الخرافية ضئيلة الانتشار، بل على العكس فهي منتشرة بشكل مقلق يدعو إلى الاهتمام للتوصل إلى حلول تحد من انتشارها وتمحوها، ولا يكون ذلك إلا بنشر العلم وتعميم التعلم ، كما وجد أن الاناث أكثر ايمانا واعتقادا بالأفكار الخرافية من الذكور من أبناء منطقة ورقلة ، وأن الأفراد الذين يسكنون في المناطق الريفية أكثر تصديقا بهذه الأفكار الخرافية من الأفراد الذين يسكنون في المناطق الحضرية كما اتضح أنه كلما زاد المستوى التعليمي، قلت وغابت المعتقدات والأفكار الخرافية⁽⁶⁾.

أما في المجتمعات الغربية فتشير بعض الدراسات إلى انتشار المعتقدات الخرافية بين أفرادها ، ولكن ليس بنفس الدرجة والحدة الموجودة في المجتمعات العربية ، لأن الخرافة تنتشر أكثر بين المجتمعات المعروفة بتناقضاتها الثقافية والفراغ الثقافي والديني وانتشار الجهل والأمية ، ففي دراسة لفلت وآخرون (Feltt el all,1994) حول علاقة نمط تفكير الفرد ومعارفه، بتوافقه النفسي والاجتماعي، حيث تبين أن نضج التفكير يرتبط بغياب التفكير الخرافي، وأن ارتفاع ظهور الأعراض الاكتئابية يرتبط بغياب التفكير البنائي⁽⁷⁾ ، ويتضح أن المعتقدات الخرافية وانتشار العقلية الخرافية له أخطار وأضرار نفسية ، كما أنه يؤثر على أنماط التنشئة الاجتماعية وله دور في بروز بعض أشكال الاضطراب النفسي، لذا سنعرض في هذا المقال بشيء من التفصيل مفهوم الخرافة والتفكير الخرافي، وطريقة تكوينها ، وأسباب انتشارها ، وصفات الشخصية الخرافية ، وأثر المعتقدات الخرافية على التنشئة الاجتماعية وظهور الاضطراب النفسي.

1. مفهوم الخرافة والتفكير الخرافي.

أ. مفهوم الخرافة لغة:

يشير المعنى اللغوي للخرافة إلى اسم رجل من عذره استهوته الجن، فكلن يحدث بما رأى فكذبوه وقالوا : حديث خرافة. والخراف يشير إلى فساد العقل من الكبر ، ويشار إلى الخرافة بالخريلة⁽⁸⁾ .

ب. مفهوم الخرافة اصطلاحا:

تعرف الخرافة بأنها: " جملة الأفعال أو الألفاظ أو الأعداد ، والتي يظن أنها تجلب الحظ أو النحس ، والخرافات عبارة عن روايات معتقدات دينية قديمة ، لا تجد اليوم سنداً لها من المعتقدات الدينية السائدة أو من الحقائق المقررة ، كما يدل الاصطلاح على الارتباط بمبدأ أو منهج من غير نقد أو تحليل" (9).

ويعرف الزهران والحكمي (2006) الخرافة بأنها: "مجموعة من الاعتقادات والممارسات التي تخالف الحقائق ، ولا يمكن ربط مقدماتها بنتائجها بطريقة موضوعية، يتمسك بها الأفراد ويعتقدون بصحتها بصورة شبه مطلقة ، ويعتمدون عليها في تفسير بعض ما يقع لهم من أحداث في حياتهم اليومية" (10).

ويعرفها جيمس ديفر (Drever James) بقوله: " الخرافة هي عقيدة أو نسق من العقائد قائمة على أساس صلة خيالية بين الأحداث ، وغير قابلة للتبرير على أساس عقلي (Rational grounds) ، وهي مجموعة من العقائد في المؤثرات والقوى التي يقبل وجودها دون نقد ، وتشير الخرافة في الفرد إلى نزعة قبول مثل هذه المعتقدات والتصرف على أساس منها" (11).

ويعرف يونج (Young .K) الخرافة بأنها : " اعتقاد راسخ في القوى فوق الطبيعية ، وفي الإجراءات السرية أو السحرية المنحدرة من التفكير الخيالي، والتي أصبحت مقبولة اجتماعياً" (12).

ويعتبر دوجلاس هل (Hill Doglas) أن : " الخرافة جزء من الفلكلور الشعبي ، وهي في نظره فرع غير شرعي من التاريخ الديني ، ويعتبر الخرافات عبارة عن طرق للتنبؤ والتجنب أو الحكم في بعض الأزمات ، عن طريق وسائل فوق طبيعية و غير عقلية ، وكانت هذه هي نظرة أجدادنا القدماء للسحر..." (13).

ويعتبر دافيد كرتشي وريتشارد كراتشفييلد (R.Crutchfield & D. Kreech) أن المعتقدات الخرافية (Superstitions) هي تلك المعتقدات التي برهنت أنها على خلاف مع الحقائق الموضوعية (Objective facts) ، والتي يحتمل أن يشارك في الاعتقاد بها عدد كبير من أبناء المجتمع ، والتي تتضمن قضايا تصف ظواهر تسمح بنسب بعض الظواهر إلى أسباب فوق طبيعية (Supernatural causes) ، مثل القضاء والقدر (Fate)، أو الحظ (Luck) ، أو الشيطان (Devil) " (14).

ج. مفهوم التفكير الخرافي.

يرى العيسوي أن التفكير الخرافي يغلب عليه أن يكون غيبياً وميتافيزيقياً ، كما يستند إلى أمور كالأرواح ، والشياطين ، والسحر، والحظ ، أو (المثل) في الفكر الفلسفي ، والوصفات البلدية أو الشعوذة والأمثال الدارجة (15). كما يؤكد أن " العقلية الخرافية هي التي يكون للخرافة فيها دور بارز في تفسيرات الأحداث وتعليلها وفي نقل المعلومات ، وهي التي تحاول تحقيق أهداف الفرد والمجتمع بأساليب بعيدة عن العلم والعقل والمنطق" (16) ، ويحدد العيسوي مجموعة من الفروق بين التفكير العلمي والتفكير الخرافي نحددها فيما يلي (17):

الجدول رقم(1): يبين المقارنة بين التفكير العلمي والتفكير الخرافي.

التفكير الخرافي	التفكير العلمي	
يُرجع الظواهر الطبيعية إلى أسباب غير طبيعية.	يقوم على أساس إدراك علاقة العلية أو السببية العلمية .	المبدأ
. تفسير الظواهر التي تحيط بالفرد بغية التحكم بها وضبطها ، وذلك بغض النظر عن مدى صحتها أو ملامتها له وللمجتمع (كالسحر والتعزيم مثلاً). . يزيل الغموض، والقلق، ويدفع المخاطر والأضرار.	. رغبة الإنسان في اختبار صحة أفكاره وإخضاعها للقياس التجريب، والملاحظة . . اختراع بعض الأساليب التي تضبط انحرافات وتحييزات.	الهدف
. ينظر في الظواهر بشكل حاسم ونهائي ، وإن كان خاطئاً؛ فهو يميل إلى التعميم والإطلاق . . يكتفي بمجرد الربط بين ظواهر الأشياء المباشرة، أي بين بدايات ونهايات الأحداث. . الاعتماد على فكرة الحركة الذاتية ، فهو يكتفي بمجرد اتخاذ الأسماء كعلل مفسرة لحدوث الأشياء .	. يمتاز بالمرونة والقابلية للتغيير، كما ويعتمد على الاحتمال. . حقائقه نامية ومتطورة بحكم تراكم المعلومات. . عدم الجزم في الظواهر والنظريات، وإمكانية إرجاء الحكم فيها حتى يأتي العلم بالجديد. . وجود صلات وثيقة بين الحقائق العلمية، فإذا حدث تغير في أحد حقائق العلم أو نظرياته، تبع ذلك إعادة النظر في غيرها من النظريات.	الخصائص

أما التفكير التطيري فهو تفكير فح بدائي يسيطر عليه الخوف والطمع والرغبة والرغبة ، وهو ينتمي تاريخياً ومنطقياً إلى عالم يسوده السحر والشعوذة ، وتجري فيه الأمور بطريقة خفية غير مفهومة ..ويمكن أن يؤدي ، إذا اشتد الأيمان به ، إلى الوهم واختلال العقل والجريمة ..ومثال ذلك التشاؤم من صوت البوم أو رؤية الغراب ، و منطق هذه المعتقدات يقوم على القياس التمثيلي الضعيف المرتكز على التشابه الموهوم بين السبب والنتيجة⁽¹⁸⁾ .

2. كيف تتكون الخرافات ؟

يمكن معرفة كيفية تكون الخرافات عن طريق تتبع الأسباب التي أدت إلى نشأة كل خرافة من الخرافات ، فالارتباط العرضي بين بعض الأحداث يؤدي إلى تكون الخرافة والإيمان بها ، فمثلا التشاؤم من البوم قد يرجع إلى أنه يسكن في الأماكن الخربة ويظهر ليلا ، كما قد يرجع النظر إلى المرأة على أنها كائن محرم أو نجس إلى ارتباطها بدم الحيض ، وارتباط هذا الأخير بالحوادث والقتل والكوارث ..إلخ .

ويمكن إرجاع بعض الوصفات الشعبية وانتشارها إلى مجرد الارتباط العرضي ، فمثل قد يجرب المريض الذي يتألم من شدة الوجع أي مادة دوائية لكي تخفف آلامه ، وقد يحدث أن يكون المرض في طريقه إلى الزوال تلقائيا بعد انتهاء دورته ، فيربط بين تناوله هذه المادة وبين شفاؤه ، ومما يساعد في انتشار هذه الخرافات ، أن تتضمن بعض الوصفات الشعبية بعض العقاقير والنباتات التي تحتوي على مواد ذات فائدة طبية ، فيلجأ الناس على تعميم استعمالها ، وهذا موجود أيضا في الأوساط ذات المستوى التعليمي المرتفع ، خصوصا عندما ييأس المريض من الشفاء بعد تجريب مختلف العلاجات الأخرى ، فالإنسان في وقت الشدة يبحث عن أي مخرج حتى وإن كان خرافيا⁽¹⁹⁾ .

والأسطورة هي مرحلة متقدمة أو المرحلة الأكثر نضجا من مراحل نمو الخرافات ، خاصة الأدبية منها أو القصصية ، والتي عادة ما تتوارثها الأجيال عبر مر العصور⁽²⁰⁾ ، ويرى لويس سبنس (Louis Spence) أن الأسطورة تعبر عن دوافع داخلية في شكل موضوعي ، تغلب عليه طبيعة الإنسان ، والغرض من هذا التقائه ببعض الأحاسيس الداخلية كالخوف ، القلق ، الحيرة ، وجعلته يدخل في صراعات عنيفة نراه خلالها يقصد شيئا وينبذ آخر....⁽²¹⁾ .

الخرافات تختلف وتتنوع باختلاف وتنوع مصادرها ، هناك الخرافات الموروثة أي التي تتوارثها الأجيال ، وهناك الخرافات العقائدية كخرافة عبادة البقر والأصنام ، وهذه سببها الفراغ العقائدي وعدم المعرفة ، كما توجد خرافات التعميم والتنميط ، فمثلا إذا كان شخصا أصلع الرأس ذكيا أو عبقريا ، قام البعض بالتعميم ، حيث يرون أن الصلع دليل الذكاء ، وكل أصلع هو بالضرورة شخص ذكي، وهناك الخرافات الأدبية والشعرية ، والتي يعتبر خيال الكاتب أو الشاعر مصدرا لها ، بهدف تحقيق هدفا تربويا أو علميا أو عقائديا ، وأضاف الباحث أيضا ما يسمى بخرافات التقاليع والصرعة (myth Fad)، حيث تنتشر الخرافة بشكل كبير ولكن سرعان ما تبدأ في الاندثار بلا عودة⁽²²⁾ .

3. أسباب انتشار الخرافة .

يقول أبو قحف (1999) : " إننا نعيش في مجتمع غارق في الشائعات ، فنحن نتعامل مع الحقائق والخرافات ، والمعقول واللامعقول ، والأبيض والأسود ، والفضيلة والرذيلة ، والواقع والأسطورة .. وغيرها " ، فلا يوجد مجتمع في العصر الحالي يخلو تماما من الخرافات ، مهما بلغ من تقدم علمي ، وإن كانت ذاهبة للزوال بعد اقتحام العلم والتجريب لضمون هذه الخرافات ، كما أن ما يعتبره شعب معين من حقائق ؛ قد يعتبره شعب آخر خرافة كنظرية النشوء والارتقاء لـ "داروين" وفيما يلي أهم هذه الأسباب⁽²³⁾ :

. الخرافات تتعلم بالاكتساب والاحتكاك ، وهذا ما يجعلها في استمرار .

. تتوارث بعض الخرافات عبر الأجيال ، وهذا لا يعني مصداقيتنا ، وإنما تنتقل بفعل اللا شعور الجمعي الذي تحدث عنه يونغ (Young)، والذي يراه أنه عام بين الناس ، وهو ينتج عن التأثير الانفعالي التراكمي للخبرات الإنسانية ، أي ردود الأفعال الانفعالية المكررة لأفكار قد لا تكون واقعية ، إنها الاستعداد المسبق للاستجابة بطريقة محددة ، ورثت عبر الأجيال ، وهو يتكون من النماذج البدائية الجمعية التي تكونت من تراكم أفكار ومعتقدات المجتمع عبر الأجيال .

. التناقضات الثقافية والفراغ الثقافي ؛ يعتبر حقلًا جيد لنمو الخرافات وانتشارها .

. قصور المعرفة ، والجهل ، وانخفاض الوعي الديني ، وضعف الإيمان وسطحيته .

. الاهتمام بالشكل على حساب المضمون ، وعدم استخدام العقل والمنطق .

. اكتساب الخرافة في بعض الحالات صفة القدسية ، وهذا ما يجعلها صعبة المقاومة .

. يصعب إثبات عكس الخرافات ، لأنها بعيدة عن القياس والإدراك ، ومن ثم تأتي صعوبة التطبيق .

. فقدان الاعتقاد بالقيم الأخلاقية كالولاء ، والصدق ، والأمانة ، والفراغ ، مما يساهم في التمهيد للتهيؤ لإطلاق أو قبول الخرافة .

. إخفاق الفرد المستمر للتكيف مع جماعة العمل ، أو الأسرة ، أو الأصدقاء ، أو المجتمع ، مما يوصل الخرافة إلى مرحلة الاستقرار الشعوري لدى الفرد .

. سلب الحرية والانحياز للإلزامي لنوع معين من السلوكيات أو الأفكار ، وفشل الفرد في إدراك التناقض في الفكر والممارسة .

. عدم الإجماع على نظام معين للقيم وقواعد السلوك ، والذي يعتبر شرط أساسي لإرساء الثقافة .

. غياب التوحيد الثقافي . أي في حالة التنوع الثقافي . فإن الصراع يؤدي إلى انهيار البناء الكامل ويفتح ثغرة كبيرة لظهور وانتشار الخرافات .

4. صفات الشخص الخرافي .

يذكر العيسوي (1983) بعض الصفات والمميزات التي تمتاز بها الشخصية الخرافية أو ذات التفكير الخرافي نذكرها فيما يلي⁽²⁴⁾ :

- . الجمود وصعوبة الإقناع.
- . تتميز بالبساطة، والسذاجة، وقلة التعليم والثقافة.
- . شخصية لا تفهم الدين على حقيقته، وهي متعصبة دينيا.
- . تؤمن بالخرافات تلقائيا دون تفكير أو نقد ، كما تؤمن بالكائنات غير الملموسة .
- . تشبع حاجاتها المادية والنفسية عن طريق الخرافة .
- . ميالة كثيرا للتأثر بأسرتها.
- . شخصية ملتصقا بمجتمعها، ولم تتفتح بعد على المجتمعات الأخرى.
- . شخصية ضيقة الأفق، وصعب النقاش معها في الأمور الخرافية.
- . تتسم بالسطحية ، وتصديق كل ما يقال لها، وإيمانها صارم، وخرافي، ولا يقبل الجدل.
- . شخصية بعيدة عن الواقعية والموضوعية، وبعيدة عن الروح العلمية.
- . شخصية ميالة إلى أن تكون كبيرة السن، متواكلة، وهي شخصية في بساطة القروي.

5. المعتقدات الخرافية وأثرها على التنشئة الاجتماعية وظهور الاضطراب النفسي.

تساهم المحددات الدينية بشكل كبير في تشكيل وتبلور الاضطراب النفسي ، وبما أن المعتقدات تشكل الجزء الأكبر من الديانة ؛ باعتبار أن التفكير الديني يحتوي على المعتقدات والطقوس الدينية، وأن الخرافات هي عبارة عن روايات معتقدات دينية قديمة ، فإن الدين يعتبر محدد أساسي في تشكيل الاضطراب النفسي ، وهذا ما يؤكد روجي باستيد (Roger Bastide) حينما أشار إلى أهمية العامل الديني في إدماج الفرد داخل الجماعة ، وفي حمايته من التعرض للاضطرابات النفسية والعقلية ، حيث تزداد وترتفع كلما تلاشى التنظيم داخل الجماعة الدينية ، وكلما كان النمط التربوي السائد فيها مبني على التسلط⁽²⁵⁾ ، وبما أن ضعف أو انخفاض الوعي أو الوازع الديني ، يعتبر من أهم الأسباب للتعرض للكثير من الأمراض النفسية ، كما أنه من أهم أسباب انتشار الخرافات أيضا ، فإن الايمان والتصديق بالخرافات يعتبر عامل مهم في تشكيل الأرضية المتينة لظهور بعض الأمراض النفسية .

وهذا ما أشارت إليه دراسة عويطة علي (1993) التي تؤكد أن أهم الخصائص الإكلينيكية المميزة للباثولوجية العقلية المغاربية تشمل على موضوعات الاضطهاد ، والهديان، والتجسيم (La somatisation)، وتلونها بعناصر هلوسية لغوية وبصرية ، فالوجود المكثف للمعتقدات الخرافية (سحر، أو

عين شريرة ، أو تسميم.. إلخ) يتعارض بشكل واضح مع الندرة الفائقة لموضوعات الشعور بالذنب ، والدونية ، والأفكار المرتبطة بلوم الذات ، وذلك على مستوى كل أصناف المرض العقلي ، سواء تعلق الأمر بالحالات العصبية أو الذهانية الحادة أو المزمنة ، والهذيان الذي يطبع كل الحالات المرضية في المغرب العربي ليس محصورا في التصورات والهوامات الخاصة بالفرد كما هو الشأن في الغرب ، وإنما يعكس الخلفية الثقافية التي تتميز بهلوسة الواقع ، أو إدراك بدون موضوع ، كما تعتبر خاصية التجسيم واحدة من أهم ثوابت الخطاب الإثنوبسيكياتري (ethnopsychiatrie) عند المريض المغربي ، فهي تصبغ معظم اللوائح النفسية المرضية ومن بينها الحالة الاكتئابية⁽²⁶⁾.

وهنا يظهر بوضوح أن المعتقدات الخرافية المتعلقة خصوصا بمواضيع التسمم بالسحر والعين هي التي تميز مواضيع الاضطهاد والهذيان الموجودة عند المرضى النفسيين بمنطقة المغرب العربي.

كما تُرجع التصورات الشعبية أسباب بعض الأمراض النفسية والعصبية إلى معتقدات خرافية كوجود قوى خارقة ، مثل ما أشارت إليه دراسة مقسم المختار (2002) حول " المعتقد الشعبي للأمراض العقلية والعصبية : الصرع الطفولي نموذجا " ، والتي أجريت في مركز للمعوقين بإحدى ولايات الغرب الجزائري (سيدي بلعباس)، بهدف الكشف عن الفروق الموجودة بين التصور الشعبي والنموذج الطبي للأمراض الصرع ، وقد تكونت العينة من 103 معالج تقليدي و15 حالة صرع ، ومن أهم نتائج هذه الدراسة أن التصور الشعبي لمرض الصرع يتمثل في وجود قوى غيبية لا مرئية تؤثر عن بعد فتقوم بإحداث المرض (الريح) ، وذلك عن طريق اختراقها لجسم الإنسان والاستقرار في أحد أعضائه كالرأس مثلا ، وهي تؤثر في الإنسان الذي لديه القابلية للمرض ، وتكون الأساليب الوقائية للمعالجين التقليديين بمحاولة إرضاء هذه القوى وعدم إيذائها، ويكون العلاج بطرد هذه الأرواح عن طريق ما يسمى بـ "المنفرات" مثل "الكافور"⁽²⁷⁾.

إن تأكيد علاقة الايمان بالمعتقدات الخرافية في ظهور الاضطراب النفسي ، أمر يحتاج للكثير من الاجتهادات والمقاربات النفسية ، والاجتماعية ، والأنثروبولوجية ، فالكثير من الباحثين والمختصين يؤكدون على أن انتشار الخرافة والإيمان بها ؛ هو دليل أحيانا على وجود حالة من الفراغ النفسي ، ودليل على فشل الفرد في تحقيق التكيف مع جماعة العمل أو الأسرة أو الأصدقاء أو المجتمع .

والإنسان يشبع العديد من الحاجات المادية والنفسية والثقافية عن طريق الخرافة ، فهي تحقق نوع من الهدنة النفسية للفرد ، وإن كانت غير حقيقية أو لفترة مؤقتة ، أو لا تدوم إلا لفترة قصيرة ، كما أن الفرد يقبلها وينسجها كنوع من التنفيس الانفعالي ، والذي يكون في حقيقة الأمر نوع من خداع النفس بصحة ما يسمع أو يعتقد أو يقول ، ولكن إذا تمكنت منه تحولت إلى مرض نفسي ، كما تستخدم الخرافة أحيانا لتوصيل معلومة أو فكرة لمسؤول ما، أو للغير عموما ، كما تستخدم من المنظور الأدبي (قصص

الأطفال والدراما) لإرساء تقليد أو قيمة جديدة أو تعديل في السلوك أو تغيير عادة ، كما توظف الخرافة الأدبية لتغيير معتقدات معينة (28).

والأسطورة هي جزء من المعتقدات الشعبية ، كما أنها تعبر عن قصة مرتبطة بمظهر ديني خرافي ، أي أنها تحتوي على أحداث خرافية ، إذ يشبه أوطو بانك (Otto Bank) الأسطورة بالحلم ، من حيث كونها مخرجاً ومتنفساً يعبر به الفرد عن مجموعة من الدوافع والمشاكل الداخلية المعقدة كالخوف ، والقلق ، والرغبة ، وذلك على شكل صور ورموز، فتتحول من تلقائها إلى موضوع حكاية (29).

ويؤكد إبراهيم بدران أن : " العقلية الخرافية لا تختفي بمجرد الانتقال من بيئة حضارية متخلفة إلى بيئة حضارية متقدمة ، ولا تختفي بمجرد الحصول على شهادة جامعية ، وإنما هي جزء أساسي من التركيب الذهني والنفسي للفرد ، ولذلك يلزم الاهتمام بتربية الأطفال تربية علمية منذ الصغر" (30).

وفي هذا الشأن تشير نتائج دراسة جهودا (G.Jahoda , 1968) في غينيا حول المعتقدات فوق الطبيعية بين طلاب الجامعة ، وجود نسبة عالية من متخلفات المعتقدات التقليدية بين الطلاب ؛ فالتعليم الجامعي ليس له تأثير يذكر على المعتقدات الخرافية ، كما أن إيمان صغار السن بها أكثر من كبار السن ، وترى أن مثل هذه المعتقدات قد رسخت بطريقة انطباعية في ذهن الفرد منذ الطفولة (31).

وهذا ما يؤكد عاطف وصفي (1981) حينما أشار إلى بعض أساليب التنشئة الاجتماعية في القرى المصرية ودورها في تكوين الخرافات ، حيث أكد أن أسلوب تخويف الأطفال كوسيلة من وسائل التربية والتهديب في فترة الطفولة المبكرة ، يؤدي إلى بذر اتجاهات الغيبية والخرافة ، وتبقى تلك الاتجاهات مع الطفل حتى بعد نموه في مراحل البلوغ ، لأن كثيراً ما يخيف الآباء أطفالهم من العفاريت ، والجن ، والغولة ، والظلام .. إلخ (32).

وفي المجتمع الجزائري مازال يُعتمد في تنشئة الأطفال ، على أسلوب التخويف من خلال سرد القصص حول " الغول " ، والجن ، و" بنسنس " ، والذي يأتي في الظهيرة ليسرق الأطفال ، " قوندّة " ، و" ترقو " .. وغيرها من الأسماء . ويستعمل هذا الأسلوب سواء كوسيلة للتربية والردع ، أو لجلب انتباه الطفل ، أو لتحسيسه بالمغامرة والتشويق ؛ لأن مثل هذه القصص قد تكون محبوبة لدى بعض الأطفال ، فيرغبون في سماعها خصوصاً قبل النوم ، ولكن هذا الأسلوب قد يكون أساس لزرع الخرافة مبكراً في فكر الطفل .

إن أسلوب تخويف الأطفال بالجن في المجتمعات المغاربية ولاسيما الجزائرية ، يجعلهم يتفادون كل ما من شأنه أن يوجب غضب هذه المخلوقات ، كما يحرصون على الاهتمام بالنظافة الدائمة ، فالجن هو عالم مرعب ولاسيما بالنسبة للطفل الذي يعتمد في تنشئته على حشو ذهنه بالكثير من الأساطير لإجباره على الالتزام بما يمليه عليه الوسط الأسري والاجتماعي (33) .

خاتمة

يمكن القول أنه لا يوجد مجتمع خال تماما من وجود الخرافات والعقلية الخرافية ، ولكن كلما قل انتشارها وساد التفكير العلمي المنطقي محل التفكير الخرافي اللاواقعي تطور المجتمع على المستوى الروحي والقيمي والاخلاقي والعلمي ، رغم أنها تخدم الانسان أحيانا ، وتحقق له بعض المكاسب النفسية والمادية والثقافية ولكن بصفة مؤقتة ، وسرعان ما تزول وتظهر سلبياتها على التكيف النفسي والاجتماعي للفرد ، وعلى تماسك ثقافية المجتمع ، خصوصا إذا غرست بطريقة انطباعية في ذهن الفرد منذ الصغر من خلال سرد القصص الخرافية ، واستعمال اسلوب التخويف في التربية ، ذلك من شأنه إنشاء الأبناء على العقلية الخرافية في التفكير وتفسير الظواهر ، وبذر اتجاهات الغيبية مما يؤدي إلى ضعف الايمان وانخفاض الوعي الديني ، والصراع والتصادم القيمي والأخلاقي ، وامكانية حدوث بعض الاضطرابات النفسية مثل هذيان الاضطهاد الذي تعتبر المعتقدات الخرافية المتعلقة بالسحر والعين أهم الأسباب الدافعة لحدوثه.

الإحالات والهوامش .

- 1 - محمد الجوهري ، "الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية" ، (ج1) ، دار الثقافة ، القاهرة ، 1983 ، ص43 .
- 2 - عبد اللطيف محمد خليفة ، "المعتقدات والاتجاهات نحو المرض النفسي" ، دار الثقافة ، القاهرة ، 1992 ، ص37.
- 3 - غامري محمد حسن ، " مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة " ، دار المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1991 ، ص126.
- 4 - الهلي مصباح ، "المعتقدات الخرافية الشائعة في التنشئة الاجتماعية للأبناء وعلاقتها ببعض المتغيرات النفسية والاجتماعية: دراسة ميدانية بمنطقة ورقلة" ، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، ع 9 ، غرداية ، 2010 ، ص155.
- 5 - عبد اللطيف محمد خليفة ، "دراسات في علم النفس الاجتماعي" ، (المجلد الثاني) ، دارقبا ، القاهرة ، 1995 ، ص267 .
- 6 - الهلي مصباح ، مرجع سبق ذكره ، ص167.
- 7 - عبد اللطيف محمد خليفة ، مرجع سبق ذكره ، ص288.
- 8 - العيسوي عبد الرحمان ، "سيكولوجية الخرافة والتفكير العلمي مع دراسة ميدانية مقارنة على الشباب المصري والعربي" ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1983 ، ص12.
- 9 - الزهران سعد بن سعيد والحكمي علي بن صديق ، "السحر والشعوذة (دراسة ميدانية على المجتمع السعودي)" ، مركز البحوث والدراسات الإسلامي ، وكالة المطبوعات والبحث العلمي ، جدة ، 2008 ، ص16.
- 10 - نفس المرجع السابق ، ص17.
- 11 - نفس المرجع السابق ، ص12.
- 12 - المرجع نفسه ، ص14.
- 13 - العيسوي عبد الرحمن ، مرجع سبق ذكره ، ص68.
- 14 - نفس المرجع السابق ، ص11.
- 15 - المرجع نفسه ، ص101.
- 16 - المرجع نفسه ، ص26.
- 17 - المرجع نفسه ، ص21 . 23.

- 18 - المرجع نفسه، ص 39.
- 19 - المرجع نفسه، ص 18.
- 20 - أبو قحف عبد السلام وعيتاتي رنا ، " ثقافة الخرافات وإدارة الأزمات (من سلسلة الثقافة الادارية)" ، الدار الجامعية ،بيروت ، 1999 ، ص 57 .
- 21 - سبوح رشيد ، المعتقدات الشعبية في الجزائر. ظاهرة العين نموذجا ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، الجزائر، 2000، ص 27.
- 22 - أبو قحف عبد السلام وعيتاتي رنا ، مرجع سبق ذكره، ص 48.
- 23 - نفس المرجع السابق ، ص 30.
- 24 - العيسوي عبد الرحمن، مرجع سبق ذكره ، ص 101.
- 25 - بن عبد الله محمد ، "سيكوباتولوجيا الشخصية المغاربية " ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2010 ، ص 74
- 26 - نفس المرجع السابق ، ص 163 . 164 . 175.
- 27 - مقسم المختار، المعتقد الشعبي للأمراض العقلية والعصبية: الصرع الطفولي نموذجا، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم الثقافة الشعبية (فرع الأنثروبولوجيا)، جامعة تلمسان ، الجزائر، 2002 ، ص 11.
- 28 - أبو قحف عبد السلام وعيتاتي رنا ، مرجع سبق ذكره ، ص 48. 50.
- 29 - سبوح رشيد ، مرجع سبق ذكره ، 29 .
- 30 - العيسوي عبد الرحمان ، مرجع سبق ذكره ، 29.
- 31 - نفس المرجع السابق ، ص 30.
- 32 - وصفي عاطف، "الثقافة والشخصية: الشخصية ومحدداتها الثقافية"، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 239.
- 33 - بن عبد الله محمد، مرجع سبق ذكره، ص 88.

قياس العلاقة بين بعض متغيرات البيئة المدرسية (التمرد على النظام العام ، معاملة الآخر) و نفسية المراهق داخل الأسرة

دراسة ميدانية على عينة من تلاميذ التعليم المتوسط بولاية سيدي بلعباس

فلاح أحمد ، قماري محمد

مخبر تحليل المعطيات الكمية والكيفية للسلوكات النفسية والاجتماعية،

جامعة ابن باديس -مستغانم-

مقدمة :

ينظر بعض علماء النفس على ان المراهقة فترة نمو جسدية و تحولات فسيولوجية عميقة ينتقل خلالها المراهق من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد ، بحيث يؤكدون على الجانب الجسمي و الجنسي " كما أن هناك ست قوى تحدد مجرى النمو أثناء المراهقة و هي العوامل الجسدية و العقلية و الوجدانية و الظروف الاجتماعية و الأسرية و المدرسية، فإذا تناغمت هذه القوى و لم يتعارض بعضها مع البعض الآخر جاء النمو متكاملًا و منتظمًا و إلا تولدت المشكلات و الصراعات لهذا فالمراهقة هي مرحلة لتحقيق الاستقلال الذاتي و تحمل مسؤوليات الحياة ، و المراهق خاضع لتأثير العوامل الاجتماعية و التربوية و الفسيولوجية ، التي تلعب دورا هاما في تحديد مساره نحو عالم الراشدين و الكبار .

أسباب اختيار الموضوع

لعل من الأسباب الداعية لاختيار الموضوع ،هو كونه أصبح محل اهتمام علماء النفس في السنوات الأخيرة فلم يعد الباحثون يتحدثون عن الأزمات الجنسية و الاجتماعية و العائلية فحسب ،بل كذلك يتحدث عن أزمة المراهقة من ناحية الهوية التي تتناول وجوده برمته و علاقته مع تحديات المجتمع ،هذا من جهة ومن جهة أخرى نلاحظ ما تبثه وسائل الإعلام عن مشكلة المراهقين داخل الأسرة و سوء تكيفهم داخل البيئة المدرسية و المتمثل خاصة في التمرد على النظام التربوي بطرق مختلفة غير معقولة بسبب مشاكلهم مع أوليائهم ، ومن الأسباب الأخرى أن المراهقة كل مرة تأخذ أبعادا خطيرة من الانحراف خاصة إذا كان المجتمع و بالخصوص الأسرة و المدرسة لا يستجيبان لمتطلباته باعتباره يعيش فترة حرجة من حياته .

أهداف البحث

من بين الأهداف الأساسية في اختيار هذا البحث هو تغطية النقض الذي أبدته بعض البحوث في هذا الموضوع الذي يتناول المراهقة و ندرة البحوث التي تدرس ظاهرة التمرد داخل المدرسة ،و من الأهداف الأخرى هو تحديد الإطار التربوي و النفسي و الاجتماعي الذي ينصب فيه موضوع التمرد عند المراهق الناتج عن الصراع النفسي داخل الأسرة ، كذلك إثراء المؤسسات التربوية ببعض المعلومات حول التمرد عند المراهقين مع تحسسيهم بمعنى المراهقة كظاهرة حساسة و حرجة من عمر الإنسان .

إشكالية البحث

تعتبر فترة المراهقة من بين المواضيع الهامة التي جذبت اهتمام الكثير من الباحثين حيث كانت هناك العديد من الدراسات و الأبحاث حول هذه المرحلة وهذا لاعتبارها همزة وصل بين الطفولة و الرشد و المراهقة هي المرحلة الأكثر حساسية لأنها فترة الصراعات النفسية و التوترات لهذا فان موضوع البحث اهتم أساسا بالمراهقة مع المشكلات النفسية الأسرية و المدرسية التي يعاني منها تلاميذ مرحلة التعليم المتوسط و علاقتها بالتمرد داخل المدرسة.

ومن خلال ما سبق يمكن صياغة المشكل التالي : هل للصراع النفسي لدى المراهق الناتج عن المشاكل الأسرية و النفسية و الدراسية داخل الأسرة علاقة بتمرد الفرد المراهق في معاملته للآخرين و على النظام العام للمدرسة

ويمكن تفكيك التساؤل العام إلى التساؤلات التالية :

- 1- هل للصراع النفسي لدى المراهق الناتج عن المشاكل الأسرية علاقة بتمرده في معاملة الآخرين داخل المدرسة
- 2- هل للصراع النفسي لدى المراهق الناتج عن المشاكل النفسية علاقة بتمرده في معاملة الآخرين داخل المدرسة
- 3- هل للصراع النفسي لدى المراهق الناتج عن المشاكل الدراسية داخل الأسرة علاقة بتمرده في معاملة الآخرين داخل المدرسة .
- 4- هل للصراع النفسي لدى المراهق الناتج عن المشاكل الأسرية علاقة بتمرده على النظام العام للمدرسة .
- 5- هل للصراع النفسي لدى المراهق الناتج عن المشاكل النفسية داخل الأسرة علاقة بتمرده على النظام العام للمدرسة .
- 6- هل للصراع النفسي لدى المراهق الناتج عن المشاكل الدراسية داخل الأسرة علاقة بتمرده على النظام العام للمدرسة .

التحديد الإجرائي للمفاهيم :

إن التحديد الإجرائي للمفاهيم الذي سيتم تناوله فيما يلي هو بمثابة المعلم الاساسي الذي يركز عليه البحث و يسمح بدراك العلاقة بين مختلف هذه المفاهيم :

❖ الصراع النفسي :

هو حالة انفعالية مؤلمة تنتج عن النزاع بين الرغبات المتضادة وعدم قضاء الحاجات أو عدم السماح لرغبة مكبوتة بالتعبير عن ذاتها شعوريا .⁽¹⁾

❖ المراهقة :

هي المرحلة التي تبدأ بفترة البلوغ و تنتهي بالوصول إلى سن الرشد⁽²⁾.

❖ المشاكل الأسرية:

تتمثل في الوسط العائلي الذي يتميز بسوء التكيف بين أطرافه المختلفة مثل التسلط الأسري و التفكك العائلي و تدني المستوى الاقتصادي و الاجتماعي.....الخ.⁽³⁾

❖ التمرد :

ينطوي على معنى الرفض الكامل من طرف الفرد لمختلف الأوضاع و العناصر التي تقدر له بوصفه إنسانا ضعيفا.⁽⁴⁾

❖ المشاكل المدرسية:

هي مختلف العوائق التي تجعل الفرد لا يتوافق بصورة طبيعية مع الأجهزة الإدارية والتعليمية داخل المؤسسة التربوية بسبب اضطرابات سلوكية تمنعه من الاندماج مع البيئة الاجتماعية⁽⁵⁾.

❖ المشاكل النفسية:

هي المشاكل التي يتلقاها الفرد لعدم تكيفه مع محيطه حيث لا يستطيع إشباع حاجاته ورغباته فيؤدي إلى إصابته بعدة اضطرابات كالقلق والإحباط والخوف.

تعريف مصطلح المراهقة:

تعني المراهقة لغويا بالمقاربة، فنقول أرهقت فلانا أي دانيته، وراهق الشيء أي قاربه، والمراهق هو الذي يقترب من الحلم و اكتمال الرشد والكلمة المقاربة في اللغتين الإنجليزية والفرنسية هي كلمة (Adolescence المشتقة من الفعل اللاتيني (Dolscére) الذي يعني التدرج نحو النضج الجسمي والعقلي و الانفعالي.⁽⁶⁾

وهناك تعريف آخر يرى أن المراهقة هي كلمة مشتقة من المراهق وهي اسم الفاعل ويقصد بها النمو من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد وهي فترة تبدأ من الطفولة المبكرة وتنتهي بتقدم الإنسان في عمره. (7)

أما العالمان (فورد و بيرج) فقد حدد مرحلة المراهقة على النحو الآتي، المراهقة هي الفترة التي تمتد ما بين البلوغ والوصول إلى النضج المؤدي إلى الإخصاب الجنسي حيث تصل الأقسام المختلفة للجهاز الجنسي إلى أقصاها في الكفاءة وتصبح جميع المعطيات الضرورية للإخصاب والحمل والإفراز ناجحة. (8) وقد ذهب البعض في اتخاذ العامل الزمني كمعيار أساسي لتحديد المراهقة فهي تقع بين سن الحادية عشر والثانية عشر بالنسبة للبنات وبين الثالثة عشر والرابعة عشر بالنسبة الذكور ويختلف هذا التوقيت باختلاف مناطق الجغرافية من حارة باردة إلى معتدلة.

تحديد معنى المراهقة:

هي مرحلة انتقال بين الطفولة والرشد وعملية بيولوجية وتحول اجتماعي وثقافي في حياة الإنسان. (9) و يرى إريكسون (1950): المراهقة هي مرحلة أزمة الهوية حيث يشغل في تحديد من هو و من سيكون ، فعلى المراهق أن يؤسس نفسه كفرد مستقل له وضعه الخاص و مكانته و دوره في المجتمع ، ويعجز الكثيرون في تحقيق تلك المهمات فتتهز معاني الحياة لديهم فيثورون و ينحرفون فيهددون حياة الآخرين ، وفي الوقت نفسه يحطمون فيه حياتهم ذاتها. (10)

و يرى كارل روجرز بأنها فترة نمو جسدي و ظاهرة سوسيوولوجي و مرحلة زمنية و فترة تحولات نفسية عميقة وهذه الفترة من سن البلوغ الى سن العشرين. (11)

ويطلق بعض العلماء على هذه المرحلة اسم مرحلة الشباب أو مرحلة الفتوة فالمرهق فيها أشبه ببرعم ندي يوشك ان تنفتح أكمامه فما أحوجه إلى العناية الاهتمام دون الإسراف في لمسه أو الإفراط في ربه. (12)

وهناك أيضا تعريف أكثر شمولاً و شيوعاً لمرحلة المراهقة، هو أن المراهقة مرحلة تأهب لمرحلة الرشد وتمتد من العقد الثاني من حياة الفرد من سن 13 إلى سن 19 سنة أو قبل ذلك من سن 11 إلى سن 21 سنة. (13)

كما نجد مرحلة التحليل النفسي و على رأسها " أنا فوريدي " تعرف المراهقة من خلال الأنا الداخلي للمراهق فهي تعتبره بأنه "أنا" مميز بنزوة ثرية و تناقض الانفعالات و المشاعر ، فمن الطبيعي أن يقوم المراهق بسلوكات غير مرتبطة و غير منتظرة ، و يقاوم و يقبل اندفاعات معاكسة و أن يحب و يكره والديه و أن يقلد الآخرين دون أن يهمل إثبات و تأكيد ذاته. (14)

الصراع النفسي:

يعرف مصطفى فهمي بان الصراع النفسي هو الذي يتضمن وجود واقعين متعارضين لا يمكن إشباعهما في وقت واحد. ⁽¹⁵⁾ أما في التحليل النفسي فيقصد به التناقض اللاشعوري بين رغبة غريزية تتطلب التفريغ و ميل يعارض ذلك و يقاومه ، و يعتبر هذا الصراع اللاشعوري شرط ضروري للعصاب ، ولكنه وحده لا يعد عصابا. ⁽¹⁶⁾

فيعرف الدكتور فاخر عاقل أيضا الصراع النفسي بأنه حالة انفعالية مؤلمة تنتج عن النزاع بين الرغبات المتضادة و عدم قضاء الحاجات أو عدم السماح لرغبة مكبوتة بالتعبير عنه ذاتها شعوريا. ⁽¹⁷⁾

الصراع في التحليل النفسي :

يرى فرويد بان الصراع عند الإنسان يقوم على أساس غريزي ، فهو يرى أن مكونات الـ"هو" الغريزية تسعى غالبا إلى التعبير عن نفسها في الوقت الذي يقف فيه "الأنا" أمام هاته النزعات بالمرصاد مدافعا على توازن الشخصية و يترتب على اختلاف و تعارض وظيفه كل منهما وجود صراع داخلي في أعماق النفس اللاشعورية ، وبين التعبير عنها ، فهذه القوة المانعة "الأنا" تخاف على الدوام من أن تقهر مثل هذه النزعات الغريزية المتمثلة في الـ"هو" ومن ثم تعيش في قلق دائم هذا من جهة الصراع بين الـ"هو" و "الأنا" أما من ناحية الصراع بين "الأنا" و "الأنا الأعلى" :

فقد ذكر "فرويد" بان الأوامر و النواهي التي يصدرها الأنا العلى للانا قد تؤخذ أحيانا صورا مرضية خطيرة حيث يصبح قلق الضمير شيئا لا يطاق مما يجعل الفرد يعاني أنواع الآلام و العذاب و اتهام ذاته. ⁽¹⁸⁾

انعكاسات الصراع على الفرد:

عندما يواجه الإنسان عوالم ذاتية واجتماعية تحول دون إشباع حاجاته فقد يصاب بالتوتر والألم نتيجة الصراع بين هاته الدوافع والحاجات كما أن هذا الصراع له عواقب قد تنجم عن قوة الدافع والحاجة ومدى حيويتهما وقيمتهم عند الفرد، وكلما كان الدافع أو الحاجة قوية كان الإحباط الذي ينجم عن عدم إشباع هذه الحاجة مؤلما مما يؤدي إلى أنواع من السلوك غير المتوافق مع البيئة. ⁽¹⁹⁾ وسندكر فيما يلي بعض انعكاسات الصراع النفسي الذي يتعرض إليه الفرد في حياته اليومية.

أ- التوتر وعدم الاستقرار:

يعاني بعض الأشخاص من عدم الاستقرار في أي مكان بحيث يبقى الشخص كثير الحركة والتنقل مع ظهور القلق على ملامحه مما يؤدي للبعض إلى التدخين المفرط وشرب القهوة وتعاطي الكحول

وهذا بهدف التخفيف من حدة التوتر الذي يعانيه إلا أن هذه السلوكيات تعمل في حد ذاتها على تعقيد الموقف.⁽²⁰⁾

ب- الاعتداء:

يعمل الإنسان على توجيه نغمته وغضبه إلى المصدر الذي سبب له الصراع النفسي بحيث يتحول هذا الغضب إلى اعتداء لفظي أو فعلي، فإذا عجز الفرد على مواجهة المصدر الأصلي للصراع النفسي فإنه يوجه عدوانه نحو مصدر فرعي سواء كان هذا المصدر الفرعي إنساناً أضعف من الإنسان الذي سبب له الصراع أو حيوان أو شيء آخر يمكن للفرد أن ينقل إليه نغمته وسخطه من المصدر الأصلي للصراع.⁽²¹⁾

ج- اللامبالاة:

عندما يتعرض الإنسان للصراع النفسي المستمر ويعجز على مواجهة مصادر الصراع فإنه يستجيب لهذا الموقف السلبي المتكرر ببلادة عاطفية تتجلى في اللامبالاة والإهمال وفقدان الأمل رغم هذه البلادة العاطفية فإن الفرد لا يقدر نهائياً على الإحساس بالغضب والكدر.⁽²²⁾

د- أحلام اليقظة والخيال:

إن عدم إشباع الحاجات في الواقع يؤدي بالإنسان إلى عالم الخيال لتحقيق ما عجز عن تحقيقه واقعياً وهذا ما يحدث كثيراً في حالة الشرود الذهني التي تبدو أنها عبارة عن آلية يعوض بها الفرد عما فقده عملياً وتؤدي أحلام اليقظة إلى الإشباع المؤقت بحيث تخفف حدة التوتر الناجم عن الصراع النفسي.⁽²³⁾

التوافق وحل الصراعات:

تمهيد:

التوافق هو عملية يقوم الفرد أثناءها بجهد حسب ما يتطلبه الموقف للتغلب على الصراع الذي يقوم بين الميول والعواطف والنزوات وبين المبادئ الأخلاقية والمعايير الاجتماعية وذلك من أجل تحقيق الرغبات وإشباع الحاجات، إذ يؤدي ذلك إلى حالة من الرضى النفسي وهذا باستعمال الطرق المباشرة والغير المباشرة التي تلجأ إليها الذات بصفة شعورية أو لاشعورية، ومن بين الطرق نجد:

أ- الكبت:

الكبت هو آلية دفاعية ضد أي تهديد خارجي أو صراع داخلي حيث يلجأ الفرد إلى نبذ الدوافع الغير مقبولة من دائرة الشعور إلى منطقة اللاشعور بطريقة تلقائية، وإقصاء هذه الدوافع من الشعور لا يقضي عليها في الواقع وإنما يمنع إدراكها لتجنب ما يسببه من قلق واضطراب في السلوك فتبقى تعمل في اللاشعور محاولة الظهور في الواقع بطرق استعارية كأحلام مثلاً.⁽²⁴⁾

ب- التعويض:

يرى "آدلر" مؤسس مدرسة علم النفس الفردي إن الإنسان يستعمل آلية التعويض عندما يعجز عن إثبات ذاته ويشعر دون غيره نظرا لعيوبه الجسمانية كضعف البصر مثلا أو إي عاهة يعاني منها ، فيحاول تحقيق غريزة السيطرة و التفوق التي تؤدي إلى الارتياح النفسي ، وأحيانا أخرى يصطنع لنفسه سلوكا شاذا مثل القسوة و الاستبداد عند ضعاف البنية أو المكر عند قصار القامة مثلا، والادعاء الكاذب عند الشخص الجبان.⁽²⁵⁾

ج- التبرير:

قد يسلك الإنسان مسلكا بدون إن يكون الغرض الظاهر هو المحرك الحقيقي لمثل هذا السلوك، ويظل المحرك الحقيقي مكبوتا، فعندما لا يستطيع إشباع بعض الدافع يلجأ إلى التبريد بصفة لاشعورية مع تقديم أسباب معقولة وهذا من أجل تخفيف التوتر الناجم عن الفشل في تحقيق هدف ما. ومن بين أطراف الأمثلة على التبرير مثل الثعلب الجائع الذي لم يستطع الوصول إلى عناقيد العنب بالكرمة، فعدل عن مسعاه قائلًا إن هذا العنب خصوم لا تأكله إلا السوقة..... إلخ.

ويختلف التبرير عن الكذب في كون هذا الأخير عبارة عن عملية شعورية إما التبرير فهو عملية لاشعورية يلجأ إليها الفرد لا إراديا لحماية الذات من المرافق الصعبة.⁽²⁶⁾

د- النقل أو الإزاحة:

الإزاحة هي آلية دفاعية يتم فيها نقل المواقف الانفعالية من موضوع أصلي إلى موضوع آخر يكون بديلا للموضوع الأصلي، فالحاجة أو الدافع الذي لا يشبع بشكل من الإشكال فيحول إلى موضوع آخر لإشباع الدوافع بطريقة لاشعورية مما يؤدي إلى التخفيف من التوتر الناجم عن الحرمان.⁽²⁷⁾

هـ- تكوين رد الفعل:

يلجأ الإنسان إلى استعمال هذه الآلية عندما يكون يعاني من صراع داخلي بين دافع يريد إخضائه وإظهار سلوك مضاد للدافع الحقيقي ، وذلك كإظهار السرور والانشراح في حين إن الفرد يعاني غيضا وأما، وإظهار هذا السلوك المضاد للدافع الأصلي هو بمثابة رد فعل يعمل على تكييف الفرد مع الموقف الذي يثير القلق والتوتر.⁽²⁸⁾

2- نتائج الصراع النفسي عند المراهق داخل الأسرة :

أ- الغضب:

إن سياسة إملاء أسلوب معين على المراهق وعلى الطريقة التي يجب أن يسلك بها نحو الآخرين هي سياسة تقوم على النهي والأمر والإحباط دون فهم للبواعث الكامنة التي تدعوه إلى اتخاذ هذه الاستجابات

الضعيفة الغير مقبولة، هذه السياسة الإحباطية من شأنها أن تزيد من ثورة المراهق على السلطة الوالدية وعدم احترامه لمشاعر الغير في الأسرة لذا ينبغي الاعتراف بأن مشاعره طبيعية ويجب تهيئة الفرص للتعبير عن هذه المشاعر وفي الوقت ذاته يجب توجيهه بشكل لايزيد من حدة انفعالاته، لأن أهم ما يصبوا إليه المراهق هو أن يجد المجتمع الذي يعيش فيه يعترف بوجوده كفرد ويحترم مشاعره. ⁽²⁹⁾ كما أن مشاعر الغضب قد تبدو غير مألوفة في نظر الراشدين مما يجعلهم يحاولون معالجتها بطرق العنف، الأمر الذي يجعل المراهق أكثر عدوانية على الأفراد.

ب- السرقة:

من أهم الدوافع الأساسية التي تساعد على تكوين اتجاه سلبي للسرقة عند المراهق هو الحرمان من بعض الحاجات الضرورية ليس في مقدور أهله الحصول عليها، والدافع في مثل هذه الحالات هو محاولة إشباع بعض حاجاته وقد يكون الدافع إلى السرقة هو الرغبة في الانتقام من الآخرين خاصة الوالدين الذين حرموه من بعض الأشياء بل لم يستطيعوا تحقيقها له بالمقارنة مع إمكانياتهم. كما أنه قد يكون الدافع إلى السرقة هو الرغبة في تأكيد الذات داخل الوسط الأسري فالسرقة عنده وسيلة للشعور بالقوة. ⁽³⁰⁾

ج- الهروب من البيت العائلي:

قد يعتقد البعض أن ظاهرة الهروب من البيت العائلي هو عبارة عن سلوك يرمي إلى تخفيض الضغط الخارجي، أي التصدي إلى أزمة تخص عالمه الخارجي أو العلاقة بينه وبين أفراد العائلة إلا أن التمتع في طبيعة الظاهرة تؤدي بنا إلى التسليم بغير ذلك والقول بأن سبب الهروب هو الخوف من العقاب فان هذا الافتراض لا يخص إلى ظاهر السلوك المضطرب لأن الألم الناتج عن العقاب من طرف الوالد لا يمكن أن يشكل خطراً على حياة المراهق كما يكون عليه الحال عند الهروب، لأن الصعوبات والمخاطر التي قد يواجهها أثناء هروبه يكون أشد من العقاب المنتظر وبهذا يدعو "لاغاش" في هذا المجال إلى البحث عن علاقات جديدة لا علاقة لها بالماضي وحب المغامرة لما تنتجه من إحساس قد يكون مثلاً سبباً للهروب من المنزل، لكن لماذا البحث عن الجديد والمغامرة؟..... عند البحث عن أجوبة لهذه التساؤلات لاستطيع الاستغناء أبداً عن فكرة القلق وعدم الاستغناء أبداً عن فكرة القلق وعدم الاستقرار والاتزان النفسي، و بالتالي فان الهروب من البيت العائلي قد يكون هروباً من الذات أو هروباً من الوسط المقلق أو محاولة تحرر من الماضي وقيوده والبحث عن المجهول والجديد. ⁽³¹⁾

مفهوم التمرد في علم الاجتماع:

يعتبر التمرد ظاهرة اجتماعية يتناولها علم الاجتماع على أساس سوء التكيف الذي يعيشه الفرد إزاء قوانين المجتمع. فالتمرد في نظر الدكتور ملاك جرجس هو ضعف القدرة على التكيف الاجتماعي

نتيجة التضارب والتصادم بين القيم... والهروب من توتر سوء التكيف والثورة على الفشل في التكيف مع معايير المجتمع الذي يعيش فيه.⁽³²⁾

من خلال هذا التعريف نستنتج أن الشخص المتمرد هو الذي يفقد القدرة على التكيف مع مواقف الحياة وبالتالي عجزه عن الأخذ والعطاء مع أفراد المجتمع بطريقة مقبولة اجتماعيا سواء داخل الأسرة أو المجتمع.

أسباب التمرد:

بما أن ظاهرة التمرد تنحصر بالخصوص على فئة الشباب فحتمًا توجد عدة عوامل تمثل دورا هاما في بروز هذه الظاهرة وهذه العوامل في حد ذاتها تنطوي تحت الأسباب الاجتماعية والأسباب النفسية.⁽³³⁾

أ- الأسباب الاجتماعية والتربوية:

لا شك في أن أسلوب التربية في الطفولة هو حجر الزاوية في تكييف الشباب نفسيا أو انحرافه وتمرده نتيجة أزمة التكيف مع المجتمع بقيمه الأخلاقية وعاداته الاجتماعية، ولكن هناك عوامل وظروف في الحياة الحديثة ساهمت لدرجة كبيرة في ثورة الشباب وتمردهم على أي نظام أو سلوك أو قانون لا يروقهم، فالتمردون ينهجون نهجا آخر لا يتفق ومنطق الأسوياء. فمن أهم الظروف التي ساعدت على تعقيد حالات غير الأسوياء، هي حال عدم الاستقرار الاجتماعي الذي يعيش فيه العالم، وحرب الأعصاب التي تنقلها أجهزة الإعلام في كل يوم وساعة من وسائل الدعاية والإشهار التي تقيد الفرد في تبعية وتمهد له الطريق الواضح للانحراف والتمرد، بالإضافة إلى الأزمات الاقتصادية المختلفة التي تهدد المجتمعات، بل جمدت نشاط الفرد ومنعته من تحقيق رغباته ودوافعه الذاتية وتأكيد ذاته بين أقرانه، الأمر الذي أدى إلى الصراع والتنافس بين أفراد المجتمع لدرجة عدوان الأخ على أخيه وانتشار الجريمة والمخدرات وتشرذم الأحداث وانحلال الثقافة الجنسية مما جعل المجتمع يبدو فاقدا لاتزانه وكيانه.. كل هذا لم يتحمله الشباب خصوصا غير الأسوياء فثاروا وتمردوا باعتبار أن التمرد هو النهج الأمثل الذي يؤدي إلى تحقيق السعادة النفسية والاجتماعية.⁽³⁴⁾

ب- الأسباب النفسية والانفعالية:

تعتبر العوامل النفسية إحدى الأسس العامة التي تنشأ عليها ظاهرة التمرد خاصة إذا كانت هذه العوامل النفسية هي بدورها نابعة من التصادم بين دوافع الإنسان وقيود المجتمع وعوائقه المختلفة التي تحول دون تحقيقها.⁽³⁵⁾ ومن بين الأسباب النفسية التي تؤدي إلى التمرد عند الشباب يوجد ظاهرة الصراع النفسي الشديد الذي يعاينه بين الحرية التي يطلبها والقيود التي يفرضها عليه المجتمع خصوصا بعد تضخم شعور الشباب بحقوقهم ومطالبهم، كما نجد الشباب المتمرد قد يتأرجح بين احتقاره لذاته أحيانا

وبين تكبيره لنفسه أحيانا أخرى، فتارة ينبسط في سلوكه ويبدو في غاية البهجة، وتارة أخرى ينطوي على ذاته يعاني من الشعور بالاكتئاب والتشاؤم نحو نفسه.⁽³⁶⁾

بعض أنماط وصور التمرد:

يتخذ التمرد صور مختلفة تتميز كلها بأعراض سوء التكيف، وتندرج هذه الأعراض من الانزواء والبعد عن الناس، إلى استعراض شتى الأساليب، ومنها ما هو استعراضي في المظهر وفي الميول والنزاعات.. هذا يعني أن المتمرّد يتكيف ويتلاءم مع متطلبات الحياة بأسلوب يختلف عن أساليب أغلب من هم في سنه وبيئته وفيما يلي سنعرض أهم أشكال التمرد عند الشباب - بصفة عامة:

أ- التمرد العملي والمظهري:

إن الشاب المتمرّد يظهر في الغالب بلباس خاص به مثل الألبسة الضيقة لدرجة ملحوظة ذات الألوان والزخارف الصارخة رغم المعارضة الشديدة التي يتلقاها من والديه و من أصدقائه وجيرانه فهو لييالي ويجد لذة كبيرة كلما أبدى أحد اعتراضا على مظهره فيجيب بأنها " موضة العصر" أو أنه حر بكل إطلاق⁽³⁷⁾.

يلجأ بعض الشباب المتمرّد إلى تعاطي المخدرات و الخمر بكل حرية و الانسحاب الكامل من المجتمع الذي يعيش فيه.

إن المتمردين الذين يتعاطون الخمر و المخدرات إنما يغيّبون عن الوجود و المجتمع الذي لا يمكنهم التوفيق و التكيف معه بطريقة إرادية ، فسلوكهم سواء في اللبس أو الأكل ، شرب و تعاطي الحشيش ماهي إلا وسائل يدربون بها أنفسهم على الانفصال عن العالم الذين يعيشون فيه ، يصل أحيانا إلى النوم في الطريق العام أو يسلكون سلوكا لا يتفق و العرف الاجتماعي غير عابئين بمن حولهم .

ب- التمرد اللفظي والكتابي :

قد يبدو التمرد في لغة و سلوك الشاب فمثلا الشخص العربي المتمرّد يتكلم بأسلوب غربي ويصطنع نغمات ونبرات في صوته ليست له - وكثيرا من الشباب يسلكون هذا السلوك- وهم لا يجيدون اللغة الأجنبية التي يتشددون بها و قد يحاكي المتمرّد نجوم الغناء و السينما من حيث الكلام ،و الغناء وقد يلجأ المتمرّد إلى التظاهر و ادعاء العلم أو الفلسفة فيقوم بشراء ما تصل إليه يده من كتب في الطب مثلا.....وهو ليس بطالب الطب أو كتب الشيوعية و يجاهر بأنه شيوعي ، وهو في الواقع لا يفهم حتى الفرق بين المذاهب السياسية والاقتصادية كما أنه لا يجيد الكتب الذي يشتريها وقد يدعو في كل مكان وكل مناسبة بأنه "ملحد" أو أنه "وجودي" فيشتري كتب الفلسفة والوجوديةوهو لم يفلح حتى في الانتقال إلى الثانوية العامة.⁽³⁸⁾ وإذا كان طالبا في المدرسة فانه غالبا ما يلجأ إلى الكتابة على الطاولات و

الجدران و كأنه يريد أن يعبر عن رفضه الاجتماعي للأستاذ أو للمدرسة ككل. و محاولة إثبات ذاته بطريقته الخاصة ككتابة تعابير أو رسوم يهتز فيها بالأستاذ والمدرسة أو غير ذلك.

المثالية التي يدعيها الشباب المتمرّد:

يدعي الشاب المتمرّد بأنه يكافح من أجل الحرية الشخصية و يدعي بأنه يحاول أن يقدم للعالم شكلاً جديداً للمجتمع.....مجتمعا تتحقق فيه الحرية الفردية، لذلك فالمتمردون يعلنون بكل الوسائل أنهم أعداء للمجتمع القائم ويدعون أنهم متحررون و أنهم يريدون تحقيق العدالة الاجتماعية و السلام و الاخاء.....و السؤال الذي يجب أن يطرح بجديّة ،هو هل هؤلاء المتمردون عقلاء أم مرضى ؟ هل دوافعهم في معارضة السلطة دوافع شعورية أساسها المنطق أم غير ذلك؟.

" إن العالم منذ قديم الزمان يجاهد في سبيل الحرية السياسية و الدينية و الاقتصادية و ينادي دائما بالسلام و الوثام ، فليس هناك جديد في مزاعم المتمردين ،و لم يقدموا صورة جديدة لمجتمع تتحقق فيه الحرية و السلام و المحبة التي يدعون أنها أهدافهم ، إنما قدموا للعالم صورا من حياة مضطربة مفككة لا تعنى بالنظافة أو اللياقة صحيا أو اجتماعيا ، بل الكثيرين منهم انتهت حياتهم إلى دخول المستشفيات العقلية أو السجون ، كما أن البعض منهم أنهى حياته بالانتحار".⁽³⁹⁾

مظاهر التمرد عند المراهق في داخل المدرسة

إن المشاعر المكبوتة غالبا ما يتردد المراهقون في إظهارها فبدلاً من أن يدعها تتجه نحو الخارج فإنهم يتركونها لتصيب نفوسهم فيكرهونها و يترتب على هذا الشعور بالنقص و ما إلى ذلك من ألوان التعذيب النفسي .فهذه المشاعر تجعل المراهقين يكرهون أنفسهم و بالتالي يحولون هذا الشعور إلى مواضيع أخرى داخل الوسط المدرسي خاصة على شكل تمرد عملي و فعلي مثل ظاهرة الكتابة على الطاولات و الجدران داخل المؤسسة ، فهذه الظاهرة التي تعبر عن ثقافة طلابية ذات اهتمامات عاطفية .ذلك لأن المراهق يقضي وقتاً معتبراً داخل الوسط المدرسي في علاقات اجتماعية تعليمية لا تعترف هي الأخرى باستقلالية رأيه و التعبير عنه، كعلاقته بالأستاذ التي تتمحور في علاقة ديداكتيكية تهتم بتفريغ المعلومات و المعارف المقررة و إهمال البعد العلائقي الوجداني للطلاب، فهي علاقة لا تحاول فهم مشاكل الطالب، فالأستاذ يستعمل سلطته المعرفية للضغط على أي محاولة تحاول الخروج على ما هو مقرر هذا المنع الممارس ضد المراهقين يولد لديهم حساسية و تدمر قد يدفعهم إلى التمرد على هذا المنع في عدة أشكال فنجد مثلاً الطالب يكتب على الطاولات أشكالاً و رموزاً مختلفة يستهتر فيها بالأستاذ أو المدرسة أو العائلة ككل معبراً في ذلك عن رفضه لذلك الرافض الاجتماعي و الاسري و محاولة اثبات ذاته بطريقته الخاصة التهمكية التي تتمثل في الكتابة على الجدران و الطاولات و أحيانا تتعدى إلى التخريب على ممتلكات

المدرسة نتيجة الصراع النفسي الذي يعاني منه داخل الاسرة بسبب القيود الوالدية أو موانع أسرية خاصة ، حالت دون تحقيق رغبات و دوافع المراهق .

وبالتالي هذا الصراع يخرج الى الواقع المدرسي على شكل تخريب على ممتلكات المدرسة. و بالتالي فعدم الاستجابة لرغبات الطالب جعلته يعيش حالة صراع داخلي ، فتحتم عليه تبني ثقافة رافضة و متمردة على الضغط الاجتماعي الذي مارسه مؤسسات التنشئة الاجتماعية للمجتمع ، وتثبت في الوقت نفسه لهذه الثقافة المتناقضة التي تعبر عن ثقافة المراهقة و الشباب .

التكفل النفسي و البيداغوجي للمراهق المتمرد :

ان التكفل النفسي و البيداغوجي للمراهق هو عملية جماعية و ليست حكرا على فرد واحد⁽⁴⁰⁾ ، لان العملية تتظافر فيها جميع الجهود من طرف المسؤولين داخل المدرسة بمن فيهم المدير و المدرسين بالإضافة إلى المرشدين التربويين و المشرفين الاجتماعيين و الاخصائيين النفسانيين ، الذين يقومون بتقديم الخدمات النفسية و التربوية للمراهق المتمرد و بدراسة الحالات التي يعاني منها و الاسباب النفسية و الاجتماعية التي أدت الى تمرده في المدرسة ، كذلك تقديم الخدمات المتعلقة بالمعالجة الكلينيكية للمراهقين المتمردين الذين يعانون من بعض الاضطرابات النفسية ، و توضيح سلوكهم للمدرسين و خاصة الذين يواجهون مشكلات منهم مثل مشاكل التسرب و التأخر و التغيب عن مقاعد الدراسة ، و محاولة معرفة اسبابها و التشاور بشأنها مع الاباء في محاولة اعادة ابنائهم للمدرسة عن طريق المساعدة و رفع العوائق الناجمة من داخل المدرسة و خارجها .

الدراسات السابقة :

ان موضوع المراهقة من بين المواضيع التي تطرق اليها كثير من الباحثين و هذا يرجع خاصة الى كونها مرحلة هامة لبناء شخصية الفرد كما توجد عدة دراسات تناولت بعض المشاكل التي يتعرض لها المراهقون سوا كانت نفسية أو تربوية أو اسرية أو مدرسية الخ . و سنبرز من خلال هذا البحث أهم الدراسات التي تناولت المشكلات النفسية و الاسرية و المدرسية خاصة المشاكل المتعلقة بالصراع النفسي عند المراهق و تأثيره على التمرد داخل المدرسة .

1- دراسة مصطفىاوي فضيلة و بن عالية عبد القادر 1990

تهدف الدراسة الى قياس العدوانية عند الاطفال المسعفين و الاطفال العاديين و تدرس كذلك أسباب التمرد و تجلياته في صورة أعراض عدوانية ، و العوامل التي تدفع بالطفل الى التصرف بشكل عدواني .

شملت عينة الدراسة 40 فرداً : 20 طفل يعيشون في أسرهم و 20 آخرون يعيشون في المؤسسة (الملجأ) و من أهم النتائج التي توصل اليها الباحثان ما يلي :

- كلا الطفلين سواء الذي يعيش في المؤسسة او الذي يعيش في أسرته يعاني من تدميره أو عدوانية لنفسه ، و هذا لعدم تكافؤ الجو الذي يعيش فيه و عدم توفيره الحنان من طرف والديه نظراً لكثرة اشتغال الام بالاطفال الآخرين .

- الاطفال المحرومون هم اكثر عرضة للاضطرابات السلوكية كالعدوان من الأطفال العاديين فهم معرضون للاضطرابات في حياتهم المستقبلية لان حضور الام ضروري في حياة الطفل خصوصاً في السنوات الاولى من الولادة . كما اثبتت الدراسة ان الطفل الذي يعيش مع عائلته ، ذلك لانه يعاني من الحرمان و الاحباط ، و لا يجد من يهتم به أو يراعاه لمنحه الحنان الكافي لنموه نمواً صحيحاً .

2- دراسة ليندة بوزدير وعيسى عبد الوالي خباطي 1993

تهدف هذه الدراسة الى التعرف على العدوانية من خلال ابراز اتجاهاتها و علاقتها مع الوسط الاجتماعي عند المراهق شملت العينة خمسة حالات ذكور يتراوح معدل اعمارهم ما بين 15 و 17 سنة و لهم نفس المستوى كما استعملت في دراستهما المقابلة ، الملاحظة ن الاختبارات الاسقاطية للوصول الى هدف الدراسة .

و قد توصلت الباحثين الى ان :

- العدوانية تظهر اساساً كنتيجة للوسط المعاشا و ان العقاب سواء كان من طرف الاباء و المدرسة أو المجتمع يعطي رد فعل عنيف و عدوانية شديدة .
- تراكم المشاكل الاسرية و الاحباط و الصراع النفسي الشديد و مجموعة العوامل النفسية الاجتماعية في محيط المراهق تؤدي عندئذ الى العدوانية .

3- دراسة سعدية محمد علي بهادير 1981

تناولت الباحثة من خلال دراستها التي قامت بها داخل المدارس الثانوية الكويتية المخالفات السلوكية للمراهقين داخل المدرسة ، بحيث حاولت الباحثة الاجابة على نداءات المراهقين الكويتيين التي يستفسرون بها عن واقع السلوك السوي و غير السوي في سلوكياتهم حتى يتمكنوا من فهم موقف المدرسين منهم و العكس كذلك .

و قد استنتجت الباحثة ان المظاهر السلوكية للمراهقين التي تدل على وجود ازمة لدى هؤلاء كا

يلي :

1- هناك صراع نفسي يعيشه المراهقون من اجل اثبات ذواتهم ، و الشعور بوجودهم و لا يبالون بما اذا كان اسلوبهم لتحقيق ذلك لا يرضي الكبار و هذا ما عبر عنه المراهقون من خلال اختيارهم لمشكل عدم تقبل النصح و الارشاد .

2- سوء التكيف داخل المدرسة .

3- المراهقون يلجأون الى الخيال هروبا من الواقع المكشوف الذي يجدون صعوبة في التكيف منذ البداية .

4- المراهقون يشعرون بالكبت و الاحباط و هذا ناتج عن ظروف البيئة و المجتمع و تقاليده .

5- يشعر المراهقون برغبة قوية في الثورة و الانفعال و هذا من خصائص هذه المرحلة .

4- دراسة : هـ . هـ ريمز REMERS س ج هاكيت HACKIT

اجريت هذه الدراسة على 15 الف مراهق في مدارس الوايات المتحدة الامريكية و كان الغرض من

ذلك معرفة المشكلات التي يعاني منها المراهقون و قد بينت النتائج التالية بعهد تطبيق الاستبيان⁽⁴¹⁾ :

- مشكلة عدم القدرة على التركيز 53% .

- مشكلة عدم المعرفة في اعداد الامتحانات 21% .

- مشكلة علاقة الطالب بمدرسيه 20% .

- مشكلة انعدام العلاقة بين الطلبة و الاساتذة 08% .

- مشكلة قساوة المدرسين 07% .

الإجراءات المنهجية للدراسة :

1- منهج الدراسة :

لقد تم اعتماد منهج البحث الوصفي التحليلي، وذلك لأنه مناسب لطبيعة الموضوع الحالي.

1- 1مجتمع الدراسة :

تألف مجتمع الدراسة من تلاميذ السنة الرابعة متوسط لولاية سيدي بلعباس للسنة الدراسية 2013-

2014 .

1- 2عينة الدراسة :

تمثلت عينة الدراسة في سبعين تلميذ (70) مستوى الرابعة متوسط ، اختيروا بطريقة عشوائية من

متوسطتي هوار بلعباس و غربي عبد القادر ، الواقعتين بمدينة سيدي بلعباس و الجدول التالي يوضح

طبيعة العينة من حيث العدد و الجنس .

الجنس المتوسطات	الذكور	الاناث	المجموع
متوسطة هوار بلعباس	18	22	40
متوسطة غربي عبد القادر	16	14	30
المجموع	34	36	70

المصدر : البحث الميداني

2- 1 إجراءات التطبيق :

استعان الباحثان في توزيع الاستثمارات بمدراء المتوسطتين المعنية بعينة الدراسة و ذلك لتسهيل عملية الاتصال بالأساتذة . وقد أشرف الباحثان شخصيا على عملية ملء الاستثمارات حتى لا تكون هناك إجابات منقوصة على مستوى جميع فقرات الاستبيان.

2- 2 إجراءات التصحيح :

استخدم الباحثان سلم ليكرت في التصحيح حيث أعطى مقياسا متدرجا من خمس خانوات و تم إعطاء الأوزان المخصصة لكل خانة النحو التالي :موافق جدا ،05 درجات- موافق، 04 درجات- غير متأكد،03 درجات- غير موافق،درجتان- غير موافق جدا بدرجة واحدة وقد تراوحت التكرارات النظرية بين (41- 205) .

3- الأساليب الإحصائية المستخدمة:

للإجابة على أسئلة الدراسة استخدم الباحثان المعالجات الإحصائية التالية :

- معامل الارتباط بيرسون لقياس الارتباط و قياس صدق الاتساق الداخلي و قياس الثبات .

3- أداة الدراسة:

تمثلت أداة البحث في استبيان قام بإعداده الباحثان مكون من 41 بندا يشكلون بعدين ، الأول يمثل المراهق داخل الأسرة و الثاني يمثل المراهق داخل المدرسة و تشكل البعد الأول من : 1- الجانب العلائقي للمراهق داخل الأسرة 2- الجانب الوجداني للمراهق داخل الأسرة 3- الجانب الدراسي للمراهق داخل الأسرة ، و يتشكل البعد الثاني من 1- الجانب العلائقي بمحيط المدرسة 2- جانب النظام داخل المدرسة

. و بعد التأكد من صدق و ثبات الأداة تم تطبيقها على العينة و كان ذلك في الفترة من 10 جانفي إلى غاية 10 مارس 2014 بمتوسطتي هوار بلعباس و غربي عبد القادر بولاية سيدي بلعباس .

4- صدق الأداة :

للتأكد من معامل صدق الاستمارة، استعمل الباحثان 03 طرق وهي :

صدق المحكمين و صدق الاتساق الداخلي و الصدق الذاتي وهذا من أجل رفع درجة صدق الأداة .

4- 1- صدق المحكمين:

تم عرض الاستمارة على المحكمين من درجات علمية مختلفة لقياس الصدق الظاهري أو ما يعرف بصدق المحكمين، اتخذنا من هذه الطريقة وسيلة لقياس صدق المقياس، حيث قمنا بعرضه على (06) محكمين، أربعة (04) من جامعة سعيدة، وثلاثة (03) من لجامعة سيدي بلعباس وطلب منهم إعطاء ملاحظاتهم واقتراحاتهم حول السلامة اللغوية و قياس الفقرات للأبعاد و صحة البدائل من حيث التصنيف ، واقتراح ما هو ملائم بديلا للفقرات التي تحتاج لإعادة الصياغة .

وقد خلصت النتائج إلى اتفاق بين المحكمين بصدق عبارات الاستبيان بنسبة 95% بينما كانت نسبة الاتفاق حول السلامة اللغوية ب75% ولهذا لجأ الباحث إلى إعادة صياغة الفقرات التي حازت على نسبة اقل من 75% بالنسبة لسلامة اللغوية وتم حذف الفقرات التي حازت على نسبة اقل من 70% بالنسبة لصدق العبارة.

أصبح عدد فقرات الاستبيان 41 موزعة على بعدين ، البعد الأول 33فقرة ، البعد الثاني 18 فقرة.

4- 2- صدق الاتساق الداخلي :

يقصد بصدق الاتساق الداخلي : مدى ارتباط مفردات الاستبانة مع بعضها البعض .وذلك بحساب معامل الارتباط بيرسون بين درجة كل فقرة ومجموع درجات المجال الذي تنتمي إليه هذه الفقرة .مع بيان مستوى الدلالة في كل حالة . و قد حازت كل الفقرات حسب البعد الذي تنتمي اليه اكثر من 0.615 عند مستوى دلالة 0.05.

4- 3- الصدق الذاتي :

أما فيما يخص الصدق الذاتي فتم حساب الجذر التربيعي لمعامل ثبات الاختبار.

جدول يوضح معامل الصدق الذاتي لكل مجال من مجالات الاستبيان و للاستبيان ككل

الرقم	المجال	معامل ألفا	معامل الصدق الذاتي
01	البعد الاول : المراهق داخل الاسرة	0.79	0.88
02	البعد الثاني : المراهق في المؤسسة	0.90	0.94
مجموع فقرات الاستبيان		0.86	0.92

المصدر : البحث الميداني

نلاحظ بان معامل الصدق الذاتي اكبر من 0.88 بالنسبة لجميع أبعاد الاستبيان وهو يساوي

0.92 بالنسبة للدرجة الكلية للاستبيان وهذا يعني أن درجة الصدق الذاتي كبيرة تسمح بتطبيق

الاستبيان على عينة الدراسة.

5- ثبات الأداة :

تم احتساب معامل الثبات بطريقة ألفا كرونباخ حيث أن حساب الثبات بهذه الطريقة يحدد مدى

استقرار استجابة المفحوصين على مفردات الاستبيان , كما أن هذه الطريقة هي الأنسب مع أداة الدراسة

الحالية لان الفقرات تحتاج إلى الإجابة عنها باختيار مدى تحقق الإجابات وفق مقياس خماسي . و بالتالي

لا بد من تحديد معامل التجانس بها , و ذلك يتحقق باستخدام معامل ألفا كرونباخ , و باستخدام برنامج

SPSS تم حساب معامل ألفا كرونباخ لكل مجال من مجالات الاستبيان .

جدول يوضح معامل ألفا كرونباخ لكل بعد من أبعاد الاستبيان و للاستبيان ككل

الرقم	المجال	عدد الفقرات	معامل ألفا كرونباخ
01	البعد الاول : المراهق داخل الاسرة	33	0.79
02	البعد الثاني : المراهق في المؤسسة	18	0.90
مجموع فقرات الاستبيان		41	0.86

المصدر : البحث الميداني

يتضح من خلال الجدول السابق أن معاملات ألفا كرونباخ جميعها فوق 0.79 وان معامل ألفا

كرونباخ للاستبيان ككل هو 0.86 مما يدل على أن الاستبيان يتمتع بالثبات مما يجعل الطالب الباحث

يطمئن إلى تطبيقه على عينة الدراسة.

عرض ومناقشة نتائج الدراسة :

1- عرض ومناقشة الفرضية الاولى :

والتي تنص: هناك علاقة ارتباطيه بين الصراع النفسي للمراهق و الناتج عن المشاكل الاسرية و تمرده في معاملة الآخرين داخل المؤسسة . ومن خلال المعطيات الإحصائية تبين لنا وجود علاقة إرتباطية دالة عند مستوى الدلالة (0.05) وبقيمة ارتباط قدرها (0.817)، وهذا ما يبين ان الفرد المراهق المتمرد في معاملة الآخرين من اساتذة و زملاء و مربين يعانون من مشاكل في محيطهم الاسري مثل معاملة الام و الاب و الاخوة و هذا نبرره بالعوائق الاجتماعية داخل الاسرة التي تحول دون اشباع الفرد لحاجاته او لتحقيق هدف معين و هذا ما يولد توترا و الما و غيظا بسبب الفشل الذي يتعرض اليه الفرد ، و يملكه عند ذلك احباط شديد و هذا مرتبط بقوة الدافع أو الحاجة أو الهدف المراد تحقيقه حيث يشير "مصطفى عشوي" الى انه كلما كان الدافع أو الحاجة مؤلما يؤدي الى انواع من السلوك غير المتوازن مع المحيط و البيئة ، و هذا ما توصلت اليه الدكتورة "سعدية بهادير" في دراستها للمخالفات السلوكية في المدارس الثانوية .

2- عرض ومناقشة الفرضية الثانية:

والتي تنص: هناك علاقة ارتباطيه بين الصراع النفسي للمراهق و الناتج عن المشاكل النفسية داخل الاسرة و تمرده في معاملة الآخرين داخل المؤسسة. ومن خلال المعطيات الإحصائية تبين لنا عدم وجود علاقة إرتباطية عند مستوى الدلالة (0.05) وبقيمة ارتباط قدرها (0.551)، و ما توصلت اليه الدكتورة "سعدية محمد بهادير" و دراسة "ريمزو هاكيت" حيث اشارت الدراسات هناك مشاكل عدم تقبل النصح و الارشاد من الكبار و الانغماس في الخيال و احلام اليقظة مما يؤدي الى الحزن و الاكتئاب الدائم مما يؤدي الى سوء التكيف داخل المدرسة و يصاحب ذلك شعور فرض ذواتهم و لفت الانتباه و لا يبالون اذا كان اسلوبهم لتحقيق ذلك لا يرضي الكبار فينجر عن ذلك انعدام او اضطراب العلاقة بين التلاميذ و المدرسين .

3- عرض ومناقشة الفرضية الثالثة :

والتي تنص: هناك علاقة ارتباطيه بين الصراع النفسي للمراهق و الناتج عن المشاكل الدراسية داخل الاسرة و تمرده في معاملة الآخرين داخل المؤسسة. ومن خلال المعطيات الإحصائية تبين لنا عدم وجود علاقة إرتباطية عند مستوى الدلالة (0.05) وبقيمة ارتباط قدرها (0.836)، و توصلت اليه الدكتورة "سعدية محمد بهادير" و دراسة "ريمزو هاكيت" بفقدان الميل الى العمل المدرسي و مشكلة عدم القدرة على

التركيز يؤدي إلى سوء تكيف داخل المدرسة و إلى قسوة المدرسين نحوه و فتور العلاقة بين التلميذ و مدرسيه .

4- عرض ومناقشة الفرضية الرابعة:

والتي تنص: هناك علاقة ارتباطيه بين الصراع النفسي للمراهق و الناتج عن المشاكل الاسرية و تمرده على النظام العام داخل المؤسسة. ومن خلال المعطيات الإحصائية تبين لنا وجود علاقة ارتباطيه عند مستوى الدلالة (0.05) وبقيمة ارتباط قدرها (0.735)، و هذا ما توصلت اليه الدكتورة " سعدية محمد بهادير" و دراسة "ليندة بوزدير" حيث اشارت كلتا الباحثين الى ان تراكم المشاكل الاسرية و الاحباط تؤدي الى العدوانية و ان الأطفال المحرومون هم اكثر عرضة للاضطرابات السلوكية كالعدوان من الأطفال العاديين فهم معرضون للاضطرابات في حياتهم المستقبلية .

5- عرض ومناقشة الفرضية الخامسة:

والتي تنص: هناك علاقة ارتباطيه بين الصراع النفسي للمراهق و الناتج عن المشاكل النفسية داخل الاسرة و تمرده على النظام العام داخل المؤسسة. ومن خلال المعطيات الإحصائية تبين لنا وجود علاقة ارتباطيه عند مستوى الدلالة (0.05) وبقيمة ارتباط قدرها (0.603)، و ما توصلت اليه الدكتورة " سعدية محمد بهادير" و دراسة "ليندة بوزدير" و دراسة "مصطفى فاضيلة و بن عالية عبد القادر" حيث أشارت هذه الدراسات إلى ان العدوانية و التمرد ناتج اساسا على العقاب المسلط على المراهق من طرف الاباء و هذا ما يؤدي الى الانفعال الدائم و الة و الى العناد و عدم الطاعة المستمرة للاوامر و الميل إلى الفوضى و الجنوح على النظام .

6- عرض ومناقشة الفرضية السادسة:

والتي تنص: هناك علاقة ارتباطيه بين الصراع النفسي للمراهق و الناتج عن المشاكل الدراسية داخل الاسرة و تمرده على النظام العام داخل المؤسسة. ومن خلال المعطيات الإحصائية تبين لنا عدم وجود علاقة ارتباطيه عند مستوى الدلالة (0.05) وبقيمة ارتباط قدرها (0.645)، و ما توصلت إليه الدكتورة " سعدية محمد بهادير" و دراسة "ريمزو هاكيت" حيث أشارت هذه الدراسات الى ان التمرد يؤدي اساسا الى مشكلة عدم القدرة على التركيز و مشكلة الفرار و التغيب عن المدرسة و كثرة التدخين و فقدان الميل الى العمل المدرسي بالإضافة إلى الرغبة الجنسية الزائدة.

خاتمة :

إن موضوع الصراع النفسي و علاقته بالتمرد موضوع هام وواسع و بحثنا هذا حاول الاجابة على تساؤلات الكثيرين من جميع اطياف المجتمع و بخاصة العاملون في الحقل التربوي و عظم المسؤولية الملقاة

على عاتقهم في المرافقة السليمة للتلميذ المراهق، التي تضمن له نموا طبيعيا في مختلف الجوانب الجسمية والعقلية والمعرفية والوجدانية وتصاحب بذلك ابناءنا المراهقين في تبلور شخصيتهم في هذه المرحلة الحساسة التي تمثل صراع بناء الهوية أو ما يصطلح عليه بأزمة الهوية .

وهذا حتى نحول دون انحرافهم عن السلوك السوي سواء في المدرسة او في البيت وحسب ما توصلنا اليه فقد اثبتنا العلاقة بين المشاكل الاسرية والنفسية والدراسية داخل الاسرة وعلاقتها بكل من التمرد في معاملة الآخرين والتمرد على النظام العام داخل المؤسسة التربوية.

في الأخير نشير إلى ان هناك جوانب منهجية تتمثل في اعداد اداة البحث و هو جانب التقنين فلم نستطع الحصول على أداة مقننة مسبقا تعالج هذه العلاقة بين الاسرة والمدرسة في تفصيلاتها ونعتقد أننا بدأنا في هذا من خلال اعداد اداة توفر مجموعة من المتغيرات في علاقة الاسرة مع المدرسة .

توصيات :

ان هذا البحث حاول ايجاد العلاقة بين المشاكل التي يعاني منها المراهق داخل الأسرة وانعكاسات ذلك في المدرسة او العكس، لذلك نرجو من الباحثين ان يحاولوا التطرق الى هذا الموضوع من جوانب متعددة ومختلفة وهذا حتى تكون إشكالية البحث أكثر شمولية وهناك امر اخر وهو لا يجب الاكتفاء على الاستبيان ولكن يجب توسيع ذلك إلى الاختبارات الاسقاطية والمقننة وكذا المقابلة والملاحظة لان الوحدة النفسية للمراهق جد معقدة والخلفيات النظرية تتعدد في تفسير سلوك هذا المراهق ونخص بالذكر دراسة الحالة الذي يساعد كثيرا على تسليط الضوء على بعض المشاكل التي يغفلها المنهج الوصفي وهذا طبعا حتى لا تترك فجوات في البحث.

الإحالات والهوامش:

- ¹ - فاخر عاقل ، معجم علم النفس ، دار العلم للملايين ، بيروت . 1985 . ص 27
- ² - فاخر، مرجع سابق ص 14
- ³ - جان لابلانوش و ج ب بونطاليس ، مصطلحات التحليل النفسي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر . 1985 ، ص 259.
- ⁴ - للمزيد أنظر : ملك جرجس ، تمرد الشباب الحاضر ، مجلة العربي العدد 178 . 1972
- ⁵ - فاخر عاقل ، رحلة عبر المراهقة ، دار العلم للملايين ، بيروت . 1969 ص 62.
- ⁶ - محمد سلامة آدم و توفيق حداد ، علم النفس و الطفل ، مديرية التكوين خارج المدرسة ، الجزائر . 1981، ص 104
- ⁷ - نوري الحافظ ، المراهق ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت . 1981، ص 17 .
- ⁸ - علي زيعور و سليم مريم، حقول علم النفس ، دار الطليعة ، بيروت . 1986 ، ص 185.
- ⁹ - محمد ايوب شحيمي ، علم النفس داخل الحياة المدرسية، دار الفكر اللبناني ، بيروت . 1994 ، ص 206
- ¹⁰ - ميخائيل ابراهيم أسعد ، علم الاضطرابات السلوكية ، دار الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت . 1977، ص 51.
- ¹¹ - زيعور و سليم، مرجع سابق ص 185 .

- 12 - الشحيمي، مرجع سابق ص 210.
- 13- ميخائيل ابراهيم أسعد، مشكلات الطفولة والمراهقة، دارالافاق الجديدة، بيروت. 1982. ص 225.
- 14- rageb,les adolescents à travers le test des personnages ,revue tunisienne des sciences sociales,tunis-1990 p28. 19
- 15 - مصطفى فهمي، الصحة النفسية داخل الأسرة والمدرسة والمجتمع، دارالثقافة، الزمالة 1968، ص 176.
- 16- مصطفى عشوي، مدخل الى علم النفس المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. 1994، ص 135.
- 17 - فاخر عاقل، معجم علم النفس، دار العلم للملايين، بيروت. 1985، ص 27.
- 18 - فهمي، مرجع سابق، ص 182.
- 19 - عشوي، مرجع سابق، ص 139.
- 20 - عشوي، مرجع سابق، ص 140.
- 21 - عشوي، مرجع سابق، ص 140.
- 22 - فهمي، مرجع سابق، ص 150.
- 23 - عبد العزيز القوصي، اسس الصحة النفسية، مكتبة النهضة المصرية، مصر. 1979، ص 249.
- 24 - كمال دسوقي، النمو التربوي للطفل والمراهق، دار النهضة العربية، بيروت. 1979، ص 243.
- 25 - دسوقي مرجع سابق ص 244.
- 26 - عشوي، مرجع سابق، ص 140.
- 27 - دسوقي مرجع سابق، ص 243.
- 28 - فهمي، مرجع سابق، ص 115.
- 29 - القوصي، مرجع سابق ص ص 214 - 213.
- 30 - القوصي، مرجع سابق، ص 214.
- 31- ابن الشيخ فريد زين الدين، علم النفس الجنائي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. 1995. ص ص 33 - 34
- 32 - ملك جرجس، تمرد الشباب الحاضر، مجلة العربي العدد 178. 1972.
- 33 - جرجس، مرجع سابق ص 20.
- 34 - جرجس، مرجع سابق ص 20.
- 35- محمد يحياتن، مفهوم التمرد عند البير كامو، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. 1984. ص 41.
- 36 - جرجس، مرجع سابق ص 22.
- 37 - جرجس، مرجع سابق ص 24.
- 38 - جرجس، مرجع سابق ص 23.
- 39 - جرجس، مرجع سابق ص 23.
- 40 - يوسف مصطفى القاضي و لطفي محمد فطيم و محمد عطا حسين، التوجيه التربوي والإرشاد النفسي، دار المريخ، السعودية 1981، ص 363.
- 41 - حسن مومني، الشباب مشكلات و حلول ن منشورات دار البرق، عمان الاردن. 1982، ص 13.

المحور الثاني : الدراسات الفنية والأدبية

البوليفونية اللسانية:

قراءة أسلوبية جديدة في رواية "المخطوطة الشرقية" لواسيني الأعرج

محمد مرزوق

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة جيلالي ليايس سيدي بلعباس.

تمهيد :

يعدّ مشروع باختين ونظريته الحوارية تجاوزاً للسانيات الكلاسيكية وما نتج عنها من درس بنيوي وأسلوبّي تقليديّ. ذلك أنّه رفض التوجّه الذي تعاملت به مع اللسان بوصفه نسقاً لغوياً بحثاً ومُصوّرناً، فراحَتْ تُخضعه إلى مقاييس العلوم التجريدية حين قاربته من خلال استنطاق جزئه الماديّ واختزلته في موادّه وبناءه اللسانية (التركيبية والصوتية). فتوقّعت نتيجةً لذلك هذه المقاربات داخل حدود الجملة الواحدة، مُقْصِيةً آفاق النصّ الخارجية وغير مكرّثة بمقاصده بدعوى أنّه ليست لتلك النوايا أيّة تمظهرات شكلية على مستوى النصّ.

من أجل ذلك جاءت صرخة باختين داعيةً إلى ضرورة التعامل مع اللسان من خلال حركيته وبعده التّواصليّ، ضمن مقاربة سوسيو. لسانية. إذ ينطلق باختين من مبدأ جوهريّ يقوم على أنّه لا يوجد تعبير (كلام) غير مرتبطٍ بعلاقات جوهريّة مع تعبيرات أخرى، مُمتدّة عبر استخدامات سابقة ولاحقة بوصفها ملافيظ (نصوصاً) لمستخدمين سابقين ولاحقين. ومن ثمة ضرورة تبني علمٍ جديدٍ أسماه باختين بعبر. اللسانيات يهدف إلى تجاوز المجال اللساني الضيق إلى مجال أرحب يُنظر فيه إلى الكلام (النص) بوصفه مُشكّلاً من موادّ لسانية وأخرى خارج لسانية، تتنفس جميعها داخل شبكة مرتبطة عبر سلسلة نصيّة، تؤطّر عملية التبادل اللفظي.

وتالياً يؤكّد باختين على طبيعة الكلام الاجتماعية، إذ بالرغم من وصفه إنجازاً فردياً لا يفتأ باختين يذكر بأنّ الكلمة هي الحلبة التي تتواجه فيها كلّ النغمات accents الاجتماعية المتعارضة، لأنّه يرى بأنّ الكلام محرّك التحوّلات اللسانية لا ينفكّ يرتبط بشروط التّواصل المقترنة بالبنى الاجتماعية

ضمن إطار عام يتغذى من تصوّر حواريّ يغدو معه اللسان (في صورة النصّ والخطاب) مكتسباً بجلباب الحوارية التي تعني بحسب باختين كافة أشكال حضور الآخر داخل خطاب الأنا. وهو ما لا يتأتى إلا من خلال مسار تفاعليّ بين وعين فرديّ ووعي آخر، ووعي مستلهم ووعي مستلهم.

تقوم إذن المقاربة عبر اللسانية على تصوّر يفترض إطاراً اجتماعياً لعملية التّواصل اللفظي؛ ذلك أنّ "الولادة الحقيقية للسان يكمن في الحدث الاجتماعيّ الذي يُحْيِي في التّبادل اللفظي، ويجد نفسه مُحَقَّقاً في عدّة ملفوظات".⁽¹⁾ وهو ما يجعل من مسألة فهم الملفوظ (الكلام) مرهونة بفهم بنيته اللسانية مع ضرورة ربطها ببنية تشكّله عبر اللسانية.

يمكن فهم انتقادات باختين لكلّ من اللسانيّات الكلاسيكيّة والأسلوبية التّقليديّة ضمن جهوده التّنظيريّة بوصفها محاولة مبكّرة وجادة⁽²⁾ تروم فتح آفاق النصّ بهدف الكشف عن بنيته وحدوده وأسلوبه، كنسيج لغويّ معقّد. إنّ نظرة باختين للنصّ (الكلام) بما هو فعلٌ حيٌّ وسط حركيّة تفاعليّة يغدو معها مرتبطاً بما قبله ومتعلّقاً بما بعده من النّصوص. فلا يمتلِك هذا التّعبير (الكلام) حينها سوى أن يأخذ في حسابانه. أثناء عمليّة التّلفّظ. حضور الآخر المستمع. وهو ما أغفلته الأسلوبية التّقليديّة (بوصفها وريثة اللسانيّات الكلاسيكيّة) حين تعاملت مع محتوى التّعبير بوصفه مادّة بحث معبّرة عن ملفوظ المتكلّم، دون أدنى اعتبار لتأثير الآخر (المستمع) على هذا التّعبير ذاته. كما يرفض باختين ما نزعته إليه الأسلوبية التّقليديّة. التي عاصرها. من اهتمام بدراسة التّناغمات الفرديّة Les harmoniques individuelles للكلام مغفلة دراسة رنّاته ses tonalités الاجتماعيّة الجوهرية. فصارت تلك الأسلوبية. في نظر باختين. أسلوبية تجريدية، تقدّم نفسها كأسلوبية فنّ داخل حدود حجرة، مقصية الحياة الاجتماعيّة للفعل verbe الموجود خارج حجرة الفنّان، ووسط الآفاق الرحبة للحياة. وانتهيت بذلك إلى تجاهل "الكلام الحيّ" مكتفية بمدرسة مقاطع استولوجية منه histologiques، من خلال إخضاعها لهذا الفعل المجرد الطّيع خدمةً لكفاءة الفنّان المبدع.⁽³⁾

وتالياً ينظر باختين إلى الكلام بوصفه أسلوباً فرديّاً معطراً بعقب كلمات الآخر ويرنّ بصداه، ذلك أنّه يرفض التّعامل مع المستمع كشيء ثابت، لا استجابة له. فالمخاطب (المستمع) شريكٌ في عمليّة التّواصل، لأنّ المتكلّم فاعلٌ واعٍ بردود أفعال المستمع (من حركات وإيماءات وتلميحات) وبما تمثّله من فهم وجواب وردود يكيّف بموجبها كلامه وأسلوبه بحسب هذه الاستجابة، مُدْرِكاً هذا البعد الحواريّ لخطابه نتيجةً للحوارية التي تتمّ بينهما أثناء عمليّة التّبادل اللفظي.

ونخلص من ذلك إلى أنّ طرح باختين بضرورة مقارنة أسلوبية للملفوظ من خلال افتراض إطار اجتماعيّ لعملية التّواصل اللفظي، لا بدّ أن يستوفي البحث عن أسئلة أساسية تتعلّق بتعيين الجهة التي

يتوجّه إليها الكلام، وتحديد قوّة تأثير المستمع (المتلقّي) على كلام المخاطب. وغيرها من الأسئلة التي استنكفت الأسلوبية التقليدية الإجابة عنها أو الاهتمام بها، ما جعلها عرضةً لانتقادات باختين الذي يؤكّد بأن كلّ تحليل أسلوبيّ يظلّ فقيراً إذا هو لم يُحيط بكلّية الخطاب التي لا تتحقّق إلّا داخل عملية التبادل اللفظي. وحينها يمكن لهذا التحليل الأسلوبيّ الإحاطة بكلّ مظاهر أسلوب الملفوظ بوصفه عنصراً⁽⁴⁾ داخل هذه العملية.

غير أنّ باختين يرفض كذلك أن يتمّ التعاطي مع مسألة التعبير وفقاً لحدود رؤية أسلوبية واحدة، وذلك حين يصرّ على أصالة أسلوبية لجنس الرواية. من ذلك ما نستشفّه من قوله: "لم يظهر حتّى القرن العشرين طرح واحد بقضايا أسلوبية الرواية، ينطلق من الاعتراف بالأصالة الأسلوبية للكلمة الروائية، الكلمة النثرية الفنيّة، إذ ظلّت الرواية ردحا طويلاً من الزّمن موضع دراسة إيديولوجيّة مجردة، وتقويم اجتماعيّ دعائيّ فقط. في حين أنّ المسائل التي تشخّص أسلوبيتها مهمة إهمالاً تاماً، أو تدرس عرضاً، وبدون مبدئية"⁽⁵⁾. ذلك هو واقع حال الرواية كجنس أدبيّ نثريّ في ظلّ مقولات تقليدية للأسلوبية التي وإن حاولت تدارك الفروق بين ما هو شعريّ وما هو نثريّ، إلّا أنّها ظلّت مفتقرة لـ"الكلّ الأسلوبيّ للرواية، والكلمة الروائية"⁽⁶⁾. وهو ما حاول باختين استدراكه على الأسلوبية التقليدية حين ركّز على التّنوع الكلاميّ في الرواية، التي توصف بأنّها أكثر جنس أدبيّ، استقباليّاً لأنماط لسانیّة متعدّدة تعكس تعدّد الأساليب التعبيرية وتنوّع اللهجات الاجتماعية والإقليمية واختلاف الرطانات المهنية تبعاً لتباين⁽⁷⁾ الفروق الطبقيّة والمهنيّة والجغرافيّة والدينيّة، تخضع في ذلك لقوانين أسلوبية مختلفة.

وحين يروم باختين إيجاد مجال تطبيقيّ يبلور فيه نظريّته الحوارية بهدف إبراز الطابع الغيريّ للإبداع والتّواصل نلفيه⁽⁸⁾ ينطلق من النّص الروائيّ بوصفه مجالاً أتاح له دحض أطروحات كلّ من الشّكلانيّين والأسلوبيين (التقليديّين كما ينعتهم به)، فينتهي بعد دراسته للأعمال الروائية لدوستوفسكي إلى عدّه بمبتدع الرواية البوليفونية، ذلك أنّ هذا الروائيّ قد جعل من نصوصه ميداناً يتّسع لبروز أصوات سرديّة متنوّعة قادرة على التعبير عن وجهات نظرها المختلفة، دونما أن تخضع لتوجيه أو تأثير أو هيمنة سلطة الراوي العليم.

وتالياً يرى باختين أنّ الرواية البوليفونية بوصفها شكلاً سرديّاً جديداً، تقوم على النّقيض تماماً من الرواية التقليدية التي يراها. وإن حذت نحو توظيف كمّ من الأصوات الروائية المتعدّدة والموهمة بتعارضها. تنتمي إلى خطّ أسلوبيّ ينهض على أحاديّة وعي لسانیّ، مرتركز على نمطٍ تعبيريّ فرديّ، يُنظر خلاله إلى أسلوب الرواية بمعايير جماليّة أو شعريّة تهدف إلى تأكيد فردية المبدع وعبقريّته. إذ أنّ باختين يرى بأنّ

أسلوب الرواية (البوليفونية) ينبغي أن يقوم على تباين أصوات فردية، وتنوع كلامي منظم اجتماعيًا وفنيًا⁽⁹⁾ بفضل ارتباط وحداته بشحنة حوارية مشكّلة لأهم الخصائص الأساسية للأسلوبية الروائية.

تقوم الرواية البوليفونية على وحدة أسلوبية كبرى تُعصّدها أنماطٌ تآلفية⁽¹⁰⁾ يعمد الكاتب البوليفوني إلى توظيفها داخل متنه الروائي، من مثل السرد الأدبي الفني المباشر الذي ينجزه المؤلف، والأسلبة stylisation التي يلجأ إليها حين يروم توظيف أشكال (كلام الآخر) السرد الحياتي المختلفة، وغيرها من الأنماط التأليفية المستقلة نسبيًا، والتي تُكرّس التنوع الكلامي للرواية داخل الوحدة الأسلوبية الكبرى حين يتنازل الروائي (البوليفوني) عن سلطة الأسلوب التعبيري الواحد لصالح تعددية لسانية وأسلوبية، دون أن يحاول جمع شتات الأصوات المتنافرة أو توحيد أسلوب تعبيرها، فلا يصبح أسلوب الرواية هو أسلوب كاتبها بل يصبح أسلوب الرواية هو أسلوب الشخص الروائيين أنفسهم.

وتالياً يمكن فهم مشروع باختين حين نادى بضرورة قيام علم جديد دعاه بعبر . اللسانيات، الذي تُوكل له مهمة دراسة "الكلمة" (الأسلوبية) دراسة سوسيو. اجتماعية تنظر إلى الرواية بوصفها نسقا لسانياً مفتوحاً وحيّاً يتحرّك ضمن سياق استعماليّ تفاعليّ داخل سلسلة التبادل اللفظي، بأنّه تجاوزَ لدراسة التعبير من حيث هو بناءً تركيبياً وصرفيّ ونحويّ، معزول عن الصيرورة التاريخية لحياة "الكلمة"، مثل ما ارتأت المقاربات الأسلوبية التقليدية حين تعاملت مع محتوى الملافظ بعدها تعبيراً عن معنى يمتلكه المخاطب، مغفلةً أي دور للآخر.

من أجل ذلك راح باختين يقدّم تصوّراً عاماً (لسانياً وأسلوبياً) للرواية البوليفونية، يقوم على عدد من المقومات على شكل مقولات أساسية موجزة في العناصر التأليفية التالية:

"التعدد اللساني والتعدد الأسلوبي"، والذي تحكمه مظهرات وأشكال خاصة تخضع لها عملية الصوغ الحوارية بوصفه برمجة لهذا التنوع داخل جنس الرواية. ويتجلى ذلك في التهجين والتنضيد وتعالق اللغات القائم على الحوار، أين نجد من أبرز مظاهر هذا التعالق: "الأسلبة والتنويع والباروديا"، دون أن ننسى ذكر الحوارات الخالصة والأجناس المتخللة وأقوال الشخص.

وقبل مباشرة دراستنا الأسلوبية في ضوء البوليفونية اللسانية حليّ بنا أن نذكّر هنا بأن الاختيار المنهجي للبوليفونية اللسانية كمنهج مقارنة، والذي أبنا من خلاله إبراز ملامح التلاقي بين اللسانيات وبين الدراسة الأدبية، تُسيغُه مسألة أنّ الأسلوبية كما ارتأها مؤسسها الأول في الوضع الفرنسي الحديث شارل بالي تُعدُّ فرعاً من أفنان شجرة اللسانيات.

من أجل ذلك سنحاول عدم الفصل بين التحديد النظري الموجز لأنماط التأليفية المستخدمة (مقولات التعدد اللساني والأسلوبي) في عملية الصوغ الحوارية La Dialogisation، أثناء مقاربتنا لنصّ

رواية "المخطوطة الشرقيّة" بوصفها متنا لهذه الدّراسة. ونحن حين سنحاول التّوقّف عند أهمّ أشكال التّعدّد اللّسانيّ والأسلوبيّ في رواية "المخطوطة الشرقيّة" لـ *لواسيني الأعرج*، نؤكّد أنّنا ألفيناها يعبر عن وعي كبير بضرورة توظيف أنماط تأليفية متنوّعة. ذلك أنّ هذه الرواية حين تجمع بين شخوص متباينة في أديانها وأوطانها وألسنتها ومراتبها الاجتماعيّة والفكريّة، فهي تروم أن تخلق بفضل هذا التّعدّد في الانتماء تعدّداً ألسنياً وأسلوبياً.

فإذا كانت الحوارية الخطابيّة المبنية للمجهول حسب تحديدات باختين تقوم على مبدأ عام يرتبط إثره كلام المتكلّم في علاقة حوارية مع كلام الآخر (سابقاً كان أو لاحقاً)، فإنّ الحوارية اللّسانية تعني عنده كافّة أشكال حضور كلام الآخر داخل خطاب المتكلّم. وفقاً لهذا الطّرح يتنازل الروائيّ عن سلطة⁽¹¹⁾ الأسلوب التّعبيريّ الواحد فاسحاً المجال أمام تعدّد لسانيّ وأسلوبيّ، من شأنه أن يساعد على خلق صورة اللّغة⁽¹²⁾ حين يرتبط بتعدّد الشّخوص الروائيّة وتصادم وجهات نظرها حول العالم.

ونحن إذ نؤمن بأنّ أفضل طريقة للقبض على طبيعة هذا التّعدّد اللّسانيّ مُمثلاً في تجلّياته الأسلوبية تكمن في محاول رصد أشكال هذه التّجلّيات، مستنيرين برأي باختين الذي يرى بأنّنا عندما نتكلّم فنحن نتموّقع داخل لسان مشترك، متخّم بميراث لسان الآخر⁽¹³⁾ وقد تسرّبت فيه كلماته مسجّلة استعماالاته الفرديّة. وبذلك يرسّخ باختين مبدأ الحوارية الخطابيّة. غير أنّه يرى كذلك أنّ الحوارية الحقيقيّة (الحوارية اللّسانية) تتحقّق حين تتغلغل في خطاب الذات المتكلّمة خطابات الغير المتعدّدة، وهو ما توفّرها الرواية البوليفونية من خلال نمط التّعدّد اللّسانيّ وأسلوبية السارد الرئيس، حين تتجلّى عبر مقولات التّهجين، وتعالق اللّغات القائمة على الأسلبة الروائيّة والتّنوع والباروديا.

فإذا ما أبنا التّوقّف عند التّهجين، بوصفه مظهراً أسلوبياً يحصل حين يلتقي وعيان منفصلاً عن طريق مزج أسلوبين تعبيريّين اجتماعيّتين داخل ساحة ملفوظ واحد⁽¹⁴⁾. وقد يقوم المتكلّم بهذا المزج بطريقة قصديّة واعية، فنكون حينها بصدد التّوظيف الأدبيّ المقصود. كما قد يحصل هذا المزج بطريقة لا إرادية ولا واعية، ويحدث ذلك غالباً ليدلّ على إحدى الصّيغ الهامّة للوجود التّاريخيّ ولصيرورة الألسن. حين يعرض باختين للتّهجين يتحدّث حينها عن نقل خطاب الآخر داخل خطاب الذات المتكلّمة عن طريق إحدى الصّيغ الأسلوبية (الأسلوب المباشر، الأسلوب غير المباشر، الأسلوب غير المباشر الحر). فيعدّ الصّيغة الأولى (الخطاب المنقول على صيغة الأسلوب المباشر) في كليّتها مونولوجيّة، لأنّ صوت الجهة الساردة يظلّ غير ممزوج بصوت الجهة المسرودة لكون الخطاب المنقول هنا يظلّ معزولاً بشكل واضح بواسطة علامات التّنصيص. ويعدّ الصّيغة الثّانية (الخطاب المنقول على صيغة الأسلوب غير المباشر) في كليّتها

ديالوجية (حوارية)، لأنها تتوفر على شرط امتزاج الصوتين . أثناء عملية نقل الخطاب . مثل ما خلاص إلى ذلك أ. ديكر⁽¹⁵⁾ Oswald Dicrot الذي جعل من تنافس صوتين داخل فعل كلامي واحد حداً فاصلاً بين الحوارية والمونولوجية. ويكون هذا الأسلوب منقولاً بواسطة فعل يعبر عن فعل كلامي آخر، إذ يكون في العادة متبوعاً بأداة ربط، من مثل (يقول بأنه... تشير إلى أنه... الخ..). فيغدو كلام الآخر حينها غير منقول بدقة. وتالياً يمكن تعريفه⁽¹⁶⁾ بالنظر إلى أنه منقول بصيغة الغائب، فلا يكون مسبوقاً بعلامات التنصيص، مثل قولنا: طلب منه أن يغرب عن وجهه.

فيما يعدّ باختين الصيغة الثالثة (الخطاب المنقول على صيغة الأسلوب غير المباشر الحر) فيعده أكثر هجنةً (وتالياً أكثر بوليفونية)، لأنه في هذه الحالة يكون الأمر أقرب إلى ترجمةٍ لمحتوى الفعل الكلامي منه إلى نقل خطاب الآخر. وتعبير آخر، فإن الأقوال المنقولة (بأسلوب الخطاب غير المباشر الحر) يمكنها أن تكون أقلّ أو أكثر أمانةً، دون أن نكون أبداً متأكدين إذا كانت هذه الأخيرة مسجلةً بكلّ دقة، أو أنها خضعت لتأويلٍ من قبل الجهة الساردة، بسبب ما لحقها من ضرورات التعديل أثناء نقل خطاب الآخر على صيغة الأسلوب غير المباشر⁽¹⁷⁾.

وللتّمثيل على ذلك سنتجاوز عرض صيغة نقل الخطاب على شكل الأسلوب المباشر لكونها ذات بنية مونولوجية، مكتفين بالتوقّف عند الصيغتين الأسلوبيتين الأخريتين، اللتين تتجلّى فيهما قصديّة التّهجين. مبتدئين بصيغة الأسلوب غير المباشر، ومستشهدين للتّدليل عليه بالملفوظ التالي من رواية المخطوطة الشرقيّة، حين يتكلّم الروائيّ وهو يسرد حكاية شخصية الأمير نوح ابن المليانيّ آخر حكام نوميديا أمدوكال قبل سقوطها واندثارها. يقول الروائيّ واصفاً وضع ما تبقى من رعيّة المملكة البائدة:

"حتى الصيادون هم في الحقيقة من بقايا السلالات المسحوقة، التي هربت من نار الحرب والتجأت إلى هذا المكان، منذ الهجمات الأولى على سواحل نوميديا أمدوكال. الكثير منهم لم يكن يلتحف إلاّ الموج ورمال السّاحل وبعضاً من زرق البحر. لكن مع الزّمن نصبوا الخيام بعد أن اشتروها من الرجال العابرين الذين يتوضّؤون بمياه البحر، ويقايضون الماء بالأملاح والأشياء الكثيرة الصّالحة للبيع والشّراء. ثم فكّروا عندما اقتحمتهم الشّتاءات القاسية في حفر الغيران وبناء بيوتات بيضاء بالطّمي والحجارة وقصب السّبخات..⁽¹⁸⁾

يمثّل هذا الملفوظ، حسب ما توحى إليه مؤشّراته النّحويّة والتّوليّفيّة، خطاباً منسوباً إلى الروائيّ بوصفه سارداً رئيساً، إذ يبدو من خلال التّحليل اللّسانيّ للتلفّظ أنّ واسيني الأعرج هو المسؤول عن هذا الكلام بوصفه "متكلّماً" من خلال مبدأ وحدة الذات المتكلّمة، وتالياً يبدو هذا الخطاب ذا بنية مونولوجية لا وجود ظاهرياً. لتنازع الأصوات فيه.

غير أنّ القراءة البوليفونية لنصّ هذا الملفوظ قد تخلّص إلى غير هذه النتيجة، حين تنظر إلى الروائي بوصفه هنا القائم بالسرد، حين يعتمد إلى نقل خطاب الآخر (الصيادون) داخل خطابه، مستعملاً صيغة الأسلوب غير المباشر. فيغدو. تالياً. هذا الخطاب معبراً عن امتزاج ملفوظين وطريقتين في الكلام وأسلوبين ومنظورين دلاليين واجتماعيين، لا تفصل بينهما أيّة حدود شكلية (ظاهريّة) من وجهة نظر التّوليف أو التّركيب.

من أجل ذلك لا يمكن أن نعدّ السارد (واسيني الأعرج) مسؤولاً لوحده عن نصّ هذا الملفوظ وذلك لاعتبارين على الأقلّ. أمّا أوّل الاعتبارين، فيتمثّل في أنّ الروائي بوصفه متكلماً هنا، لا يمكننا أن نعدّه مسؤولاً عن كلّ وجهات النّظر والمواقف الواردة في نصّ هذا الملفوظ⁽¹⁹⁾، لأنّ الروائي "المتكلم" حين يقول: "لكن مع الزّمن نصبوا الخيام.." فهو يعبر عن رأي غير رأيه حين ينقل وجهة نظر هؤلاء الذين فروا من جحيم الحرب إلى جحيم الحياة، من خلال نقله لخطابهم على صيغة الأسلوب غير المباشر.

وما ينطبق من كلام على ملفوظ: "لكن مع الزّمن نصبوا الخيام" ينطبق أيضاً على "ثم فكروا عندما اقتحمتهن الشتات القاسية في حفر الغيران وبناء بيوتات بيضاء".

وتالياً يمكننا القول بأنّ مثل هذه الملافيط (حين تلجأ إلى نقل خطاب الآخر باستعمال ضمير الغائب. داخل ساحة ملفوظها نقلاً غير مباشر، يتمّ خلاله التّمازج بين صوت الجهة الساردة (الناقلة) والجهة المسرود لها (المنقول عنها) تعبر. الملافيط. عن "التّهجين القصدي" بوصفه شكلاً بارزاً من أشكال التعدّد اللّساني، الذي يعبر عن هجنة أدبيّة قصديّة يتوارى خلفها وعيان لسانيان يعبر عنهما أسلوب أدبيّ راقٍ.

ثمّ نشي بصيغة الأسلوب غير المباشر الحرّ الذي يتميّز عن سابقه بأنّه موعّل في نقل الخطاب نقلاً غير حرّي، إذ نكاد لا نعثر حينها على فعل كلامي يوحى بالإشارة إلى أنّنا بصدد الخطاب المنقول. فيكون حينها هذا النّقل أقرب إلى ترجمة نوايا الآخر وأفكاره المبطّنة، وليس نقلاً لخطابه المنطوق.

فنخلّص عندئذٍ إلى أنّ صوت الهيئة الساردة يغدو ترجمةً لسريّة الهيئة المسرودة، ليندمج الصّوتان معاً بشكل كليّ ويغدو السارد حينها "نفيداً" *impermeable* ومخترقاً بالنسبة لأسلوب شخصه الروائيين.

وللتّمثيل على ذلك نستشهد بالملفوظ التّالي، حين يواصل الروائي سرد حكاية الأمير نوح الذي قضى زهاء خمسين سنة من عمره محاولاً إعادة بناء مملكة والده، باحثاً عن المخطوط الشرقيّ الذي دوّنه عبد الرحمن مودعا فيه سرّ اندثار ملّك نوميديا أمدوكال. يقول السارد:

"يشعر الأمير نوح أنّ في عيون الصيادين شيئاً من الخوف والدهشة"⁽²⁰⁾.

يبدو من خلال المؤشّرات النّحويّة لهذا الملفوظ أنّه ينتمي إلى خطاب السّارد، الذي يتولّى بنفسه نقل خطاب شخصيّة الروائيّة. فيعمد واسيني الأعرج إلى تنويع الأسلوب الكلاميّ لروايته من خلال استعماله أسلوب التّهجين، إذ يغدو أسلوبه مخترقا بشكل جليّ من طرف خطاب شخصيّة الأمير نوح .

ويظهر التّهجين بشكل كبير حين يتجاوز الروائيّ نقل خطاب شخصه إلى نقله لأفكارهم وترجمته لنواياهم. وذلك حين يريد تصوير شخصيّة الأمير نوح (وليّ العهد) وتصوير معاناته بعد أن سرق ملك أبيه من فمه.

وفي حالة الملفوظ الذي بين أيدينا يبدو هذا الخطاب من خلال وجهة النّظر اللّسانية منسوبا إلى السّارد (الروائيّ) بوصفه متكلمًا. إلّا أنّ التّحليل البوليفونيّ يرى بأنّ وجهة النّظر التي يحملها هذا الملفوظ لا يمكن نسبته إلى السّارد المتكلم، ذلك أنّ هذا الملفوظ يعبر عن خطاب منقول بصيغة الأسلوب غير المباشر "الحرّ". وتالياً يتيح مثل هذا الأسلوب للروائيّ تلوين أسلوب الرواية وتنويعه، فيغدو بواسطتها هذا التّهجين دليلاً على انفكاك عرى الارتباط بين السّارد وبين أسلوب الكتابة من جهة، وشاهداً على خلق مسافة جماليّة بين إمكانات اللّسان وأساليب الكلام من جهة أخرى. ذلك ما نستشفّه من خلال ما توحى به عبارة "يشعر الأمير نوح" التي لا تتحمّل تأويلاً غير كونها تفيد أنّ (السّارد) لا ينقل خطاب شخصيّة الأمير نوح، بل ينقل ما تشعر به وتفكر فيه.

وكأنّنا بواسيني الأعرج هنا قد تجاوز نقل منطوق خطاب الأمير نوح، عن طريق الصّيغة التّقليديّة لنقل الخطاب غير المباشر، فلجأ إلى مزج الصّوتين مزجاً عميقاً يتغلغل إلى حدّ نقل هذا الخطاب نقلاً يترجم الأفكار الدّاخلية لشخصيّة الأمير نوح وينطق بلسان نواياها ومشاعرها المبطّنة.

وتالياً يغدو أسلوب الرواية، ليس هو أسلوب السّارد الرّئيس فقط، بل يغدو حينها هو أسلوب شخصوها الروائيين (المتكلمين أسلوبياً)، ليتحقّق للرواية البوليفونية مبدأ تعدّدها اللّسانيّ عن طريق تعدّد الأنماط الأسلوبية، بوصفها خطأ أسلوبياً خاصاً بمثل هذا النّوع من الروايات.

وإذا ما أبنا التّوقف عند التّنضيد، بوصفه وجهاً من وجود تعدّد الأساليب التّعبيريّة في نصّ رواية "المخطوطة الشّرقية"، فإنّنا ننظر إليه كطبقات منضّدة من طبقات اللّسان تُشكّل كلّ طبقة جنساً خطابياً معيّناً، وحين يستعمل الروائيّ كلمات اللّسان التي تخضع لمبدأ التّعدّد يستعين حينها بصور مختلفة لهذا التّنضيد.

لا يجد قارئ رواية المخطوطة الشّرقية كبير عناءٍ ليلحظ ذلك الكمّ من الإشباع التّنضيديّ المعبر عن التّعدّد الطبقيّ في أسلوب كلام الشّخصيات الروائيّة. إذ يمكن تمييز نوعين من هذا التّنضيد داخل هذه الرواية، جريا على أسلوب الكتابة الذي يستخدمه الروائيّ.

يتمثل النوع الأول في استعمال لسان أجنبي عن لسان كتابة الرواية. وذلك حين يلجأ الروائي إلى توظيف اللسان الفرنسي نطقاً على لسان الشّخوص الروائيّة على اختلاف طبقاتها الاجتماعية. ويمثل توظيف الروائي للأساليب المنضّدة للشّخوص الروائيّة وفق لسان كتابة الرواية الأصلي (العربيّة) نوعاً ثانياً من هذا الإشباع التّنضيدي.

ولتمثيل ذلك نبدأ بالنوع الأول، فنستشهد بالملافيظ التّالية:

- تنضيد حوار الشّخوص الروائيين

يعمد الروائي إلى توظيف مثل هذه النّصوص المنضّدة بلسان أجنبي عن لسان الكتابة العربيّة، فيسهم بذلك في إثراء بناء الرواية، وتأكيد تعدّدها الأسلوبي. من ذلك ما نقرأه في مشهد حوار جلاّد كاتب المخطوطة، وصوت الضّمير الصّالح في مملكة نوميديا أمدوكال. حين تجرّه كتائب الحاكم الملياني إلى موقع المصفاة القديمة نحو حتفٍ نادرٍ يليق بمقام رجلٍ نادرٍ مثله. فيلجأ الروائي إلى تطعيم هذا الحوار بأسلوب منضّد بلسان آخر غير اللسان العربي. يقول السّارد على لسان شخصيّة عبد الرحمن:

" غزاني صوت أحد أفراد كتيبة الظّلام.

- المصفاة قديمة ولم تعد صالحة إلا لأدخنة الملوثة.

- Boof, elle pourra au moins servir à autre chose ?
- I don't understand ? ⁽²¹⁾.

ويستمرّ التّنضيد الأسلوبي بلسان (لغة) غير اللسان الأصلي لكتابة الرواية، فيجعل منه السّارد مرّة نموذجاً لحكمة أو عبارة مسكوكة، كقوله:

⁽²²⁾ Il faut faire la part des choses.

ينتمي الملافيظ السّالفة لسانياً إلى الروائي، من خلال المؤشرات النحويّة والأسلوبيّة والدلاليّة، غير أنّ التّحليل البوليغوني لا يجعل من الروائي متلفظاً مسؤولاً عن وجهة النّظر والمواقف التي تحملها الأساليب السّالفة، لكونها تعبّر عن أصوات الشّخوص الروائيّة المتكلّمة، مثلما يقتضيه مبدأ تعدّد الدّوّات المتكلّمين.

- تنضيد أسلوب الخواطر وحديث النّفس: جرياً على أسلوب الكلام اليومي (العامّي الدّارج)

ويتمثل هنا في النوع الثّاني من أنواع التّنضيد اللّساني، فهو إشباع يروم من خلاله الروائي تأكيد التّعّد الذي اتّخذه أساساً لبناء روايته المخطوطة الشّرقية. إذ غدت حُبلى بتنوّع شخوصها تبعاً لتنوّع

أساليبهم ومقاماتهم الاجتماعية والفكرية. يظهر ذلك من خلال حرص الروائي على ترك الرواية تتحدث بمثل هذا التفاوت في المستويات الأسلوبية.

ونحن نقصد به هنا فسخ مجال السرد أمام الشخص الروائية المتعددة بتعدد الأطر الحكائية القائمة على السرد التفرعي المتشعب. ونحن حين نميز بين ثلاثة أطر سردية⁽²³⁾. ذلك أن السارد حين يروم تأكيد التنضيد اللساني يعمد أحيانا إلى فسخ مجال السرد لشخصه الروائيين، فيجري على ألسنتهم حوارات يسردها بأسلوبها الأصلي، مثل ما تبرزه النماذج التالية:

"أوف..كم من السنوات مرت داخل هذا الامتداد الأزرق الفارغ؟

يا نوح النّواح.

أش من طوفان جابك ورماك؟؟

تدك هبة وتجييك رياح.

كيف خلّت أرضك وسماك؟

الله يجيب ليك ولينا سراح..."⁽²⁴⁾

وما إلى ذلك من مثل هذه الأساليب التي يريد لها الروائي أن تصوّر ما يعتور شخصية الأمير نوح ومعاناته في سبيل إعادة بناء ملك أبيه الضائع. بما يسمح بإغناء أسلوب الرواية، حين يؤثر الروائي التواري فاسحا مجال السرد لشخصية الأمير نوح، مثلما تقتضيه الرواية البوليفونية، التي تنهض على إشباع تنضيدي نوعي.

قد يتفاجأ قارئ رواية المخطوطة الشرقية حين يطّلع على مثل هذا الأسلوب التعبيري لهذه الملافيط، التي تكررت عبر صفحات الرواية في أكثر من مناسبة. ولعلنا قد نزيل بعضا من حيرة هذا القارئ حين نذكره بأن الروائي قد قصد عمدا إلى استخدام مثل هذه الحوارات، التي تفسح مجال الحديث للشخص الروائية، من دون تدخل في تنميق أسلوب حديثها، أو تزويق كلامها. ويعزى سبب ذلك في نظرنا إلى أن الروائي بتوظيفه مثل هذا التنضيد في أسلوب الرواية إنما يروم إضفاء التعدد اللساني على نص روايته، بوصفه وجها أسلوبيا وركنا من أركان قيام الرواية البوليفونية.

من ذلك أيضا ما يقوم به الروائي حين يختفي تماما تاركا شخصية الأمير نوح ولد الملياني تتحدث (عن عبد الرحمن مؤلف المخطوط) بلسان الكاتب والمفكر وعالم الدين. يحصل ذلك حين تتولّى شخصية الأمير نوح نقل كلام بن الخطيب، يقول الروائي (السارد):

عبد الرحمن خاطب للحظ، سديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور، مضخرة من مفاخر التخوم المغربية. ويقال والعهد على من رووا الكثير من أخباره في الحارات والساحات إن أصله من حضر موت، ويقال إن أحد أجداده كان من أصحاب النبي، ولقي حتفه وهو يقاتل إلى جانب الخليفة علي، أشياع معاوية. (25)

يلحظ قارئ رواية المخطوطة الشرقية تفاوتاً ظاهراً في المستويات الأسلوبية في الكتابة، وهو فعل مقصود يتخذ منه الروائي وسيلة مساعدة في إضفاء مزيج من الأساليب الكلامية التي تسعى الرواية إلى تأكيد تعددها، تبعاً لتعدد الشخصيات الروائية ومقاماتهم الفكرية والاجتماعية والثقافية، مثل ما نستشفه لدى قراءتنا للملفوظ السالف، الذي ينطق بلسان عربي أقرب إلى أسلوب الكتابة العلمية منها إلى أسلوب الانزياح الأدبي.

يمكن أن نخلص في الأخير إلى أن هدف الكاتب البوليفوني حين يعتمد إلى توظيف مثل هذا التنضيد بشئى صورته وأشكاله، هو استغلال الجوانب القصصية والدلالة الغيرية الكامنة في تعبير الآخر وكلامه. ذلك أن هذه الأساليب الكلامية لا تتباين بسبب معجمها اللساني فقط، أو بسبب تعدد تعابيرها وتراكيبها المنتظمة وفق قواعد نحوية معينة، بل لأن المحلل البوليفوني ينظر إليها بوصفها أشكالاً أسلوبية قصصية وتأويلية حاملة لمواقف معينة، ومعبرة عن وجهات نظر متباينة.

وإذا ما أبنا أن نتوقف عند تعالق اللغات القائم على الحوار، فإننا نعدّه حينها وجهاً أسلوبياً آخر يقوم عليه التعدد اللساني للرواية البوليفونية. إذ في الحين الذي ينهض فيه التهجين على مزج لسانين (أو أسلوبين كلاميين) اثنتين مزجا مباشراً داخل ساحة ملفوظ واحد، نلفي فيه التعلق الحوارى بين اللغات يقوم داخل لسان واحد محين وملفوظ غير أنه تستنير بضوء أسلوب آخر غير محين وغير ملفوظ. ويبرز هذا التعلق من خلال الصيغ التالية:

✓ **الأسلبة الروائية:** يجتهد الروائي في تقديم نصّه مزركشاً، يحفل بتعدد لسانى يعكس مختلف أوجه الوعي اللسانى لشخصه الروائى، فتغدو حينها الأسلبة قائمة على تقليد الأساليب أو الجمع بين أسلوب مباشر محين داخل ساحة ملفوظ واحد⁽²⁶⁾، فيتم بذلك الجمع بين أسلوبين، أحدهما معاصر مؤسلب، والآخر تراثى مؤسلب ينتهي بهيمنة أسلوب اللغة التراثية على الملفوظ، بفضل ما تحافظ عليه عملية الأسلبة من معجم لسانى وحمولة فكرية، يجتهد المؤسلب خلالها أن يستفيد من أسلوب الغير خدمة لنواياه الخاصة.

نسجل في البداية أن قارئ رواية المخطوطة الشرقية سيتفاجأ حين يجد صعوبة في الحصول على نص يحاكي أسلوب الكتابة التراثية. ومكمن هذه الغرابة مردها إلى أننا كنا قد خالصنا إثر مدارستنا

لتقنيّة التّهجين إلى أنّ الروائيّ قد عمد إلى توظيفه بوصفه ظاهرة فنيّة وأسلوبية تجعل من روايته بناءاً تعددياً لسانياً. وهو ما لا نكاد نعثر عليه لدى مدارستنا لتقنيّة الأسلبة بوصفها محاكاة لأسلوب الآخر وتقليده، حين تنتهي غالباً بتغليب أسلوب التّراث على أسلوب الكتابة المعاصرة. غير أنّ غياب اعتماد الروائيّ على أسلوب الكتابة التّراثية ليس من شأنه أن ينقص من قيمة أسلوب لغة الكتابة في رواية المخطوطة الشّرقية، لأنّ الروائيّ يعتمد بدلاً عن ذلك إلى استعمال تقنيّة التّنوع، بوصفها نوعاً من أنواع الأسلبة، مستفيداً من كون كلّ من الأسلبة والتّنوع وجهين من وجوه التّعالق الحواريّ للغات.

وقبل أن نباشر في تحليل بعض الملافيز الدّالة على أسلوب تقنيّة التّنوع سنتوقّف عند نماذج من أسلوب تقنيّة الأسلبة. وإن كانت رواية المخطوطة الشّرقية. تشحّ على القارئ بمثلها.

من ذلك ما يلجأ إليه الروائيّ حين يصف لنا شخصيّة المليانيّ، الحاكم الغارق في نزوات شهواته وأنهار الاضطرابات (الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسّياسيّة) تجري من تحت عرشه، مثل ما يبيّنه نصّ الملفوظ التّالي حين يخاطب هذا الحاكم مؤرّخ القصر:

" افتح كتابك يا رجل. ففتحه في منتصفه، الطّبقات الكبرى لابن سعد، المجلّد الثّامن، الصّفحة 102، ثمّ بدأ قراءة الجزء المجلّد بالحريّر والقاطيفة:

أخبرنا محمّد بن عمر قال: حدّثنا عبد الله بن عامر الأسلميّ، عن محمّد بن يحيى بن حبّان قال: جاء رسول الله (صلعم) بيت زيد ابن حارثة يطلبه. وكان زيد يقال له زيد بن محمّد...⁽²⁷⁾

يبدو جليّاً من خلال نصّ هذا الملفوظ أنّ الروائيّ يحتفظ بكلام مؤلّف⁽²⁸⁾ كتاب الطّبقات، إذ يقوم بتقديمه من خلال أسلبة مباشرة، يغدو معها جزءاً من نصّ الرواية، من دون أن يخضعه لنبرته الخاصّة، غير أنّه يخضعه ليتماشى مع التّوايا الدّنيئة شخصيّة الأمير نوح ولد المليانيّ.

فحين يؤسلب الروائيّ كلام ابن سعد من خلال الكلمات التّالية: أخبرنا محمّد بن عمر قال: حدّثنا... فهو حينها يروم تحقيق قصديّة تعالق اللّغات القائمة على الأسلبة. وتالياً ألفينا أنّ نصّ رواية المخطوطة الشّرقية قد تعدّد تبعاً لتعدّد الظّواهر الفنيّة والأسلوبية التي تتيح فسحةً لخلق مثل هذه التّعدديّة الصّوتيّة التي لا يمكن أن توجد بمعزل عن هذا التّعدّد اللّسانيّ.

✓ التّنوع : إذا كانت تقنيّة التّنوع تفيد أنّ الروائيّ يعتمد إلى محاكاة أسلوب كلام الآخر فإنّ حضور هذا الأسلوب الغيريّ يظلّ محدوداً نسبياً إذا ما قورن بأسلوب الكتابة لدى الروائيّ الذي يستأثر حينها بغلبته على الأسلوب المحاكى. ويظهر ذلك حين يقحم الكاتب لغة معاصرة يخفّف بها من ثقل حدّة أسلوب الكتابة التّراثي، مثل ما يظهر من خلال العبارات التّالية:

"ثم صفق بيديه. فجاءه مؤرخه الخاص. قال له افتح كتابك يا رجل. الطبقات الكبرى لابن سعد..." (29).

وتاليا يكون نص رواية المخطوطة الشرقيّة قد اغتنى بفعل تقنيات التّنوع، الذي عمد إليه الكاتب تعويضا منه على غياب تقنيّة الأسلبة، بالرّغم من أنّ كلا التّقنيتين تُعدّان من أبرز الظواهر الفنيّة والأسلوبية المساعدة على إدخال التّعّدّد اللّسانيّ للرواية البوليفونيّة. وتاليا تغدو رواية المخطوطة الشرقيّة، بفضل تنوّع أساليبها أكثر قربا إلى تعدديّة لسانیّة منها إلى خطّ لغة مونولوجيّة يهيمن عليها أسلوب كتابة أحاديّ. كلّ ذلك كان نتيجة حتميّة انتهت إليها هذا الاستعمال المقصود للتّعالق الحواريّ بين اللّغات، بوصفه شكلا من أشكال تحقيق التّعّدّد اللّسانيّ، بفضل تقنيّة التّنوع الأسلوبية مثل ما أوضحناه من خلال نماذج الملافيف السّالفة.

✓ المحاكاة السّاخرة (الباروديا) : ننظر إلى المحاكاة السّاخرة بوصفها صيغة من صيغ التّعالق الحواريّ للّغات، إذ كثيرا ما يلجأ الراوي إلى التّحدّث بواسطة الآخرين، حين يقحم داخل كلامه بعضا من أسلوب الغير أو شيئا من المنظورات الاجتماعيّة الإيديولوجيّة⁽³⁰⁾، مقحما خلال ذلك اتّجاهها دلاليّا يتعارض مع دلالة الوضع الأصليّ. فيتمّ تقليد أسلوب الغير (لسانا ومنظورا) دون المحافظة على نوايا الأسلوب المقلّد ومقاصده، التي تتحطّم وتتلأشى طيّعة أمام خدمة نوايا الأسلوب المقلّد.

ينشأ عن هذا التّقليد الأسلوبية حالة من تصادم بين الكلام المؤسّلب وبين الكلام المؤسّلب الذي يُجبر حينها على خدمة أهداف غير تلك التي كان يقصدها قبل المحاكاة. من أجل ذلك تتميّز المحاكاة السّاخرة عن باقي صيغ الأسلبة الأخرى، حين يستعمل الكاتب تقليد كلمات الغير داخل كلامه دون أن يصل التّقليد إلى حدّ التصادم الحادّ، وهو ما يحدث لدى استخدام تقنيّة الباروديا، أين تحمل كلمات الغير المقلّدة دلالات جديدة تجعل منها أشبه بكلمة الغير التّهكميّة ذات الدلالة المزدوجة.

يلحظ قارئ روايته المخطوطة الشرقيّة أنّ الروائيّ واسيني الأعرج لا يتوانى عن توظيف الأسلبة الباروديّة بوصفها وجها أسلوبيا بوليفونيا. وللتّمثيل على ذلك نستشهد بالملفوظ التّالي:

"كان يظنّ نفسه أنّه ينام على فراش من حرير، وأيّ حرير أيّها الرجل الخائب!" (31)

ينتمي ملفوظ النّص السّالف لشخصيّة نوح ولد المليانيّ، حين يتحدّث عن نزوة الغرور والشّهوات التي تسري في عروق أجداده، مثلما يحدث هنا مع شهريار بن المقتدر، الغارق في لجج من غياهب الفحشاء والمنكر والظّلّمات، وأنهار المكائد والمؤامرات تجري من تحت عرشه وهو لا يدري. إذ يتجلّى المعنى الباروديّ من

خلال تحديد موقف شخصية الأمير نوح من جدّه الأكبر شهريار بن المقتدر وهو تحديد يُبين عن نفسه بوصفه موقفاً مقلداً داخل كلام شخصية الأمير نوح، إذ يمكن أن نضع عبارة " وأيّ حرير أيّها الرجل الخائب" بين مزدوجتين.

وتاليا يغدو موقف هذا الآخر(شهريار بن المقتدر) شكلا من أشكال القول المستور الذي لا يحتاج إلى إشارة واضحة توضح انتماءه إلى هذا الآخر انتماء مباشرا أو غير مباشر، وهو ما أرادته الروائي حين أدخل هذا التّحديد إلى خطاب شخصية الأمير نوح، فأفرغ موقف شهريار(الظانّ بنفسه وبملكه خيرا) من دلالة وضعه الأوّل (وهو راحة البال واطمئنان الحال)، والتي قد تعني أنّ الحاكم شهريار بن المقتدر يدير شؤون ملكه باقتدار وتحكّم.

غير أنّ استعمال الأسلبة البارودية بإقحام التّحديد(الجملة الواقعة بين مزدوجين) بوصفه كلاما مؤسلبا داخل ساحة ملفوظ السارد، بوصفه كلاما مؤسلبا لم يكن بغرض إبراز نوايا الكلام المؤسلب والمحافظة عليه(موقف شهريار من نفسه وملكه)، بل كان يهدف إلى تحطيمه وإخضاعه لدلالة الكلام المؤسلب. ذلك أنّ الروائي على لسان السارد من خلال سياق العبارات التالية:

"أيّ + حرير + أيّها الرجل الخائب"، يقع في موضع التّهمّ تجاه موقف الآخر الذي ينام قرير العين مرتاحا كمثّل من ينام على حرير، حين استطاع السارد أن يؤسلب كلام الغير على سبيل السّخرية، حين أشار إلى اطمئنانه بطريقة ساخرة، من رجل يوشك أن تتداعى أركان بيته فوق بيته وهو منهمك في طلائه وتزيينه. وتاليا يمكن القول أنّ السارد حاكي موقفين(من خلال أسلوب محاط بشكل مستتر)، يتمثّل الأوّل في عرض موقف المطمئن على حال العرش والرّعية، فيظهر هذا الآخر بصورة إيجابية سرعان ما تتوارى خلف الموقف الثّاني، الذي يتمثّل في صورته السلبية المتمثلة في غفلته وسكرته من خلال موقف النوم الذي يُراد منه فقدان الوعي والبصيرة. وبذلك يحقّق الروائي تعدّدا لسانيا حين يعتمد إلى توظيف الأسلبة البارودية بوصفه تعارضا ساخرا، من حاكمٍ ينام ملئ جفونه عن شواردها، ويسهى عن الانتباه لشؤون الملك والرّعية. إذ يُخضع خطاب الغير لنبرة تهكميّة تزداد حدّة حين يصطدم صوت الكلام المؤسلب ونواياه بصوت الكلام المؤسلب ومقاصده. فيغدو الوعي اللّسانيّ المؤسلب موقفا ساخرا حادّا من الكلام المؤسلب عن طريق فضحه وتحطيم نواياه.

نخلّص في الأخير إلى أنّ السارد باعتماده توظيف تقنيّة أسلوبية، هي الأسلبة البارودية قد استطاع بفضلها أن ينوّع من أسلوب الكتابة الروائيّة، جاعلا من الأسلبة السّاخرة صيغةً تشهد على التّعالق الحواريّ للغات، الذي يُعدّ بدوره شكلا من أشكال التّعدّد اللّسانيّ، مثل ما خلّصنا إليه من خلال النّمودج الروائيّ السّالف. وبذلك يمكن أن نقول بأنّ الروائيّ واسيني الأعرج خلال رواياته "المخطوطة الشّرقية" لم يدع شكلا

من أشكال توظيف التنوع الأسلوبي بوصفه مظهرا من مظاهر التعدد اللساني، أو صيغة من صيغ تمثيل كلام الآخر داخل الخطاب إلا وحرص على استعمالها داخل متن نص روايته. وبذلك يمكننا القول بأن المقاربة البوليفونية اللسانية قد أبانت عن كثير من صلاحيتها لدى كشفها لجوانب الجمالية الأسلوبية داخل نص رواية "المخطوطة الشرقية" لواسيني الأعرج.

الهوامش والإحالات:

- 1 - Bakhtine/ Voloshinov, *La structure de l'énoncé*, In. T. Todorov : *Mikhaïl Bakhtine : Le principe dialogique*, suivi de : *Écrit du cercle de Bakhtine*, Paris, Edition du Seuil, 1981, p.288.
- 2 - M. Yaguello, *Introduction*, In : Bakhtine/Voloshinov, *Le Marxisme et La Philosophie du langage, Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique*, Traduit du russe et présenté par Marina Yaguello, les éditions de Minuit, 1977, p.12.
- 3 - M. Bakhtine, *Esthétique et théorie du roman*. Trad. Par, Michel. Aucouturier, Paris, Gallimard, 1978, p.85.
- 4 - Bakhtine/Voloshinov, *Le Marxisme et La Philosophie du langage*, Op.cit., p.298.
- 5 - م. باختين، الكلمة في الرواية، تر. يوسف حلاق، وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق، 1988، ص8.
- 6 - م. باختين، الكلمة في الرواية، م س، صص8-9.
- 7 - ينظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- 8 - ينظر: ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر. محمد برادة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2009، ص1، ص26.
- 9 - ينظر: م. باختين، الكلمة في الرواية، م س، صص12.
- 10 - ينظر: المرجع السابق، ص10.
- 11 - ينظر: محمد بوعزة، حوارية الخطاب الروائي، من باختين إلى ما بعد باختين، دار أمل للنشر والتوزيع، تونس، د، ط، 2012، ص33.
- 12 - ينظر: ميخائيل باختين، تر. محمد برادة، م س، صص112.
- 13 - Discours Indirect, Discours Direct et Leur Variantes, In. Mikhaïl Bakhtine, (V.N.Volochinov), *Le Marxisme Et La philosophie du langage*, Op.cit., pp.161-172.
- 14 - ينظر: ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، م س، صص108.
- 15 - O. Ducrot, *Le dire et le dit*, Paris, les éditions de minuit, 1984, pp.171-172.
- 16 - ينظر: لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان، ناشرون دار النهار للنشر، ط1، بيروت، 2002، ص89.
- 17 - M. Bakhtine, (V.N.Volochinov), *Le Marxisme et La philosophie du langage*, Op.cit., p.178.
- 18 - واسيني الأعرج، رواية: المخطوطة الشرقية، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، 2002، ص17.
- 19 - O. Ducrot et al. *Les Mots du discours*, Editions de Minuit, 1981. Chapitre.1.
- 20 - واسيني الأعرج، رواية: المخطوطة الشرقية، م س، صص17.
- 21 - واسيني الأعرج، رواية: المخطوطة الشرقية، م س، صص220.
- 22 - المرجع السابق، ص300.
- 23 - تتفرع مستويات الحكى في رواية المخطوطة الشرقية وفق ثلاثة أطر حكاية: الحكاية الإطارية: وهي الحكاية النواة، إذ يدور محورها حول حكاية الأمير نوح ولد الملياني، حين يعمل جاهدا على إعادة بناء ملك أبيه (نوميديا أمدوكال).
- الحكاية المضمنة: وهي بمثابة حكاية داخل الحكاية، إذ تروي أحداثها قصة المخطوطة الشرقية جريا على سرد تقوم به شخصية عبد الرحمن.

الحكاية الفرعية: حين يعمد الروائي إلى توظيف عدد من الحكايات الفرعية المتنوعة: من مثل حكايات البشير وشهريان، وماريوشا وبوزيان القلعي، وعيسى الجرמוني، وعمار بوزوار، والزنجية وسارة اليهودية، إلى غير ذلك.

24 - رواية المخطوطة الشرقية، م، ص 16.

25 - رواية المخطوطة الشرقية، م، ص 27.

26 - ينظر: لحمد لحمداني، أسلوبيات الرواية، منشورات دراسات، الدار البيضاء، د. ط، 1989، ص 88.

27 - رواية المخطوطة الشرقية، م، ص 68.

28 - هو محمد بن سعد بن منيع، أسماه الذهبي بالحافظ العلامة الحجة، ولد بعد الستين ومائة، فقيل مولده سنة ثمان وستين قال عنه ابن النديم بأنه كان ثقة علما بأخبار الصحابة والتابعين. ينظر: الإمام شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 17، تح. شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط 11، 1996، لبنان، صص 119- 123.

29 - رواية المخطوطة الشرقية، م، ص 68.

30 - ينظر: ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، م، ص 145.

31 - رواية المخطوطة الشرقية، م، ص 35.

الطفل و التراث الشعبي "الحكاية الشعبية أنموذجا"

سعيد سعاد

طالبة دكتوراه تخصص أدب عربي

جامعة ابي بكر بلقايد – تلمسان –

مقدمة :

إن مرحلة الطفولة من أهم مراحل التكوين و نمو الشخصية ، لأن الطفل يولد عديم المعلومات الخاصة ببيئته الخارجية، و لكنّه خصب الاستعداد للاستقبال و تخزين المعلومات الخاصة لكل خبرة يتعرض لها أي " أنه منظمة حيوية خام لها صفاتها الخاصة فعلا و لكنها شديدة التفاعل مع كل من تحتك به ، فهو اجتماعي من صنع بيئته و لكنه تكويني من خلال وراثته " ⁽¹⁾ وطفل اليوم هو فتى الغد ورجل المستقبل ، فهو القاعدة الأساسية ، و اللبنة الأولى للمجتمع ، لذا فمن الضروري أن تنمو قواه العقلية في ضوء إمكانيات المجتمع و حاجاته المتطورة. إذا كانت القصة أو الحكاية الشعبية في صورتها الأولى مجرد خبر أو مجموعة من الأخبار تتصل بتجارب روحية ونفسية عاشتها الناس منذ القدم ، قد حرص المجتمع ا على الاحتفاظ بها ونقلها عبر الأجيال عن طريق الرواية الشفهية ، فالرواية تكسب الحكاية طابعا جديدا، هذا لا يعني أن القاص حر في تأليف الحكاية وفقا لأهوائه ، وإنما مقيد بقوانين شكلية وموضوعية خضعت لها حتى اليوم.

إن الحكاية الشعبية بصفة عامة هي أكثر أنواع الأدب الشعبي تناقلا من مجتمع إلى مجتمع آخر ومن مجموعة لغوية إلى مجموعة لغوية أخرى، فهي تسمع وتفهم ثم تروى سواء أكان ذلك بإعادة صياغتها من جديد وروايتها في بناء فني حديث، أم بتعديل بعض عناصرها أو إبدال بعض هذه العناصر بعناصر جديدة تتوافق مع فكر ووجدان المتلقي الحديث، أم بإضافة عناصر جديدة من واقع الحياة التي يعيشها الراوي والمتلقي في آن " ⁽²⁾ وقد عرفها الإنسان منذ أن عرف الكلمة وسيلة للتواصل ونقل الخبرات لذلك لم يكن الحكيم كاملا بلا هدف.. بل كان وسيلة للمعرفة والدرس والتثقيف، لذلك أصبح الإنسان يجيد السرد و الحكيم، يمارسه بشغف، ويتوارثه باعتباره ميراث الحضارة، والثقافات، وأحد أساليب تناقلها والحفاظ عليها، فالحكيم كان للإنسان ومازال " أداة المعرفة الوحيدة التي عرفها، ومن خلاله صاغ فكره الديني والثقافي، والعملية، واستطاع من خلاله أن يعبر عن الخبرات الحياتية، ويشكل من خلاله الوعي

الإنساني، وإدراك الحياة فهمها، وذلك من خلال ما ابتدعته عقليته من أشكال التعبير القولبي، و التي عرفت بالأدب الشعبي بداية من الأساطير ونهاية بالنوادر"⁽³⁾ ويقول فوزي العنتيل: " عالم الحكايات الشعبية الذي يتحرك فيه أبطال الحكايات طلبا للمغامرة، أو بحثا عن الأدوات السحرية، عالم زاخر بالعجائب، ممتع في الخيال، عالم يبعث الحس والشعور في الحيوان والنبات والأدوات الجامدة، وتلغى فيه أبعاد الزمان والمكان، وتفيض فيه مشاعر الوفاء والتضحية، والعدل وينتصر الخير فيه دائما".⁽⁴⁾

إن الحكاية بتعبيرها الأدبي الجميل مؤثرة، لأنها صادقة في إحياءاتها ودلالاتها، فالطفل بحكم طبيعته يحب الاستماع إلى القصص والحكايات، فيطلب من الأم أو الجدة الحكايات التي تناسبه ويشغف لسماعها مثل: قصة الشاطر حسن، قصة لونجة، قصة بنت السلطان وغيرها من القصص السارة والمخيفة. إن المضامين والمعلومات والحوادث التي تتضمنها الحكاية تؤثر في تكوين الطفل العقلي والخلقي والخيالي دون أن ننسى اللغة، وبالتالي تيسر له عدة منافع تساهم في بناء شخصيته وتوسيع أفكاره وأحاسيسه. لهذا نجد الطفل ينهل منها خاصة ما ينمي أفكاره وينير بصيرته ويشحن عقله، ويتفطن إلى الأعاجيب والتحويلات الخارقة للعادة، وهذا يبعث فيه حب الإطلاع والتقليد ويثبت فيه القيم الجمالية والشعور النبيل، وفي هذا الصدد يبين "ويليام باسكوم" وظائف الحكاية كالترويج عن النفس وتثبيت القيم الثقافية، والتعلم والتلقين انطلاقا من الأبعاد التالية: ⁽⁵⁾

أ) البعد النفسي:

إن الطفل بذاته و نفسيته الهادئة يحب قصص الحيوان، فإنها تجد في نفسه مكانا فسيحا، فهو منذ صغره يحب ملاعبة الحيوان، فيسعد ذلك الأمر ويثير في نفسه قيما عديدة منها المعاملة الحسنة له، والاحتراس من غضب الحيوان فقد يصبح عدوا إذا أسئت معاملته. ومما لا جدال فيه هو " أن الطفل يتعشق لمشاهدة مغامرات النمر والأسود وهي تحدث زئيرا في الأدغال، وهذا ما أدركه كُتاب الأطفال فخصصوا جزءا كبيرا من إبداعاتهم لقصص تتناول مغامرات الحيوانات " ⁽⁶⁾ ومن الملاحظ أن الطفل يغوص في أعماقها ويستبطن ما يدور بنفسه، فالتأمل الباطني أو الاستبطان هو تأمل الفرد إلى ما يدور حوله من عمليات شعورية والطريقة هي أن يطلب من الشخص أن يصف ما يختمر داخله من أفكار ومشاعر دون أن يعرض له بالتحليل والتفسير"⁽⁷⁾.

ب) البعد الاجتماعي:

خلق الله تعالى الإنسان وخلق له مجتمعه الذي يعيش فيه، كما أنه اجتماعي بطبعه، ولا يخفى على أحد إذا تأمل الخلق وجد لكل نقصان لا يكتمل إلا بغيره، ومن هناك جاءت أخوة الإسلام والتعاون و

التآلف ، فإذا قرأ الطفل في قصة من القصص أن فردا طرد من عائلته ، يدرك مدى حزنه و شدة البعد عن الأهل ، فالحيش في عزلة له آثار سلبية على نفسية الإنسان ، فيفقد التعاون و الإحساس بالغير و إن حصل له ذلك واجه الموقف و عرف قيمة المجتمع " فالفرد الجزائري و منذ ولادته يظل حبيس الجماعة التي هو أحد منها ، تفرض عليه ليس فقط عاداته و معتقداته و طريقة معيشتها ، و إنما يجبر على أن يتزوج و يعمل و يمتلك و يمارس العبادات طبقا لنظم و كطوقوس معينة ، و هي بهذا لا تنفي فرديته فحسب و إنما تجعله أيضا مسؤولا عن سلفه و عن غيره " (8) و عندها يلمس الطفل أن أهم عنصر في تكوين المجتمع هي الأسرة التي يعيش بواسطتها، و ينعم بحنانها و يقوى بتشجيعها .

ج) البعد الأخلاقي:

إن خير ما يبتغي من الطفل تهذيب أخلاقه ، فإن استوت حياته و طابت نفسه و اطمئن على حياته ، فقد وضع قاعدة صلبة لحياته يقف عليها و يواجه بها عواصف حياته ، و هذه الأخلاق يأتيه البعض منها، إذا لم نقل معظمها من الحكايات و مما يتعلمه و يتثقف به ، فالحكاية تعتبر الدافع الأساسي لهذه الأخلاق الحميدة ، كالوفاء و الصبر على المآسى و التريث في معالجة الأمور و مساعدة المحتاج و المحافظة على الصديق ، و كيفية صوغ الكلام المناسب لمقامه المناسب و منها يعرف الطفل الخير و قدره و الشر و فظاعته " و مما لا ريب فيه أن الطفل و هو يحتك بالحياة يدرك أن هناك نوعين من المعاملات : نوعا خيرا و نوعا شريرا، و هدفنا نحن أن نحبب إليه الفضيلة و نكره إليه الرذيلة " (9)

د) البعد الثقافي :

من الأهداف المرجو تحقيقها من الحكاية الشعبية ، تشجيع الطفل بثقافة تتفرع شعبها إلى بعد تاريخي و أدبي و علمي و أخلاقي ، فيجلوا بذلك ذهن الطفل و يزداد محبة في طلب المعرفة و هذا نود تحقيقه من المطالعة. إن لقصة الحيوان أثر كبير في تنمية مدارك الأطفال و توسيعها ، فإذا عرف الأدباء كيف ينقلون الدال و المدلول في هذه القصص ، فحتمًا سيتأثر بها الطفل فقد ينظر إلى بطل القصة نظرة حب و عطف و حنان ، كما يمكن أن ينظر إليه بغضب و سخط و نقمة ، و عن طريق هذا الوعي ينمو فكر الطفل و تمتلئ مخيلته و ينتقل شيئا فشيئا إلى عالم الواقع ، و يعتبر القرآن الكريم أول مُرب للطفل ففيه حكايات و قصص ما يعجب له العقل و يبلغ به اللسان (ترقية اللغة عند الطفل) و يسان به العرض و يثلج له الصدر و تصغ له الأذان و تشخص له الأبصار و تفتح له الأبواب و قد أنشد نبطويه لنفسه قائلا :

أَرَانِي نَسِيتُ مَا تَعَلَّمْتُ فِي الْكِبَرِ ❖ وَ لَسْتُ بِنَاسٍ مَا تَعَلَّمْتُ فِي الصَّغَرِ
وَ مَا الْعِلْمُ إِلَّا بِالتَّعَلُّمِ فِي الصَّبَا ❖ وَ مَا الْحُلُمُ إِلَّا بِالتَّكَلُّمِ فِي الْكِبَرِ
وَ مَا الْعِلْمُ بَعْدَ الشَّيْبِ إِلَّا تَعَسَّفَ ❖ إِذْ كُلُّ قَلْبٍ الْمَرْءِ وَ السَّمْعِ وَ الْبَصَرِ

وَلَوْ فَلَقَ الْمُعَلِّمُ الْقَلْبَ فِي الصَّبَا ❖ لَأَبْصَرَ فِيهِ الْعِلْمَ كَالنَّقْشِ عَلَى الْحَجَرِ⁽¹⁰⁾

خلاصة القول إنّ الأطفال أدق آلات التسجيل البشريّة للحكايات والخرافات و الأساطير، و ما يساعدهم على ذلك الرغبة في الاكتشاف ، فيدفعهم حبّ التطلّع إلى المجهول من العالم الذي يحيط بهم ، و حبهم كذلك لتقليد أمور كثيرة في هذه الحياة ، فهم أشد تقص للأحداث و عليه خير مادة يمكن أن يعتمد عليها في نقل التراث هي " الحكاية الشعبية " لما تحتويه من و ظائف إيجابية.

• حكاية القرد والغيلم :

قد تمّ اختيارنا للحكاية هادفة من كتاب "كليلة ودمنة" للكاتب "ابن المقفع" و ذلك للتنويع الذي يعيش فيه الطفل من قراءته المتعددة لمجموعة من القصص المختلفة الاتجاهات، و حكايات كليلة و دمنة متداولة بين الأطفال حتى إنّنا نجد بعضها في الكتب المدرسية الخاصة بالمرحلة الابتدائية و المتوسط. و ما يميز هذه الحكايات أنها تعتمد على ألسنة الحيوانات و هي ذات فوائد جمة:

الفائدة الأولى: تكمن في التربية النفسية و الاجتماعية و الأخلاقية، بحيث جعل لكل من الحيوانات الواردة فيها دلالة تدل على البشر في الواقع ، و لكل منها رمز فالأسد يرمز إلى الملك والفيل يرمز إلى الوزير وغيرهما من الحيوانات ، و يعطي لكل منهم صفات و أعمال حسب ما عرف عنه من صفات كالإخلاص و القوة و الشجاعة و العقل و الكذب و المكر.

الفائدة الثانية: كانت في التسلية والترفيه و الترويح عن المكبوتات في النفس، و هي ما يستفيد منه الطفل إضافة إلى الأولى، وهكذا يكون الطفل قد أصاب الفوائد التالية الحكمة و الثقافة، و الترفيه و التسلية. كما اعتمدت هذه الحكايات على استعمال المثل الذي يُعدّ ركيزة اجتماعية يتعامل معها الإنسان بكل جدية، فإنه يعتبر خلاصة لتجربة إنسانية حقيقية ، و تبقى راسخة كي يتعظ بها الغير، و يعملون بها حتى لا يقعوا فيما وقع فيه الأولون.

و احتوت هذه الحكايات على الفصاحة البالغة و الكلمات الدالة والمعبرة و امتازت بقوة المعنى فإنّها حفظ للغة، فيكتسب بذلك الطفل لغة سليمة وقوية ، و علاوة على ذلك الحكمة الخالصة، فيستخلص الطفل منها ما بحث فيه الغير زمنا طويلا، فتسمو نفسه بها و يعلو شأنه.

وسنورد حكاية القرد و الغيلم محاولة لإبراز أهم أبعادها النفسية و الاجتماعية و الأخلاقية و الثقافية.

إن الطفل بذاته و نفسيّته الهادئة يحب قصص الحيوان، فإنّها تجد في نفسه مكانا فسيحا، والطفل منذ صغره يحب ملاعبة الحيوان ويسعد في ذلك سعادة كبيرة، و تثير في نفسه قيما عديدة من معاملة حسنة للحيوان وإدراكا لحياته من حب وغضب، قد يغضب الحيوان فيصبح عدواً إن أسيئت معاملته "مما لا جدال فيه أن للحيوان منزلة لدى الطفل، وتقديرا عظيما له، فهو يلعب القطة والكلاب إن سنحت له الفرصة بذلك، و يعيش مشاهدة مغامرات النمر والأسود وهي تحدث زئيرا وجلبة بين الأدغال و الغاب، وهذا ما أدركه رواة و كُتّاب الأطفال فخصصوا جزء كبيرا من إبداعاتهم لقصص تتناول الحيوان و مغامرته".⁽¹¹⁾ ومن الحيوان الوارد في هذه الحكاية القرد و يعرف أنه حيوان يعيش بين الأشجار وأنه أليف يتعامل مع البشر بسهولة، وقد رآه الطفل إما أمامه مباشرة أو رآه في التلفاز، فيتعرف على شكله و أهم مميزاتة، فهو كثير القفز مُحِب للهو آكل للرموز وبعض الفواكه، كما يعرف الغيلم وهو ذكر السلحفاة معروف ببطئه لا يسرع في مشيه، وقد يبدو له غبي حين يراه يدخل رأسه في قوقعته إذا واجهه خطر، فهو بدل من أن يهرب يبقى مكانه.

فهكذا يكون لكلهما رمز دالا " في أدب الأطفال الذي عرف عند العرب في زمن مبكر منذ ترجمة كتاب "كليلة ودمنة" و المهم في هذا الرمز نجد المخلوق غير البشري يتصرف كما يتصرف البشر، ويدخل في إطار تصوير الإنسان متنكرا في زي حيوان وهو يتصرف بأخلاق الإنسان".⁽¹²⁾

وقد يجد الطفل ذاته في هذين الحيوانيين (القرد والغيلم) و كأنّه يحاكي نفسه ويعبر عن ذاته، فقد يعيش الطفل في عزلة يريد التعرف على صديق جديد أو وطأ أرض جديدة، فهو ذو طموح واسع يتمتع بحب المعرفة والغوص في بحور أفكاره إلى أقصى حد ممكن.

"لقد ظهرت القصة الحيوانية أو الخرافية، استجابة لحاجة الإنسان إلى التعبير عن ذاته و كيانه بطريق متحررة من كل القيود الإنسانية، التي قد تحول دون تنفّسه بحرية لأسباب عديدة، سياسية واجتماعية وغيرها، واختار الأدباء لقصصهم أبطالاً خرافيين من الحيوانات، فتجولوا في المجتمع بطلاقة، وصوّروا شخصيات إنسانية في قالب حيواني، و كأنّهم كانوا في غابة وهم ينقلون إلينا سلوكيات وتصرفات إنسانية تتحدث عن الحيوان، وهي في واقع الأمر تنم عن الإنسان".⁽¹³⁾

وما يأخذه الطفل من هذه الحكاية عبرة من ملك شيئا ثم أضاعه، ويا حسرة من أضاع ما ملك، قد يحصل للطفل أنّه ملك شيئا ما ثم يفقده، فيتألم لهذا الفقدان أو يكون على دراية ممن فقد شيئا بعد امتلاكه، فيعرف قدر تألمه فيحافظ على ما يملك ولا يفرط فيه مهما بلغت صعوبة الاحتفاظ به.

فلاحظ أن الطفل يغوص في أعماقه و يستبطن ما يدور بنفسه "التأمل الباطني أو الاستبطان هو تأمل ما يجري داخل نفسه أي يستبطن ما يدور فيها من عمليات شعورية ،و تتلخص طريقة الاستبطان في أن يطلب من الشخص أن يصف ما يختلج داخله من أفكار ومشاعر دون أن يجد لها التحليل والتفسير."⁽¹⁴⁾ وهذا ما يسمح للطفل في معرفة نفسه و كيفية إدماجه في واقعه، و ذلك بمراعاة نواقصها و محاولة إتمامها وتعويضها وحسن استعمال محاسنها وقدراتها وتنميتها لما يخدم نفسه ومجتمعه. فيكتشف أن الحياة مجموع أحداث متعاقبة و متباينة و لكل منها تصرف خاص و تفكير دقيق و مواجهة صلبة حتى يستطيع السير معها للأمام.

إن العيش داخل المجتمع يبعث بالنفس شعورا بالاطمئنان و الراحة ،لأن الفرد اجتماعي بطبعه، ويقرأ الطفل ما حصل للقرد الذي أصابه الهرم، فأصبح ضعيفا لا يقوى على المواجهة ولا على الحكم، فطرد من طرف القردة ولم يراعوا في ذلك كبره ولم يوقروا حكمته وتجربته في الحياة. قد يتساءل هل هذه هي عادة عند القردة أم طرد ونفي حتى لا يكون عالية عليهم أو مصدر فتنة، ثم يجد دخول القرد الشاب ذو القوة و اليفاعه لكنه يتمتع بصفة المكر.

فالأمان و الاستقرار النفسي لن يكون بالمجتمع مطلقا، فقد تتخلله صعوبات جمّة لا طاقة للفرد في مواجهتها، فيركع ويستسلم رافعا يديه، وهذا ما يراه عند القرد الهرم فإنه ينطلق هاربا لساحل البحر، فإنه إن بقي هناك فقد يُسجن أو يُقتل وليس ذلك ببعيد، فضل العزلة و المنفى على البقاء بمجتمعه سجيناً أمام الذل والإهانة.

فكثيرا ما يكون الهروب أفضل طريقة للنجاة أو بداية حياة أخرى، وهذا ما نجده في تاريخنا بكثرة، حيث نجد الشاعر الجاهلي الشنفرى الذي ترك عشيرته وكان من فتاك العرب وله لاميته المشهورة ويقول فيها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ❖❖❖❖❖ فإني إلى قوم وسواكم لأميل.

فقد حمت الحاجات و الليل مقمر ❖❖❖❖❖ وشدت لطيات مطايا و أرحل

وفي الأرض منادٍ للكـريم عن الأذى ❖❖❖❖❖ وفيها لمن خاف القلى متعزل

ولا يكون الهروب خفية ولا جُبنا ،ولكنه حكمة وعزة نفس إلى ما يصون كرامته ويحفظ نفسه. كما يلمس الطفل طبيعة السفر حيث يتجه القرد إلى ساحل البحر ، و هذا المكان لا يخلو من المناظر الجميلة ، فسيكون البحر و الشمس الساطعة و الهدوء الموجودة على شاطئه ،لأمر يبعث بالنفس إلى الراحة و الاطمئنان. وهذه هي سمة السفر فهو يحمل النفس إلى الراحة و السكينة. يقول الشاعر :

وإذا البلاد تغيرت عن حالها ❖❖❖❖❖ فمدح المقام وبادر التحويلا .

ليس المقام عليك فرضا واجبا ❖❖❖❖❖ في بلدة تدع العزيز ذليلا .⁽¹⁵⁾

فيدرك الطفل مرارة البعد و الفراق ، لكنّه إذا كان فراقا لا بد منه، وخروجا من دائرة الذل ودخول لدائرة العزة، فإنّه يصبح لزاما عليه .

ويلتقي القرد مع الغيلم وذلك بسبب سقوط حبات التين في الماء ،وميول قلب الغيلم إلى القرد ومحبته فتصافحا وتحابا، ويبدو أن الغيلم خرج أيضا مبتعدا عن أهله لأن بقاءه طال مع القرد. فتطيب نفس الطفل بهذا اللقاء، فيسعد لحال القرد فقد لاقى صديقا و الغيلم أحب هذه الصداقة، إن للصداقة دور كبير في حياة الطفل خاصة ،وهو مقبل على الحياة فيلاقي العديد من الأصحاب في الحي و المدرسة، وربما بأمكنة أخرى، حين يتجول بين أقاربه أو خلال رحلاته.

لكن يجب أن يدرك أصول الصداقة ويحسن اختيار الصديق المناسب، فالصديق له تأثير كبير على حياة صديقه، فإن كان صالحا صلح صاحبه وإن كان مسيئا سيء صاحبه ،و أوصانا نبينا صلى الله عليه و سلم على اختيار الصاحب الصالح فقال: " إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه،و إما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن يجد ريحا خبيثة"⁽¹⁶⁾ رواه البخاري و مسلم.

فالصديق يجد فيه القوة و النصيحة و النصر، يقول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه " لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه في ثلاث في نكبته وغيبته ووفاته " وقال أيضا: "الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين".⁽¹⁷⁾

ونجد أن القرد قد وجد يمينه فتآلفت القلوب وصفا الحديث، وهنا يتفطن الكاتب إلى ما يكتب ،حيث يتقن أسلوبه وكتابته فهي موجهة للطفل ، فنلمس فيها صدق القول وبراعة التعبير "....أما المراد بصدق التجربة أن يُحسها الأديب بالفعل إحساسا يسيطر عليه ويدفعه دفعا إلى التعبير، والمقصود بالصدق الشعوري هو ذلك الذي يُفعم وجدان الأديب ويملاً نفسه".⁽¹⁸⁾

فالكاتب يركز على الصداقة وحاجتها للطفل ، فهي شريان بحياته دائم السريان، وسرعان ما يعلم الطفل أن للغيلم أسرة، قد اشتاق إليها ويجب العودة إليها و يقرأ حوار زوجة الغيلم وجارتها ، وكيف أوغلت صدرها على القرد البريء فيرى المكر والخديعة، وخاصة لما يعود الغيلم وتعلمه الجارة بحاجتهم إلى قلب القرد، فيلمس تلك العدوانية عند جارة الغيلم ، فيما تحبذ الزوجة الصمت فلا تؤكد ولا تنف هذه العدوانية المؤدية إلى إرضاء حاجات بالنفس، فالوصول إلى الغاية مؤكد دون معرفة الوسيلة أو أخذها بعين الاعتبار، فإما أن تكون الوسيلة خير أم شر ، ويلمس في هذه الوسيلة قتل صديق وفي. "نحن نعتبر العدوان

سلوكا عوضا من اعتباره حاجة، فهذا السلوك يستطيع أن يلبي عددا كبيرا من الحاجات مثل حاجة التملك، وحاجة السيطرة، وحاجة الاستقلال والحاجة إلى تجاوز مشاعر الداتوية.....⁽¹⁹⁾ .

ويبقى الغيلم في حيرة ويختار زوجته ويضحى بصديقه، أو يذهب إليه طالبا قلبه فيحتال عليه للذهاب معه بأنه صديقه ويجب زيارته في بيته وجزيرته، فاشتهى القرد الزيارة وذهب مع الغيلم، ولا زال الغيلم في حيرته وصراعه النفسي قائم وضميره يؤنبه حق التأنيب، ولما بلغا وسط البحر فشعر القرد بالخطر وتساءل عن التوقف، فأفصح له الغيلم بخطته ومرض زوجته وإرادته لقلبه، فتفطن القرد وعلم بنهايته.

فاحتال هو أيضا للنجاة بنفسه، وأجابه بالموافقة لكنه قد وضع قلبه على الشجرة عند السفر وطلب من الغيلم إعادته للساحل حتى يناوله قلبه، ففرح الغيلم وسعد لمساعدة القرد له، فعاد به وبدأ ينتظره حتى ناداه، فضحك القرد من الغيلم وقال له أتريد خداعي قد حدث لك ما حدث للأسد وابن أوى وحكى له المثل، فأيقن الغيلم بخطئه وبأنه غبي ولن يفلح في خطته. فالنجاة من المصائب أمر مطلوب وتحتاج إلى عقل نير ومتفطن، وهذا ما تعلمها الطفل، فتبتهج نفسه لعدم موت القرد وعودته لحياته التي كاد أن يفقدها للمرة الثانية.

2/- البعد الاجتماعي:

لقد خلق الله تعالى الإنسان وخلق له مجتمعه الذي يعيش فيه، فكان بذلك الإنسان اجتماعي بطبعه، ولا يخفى على أحد إذا تأمل الخلق وجد لكل نقصان لا يكتمل إلا بغيره، ومن هنا جاءت أخوة الإسلام والتعاون والتآلف، فجاء ديننا الحنيف بهذه التعاليم لبني البشر حتى يتبعوها ويمشوا على منوالها، فتتحقق لهم السعادة في الدارين .

وهذا ما نجده مجسدا في هذه الحكاية التي بين أيدينا، فيرى الطفل كيف أن القرد كان يعيش في مجتمعه آمنا مطمئنا إلى حين طرده أهله وعشيرته والحزن الذي لحق به من جراء ذلك . فيدرك مدى ذلك الحزن، وشدة البعد عن الأهل، فالعيش في بُعد وعزلة له أثر سلبي على نفس الإنسان، فهو بذلك يفقد معنى التعاون والإحساس بالغير والفرح لفرحهم والحزن لحزنهم .

ويجد الطفل أول ما يتناول أية حكاية أن يضرب الفيلسوف مثلا للملك، فيكون **المثل** مثلا للتربية والتنشئة الاجتماعية يقول الملك: " فاضرب لي مثل الرجل الذي يطلب حاجته إذا ظفر بها أضعها" والمثل يعتبر موجها اجتماعيا حتى نجد أن الله تعالى قد جعله في كتابه العظيم، وضرب الأمثال للناس لعلهم يعقلون: " ثم اعلم بأن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء وخفيت عليه الأشياء، فضرب الله لهم مثلا

من عند أنفسهم لا من عند نفسه، ليدركوا ما غاب عنهم فالأمثال نماذج الحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار لتهدى النفوس بما أدركت عياناً".⁽²⁰⁾

فورود المثل هنا جاء تفسيراً و تبصرة لما غابت عنه إضاعة الحاجة بعد الظفر بها، فيتعلم كيفية الحفاظ عليها، والمعاملة الجيدة والفتنة مع ما يحيط به، وإن فرط في قليل منها قد يضيعها، فالحياة تتطلب فتنة وحسن المسيرة والمعاملة، وإلا فقدت ما يصعب استرجاعه ولو لحين .

كما يدرك الطفل أمراً أساسياً في المجتمع يتجلى في الرئاسة، وهو يعلم أن له رئيساً يقتاد إليه، حتى في البيت فالأب رئيس يعطي الأوامر وينفذ أبناءه أوامره ويلبي ما تحتاج إليه أسرته، فلا يمكن أن تسير أمة أو طائفة من دون قائد يحكمها .

كما يُستنبط أن من شروط الحاكم أو القائد الفتنة والقوة، فإن القرد لما كبر وهرم، طُرد ونفي، فمهما كان قويا ذو عزيمة وبأس شديد وعدل وافر، زاد احترامه من طرف الرعية وثبت ملكه وقويت دولته وتطورت، وإن خالف ذلك وهنت وضعفت وتسقط إما بأيدي أعدائه أو يطرد أو يعوز بما هو أقوى وأحكم وأقدر .و الوفاء للرعية من طرف الراعي أمر لا بدّ منه ،فالطاعة أساس الضعف والسقوط .

كما أن عدل الحاكم هو سنام حكمه، فإن غش كان الهلاك مصيره محتوم في ملكه وخاتمته قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يسترعي الله تبارك وتعالى عبدا رعية قلت أو كثرت، إلا يسأله الله تبارك وتعالى عنها يوم القيامة أقام فيهم أمر الله تبارك وتعالى أم أضاعه حتى يسأله عن أهل بيته خاصة".⁽²¹⁾

هذا دليل على أن الحاكم يلتزم بكل صغيرة أو كبيرة تمس رعيته، وكل هو عنه محاسب فله الطاعة وعليه خشية الله في رعيته . وإن العزلة أو النفي إلى خارج البلد لأمر يصعب قبوله والتعود عليه، وإن حصل فلا بد من مواجهته وفيه تعرف قيمة المجتمع، لكن إذا كان المجتمع فاسدا لا بد من هجره وتغييره، فالحاجة للمجتمع قائمة، لكن المحبوب يبقى لما يحبه الفرد، فإن هو أحب تأقلم مع ذلك المجتمع ورضي بقوانينه وتعامل بها .

" فالفرد مند ولادته يظل حبيس الجماعة التي هو أحد منها، تفرض عليه ليس فقط عاداتها ومعتقداتها وطريقة معيشتها، وإنما تجبره أيضا على أن يتزوج ويعمل ويمتلك ويمارس عباداته طبقا لنظم وطقوس معينة، وهي بهذا لا تنفي فرديته فحسب وإنما تجعله أيضا مسؤولا عن سلفه وعن غيره "

⁽²²⁾ .

والقرد قد خرج من مجتمعه، عاقدا بذلك صحبته مع الغيلم ،الذي كان في رحلة خارج بيته فاستأنس كلاهما بالآخر، وهنا يلمس الطفل عنصرا أساسيا في التكامل الاجتماعي والبناء القويم له، إنّه الصحبة

والأخوة وما يجمع الطرفين هو المحبة والحاجة، فالحاجة للغير أمر فطري لا بد منها، فالتآلف قد جاء على نهج بسيط وسليم وكل منهما كان بحاجة للآخر، فالأول خارج من عند أهله في حالة نفسية قاسية وتيهان واسع لا يعرف أن يكمل بقية حياته، وكيف يعيش بعيدا عن ألفهم وحكمهم وأعطهم ثمرة حياته ويناقة شبابه .

والثاني يبدوا أنه كان في رحلة أو سفر بعيدا عن أهله الذين تدركهم بعد حين وطالت غيبتهم عنهم، فقد استأنس بالقرى، وعقدت الصداقة بينهما بصفة رسمية وارتاح كل منهما للآخر وقضيا أياما مريحة يقول الكاتب " وألف كل واحد منهما صاحبه، ولبثا زمنا نصرف الغيلم إلى أهله " .

ويعلم الطفل أن قدر ومكانة الصديق أمر عظيم ، في وقت الشدة، تجد الصديق معك يخفف عليك ويشاركك الحزن ويبحث لك عن الحل ولا يهدأ ولا يهنئ حتى يخرجك مما أنت فيه .

وبهذا تقوى الصلبة ويزيد التآلف وتقوى المحبة فيقوى المجتمع ويتماسك، وهذا ما حثنا عليه ديننا لما فيه من القوة والتماسك قال صلى الله عليه وسلم : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة " .⁽²³⁾

والصاحب محمود ومطلوب إن كان للحمد صاحبا يقول صفي الدين الحلي :

لي صاحب إن خانني دهري وفي ❖❖❖❖❖ وإذا تكدرت المناهل لي صفا
تبدو محبتــــــــــــته ويظهر ودّه ❖❖❖❖❖ نحوي إذا ما الودّ بالملق اختفى
أجفــــــــــــوا فيمنحني المودة طالبا ❖❖❖❖❖ قربي وأمنحه الوداد إذا جفا
كلّ يقول: لصاحبي عندي يدُ ❖❖❖❖❖ إذ كان لي دون الأنام قد اصطفى

كما يلمس الطفل في هذه الحكاية اتجاه البعد الاجتماعي ،أهم عنصر في تكوين المجتمع إنَّها الأسرة التي يعيش بواسطتها، وينعم بحنانها و يقوى بتشجيعها، إنها أسرة الغيلم المتكوّنة من الزوج الغيلم والزوجة ويبدوا أنَّهما كانا يعيشان في سعادة وهناء، واشتياق كل منهما للآخر لدليل على ذلك وهذا هو أساس استمرار الأسرة.

و يجد أنَّ الزوجة أصابها الهول لغياب زوجها، وقد كانت تعرف أنَّه في غياب ،لكن طول غيابه هو ما أرهاقها وأدخل الظنون بنفسها، كما يجد الزوج (الغيلم) وهو في صحبته مع القرى تذكر أهله ،وعلم أنَّه قد أطل الغياب، فعاد راجعا إليها لينعم بدفء عائلته .

إن صلاح الأسرة من أساسيات صلاح المجتمع فبصلاحها يصلح الفرد، فإن عاش في هناء وطيب وعقل مدبر منير وقاعدة إسلامية صحيحة، تحقق بذلك فرد صالح خادماً لمجتمعه، وبالتالي تكوين أسرة صالحة وهذا ما يحقق بالضرورة مجتمعا صالحا.

ولا شك أن الطفل أكثر واحد اهتماما بأسرته، فهي مربيه الأول وعالمه الصغير و مجتمعه المحيط به، منها يتعلم القوانين والتنظيم وكيفية الكلام والاستفسار والاستنتاج. فمن الأب يأخذ القوة والطاعة والسيرة الحسنة، وتشاركه في ذلك الأم التي تُدرّبه على النظام داخل البيت. من تنظيم في الأكل والوقت والتأدب في الحديث والتصرف إلى غير ذلك من مهام الأم مع طفلها بصفتها أقرب إنسان له.

وقد يلمس في هذه الأسرة ما يعكر صفوها ويفسد سعادتها، لذا وجب أن يحترس منها أفراد الأسرة ويحافظون على أسرتهم بكل قوة، ويجب تجشّم المصاعب لبلوغ السعادة . ومن هذه الأخطار التي قد تواجه الأسرة، الصداقة الفاسدة فيجد الطفل قول صديقة زوجة الغيلم: " لا تحزني فإنه قد بلغني أن زوجك بالساحل مع قرد قد ألفه، فهما يأكلان ويشربان ويلهوان، وقد طالت غيبته عنك، فا نسيه إذ نساك، وليهن عليك كما هُنت عليه، وإن استطعت أن تحتالي للقرد فتهلكيه فافعلي. فإن القرد لو هلك قدم عليك زوجك وأقام عندك"

إن هذه الصداقة للزوجة قد تفسد عليها أسرته، وتحرّمها من سعادتها، فظاهر كلامها يبدو أنّها ستسعدّها وتريد لها الخير وتحب لها الهناء، لكنّها في الباطن تبعث بها إلى فناءها، فإنّها جعلت الغيلم يُقبل على قتل القرد والاحتيال عليه، وهكذا يرتكب زوجها جريمة قد لا ينجوا منها، فتعيش الزوجة بقيّة حياتها أرملة أو يبتعد عنها زوجها فتندم ندما شديدا حين لا ينفع الندم.

وفعلا نجحت في إقناع الزوج لقتل القرد بدون سبب، إلا من أجل القتل و حينها تفتن للمكيدة و بعد استعمال الحكمة نجا القرد ونجا الغيلم من ارتكاب جريمة شنعاء، كيف يروق لصديق قتل صديقه؟. كما يجد الطفل من الأخطار المهددة للأسرة كالغياب الطويل لأحد أفراد الأسرة، فغيابه الطويل يدخل الوسواس إلى العقل والقلب، كما يُحدث غيابه فراغا داخل أسرته ولهذا الأخير انعكاس سلبي على سمعة الأسرة، فلا تملك الأسرة تماسكها وقد تتمزق من جراء ذلك.

وأهم شيء يجمع أفراد الأسرة الحب والثقة المتبادلة، فزوجة الغيلم تُكن لزوجها حبا عظيما، لكن الحب أحيانا يحتاج إلى ثقة كبيرة بين الزوجين. وقد سمعت لصديقتها وتركها تكذب على زوجها على أنّها مريضة بمرض شديد والشفاء منه لن يكون إلا بقلب قرد والزوجة صامتة لا تتكلم، وصممتها هذا مؤدّ إلى خراب بيتها.

هذه هي بعض الأخطار الهادمة للأسرة وحتى لأفراد المجتمع، لذا وجب الاحتراس ومحاربتها فالصديق السيئ والبعد الطويل بلا مبرر وغياب الثقة، أمور تهدم أساس أي مجتمع مهما بلغت قوّته، والحفاظ على الأسرة وعلى أفرادها واجب والمسؤولية قائمة على كل فرد كي يستقيم محيطه وتستوي أسرته وتنهأ حياته.

3/- البعد الأخلاقي:

إن خير ما يُبتغى من الطفل تهذيب أخلاقه، فإنّه هي استوت حياته وطابت نفسه واطمأن على حياته، فقد وضع قاعدة صلبة لحياته يقف عليها ويواجه بها عواصف حياته ولن يسقط، وهذه الأخلاق يأتيه بعض منها. إن لم نقل معظمها من الحكايات ومما يتعلمه و يتثقف به. و الحكاية تعتبر الدافع الأساسي لهذه الأخلاق الحميدة، كالوفاء والصبر على المآسي والتريث في معالجة الأمور ومساعدة المحتاج والمحافظة على الصديق، وكيفية صوغ الكلام المناسب لمقامه المناسب.

فالطفل يعرف الخير وقدره ويعرف الشر وفظاعته، فتحمله على حب الخير والتسابق إليه مهما كان صعبا، فهو أصل حياته وسرّ سعادته"و مما لا ريب فيه أن الطفل وهو يحتك بالحياة، يدرك أن هناك نوعين من المعاملات: نوعا خيرا ونوعا شريرا، وهدفنا نحن أن نحبب إليه الفضيلة، وأن نُكرّه إليه الرذيلة منبهين إياه أن كل شيء نسبي وأن الذي قد نراه شرا مستطيرا، إنما هو يحمل في المقابلة خير أحيانا فالموت شيء رهيب، بيد أن فيه رحمة وتطهير وستر وتغيير وتجديد ورحلة أخرى إلى عالم جديد وهكذا...."⁽²⁴⁾

وفعلا قد يلمس الطفل بهذه الحكاية الخير والشر رأى لكل نتائجه، فيجد خير مآبا وموصلا، وأبدع ما في هذا الحب الذي يجمع صديقين كما جمع القرد الهرم والغيلم، فقد طابت الحياة وزينت، ويعتبر هذا من الأمور الحاملة على الفضائل التي يكتسبها المرء. "سئل عقيل ما أفضل ما أعطي العبد ؟ قال: غريزة عقل، قال فإن لم يكن قال فآداب حسن، قال فإن لم يكن قال فأخ شقيق يستشيريه. قال فإن لم يكن قال فطول الصمت، قال فإن لم يكن قال فموت عاجل".⁽²⁵⁾

قد جعل الصديق أخا شقيقا يُستشار فيشير ويدعى فيلبي وهذا فضل عظيم، ومصاحبته تُسببك خُلقا سليما.

كما تحمل الصداقة الأمانة فهي فضيلة ذات شأن ومن أضاعها فقد أضاع خيرا كثيرا، وما أحلى أن يتصف بها أطفالنا وتُغرس في نفوسهم، فيعظمون شأنها ويدركون فضلها فيحافظون عليها، هو بذلك يحفظون أنفسهم، ويستنبط الطفل هذا من الائتمان الواقع بين القرد الهرم والغيلم، فقد استمع القرد للغيلم وضمّه إليه وقضيا زمنا غير يسير في التحادث و التحاكي وأحب كل واحد الآخر، فالأمانة تثمر

المحبة وتطيل الصحبة وقد دعا إليها الأولون وعظموا شأنها " قالت عائشة رضي الله عنها (في مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث وصدق اللسان وأداء الأمانة وصلة الرحم والمكافأة بالصنيع وبذل المعروف وحفظ الذمام للجار وحفظ الذمام للصاحب وقرى الضيف ورأسهن الحياء).

ومن الأخلاق الفاضلة الوفاء وتمثل هذا في الغيلم لزوجته، فقد تذكرها بعد غيابه الطويل فتجده يقول : " لأتبنّ أهلي فقد طالت غيبتي، فالوفاء صفة محمودة يجب التحلي بها. خاصة إذا كان الشخص قريب منك وهو يطلب وفاءك بل هو واجب عليك، ونجد هذا الوفاء يمتد حتى إلى أدية الغير وهذا غير مرغوب فيه، فالوفاء يجب أن يكون في الخير وللخير، أما أن تكون وفيا بالشر فذلك لا يُعدّ وفاء، وإنما تعاون على الإثم والعدوان .

ونرى حيرة الغيلم حين خير بين صديقه وزوجته ولكليهما وفي، وذلك حين طلبت منه الجارة دواء زوجته في شكل قلب قرد ،و كانت تقصد صديقه كي تفرق بينهما فنراه يقول : " من أين أقدر على الإتيان بقلب قرد إلا قلب صديقي؟ " وطبعا هذا لن يكون إلا بال المكر والخداع، فهو يعرف أنّ القرد يثق فيه ولن يشكّ في مكره، ثم يحتار ويستيقظ ضميره يقول: " هل أغدر بصديقي أم تهلك زوجتي".

ثم عاد إلى القياس فجعل زوجته في كفة وصديقه في كفة ووازن بينهما قال : "إذا لم يستطيع الرجل العظيم احتمال ما هو صغير ، كان حقيقيا ألا يلتفت إلى الصديق . وحق الزوجة عظيم، ومنافعها كبيرة فهي المعينة على أمر الدنيا والآخرة ، وأنا على خطئ إن لم أؤثرها وأضيع حقها".

فقد أقنع نفسه بأن اختار زوجته، فهي الحامية والمعينة له على نوائب الدهر ، وفكر ناويا أخذ قلب صديقه، ونرى لهذه الجارة كيف احتالت عليه وغيّرت وجهته وهو غافل ،فقد عماء الحب والوفاء عن الحقيقة ولم يتحر الحق وهذا ما يتنبه له الطفل فالتحري عن الحقيقة واجب خشية أن تظلم شخصا بريئا، وتندم ندما شديدا ولا ينفع الندم حينها.

هنا يجب تحكيم العقل كي لا يقع فيما لا يحمد عقباه " العقل والهوى متعاديان فالواجب على المرء أن يكون لرأيه مسعفا ولهواه مسوفا، فإذا اشتبه عليه أمران اجتنب أقربهما إلى هواه، لأن في مجانبته الهوى إصلاح السرائر وبالعقل تصلح الضمائر ".⁽²⁶⁾

فقد حكم الغيلم هواه ورمى بعقله بعيدا ،وهذا أمر يستبعده أي عاقل فعين الحق تكون في تحكيم العقل ، ولا يترك مجالا للهوى كي يعمل بطيشه. وهنا قد مال الغيلم إلى المكر والخداع وهما من أرذل الأخلاق ويجب مجانبتهما والحياد عنها.

ويجد الطفل الكذب الذي يُعدّ مذموما ومن أرذل الصفات التي يتصف بها بعض الناس، وتمثل ذلك في "كذب الجارة على الغيلم حين أخبرته أن زوجته عليله ولا شفاء لها إلا بدواء يتضمن قلب القرد،

فيتفطن الطفل لهذا الخلق السيئ وأين سيوصله خياله.....إلى قتل صديق بلا ذنب واقتراف إثم عظيم، وهذه هي عواقب الكذب دوما تكون وخيمة.

لدا نجد ديننا الحنيف يُحذِرنا منها ونهانا من الاقتراب منها، فإنَّها دنس للنفس ومفسدة للخلق وتفرقة للوحدة، ومحولة الحب لبغض و التعاون لعداوة و الصفاء لكدر والثقة لمكر والوفاء لغدر. " قيل أمران لا ينفكان من الكذب: كثرة المواعيد وشدة الاعتذار"⁽²⁷⁾
قال الشاعر :

لا يكذب المرء إلا من مهانتة ❖❖❖❖ أو فعله السوء أو من قلة الأدب.

لبعض جيفة كلب خير رائحة ❖❖❖❖ من كذبة المرء في جد ولعب.⁽²⁸⁾

فالكذب صفة مذمومة لا سلاح لها، حيث تنقص من قيمة صاحبها وتحط من شخصيته، وإن اشتهر بين ذلك وسط محيطه من أصحاب وعائلة سقط شأنه ونقم منه الجميع، ونصح الابتعاد عنه. كما يلمس الطفل صفة الغدر والخيانة ويعرف مآلها الذي يتجلى في الحزن والأسى، وجعل الحيلة سبيلا لبلوغ المآرب الخبيثة، فالقضاء على الصديق من أجل إرضاء حاجة بالنفس، فهذا أمر جلل تجزع له النفس وتذمه الأخلاق الحسنة، فيتفطن الطفل لهذا ويحذر الحب الكاذب والوفاء المخادع. فالتيقن من الصاحب واجب حتى إذا وثقت به جعلته سندا لك في الحياة.

و استعمال الحيلة يكون في الخروج من المصيبة: " قيل الحاجة تفتح أبواب الحيل وكما يقال ليس العاقل الذي يحتال للأمور إذا وقع فيها، بل العاقل الذي يحتاط للأمور أن لا يقع فيها:"⁽²⁹⁾

وقد وقع القرد في شرك الغيلم، لكنه تطفن واحتال لنفسه فخرج منها سالما ،كما يلمس ما هو سنام الأخلاق المتمثل في الاعتراف بالخطأ وطلب العفو، فالاعتراف شجاعة لا تكون إلا من لبيب حذق، فهو تصحيح للخطأ ونقول لكل مخطئ خير الخطائين التوابون فتجد الغيلم يقول : " أنت الصادق البار ، وذو العقل يُقلل الكلام، ويبالغ في العمل، ويعترف بالزلة، ويثبت في الأمور قبل الإقدام عليها، ويستقبل عثرة عمله بعقله"

فالعاقل يقلل الكلام ويظهر العمل ويعترف بالخطأ ويُحسن الخروج من زلته، إنَّها صفات يحسن للمرء التحلي بها.

"والعاقل لا يخفى عليه عيب نفسه، لأنَّ من خفي عليه عيب نفسه، خفيت عليه محاسن غيره، وإن من أشد العقوبة للمرء أن يخفى عليه عيبه ،لأنَّه ليس بمقلع عن عيبه من لم يعرفه، وليس بنائل محاسن الناس من لم يعرفها وما أنقع التجارب للمبتدئ"⁽³⁰⁾

ونجد من الأهداف المرتضى تحقيقها من الحكاية، تشبييع الطفل بثقافة تتفرع شعابها إلى بُعد تاريخي وأدبي وعلمي وأخلاقي، فيجلو بذلك ذهن الطفل ويزيد محبة في طلب المعرفة ويزداد حبا بها، وهذا ما نود تحقيقه من مطالعة الطفل، ولهذا نعمل على تنويع كتبه و قصصه والحرص على إيصالها له، وإعطائه كافة المساعدات لمطالعتها من وقت لآخر و تشجيعه، حتى يلمس لب المعرفة ويحيا في شعبها وينهل من ينابيعها، فيقوى عظم معرفته ويسيل بجسمه دم الثقافة.

"إن لقصة الحيوان أثر كبير في تنمية مدارك الأطفال وتوسيع معارفهم، إذا عرف الأدباء و الرواة كيف ينتقون الدال والمدلول في هذه القصص، لأنّ الطفل يتأثر كثيرا وهو يتلقى حكاية من حكايات الحيوانات، والداعي إلى ذلك أنّه ينظر إلى بطل القصة الحيوانية نظرة شفقة وعطف ورحمة، أو نظرة غضب وسخط ونقمة، فهو يتصرف معها حسب مات تحتاجه من آثار أو ما تقدمه من بر وإحسان، وعن طريق هذا الوعي ينمو فكر الطفل وتمتلئ مخيلته لينتقل شيئا فشيئا إلى عالم الواقع، وليدرك كلّما تقدم في السن الفرق بين الخرافة والحقيقة، ولكن الحكيم (بفتح الحاء وسكون الكاف) يظل عالقا بذهنه، وقد يؤهله ليصير روائيا كبيرا أو شاعرا بارعا لأنّ القصور المبنية تبدأ بلبنة واحدة كما يقال".⁽³¹⁾

وهكذا يكون لحكاية الحيوان أثر كبير في حياة الطفل، وجب الحرص عليها فهي تحمل الطفل على المعرفة بتاريخه، فالحكاية الحيوانية التي بين أيدينا من كتاب أصيل في تاريخ الأدب ولكاتب عظيم شأنه بما ألفه للعقول اللبية هو كتاب "كليلة و دمنة" لا بن المقفع، فمعرفة الطفل له تعود به لتاريخ قديم وتبدأ معرفته صغيرة وتكبر معه عبر حياته، فعلمنا قائل بأن كل شيء جديد (معاصر) لا بد من أساس قديم (أصالة) والمعاصر هو تطور للحديث والقديم ولا شيء ينتج من العدم، وإن إشباع الطفل بمعرفة تاريخه الأدبي هو حامل ودافع له إلى إنتاج الجديد.

وقد تعلم الطفل أصول الصداقة، إنّها عهد بين شخصين تضمن شرط الوفاء والإخلاص، وإن واحد منهما خالفها تفرقت صداقتهما، وقد تنقلب إلى عداوة يتخللها خداع ومكر، كره ورغبة في الانتقام، فتضطرب الأمور وتسوء الأحوال، يعرف الطفل عواقب ذلك فيتجنبه.

كما يتعلم أهمية هذه الصداقة، فهي من ركائز الحياة وقد حث عليها ديننا الحنيف، فجعل المؤمنون إخوة وجعل رسول صلى الله المؤمنون كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا وشبك أصابعه".⁽³²⁾

فكلما زادت المحبة والصداقة قويت الرابطة وزاد الاتحاد وطاب الحديث وصفت القلوب، ويظل الواحد باحثا عما يريح صديقه فيسرعه في إتيانه ويعرف ما يبغضه فيتركه، وأن يكون قلب الصديق مسامحا رفيقا، فالرفق ما اختلط بشيء إلا زانه وما خلا من شيء إلا شانه. ويحذر من حب المصلحة

الشخصية على حساب صديقه، فقتل صديق قد عرف الأمانة من صديقه لأمر جليل وجب الابتعاد عنه، فلا مصلحة لك على حساب صديق آخر كي تخسر حياته أو تفسد مصالحه، بل يجب مشاورته والتأني في الأمور والحرص على عدم فقدانه.

فالوقوع في شباك الغدر والحسد أمر عسير وعواقبه وخيمة، ويجب الحرص من ذلك كما يعلم أسباب الخصام كثيرة منها سوء الظن بالصديق أو بالزوج وتصديق الواشون، كما حصل للغيلم حينما صدّق صديقة زوجته وذهب ليحضر قلب صديقه مريداً بذلك قتله، ظنا منه أن قلبه حقا شفاء لزوجته وظنّت زوجته بأنه حقا ابتعد ونساها وما كان ذلك صحيحا، وهي صفة ذميمة حذرنا منها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا".⁽³³⁾

الإحالات والهوامش :

- 1 - ميشل دبابنة، نبيل محفوظ/1984/ص13.
- 2 - أحمد محمد عبد الرحيم - دور الحكاية الشعبية في تنشئة الطفل - المهرجان الثاني لفنون طفل الصعيد - الندوة العلمية المنيا من السبت 9/8 إلى الخميس 9/13 /2001 ص131
- 3- نفس المرجع السابق ص388.
- 4- فوزي العنتيل - عالم الحكايات الشعبية - مكتبة الدراسات الشعبية - هيئة قصور الثقافة - 1999 - ص2.
- 5 - المأثورات الشعبية و العالم المعاصر / مجلة الفكر الكويتية ، المجلد 3/ العدد الأول /1972 ص149.
- 6 - محمد مرتاض: من قضايا أدب الأطفال، ديوان المطبوعات الجامعية /دط / 1994 ص103.
- 7 - خير الله عصار: مقدمة لعلم النفس الأدبي ،ديوان المطبوعات الجامعية /الجزائر /1982 ص38.
- 8 - صلاح مصطفى القوال :علم الاجتماع البدوي/دار نافع للطباعة /ط1 / 1974 ص 145.
- 9 - محمد مرتاض : من قضايا أدب الأطفال، ديوان المطبوعات الجامعية /دط / 1994 ص 134.
- 10 - نفطويه: هو أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة العتكي الأزدي . إمام حافظ، إمام من أئمة النحو، فقيه
- 11- محمد مرتاض: من قضايا أدب الأطفال، ص103.
- 12- نفس المرجع السابق ص95.
- 13- المرجع السابق ص95.
- 14- خير الله عصار: مقدمة لعلم النفس الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982 ص38.
- 15- الأبهشي ، المستطرف من كل فن مستطرف ج 2، ص 85.
- 16- أبو عبد الله مصطفى ابن العدوي: فقه تربية الأبناء، دار ماجد العسيري، دط. 2002م ص156.
- 17- الأبهشي : المستطرف من كل فن مستطرف ج 1، ص 264.
- 18- مجلة البلاغ في الأدب واللغة : أحمد هيكل، عنتر مخيمر العدد 5، مؤسسة دار البلاغ للصحافة والطباعة والنشر ، 1999 ص 38.
- 19- المجلة النفسية: د. فاروق مجذوب ، ديناميكية المجال العدواني ص94.

- 20- أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترميذي: الأمثال من الكتاب والسنة، تحقيق د. السيد الجميلي، دار ابن زيدون بيروت ط1. 1985 ص 14.
- 21- أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي 1985، ط1، رقم الحديث 4408.
- 22- صلاح مصطفى الفوال: علم الاجتماع البدوي، دار نافع للطباعة، ط1 ن سنة 1974 ص 145.
- 23- الإمام مسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم رقم 4677. مكتبة السنة بالقاهرة، ط1 سنة 1993.
- 24- محمد مرتاض، من قضايا أدب الأطفال. ص 134.
- 25- محمد بن حبان البستي أبو حاتم: روضة العقلاء، دار البشائر بيروت، سنة 1977، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ص 17.
- 26- محمد بن حبان البستي، روضة العقلاء ص 19.
- 27- الأبشيهي المستطرف من كل فن مستطرف ج 2 ص 18.
- 28- الأبشيهي المستطرف من كل فن مستطرف ج 2 ص 18.
- 29- الأبشيهي المستطرف من كل فن مستطرف ج 2 ص 19.
- 30- محمد بن حبان البستي، روضة العقلاء ص 22.
- 31- محمد مرتاض، من قضايا أدب الأطفال ص 129.
- 32- صحيح البخاري: كتاب الصلاة باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره رقم الحديث 459.
- 33- نفس المصدر كتاب الأدب باب يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن رقم الحديث 5606.

المحور الثالث : الدراسات القانونية

حماية التراث المبني بالجزائر من خلال قراءة أثرية في المخطط الدائم لحفظ واستصلاح القطاعات المحفوظة.

عبد الكريم خبزاوي

طالب دكتوراه تخصص حفظ وتسيير التراث الأثري

جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان.

مقدمة:

على غرار دول حوض المتوسط، تزخر الجزائر بتاريخ تزامنت فيه الأحداث، و تعاقب حضارات عديدة ومتنوعة بتنوع مراحلها التاريخية، ما جعلها تمتلك إرثاً ثقافياً كبيراً، الذي يفرض عليها اتخاذ تدابير وإجراءات، قانونية وتنظيمية من شأنها توفير حماية دائمة لهذا الإرث، وهو الأمر الذي دفع بالجهات المعنية، إلى إيجاد مقاربة شاملة متماسكة لحماية وحفظ التراث الثقافي على مستوى التراب الوطني، من خلال انتهاز إستراتيجية جديدة، تمثلت في وضع المخطط الدائم لحفظ واستصلاح القطاعات المحفوظة. حيث يهتم هذا المخطط بمعالجة التراث المبني التقليدي الذي يقع داخل المجال العمراني الحديث، ولمعرفة خصوصية هذا المخطط وأهدافه ودوره في تجسيد الحماية الأثرية، الفلسفة التي وضعتها الجزائر بعد دخول القانون رقم 98- 04 حيز التنفيذ سنة 1998م. وبناءً على هذه المعطيات وغيرها نطرح الإشكالية التالية: ما المقصود بالمخطط الدائم لحفظ و استصلاحات القطاعات المحفوظة، وكيف يتم إعداده وتنفيذه؟

1. نبذة تاريخية حول نشأة المخطط الدائم:

تقتضي دراسة المخطط الدائم التطرق إلى المراحل التي قطعتها الجزائر في مجال حماية التراث الثقافي، منذ فترة الاستقلال إلى غاية صدور المرسوم الخاص بالمخطط الدائم، التي نقسمها إلى مرحلتين وهي:

مرحلة ما قبل سنة 1998:

يعود تاريخ ظهور أولى التشريعات⁽¹⁾، الخاصة بهذا المجال إلى مطلع الستينيات (علماً أن الجزائر كانت ما تزال في تلك الفترة تعتمد في تشريعاتها على تمديد مفعول التشريع الفرنسي المتضمن القانون رقم (62- 157) المؤرخ في 31 ديسمبر 1962)⁽²⁾، ففي سنة 1967 عرفت الجزائر صدور أول نص تشريعي

خاص بحماية الأماكن والآثار التاريخية الوارد في المرسوم رقم (67- 281)⁽³⁾ المتعلق بالحفريات وحماية الأماكن والنصب التاريخية والطبيعية، الذي ضم أكثر من 136 مادة.

ثم في سنة 1979 يتم إنشاء اللجنة الوزارية المشتركة لشراء التحف الفنية بين كل من وزير الإعلام والثقافة ووزير المالية مع وزير التجارة، بعدها صدر قرار آخر يتعلق برخص البحث عن الآثار سنة 1980.

تلاه المرسوم رقم (67- 10) المتضمن انشاء الوكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم والنصب التاريخية سنة 1987، تقوم بدراسة طلبات الترخيص للبحث الأثري، التي يتقدم بها المختصون أو الهيآت العمومية أو الخاصة وحتى الدولية، وكذا اجراءات الحفريات الأثرية المبرمجة، سواء تلك التي تقوم بها هي أو التي يقوم بها أشخاص عموميون وخواص، مواطنون وأجانب، إضافة إلى متابعة التقدم في مجال البحث الأثري في العالم⁽⁴⁾.

هذه الوكالة أصبحت في سنة 2005 تسمى " الديوان الوطني لتسيير الممتلكات الثقافية المحمية واستغلالها (O.G.E.B.C)" بالمرسوم رقم (05- 488)، يخضع لوصاية الوزير المكلف بالثقافة، مكلف بتسيير الممتلكات الثقافية، ويضمن صيانتها و حفظها، واعداد دفتر الشروط الخاص باستعمالها، إضافة إلى ضمان مهام صاحب المشروع المفوض، فيما يخص دراسة وانجاز مشاريع ترميم واستصلاح الممتلكات الثقافية العقارية التابعة للأمالك العمومية للدولة والجماعات المحلية⁽⁵⁾.

وفي سنة 1988 أنشئت مؤسسة ترميم التراث الثقافي بالمرسوم رقم (88- 09) تتولى جميع أشغال الترميم، والتهيئة والاستصلاح الخاصة بالتراث الثقافي المنقول والعقاري، الذي يرجع إلى مختلف الحقب التاريخية في البلاد، وله أهمية حقيقية في التاريخ والفن والآثار⁽⁶⁾، وقد سبق انشاء هذه المؤسسة وضع ورشة دراسات وترميم واد مزاب واصلاحه⁽⁷⁾.

ثم في سنة 1991 يصدر المرسوم التنفيذي رقم (91- 340) يتضمن القانون الأساسي الخاص بعمال الثقافة، إذ نجد ببابه الثالث الخاص بفرع التراث الثقافي المتعلق ب: (الحماية، الحفظ، الوثائق، المحفوظات، الهندسة المعمارية، البحث، الإصلاح، والمراقبة) بمعنى حفظ التراث الثقافي واصلاحه ومراقبته، وكذا الهندسة المعمارية الخاصة بحماية الآثار والأماكن التاريخية⁽⁸⁾.

تلاه مرسوم تنفيذي آخر رقم (94- 414) ينص محتواه على احداث مديريات الثقافة في الولايات وتنظيمها، في سنة 1994⁽⁹⁾، بعد هذا التاريخ عرف هذا القطاع تطوراً ملحوظاً نتطرق إليه في المرحلة التالية.

ب- مرحلة ما بعد سنة 1998:

بعد مرور أكثر من ثلاثين سنة كاملة، تصدر الجزائر قانونها⁽¹⁰⁾ الخاص بحماية التراث الثقافي، بعد المراسيم⁽¹¹⁾ والقرارات الصادرة من قبل المجحفة في حق حماية التراث، ألا وهو قانون (98- 04)⁽¹²⁾، الذي يعد قفزة نوعية قامت بها الجزائر من أجل التعريف بتراثها الثقافي للأمة، وسن قواعد عامة لحمايته، والمحافظة عليه، وتثمينه.

كما عمل على تنظيم كل أعمال الصيانة، والترميم، والتهيئة، ورد الاعتبار للمعالم التراثية، تضمن 108 مادة عاجت في مجملها العناصر السابقة الذكر بالإضافة إلى العقوبات، تلاه صدور مرسوم تنفيذي آخر رقم (01- 104) تضمن تشكيل اللجنة الولائية والوطنية للممتلكات الثقافية في سنة 2001⁽¹³⁾.

بعدها ولثان مرة في الجزائر يتم استحداث لجنة مكلفة باقتناء الممتلكات الثقافية بقرار وزاري بين وزير الاتصال والثقافة ووزير التجارة، تطبيقاً للمادة رقم (81) من القانون (98- 04).

وفي سنة 2003 التي عرفت صدور أربعة مراسيم تنفيذية، الأول رقم (03- 311)، يحدد كفاءات إعداد الجرد العام للممتلكات الثقافية المحمية⁽¹⁴⁾ تطبيقاً لأحكام المادة رقم (07) من القانون السالف الذكر، والثاني رقم (03- 322) يحدد كفاءة ممارسة الأعمال الفنية المتعلقة بالممتلكات الثقافية العقارية المحمية، تطبيقاً لأحكام المادة رقم (9) من القانون (98- 04)⁽¹⁵⁾.

أما الثالث فيحمل رقم (03- 323)⁽¹⁶⁾ المتضمن لكفاءات إعداد مخططات حماية المواقع الأثرية تطبيقاً لأحكام المادة رقم (30) من نفس القانون، والرابع رقم (03- 324)⁽¹⁷⁾، الذي يحدد شروط القيام بالمخطط الدائم لحفظ و استصلاح القطاعات المحفوظة تطبيقاً لأحكام المادة رقم (45) من القانون السابق، وكل هذه المراسيم ساعدت في توفير آليات جديدة تدعم بها التراث الثقافي الجزائري، حتى وان كانت غير شاملة لكل ما يتطلبه التراث من حماية وصيانة، إلا أنها ترفع من قيمته.

2) المخطط الدائم:

أ- إعداد:

توكل مهمة إعداد المخطط إلى مكتب دراسات أو مهندس معماري مؤهل قانوناً، طبقاً للتنظيم الخاص بالأعمال الفنية، المتعلقة بالممتلكات الثقافية العقارية⁽¹⁸⁾.

ويقصد بالأعمال الفنية على أنها وظيفة شاملة تغطي مهام تصميم ومساعدة ودراسة ومتابعة ومراقبة انجاز الأشغال المتعلقة بالممتلكات الثقافية العقارية، المقترحة للتصنيف أو المسجلة في قائمة الجرد

الإضافي، وكذا جميع عمليات الترميم (من إصلاح، تعديل، تهيئة، إعادة التهيئة، ودعم)، وتحدد هذه المهام وفق المراحل الثلاثة التالية:

✓ - **مهام الدراسة:** وتشمل المعاينة والتدابير الاستعجالية، والبيانات والمصدر التاريخي، وحالة الحفظ والتشخيص، ومشروع الترميم.

✓ - **مهام المتابعة:** متابعة الأشغال ومراقبتها.

✓ - **مهمة النشر:** تحضير التقرير العلمي ونشره⁽¹⁹⁾.

تمثل هذه المراحل أهم خطوات المخطط الدائم، لأن القيام بها يتطلب خبرة علمية عالية المستوى، إذ يتم خلالها:

(1) - تحديد الأضرار وأنوعها، وضبط درجة خطورتها

(2) - تحديد وسائل وطرق التدخل، خاصة إذا ما كانت الممتلكات الثقافية المعمارية منها في حالة مزرية، مع إيلاء الأولوية لتلك المهددة بالسقوط.

إن التشخيص يوضح حالة حفظ المعالم أو المباني الأثرية، وأهم الأخطار التي تهددها مثل: قنوات الصرف الصحي والطرق الموجودة بمحاذاتها، ومعرفة أهم عوامل التلف البيولوجية والميكانيكية، بهدف إعطاء مشروع الترميم الصبغة العلمية الأكاديمية.

يتم خلالها انجاز بطاقة تشخيص ومعاينة لكل الأضرار، تسهياً لعملية وضع التدابير الاستعجالية، التي تخضع للمراقبة العلمية والقانونية، لضمان سلامة المواقع والمعالم من الزوال والاندثار.

كان هذا عرض لأهم المهام الميدانية الخاصة بالأعمال الفنية، التي تحدد وفق عقد موحد لكل المهام، طبقاً لدفتر الشروط النموذجي، الذي يحدد محتواه بقرار مشترك لوزارتي الثقافة والهندسة المعمارية.

علماً بأن المهندس المعماري رئيس المشروع، هو في الوقت نفسه مختصاً في مجال حفظ المعالم والمواقع المحمية واستصلاحها⁽²⁰⁾، إذ يشترط عليه الحصول على شهادة جامعية ما بعد التدرج في ميدان حفظ المعالم واستصلاحها، زيادة على الخبرة المهنية، وتمنح له صفة المؤهل بناءً على رأي اللجنة القطاعية للتأهيل التابعة لوزارة الثقافة، وتختاره بعد إعداد قائمة وطنية للمهندسين المعماريين المؤهلين في المعالم والمواقع⁽²¹⁾.

يخضع المخطط لعدة شروط، منها الأعمال الفنية التي يجب أن يطبقها المهندس المعماري، من دراسات علمية وتاريخية، وتشخيص ميدانية من أجل اتخاذ التدابير الاستعجالية المناسبة، وصولاً إلى عملية النشر لكل الأعمال المنفذة، وفق ما حدد في دفتر الشروط، وذلك إسهاماً في نشر المعرفة العلمية.

ب- المراسلات الإدارية:

تنشر مداولة المخطط الدائم لمدة (1 شهر) بمقر البلدية أو البلديات المعنية، وفور التصديق عليها من طرف المجلس الشعبي الولائي (الجزائر)، في حين يرسل الوالي نسخة عنها إلى الوزير المكلف بالثقافة، بعد انقضاء تلك المهلة يتشاور مدير الثقافة للولاية تحت سلطة الوالي مع رئيس المجلس الشعبي البلدي، حول عملية اسناد المخطط الدائم إلى مكتب الدراسات أو المهندس المعماري، في حين يتم اطلاع مختلف رؤساء غرف (التجارة والحرف والصناعة التقليدية والفلاحة)، ورؤساء المنظمات المهنية، وكذا الجمعيات التي ينص قانونها الأساسي على السعي لحماية الممتلكات الثقافية وترقيتها، على ما تم وضعه من إجراءات خلال المداولة المتعلقة بإعداد المخطط الدائم⁽²²⁾.

حيث يمنحون مهلة (15 يوم) ابتداءً من تاريخ استلام الرسالة لإبداء رغبتهم في المشاركة بصفة استشارية في إعداد مشروع المخطط، بعد انقضاء تلك المهلة يحدد الوالي بقرار مع مدير الثقافة، لتحديد قائمة حول الأشخاص المعنويين الذين طلبوا استشارتهم بشأن إعداد المخطط الدائم، ويعلق هذا القرار في مقر البلدية المعنية، كما يجب أن تستشار كل الإدارات العمومية التابعة للدولة، إضافة إلى الهيئات والمصالح العمومية المكلفة بتوزيع الطاقة والماء، والتطهير والنقل، والهيئات المكلفة بحماية الممتلكات الثقافية وتأمينها⁽²³⁾.

تختتم الإجراءات باجتماع يضم مدير الثقافة للولاية، ورئيس المجلس الشعبي البلدي المعني بالمخطط، للتشاور حول مختلف مراحل إعداد، بحضور مختلف الهيئات والإدارات والمصالح العمومية والجمعيات.

ج- المصادقة والاستقصاء العمومي:

يتم التصديق على مشروع المخطط الدائم، بعقد مداولة لدى المجلس الشعبي الولائي، بعدها يبلغ الوالي مختلف الإدارات والمصالح العمومية بذلك، ويمهلهم مدة (1 شهر) ابتداءً من تاريخ تبليغها لإبداء رأيها وملاحظاتهما، وإذ لم تجب في تلك الفترة تعتبر موافقة على محتوى المخطط الدائم، ليتم الإعلان بعدها عن هذا المشروع بقرار من الوالي الذي يتضمن:

❖ مكان الاطلاع على مشروع المخطط الدائم لحفظ واستصلاح القطاعات المحفوظة.

❖ تعيين المحافظ المحقق أو المحافظين المحققين.

❖ تاريخ انطلاق مدة الاستقصاء العمومي وتاريخ انتهائه.

❖ كفايات إجراء الاستقصاء العمومي⁽²⁴⁾.

ويرسل نسخة منه إلى الوزير المكلف بالثقافة والجماعات المحلية والبيئة والهندسة المعمارية والتعمير، بعدها يخضع المخطط الدائم لعملية الاستقصاء العمومي لمدة (2 شهر)، ويعلق في هذه الفترة بمقر البلدية المعنية.

بعدها تدون كل الملاحظات الناجمة عن الاستقصاء العمومي، في سجل خاص مرقم وموقع من طرف الوالي، كما يمكن الإدلاء بهذه الملاحظات شفهيًا للمحافظ المحقق، ويقفل هذا السجل بعد انقضاء المهلة القانونية، للخضوع إلى محضر قفل الاستقصاء من طرف المحقق المحافظ في مدة مقدر ب (15 يوم) ثم يرسله إلى الوالي، ثم يبدي هذا الأخير رأيه خلال (15 يوم) الموالية، ويقوم بإرسال الملف كاملاً إلى الوزير المكلف بالثقافة⁽²⁵⁾.

كل هذه المراسلات مهمة من أجل وضع خطة شاملة للمخطط وتجنب حدوث أي صدام بين المصالح المعنية، إلا أنه هناك فجوة في هذه المرحلة، تتمثل في عدم وجود شروط خاصة تتعلق بالمحافظ المحقق وتخصصه العلمي.

د- مكوناته:

يتكون المخطط الدائم لحفظ واستصلاح القطاعات المحفوظة من:

1- التقرير التقديمي: يبرز الوضعية الحالية للقيم المعمارية والحضرية والاجتماعية التي حدد من أجلها القطاع المحفوظة ويبين التدابير المتخذة لحمايته واستصلاحه.

كما يبرز بالإضافة إلى الإشارة للمخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير إذا وجد، الجوانب الملخصة الآتية:

- وضعية حفظ المبنى.
- وضعية وخط مرور شبكات الطرق والتزويد بالمياه الصالحة للشرب والري وتصريف مياه الأمطار والمياه القذرة.

- تصريف النفايات الثقيلة وإزالتها، عند الاقتضاء.
- الإطار الديمغرافي والاجتماعي - الاقتصادي.
- الأنشطة الاقتصادية والتجهيزات.
- الطبيعة القانونية للممتلكات العقارية والآفاق الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية وكذا برامج التجهيزات العمومية المتوقعة.

2- لائحة التنظيم والقواعد العامة لاستخدام الأرض: وهي كل العمليات المقررة، في إطار احترام الأحكام المتعلقة بالمخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير⁽²⁶⁾، بالنسبة للمجموعات العقارية الحضرية أو الريفية المنشأة في شكل قطاعات محفوظة، والقواعد العامة لاستخدام الأرض التي يجب أن تتضمن الإشارة إلى

العقارات التي لا تكون محل هدم أو تعديل أو التي فرض عليها الهدم أو التعديل، كما يحدد الشروط المعمارية التي يتم على أساسها المحافظة على العقارات والإطار الحضري.

وتشمل الملاحق الوثائق البيانية التي تبين الشروط المنصوص عليها في لائحة التنظيم وتبرز المناطق المتجانسة.

3- ملاحق الوثائق البيانية: وتضم كذلك الوثائق المكتوبة في القائمة غير المحصورة الآتية:

- 1 - مخطط بيان الموقع بمقياس 1/2.000 إلى 1/5.000.
 - 2 - مخطط طبوغرافي بمقياس 1/500 إلى 1/1.000.
 - 3 - مخطط العوائق الجيو تقنية.
 - 4 - مخطط الارتفاعات : بمقياس 1/500 إلى 1/2.000.
 - 5 - وضعية الحفظ تبين درجة وطبيعة وأسباب تلف المباني والمناطق غير المبنية بمقياس 1/500 إلى 1/1.000.
 - 6 - خط مرور ووضعية حفظ شبكات الطرق والتطهير والمياه الصالحة للشرب والري والطاقة والهاتف بمقياس 1/1.000.
 - 7 - طريقة تصريف النفايات الصلبة وإزالتها بمقياس 1/1.000.
 - 8 - ارتفاع البنايات بمقياس 1/500.
 - 9 - التعرف على الأنشطة التجارية والتقليدية والصناعية وتحديد موقعها بمقياس 1/500.
 - 10 - تعريف وتحديد موقع التجهيزات العمومية وقدراتها بمقياس 1/500 إلى 1/1.000.
 - 11 - الطبيعة القانونية للملكيات بمقياس 1/500.
 - 12 - تحليل ديمغرافي واجتماعي واقتصادي للشاغلين لهذه الملكيات.
 - 13 - حركة المرور والنقل بمقياس 1/500 إلى 1/1.000.
 - 14 - تحديد موقع الممتلكات الأثرية الظاهرة والباطنية المتعرف عليها أو المحتمل وجودها بمقياس 1/500 إلى 1/1.000.
- 4- دراسة تاريخية: تبرز ما يلي:
- مختلف مراحل تطور القطاع المحفوظ وبيئته المباشرة.
 - مواد وتقنيات البناء المتداولة والتي يمكن ملاحظتها في المكونات المعدنية للمنطقة أو المناطق التابعة للقطاع المحفوظ.
 - طرق وتقنيات وخط مرور شبكات التزود بالمياه الصالحة للشرب والري.

- طريقة صرف النفايات الصلبة والمياه المستعملة وإزالتها.
 - طرق وتقنيات وخط مرور شبكات صرف المياه المستعملة ومياه الأمطار.
- يجب أن ترفق هذه الدراسة بتسلسل زمني موجز لأهم الأحداث التاريخية، لاسيما تلك التي أثرت على التشكيلة الحالية للقطاع المحفوظ.

5- تحليل تيبولوجي: معد على أساس دراسات تاريخية ووجود سابق تم إحصاؤه داخل وخارج القطاع المحفوظ يعرف أنواع المبني مع إبراز تقنيات البناء ومواده.

تدون كل النتائج في شكل كتاب ليستعمل كدليل في مختلف أشغال الحفظ والترميم⁽²⁷⁾.

هـ - مراحل اعداده وتسييره:

يتم إعداد المخطط الدائم وفق المراحل التالية:

- 1- **المرحلة الأولى:** التشخيص وعند الضرورة مشروع التدابير الاستعجالية.
 - 2- **المرحلة الثانية:** تحليل تاريخي وتيبولوجي ومشروع تهيدي للمخطط الدائم.
 - 3- **المرحلة الثالثة:** إعداد الصيغة النهائية للمخطط الدائم.
- ينشر المشروع في الجريدة الرسمية، بقرار وزاري مشترك أو بمرسوم تنفيذي طبقاً للقانون رقم (98-04)، ويجب أن يوضح ما يلي:

- ✓ - تاريخ وضع المخطط الدائم لحفظ واستصلاح القطاعات المحفوظة تحت تصرف الجمهور.
- ✓ - المكان أو الأماكن التي يمكن فيها الاطلاع على المخطط الدائم لحفظ واستصلاح القطاعات المحفوظة.
- ✓ - قائمة الوثائق المكتوبة والبيانية التي يتكون منها الملف.
- ✓ - تاريخ بدء التنفيذ الذي يجعل تدابير المخطط الدائم لحفظ واستصلاح القطاعات المحفوظة قابلة للتطبيق.

يسهر على تسيير المخطط كلاً من مدير الثقافة للولاية المعنية، بالتشاور مع رئيس المجلس الشعبي البلدي.

ويتم تأجيل كل رخص (البناء، التجزئة، الهدم، أشغال التعديل، التهيئة، إعادة التهيئة)، على عقارات تقع داخل القطاع المحفوظ إلى حين الانتهاء من أشغال المخطط الدائم ونشره، كما يمكن أن تنفذ بعض الأعمال مثل أشغال الطرق، ومختلف الشبكات ما لم يكن هناك تحفظ من طرف مكتب الدراسات أو المهندس المعماري المكلف بإعداد المخطط.

أما تعديل المخطط و مراجعته فتتم بنفس الطريقة التي تم إعداده فيه، و تضبط في شكل تكييفات بسيطة⁽²⁸⁾.

نتيجة هذه الخطوات المضبوطة يمكن القول أن المخطط وفر لنا معتبراً من المعلومات، التي يمكننا استغلالها، في تحديد أولويات التدخل، وسرعة القيام بتلك التدخلات خاصة إذا ما كانت تتعلق بالمواقع الأثرية والمعالم.

(3) - أهداف المخطط الدائم:

أسس المخطط للإسهام في حفظ واستصلاح القطاعات التراثية بالدرجة الأولى، وهي في واقع الأمر بحاجة دائمة إلى حماية وحفظ وترميم وصيانة دورية، خاصة بعدما تحول التراث الأثري إلى عامل اقتصادي، وفاعل رئيسي في أغراض سياحية، بعد إعادة تأهيل المواقع الأثرية وفتحها للجمهور، حيث أن إعطاء وظيفة للمعالم تضمن لها استمرارية.

وقد ساهمت العمليات الميدانية للمخطط من تشخيص ومعاينة، لتحديد التدابير الاستعجالية الواجب القيام بها تجاه هذا التراث، يمكن لها أن توفر السلامة والأمن الدائمين للمعالم والمواقع التي طالها الإهمال والنسيان من طرف القائمين عليها، على الأقل من أجل إيصالها في أحسن صورة لها للأجيال اللاحقة.

كما يساهم بالدرجة الثانية في إعداد الخارطة الأثرية، وهذا من خلال قيامه بالدراسات التاريخية والطبيعية للمواقع، وكذا أخذ المقاسات ووضع المخططات (عدد السكان، الطبيعة الجيولوجية للمنطقة، الطرق، شبكات تصريف المياه، الري، الطاقة، الكهرباء)، مدعماً إياها بالصور الجوية والفتوغرافية، ويحدد الممتلكات الثقافية الظاهرة والباطنة. كما يساهم في:

- وضع قاعدة أساسية لحماية المواقع والمعالم الأثرية والمحافظة عليها، للتعرف على أهم المشاكل التي تعاني منها، وتداركها مستقبلاً، من أجل الحد من تدهورها.
- تحسيس الجهات الإدارية، خاصة تلك المكلفة بالتهيئة والتخطيط الحضري والريفي، بضرورة حماية التراث الأثري، أثناء قيامها بأعمالها.
- إحداث حركية للتنسيق بين الجهات التي تتولى وضع الخطط وتنفيذ البرامج.
- إعادة تأهيل المواقع الأثرية التي يمكن استغلالها كعامل اقتصادي، خاصة في ظل التطور الاقتصادي والتكنولوجي الكبيرين على جميع المستويات.
- إبراز القيمة التاريخية والثقافية وكذا الفنية والاقتصادية للمعالم والمواقع التراثية.

(4) - مبادئه:

يمكن حصر مبادئ المخطط الدائم في:

- أ- المبدأ الإداري: من خلال التنسيق الفعلي بين الأطراف المسيرة له.
- ب- المبدأ التقني: التطبيق الفعلي لضمون المخطط الدائم.
- ج- المبدأ المالي: إيجاد المال المخصص لصيانة وترميم التراث الثقافي، التمويل الذي يُمكنه أن يسد العجز المالي لدى القطاع المكلف بتأهيل المعالم.
- د- مبدأ القانون: وهو القاعدة الأساسية في تطبيق المبادئ السالفة الذكر.
- هـ- المبدأ الاجتماعي: يحث على الثقافة المعمارية العتيقة، و التوعية بضرورة المحافظة على المحيط و تحسين إطار الحياة.

(5) - أثره في ترقية و تثمين التراث المعماري الجزائري:

وضع المخطط الدائم استراتيجية العمل في مجال الحفاظ والصيانة للتراث الأثري، المعرض لمختلف أنواع التلف والتخريب، لذا عمد المشرع الجزائري إلى وضع كل هذه الاعتبارات بالحسبان، وجسدها من خلال هذا المخطط، الذي يعد قفزة نوعية في مجال حماية التراث المعماري، والصيانة لـ:

- ✓ - توسيع آفاق تدعيم صيانة وترميم المعالم، من خلال التمويل المباشر أو غير المباشر.
 - ✓ - مراعاة الأبعاد القانونية، لتحقيق التوازن بين المحافظة على التراث المعماري، ومتطلبات التطوير المعاصرة⁽²⁹⁾.
 - ✓ - حماية مباشرة من خلال الحفاظ على الحالة الحالية للمبنى، باستخدام أساليب خاصة تهدف إلى معالجة أسباب التلف.
 - ✓ - إعادة المبنى إلى حالته الأصلية.
 - ✓ - توقيف الهدم الكلي أو الجزئي لأي مبنى موجود داخل الموقع الأثري.
 - ✓ - ضبط أشغال شبكات الكهرباء، و الهاتف وقنوات المياه و الغاز، والتطهير والطرق والمواصلات السلوكية و اللاسلكية، وكل ما من شأنه أن يشوه المظهر الخارجي للمنطقة أو البناءات الموجودة في داخلها⁽³⁰⁾.
- أما من ناحية الدراسة فهو يوفر لنا كمّاً معتبراً من المعلومات، جراء توثيق: (مواد البناء، التخطيط المعماري، الوسط المحيط، عوامل التلف، أخذ الصور الجوية والفضوتوغرافية)⁽³¹⁾، وكذا وضع بطاقة خاصة بالجرد.

كل هذا من أجل إعادة التأهيل للتراث المعماري، لأداء وظائفه القديمة أو أي وظيفة مناسبة له، من خلال الإصلاح والتطوير، مع الحفاظ على أجزاء المبنى عناصره، التي تحمل قيماً تاريخية أو معمارية أو ثقافية مميزة عبر العصور.

فوائد التأهيل:

- أ- اجتماعياً: الحفاظ على الهوية ومواكبة العصر.
- ب- ثقافياً: من خلال الحفاظ على الفن والعمارة والآثار، لإثبات الحق بالرجوع إلى الأدلة المادية التاريخية.
- ج- اقتصادياً: إعادة استخدام المبنى القائم أوفر من الهدم وإعادة البناء، ويمكن استغلاله في الجانب السياحي، من خلال إعادة استخدام المباني كمتاحف مثلاً.
- د- بيئياً: المباني القديمة أكثر ملائمة للبيئة⁽³²⁾.

خاتمة

يتجلى لنا من خلال هذا المخطط أن الجزائر قد بدأت في تغيير استراتيجيتها نحو التكفل الفعلي بتراثها الثقافي المبنى، إذ عرفت هذه الفترة صدور ثلاث مراسيم دفعة واحدة ومن بينها مرسوم المخطط الدائم.

وعلى ضوء الإطار التنظيمي القانوني المنبثق عن تطبيق القانون رقم (98-04)، الذي أعطى بدوره حركة قوية، دعمت فكرة الحفاظ على التراث الجزائري، المدعم في كل مرة بقواعد تنظيمية جديدة تساهم مستقبلاً في توفير الشروط الكفيلة بحماية هذا الإرث، وفي واقع الأمر أن أول ما تتطلبه إستراتيجية حماية التراث الثقافي، تكون بدايتها بـ:

- تأهيل الترسنة القانونية والتنظيمية.
 - إعادة تنظيم الإجراءات المؤسساتية، وصولاً إلى تطبيق الآليات العلمية التي من شأنها أن ترفع من قيمة التراث الثقافي، ورد الاعتبار له، ومنحه وظيفة تساعده في الحياة أطول مدة زمنية ممكنة.
- خاصة في ظل وجود هذا المخطط بمراحله التنظيمية يمكننا الآن التدخل ميدانياً، والدفاع عن هذا التراث المبنى.

الإحالات والهوامش :

1- التشريع: "هو قيام السلطة المختصة في الدولة بوضع القواعد القانونية في صورة مكتوبة، حيث تقوم بوضع قواعد ملزمة لتنظيم العلاقات في المجتمع طبقاً للإجراءات المقررة لذلك، والتشريع بهذا المعنى هو الذي يعتبر مصدراً للقانون". ينظر: محمد حسين منصور، نظرية القانون، مفهوم وفلسفة وجوهر القانون طبيعته وخصائص القاعدة القانونية مصادر القانون وتطبيقه، جامعة الاسكندرية، دار الجامعة الجديدة للنشر، مصر، 2009، ص 303.

- 2- الوكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم والنصب التاريخية، نصوص تشريعية في علم الآثار وحماية المتاحف و الأماكن و الآثار التاريخية، مطبعة الاتحاد العربي للحديد و الصلب، الجزائر، 1992، ص 7.
- 3 - نفسه، ص 07.
- 4 - نفسه، ص 61- 85.
- 5 - ج.ج.ج. عدد 83، الصادرة في 25 ديسمبر سنة 2005، المرسوم التنفيذي رقم 05- 488 المؤرخ في 20 ذي القعدة عام 1426هـ/22 ديسمبر 2005، ص 16- 17.
- 6 - ج.ج.ج. عدد 04، الصادرة في 8 جمادى الثانية عام 14008هـ/27 جانفي سنة 1988، مرسوم تنفيذي رقم 88- 09 مؤرخ في 17 جمادى الثانية عام 1408هـ/26 جانفي سنة 1988، يتضمن انشاء مؤسسة ترميم التراث الثقافي، ص 144- 145.
- 7 - الوكالة الوطنية للآثار، المرجع السابق، قرار وزاري مشترك مؤرخ في 20 ذي القعدة عام 1379هـ/ 28 جانفي سنة 1980، يتضمن احداث مشغل للدراسات الخاصة بواد مزاب و اصلاحه، ص 91.
- 8 - ج.ج.ج. عدد 45، مرسوم تنفيذي رقم 91- 340 مؤرخ في 19 ربيع الأول عام 1412هـ/28 سبتمبر سنة 1991، يتضمن القانون الأساسي الخاص بعمال الثقافة، الباب الثاني، فرع التراث الثقافي، ص 1732.
- 9 - ج.ج.ج. عدد 79، الصادرة في 26 جمادى الثانية عام 1415هـ، مرسوم تنفيذي رقم 94- 414 سنة 1994، يتضمن احداث مديريات الثقافة في الولايات و تنظيمها، ص 22.
- 10 - القانون: كلمة قانون ليست عربية بل هي معربة عن الأصل اليوناني (Kanun) أي العصا المستقيمة، و تستعمل مجازاً في القاعدة و القدوة و المبدأ، و انحصر التركيز في الاصطلاح على دلالة الاستقامة ، لذا عبرت اللغات اللاتينية و الجرمانية على القانون بكلمة مستقيم (Droit) و يطلق اصطلاح القانون (Loi) أحياناً للتعبير عن مجموعة معينة من القواعد القانونية التي تصدر عن السلطة التشريعية. ينظر: محمد حسين منصور، المرجع السابق، ص 36- 37.
- 11 - المرسوم: أو اللوائح تصدرها السلطة التنفيذية اللازمة لتنفيذ القوانين، ذلك أن القانون يقتصر في الغالب على وضع الأسس والقواعد العامة تاركاً التفاصيل و الجزئيات للوائح التي تضعها السلطة التنفيذية. ينظر: محمد حسين منصور،المرجع السابق، ص 230- 231.
- 12 - ج.ج.ج. عدد 44، الصادرة في 22 صفر عام 1419هـ/ 16 جوان 1998، قانون 98- 04 المتعلق بحماية التراث الثقافي، ص 3.
- 13 - ج.ج.ج. عدد 25، مرسوم تنفيذي رقم 01- 104 مؤرخ في 29 محرم عام 1422هـ/ أفريل سنة 2001، يتضمن تشكيل اللجنة الوطنية و اللجنة الولائية للممتلكات الثقافية و تنظيمها و عملها، ص 15.
- 14 - ج.ج.ج. عدد 57، الصادرة في 24 رجب عام 1424هـ/ 21 سبتمبر 2003، مرسوم تنفيذي رقم 03- 311 مؤرخ في 17 رجب عام 1424هـ/ 14 سبتمبر 2003، يحدد كفايات إعداد الجرد العام للممتلكات الثقافية المحمية، ص 3.
- 15 - ج.ج.ج. عدد 60، الصادرة في 12 شعبان عام 1424هـ/ 8 أكتوبر 2003، مرسوم تنفيذي رقم 03- 322 مؤرخ في 9 شعبان عام 1424هـ/ 5 أكتوبر 2003، يتضمن ممارسة الأعمال الفنية المتعلقة بالممتلكات الثقافية العقارية المحمية، ص 11
- 16 - المرجع نفسه، ص 13.
- 17 - المرجع نفسه، ص 17.
- 18 - المرجع نفسه، المادة رقم 5، ص 18.
- 19 - المرجع نفسه، المواد، 2- 3- 6، ص 12.
- 20 - نفسه، المواد رقم 7- 8- 9، ص 12.
- 21 - نفسه، المواد، 13- 14- 15.
- * يفتقر المخطط الدائم إلى المعاهد المختصة بالصيانة و الترميم التي تقوم بتأطير عدد هام من المختصين ذوي الكفاءات العالية في هذا المجال، خاصة فيما يخص مراحل المعاينة و التدابير الاستعجالية والمراقبة.
- 22 - ج.ج.ج. عدد 60، مرسوم تنفيذي رقم 03- 323، المرجع السابق، المواد، 6- 7- 8، ص 18- 19.
- 23 - المرجع نفسه، المواد، 3- 4- 5، ص 18.
- 24 - نفسه، المادة، 10، ص 19.
- 25 - المرجع السابق، المواد، 10- 11- 12- 13، ص 19.

- 26 - **المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير:** هو أداة للتخطيط المجالي و التسيير الحضري، يحدد التوجيهات الأساسية للتهيئة العمرانية للبلديات المعنية، أخذاً بعين الاعتبار تصاميم التهيئة، ومخططات التنمية، ويضبط الصيغ المرجعية لمخطط شغل الأراضي. ينظر: ج.ج.ج عدد 52، قانون رقم (90-29) مؤرخ في 14 جمادى الأولى عام 1411هـ/ 1 ديسمبر سنة 1990، المتعلق بالتهيئة والتعمير، ص 1464.
- 27 - ج.ج.ج عدد 60، مرسوم تنفيذي رقم 03-324، المرجع السابق، المادة، 14، ص 19.
- 28 - المرجع نفسه، المواد، 15-23، ص 21-22.
- 29 - نوبيات ابراهيم، مقال بعنوان حالة قصر بوسعادة، معهد تسيير التقنيات الحضرية، جامعة المسيلة، الجزائر، ص 3.
- 30 - مجلة حماية التراث الأثري والتاريخي والفنون التقليدية، قانون عدد 35، تونس، سنة 1994، ص 4.
- 31 - مجد نجدي ناجي المصري، تقييم أساليب البناء وتقنيات الترميم في فلسطين- نابلس- (حالة دراسة)، مذكرة ماجستير في هندسة العمارة، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2010، ص 43.
- 32 - محمد علام فوزي عتمة، إعادة تأهيل المباني التاريخية في فلسطين (حالة دراسية)، تجربة مدينة نابلس منذ عام 1994، أطروحة درجة الماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2007، ص 19-21.

الوظيفة القنصلية الجزائرية دعامة أساسية

للعمل الدبلوماسي .

سلطاني نيلة.

أستاذة حقوق

جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس.

توطئة :

التمثيل القنصلي هو كالتمثيل الدبلوماسي عمل من أعمال السيادة وهو القيام بأعمال إدارية محضة و تمثيل الدولة لدى الدول الأخرى، إذ هو نوع من التواصل لممارسة سيادة الدولة لدى الدول الأجنبية .

والتمثيل القنصلي أقدم ظهور من النظام الدبلوماسي⁽¹⁾. و يكون التمثيل القنصلي تابعا دائما إلى اتفاق بين الدول يتضمن طبيعة العلاقات بينهم إلا أنه يمكن أن يكون فيه اتفاق بين دولتين لم يكن بينهما تمثيل دبلوماسي سابق وقد يعهد التمثيل القنصلي إلى البعثات الدبلوماسية وقد أجازت ذلك بعض الدول. وان المهام الدبلوماسية يتولاها موظفون يسمون بالقناصل .

قبل إقرار اتفاقية فيينا للعلاقات القنصلية المبرمة في 13 أفريل 1963 م لم تكن الأعمال القنصلية محددة بدقة أو محصورة . كما لم تكن معاييرها موحدة بين مختلف الدول . بل كانت مشتتة بين مرجعيات كثيرة و متبدلة موسعة حيناً و محصورة أحيانا أخرى، تبعا للعلاقات القائمة بين الدول . ونظرا لهذا الوضع ، أدركت لجنة القانون الدولي التابعة لمنظمة الأمم المتحدة و المكلفة بتقنين قواعد التعامل و الحصانات القنصلية ، أهمية حصر الوظيفة القنصلية و ذلك بتنظيم أوضاع هذا السلك لجهة الوظائف التي يتوجب عليه القيام بها أو لجهة الحصانات والامتيازات التي يمكن لأعضاء البعثة القنصلية أن يتمتعوا بها و هكذا تم تحديد الوظائف القنصلية⁽²⁾ .

ولقد اهتم المشرع الجزائري -كغيره من مشرعي الدول الأخرى- بالمجال القنصلي وذلك بسنه العديد من التشريعات، ومنها المرسوم الرئاسي رقم 405/02 المؤرخ في 26 نوفمبر 2002 م المتعلق بالوظيفة القنصلية⁽³⁾ .

ولتحديد هذا الموضوع كان لزاما التطرق إلى أولا: كيفية إنشاء العلاقات القنصلية . و ثانيا المهام القنصلية.

أولاً: إنشاء العلاقات القنصلية .

أقر القانون الدولي حرية الدولة في إقامة علاقات القنصلية ، كما أتاح لها حرية سن قوانينها الداخلية لتوظيف قناصلها . كما أن أهمية العلاقات المتبادلة بين دولتين لها تأثير على تشكيل البعثة ومهامها. فقنصل واحد يمكن تمديد اختصاصه إلى كافة إقليم الدولة الموفدة إليها أو أن تنشئ عدة مراكز قنصلية لمواجهة مصالح ومطالب الأفراد المتواجدين بالدولة الموفد إليها⁽⁴⁾.

يجرى إنشاء العلاقات القنصلية بين الدولة الجزائرية ودولة أخرى بالرضا المتبادل . و الموافقة المعطاة لإنشاء العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين تتضمن ، ما لم ينص على خلاف ذلك ، الموافقة على إنشاء العلاقات القنصلية⁽⁵⁾ . وعليه يجري إنشاء البعثات القنصلية في أراضي الدولة المضيضة بموافقة تلك الدولة فقط⁽⁶⁾ . و إن اختيار مركز البعثة ودرجتها وتحديد منطقتها يعود للدولة المضيضة . كما يجوز للدولة الموفدة بعد أخذ موافقة الدولة المضيضة، إجراء تعديلات لاحقة على مركز بعثتها القنصلية ودرجتها ومنطقة صلاحياتها .

وتمارس الوظيفة القنصلية طبقاً للمعاهدات و العرف الدولي مع احترام التشريع الوطني وقوانين دولة الإقامة وأنظمتها⁽⁷⁾ . بالنسبة للدولة الجزائرية تمارس الوظيفة القنصلية تحت مراقبة وزير شؤونها الخارجية⁽⁸⁾ . أما عن تنظيم المراكز القنصلية الجزائرية في قنصليات عامة وقنصليات ووكالات قنصلية يكون حسب أهمية الجالية الجزائرية ومصالح الدولة الجزائرية⁽⁹⁾ . و تضم الممثلة القنصلية رئيس المركز القنصلي ، القنصل العام المساعد ، القنصل المساعد و نائب القنصل و الملحق القنصلي وكذا العون الدبلوماسي والقنصلي المكلف بإدارة المصلحة القنصلية في الممثلة الدبلوماسية وفي حالة الشغور المؤقت لمركز قنصلي من رئيسه أو في حالة غيابه أو حصول مانع له تعهد إدارة المركز إلى مسيره بالنيابة وفقاً للشروط المنصوص عليها في القانون الأساسي للأعوان الدبلوماسيين والقنصليين⁽¹⁰⁾ .

ثانياً : القيام بالمهام القنصلية.

ممثل القنصل مهما كانت صفته، ملزم بمجموعة من الواجبات الوظيفية قبل الدولة التي يمارس فيها عمله، من ذلك احترام قوانينها و السلطات الرسمية بها و الامتناع عن كل ما من شأنه المساس بأمنها أو استقرارها . كما هو ملزم فور وصوله إلى البلد الموفد إليه أو مقر إقامته البحث عن تشريعات هذا البلد المتصلة بمهامه⁽¹¹⁾ .

تمارس الوظائف القنصلية داخل المنطقة القنصلية و يجوز للموظف القنصلي في الحالات الخاصة وبموافقة الدولة المضيضة ممارسة أعماله خارج منطقتة القنصلية⁽¹²⁾ . كما يجوز للدولة الموفدة بعد إبلاغ الدول المعنية ، تكليف بعثة قنصلية منشأة في دولة معينة ممارسة الأعمال القنصلية

في دولة أخرى، إلا إذا كان هناك اعتراض صريح على ذلك من قبل إحدى الدول المعنية⁽¹³⁾. كما يجوز لبعثة الدولة الموفدة ممارسة الأعمال القنصلية بالنيابة عن دولة ثالثة، بعد تبليغ الدولة المضيفة وفي حال عدم اعتراض الدول المعنية⁽¹⁴⁾.

وتنصب المهام القنصلية مهما كانت طبيعتها إدارية أو سياسية أو قضائية حسب التشريع الجزائري أساسا في حماية الدولة الموفدة ككيان وحماية رعاياها المقيمين على أراضي الدولة المضيفة.

1/ الأعمال القنصلية لحماية مصالح الدولة الموفدة ككيان دولي :

تشمل الأعمال القنصلية حماية مصالح الدولة الموفدة لدى الدولة المضيفة . بالإضافة إلى القيام بأي عمل كلفت به البعثة القنصلية من قبل الدولة الموفدة ، شرط ألا يكون مخالفا لقوانين وأنظمة الدولة المضيفة⁽¹⁵⁾ ، أو التي ليس لهذه الأخيرة أي اعتراض عليها ، أو التي ورد ذكرها في الاتفاقات الدولية المرعية الإجراء بين الدولة الموفدة والدولة المضيفة .

ويساهم الموظف القنصلي الجزائري تحت سلطة رئيس المركز وفي حدود دائرته القنصلية بجملة من الوظائف في هذا الصدد منها :

أ/ السهر على احترام الاتفاقيات والاتفاقات المبرمة مع دولة الإقامة:

كل دولة قائمة هي وحدة قادرة على إنشاء قواعد قانونية دولية بواسطة التراضي مع غيرها من الوحدات المماثلة . وهي في ذات الوقت ملزمة باحترامها وتنفيذها⁽¹⁶⁾ . ومهمة الموظف القنصلي السهر على ضمان ذلك باعتباره مكلف بكفالة مصالح الدولة الموفدة وهذا ما أكدته مثلا المادة العاشرة من المرسوم الرئاسي رقم 02- 405 المتضمن الوظيفة القنصلية السابق الذكر في فقرتها الثانية .

ب/ تنمية العلاقات التجارية والاقتصادية:

تعتبر وظيفة تنمية العلاقات التجارية والاقتصادية، عملا أساسيا في جملة الوظائف المعهودة بالبعثات القنصلية . ذلك أن الاهتمام الرئيسي للملحقين التجاريين ينصب على اقتراح أو مراقبة تنفيذ السياسة الخارجية لدولهم، والاتصال بالسلطات الحكومية المعنية بشؤون التجارة في الدولة المضيفة والقيام بالمفاوضات اللازمة لتنمية العلاقات التجارية والاقتصادية وحمايتها . أما القناصل فينشط بهم عادة الجوانب الإجرائية مثل دراسة حالة البلد التجارية واستيعاب السوق المحلي وتهيئتها لاستيراد منتجات و سلع الدولة الموفدة . كما يناط بهم دراسة المنافسة على السوق المحلية من قبل الدول الأخرى وتقديم الدراسات والتوصيات بالفرص المتاحة والعمل بكل الوسائل المتوفرة ضمن حدود الوظيفة لزيادة الطلب على البضائع و منتجات البلد وزيادة صادراته . كما يسهر على تقديم المعلومات عن التجارة

والصناعة والزراعة إلى الراغبين في التعامل مع البلد الموفد من مواطنين وشركات الدولة المضيضة. بالإضافة إلى إعلام المتعاملين الاقتصاديين المحليين بالتظاهرات و المعارض الوطنية و الدولية التي تنظمها الدولة الموفدة ووضع الوثائق التي تسهل تبادلهم معها تحت تصرفهم. الاتصال الشخصي بالتجار المحليين ورجال المال والأعمال في الدولة المضيضة و القيام بدور العلاقات العامة. والتصديق على قوائم الشحن وشهادات المنشأ للبضائع المصدرة إلى بلد القنصل⁽¹⁷⁾. ونلاحظ أن هذه هي الأعمال التي تقع ضمن إطار وظيفة تنمية العلاقات التجارية والاقتصادية وليست أعمالا حصرية يمكن تطويرها أو توسيعها إذا اقتضت الضرورة.

ج/ تنمية العلاقات الثقافية والعلمية:

تعتبر وظيفة تنمية العلاقات الثقافية والعلمية غريبة عن الوظائف القنصلية التقليدية. ولكن تبنيها في اتفاقية فيينا للعلاقات القنصلية لعام 1963 م كان مؤشرا إلى تكييف القواعد الدولية مع الواقع الدولي و الممارسات التي تفرضها متطلبات العصر ومنها محاولة الترويج لثقافات الدولة و توطيد العلاقات الثقافية مع الشعوب بما يؤمن الحصول على دعم والتأييد و التعاطف من تلك الشعوب مع سياسات و مواقف الدول الموفدة.

إذ لابد للبعثة القنصلية الجزائرية شأنها شأن البعثات الأخرى المساهمة في إشعاع الثقافة الجزائرية لاسيما من خلال المشاركة في تظاهرات تعكس مواضيعها جوب الثقافة الجزائرية و تعزيز العلاقات الثقافية التي تجمع الجالية الجزائرية و العمل على تطوير العلاقات العلمية، بما فيها التبادلات الجامعية بين مؤسسات البلدين و منظماتها و هيئاتها. إضافة إلى المشاركة في الاجتماعات و المناقشات و الندوات كلما دعت إلى ذلك مصلحة الجزائر⁽¹⁸⁾.

لقد حسمت المادة الخامسة من اتفاقية فيينا للعلاقات القنصلية موضوع الوضع القانوني لمراكز الإعلام والمشرفين عليها بمنحهم الصفة القنصلية، وهذا إذا كانت تلك المراكز وموظفوها يشكلون جزءا من القنصلية أو إذا كان القنصل نفسه يقوم بهذه الوظيفة. أما إذا كانت منفصلة عن القنصلية و تمارس نشاطها في أماكن لا وجود للقنصلية فيها، حينئذ يجب الحصول على موافقة دولة الإقامة في حالتين⁽¹⁹⁾:

الأولى: في حالة رغبة إحدى القنصليات العامة أو القنصليات فتح نيابة قنصلية أو وكالة قنصلية في منطقة أخرى غير المنطقة التي توجد فيها .

و الثانية : في حالة فتح مكتب يكون جزءا من القنصلية القائمة خارج مقرها . وفي كلتا الحالتين تستطيع الدوائر المختلفة ، مهما كانت تسميتها ممارسة هذه الوظيفة . أما موظفو العلاقات العامة

الملحقون بالسفارات و الملحقون الثقافيون فقد تكلفت اتفاقية العلاقات الدبلوماسية المحررة في الثامن عشر أفريل لعام 1961 م بتحديد وضعهم القانوني بصورة غير مباشرة حين خولت الممثلين الدبلوماسيين صلاحية أداء الوظائف الثقافية⁽²⁰⁾.

2/ الأعمال القنصلية لحماية مصالح رعايا الدولة الموفدة :

هناك وظائف كثيرة تقوم البعثة القنصلية بها لحماية المصالح المختلفة لرعايا الدولة الموفدة من ذلك:

أ/الصلاحيات المتعلقة بالحالة المدنية وما يتصل بها :

يقوم رئيس المركز القنصلي الجزائري بصفته ضابط الحالة المدنية باستلام التصريحات و إعداد عقود الحالة المدنية الخاصة بالرعايا الجزائريين و تحريرها بناء على ترخيص من وزير الخارجية⁽²¹⁾ وعندها يقوم في حدود أحكام القانون الجزائري بعقد الزواج بين الرعايا الجزائريين ،تسجيل عقود الزواج و الميلاد و الوفاة المتعلقة بالرعايا الجزائريين ، الذين استقبلوا في دولة الإقامة حسب الأصول المعهودة في سجلات الحالة المدنية القنصلية.وتسليم دفتر عائلي للزوجين بعد عقد الزواج أو تسجيله.

كما يقوم رئيس المركز القنصلي الجزائري بإصدار بطاقات التعريف الوطنية و جوازات السفر الفردية للرعايا الجزائريين المسجلين و يقوم بتمديد هذه الجوازات. كما يقوم بإصدار بطاقات التعريف الوطنية و جوازات سفر فردية لأعوان الدولة و لأعضاء عائلاتهم بعد موافقة وزير الشؤون الخارجية . و يمكنه إصدار جوازات سفر جماعية للرعايا القصر الذين تقل أعمارهم عن خمس عشرة سنة إذا كانوا مسجلين و يصحبهم شخص أو عدة أشخاص بالغين وحاملين جواز سفر فردي قيد الصلاحية ،طبقا للقانون . كما يمكنه أن يصدر رخص مرور للرعايا الجزائريين غير المسجلين الذين ليست بحوزتهم وثيقة سفر تكون مدة صلاحية هذه الرخص محدودة بمدة السفر إلى الجزائر فقط عبر اقصر طريق⁽²²⁾ .

ب/المهام التوثيقية :

يؤهل رئيس المركز القنصلي على الخصوص لممارسة أعمال كثيرة⁽²³⁾ ،كاستلام تصريحات الرعايا الجزائريين و تحريرها و التصديق عليها و استلام الوثائق التي تخصهم أو الموجهة إليهم .و تحرير الوصايا و غيرها من التصرفات القانونية التي يقوم بها هؤلاء الرعايا و التصديق عليها و استلامها لإيداعها. يقوم أيضا بالتصديق على توقيع الرعايا الجزائريين على مختلف أنواع الوثائق. وعلى العقود و الوثائق التي تسلمها السلطات العمومية الجزائرية أو سلطات بلد الإقامة، والتصديق على نسخ تلك العقود و الوثائق و التصديق على مطابقة الترجمات. تحرير العقود التي تبرم بين الرعايا الجزائريين و الأشخاص الآخرين ،إذا كانت تتعلق بأشياء أو مصالح قائمة في التراب الجزائري أو يجب أن تنفذ فيه.

وتخضع العقود التوثيقية للرسوم القنصلية المنصوص عليها في القانون الجزائري⁽²⁴⁾. كما يقوم رئيس المركز القنصلي بتسجيل كل الرعايا الجزائريين الذين يطلبون ذلك . و يعد لهم لهذا الغرض بطاقة تسجيل قنصلية. مدة صلاحية هذه البطاقة خمس سنوات . كما أنه في حالة عدم تجديد التسجيل في أجل عشر سنوات يعتمد إلى شطب المعنيين⁽²⁵⁾. ويجب على رئيس المركز القنصلي ألا يرفض حماية عادلة لمواطن جزائري بحجة أنه غير مسجل أو أنه لا يقيم في دائرة اختصاصه، بل الأكثر من ذلك عندما يلقي القبض على مواطن جزائري أو يسجن أو يوضع رهن الحبس الاحتياطي أو أي شكل آخر من الحبس فإنه على رئيس المركز القنصلي أن يتصل بالسلطات المحلية للاستفسار عن أسباب التوقيف أو الحبس.

ج/ صلاحيات في مجال الإجراءات :

يقوم رئيس المركز القنصلي في مجال الإجراءات⁽²⁶⁾ بإحالة العقود القضائية و العرفية وكذا بتنفيذ الإنابات القضائية في المجالين المدني و التجاري. ويقود بتسليم أو إبلاغ أي عقد قضائي أو عري في إلى الرعايا الجزائريين، وكذا أي وثيقة إدارية تخصهم استلمها من وزارة الخارجية ويعيد إلى هذه الأخيرة العقود التي لم يتمكن من تسليمها أو إبلاغها مع بيان الأسباب⁽²⁷⁾.

بالإضافة إلى ما سبق يتلقى رئيس المركز طلب استصدار القسيمة رقم 3 من صحيفة السوابق القضائية باللغة العربية أو الفرنسية وذلك وفق ما هو منصوص عليه في التشريع الجزائري. كما يتولي وضع الطابع الجبائي عليها و يؤشر عليها بتوقيعه وختمه قيل تسليمها للطالب⁽²⁸⁾. كما يستلم رئيس المركز القنصلي الطلبات والتصريحات المتعلقة بالجنسية و يحيلها وفق الشروط المنصوص عليها في قانون الجنسية⁽²⁹⁾، مقابل تسليم و صل⁽³⁰⁾.

يقوم رئيس المركز القنصلي كذلك بإحصاء المواطنين المعنيين بواجبات الخدمة الوطنية المسجلين بدائرة اختصاصه. ويسلم للرعايا الذين تم إحصاؤهم على هذا النحو شهادة إحصاء. كما يقوم رئيس المركز بمختلف العمليات المندرجة في إطار الخدمة الوطنية⁽³¹⁾.

أما في مجال الملاحة البحرية، يختص رئيس المركز القنصلي طبقا للتشريع الجزائري باستلام التصريحات وإعداد الوثائق المتعلقة بتسجيل سفينة بالجزائر أو شطبها، تسجيل الانتقالات الطارئة على ملكية سفينة مسجلة بالجزائر وما تثقل به تلك السفينة من رهون أو أعباء أخرى. ويمكنه تمديد سندات أمن سفينة لمدة لا تفوق خمسة أشهر . ويمارس وظيفة أخرى يعترف له بها التشريع الجزائري ، لاسيما في مجال إعداد كراسات الملاحة وتأشيرة دفتر الطاقم وسجلات المخالفات واستلام تقارير

الإبحار. بالإضافة إلى ممارسة حقوق التفتيش ومراقبة البواخر والسفن الجزائرية والطائرات المسجلة بالجزائر وكذا طاقمها . ويساهم في حدود صلاحياته في تسوية الخلافات التي تقع بين أعضاء طاقم السفينة. كما يصدر رئيس المركز القنصلي عقود جنسية مؤقتة للسفن المكتسبة لحساب رعايا جزائريين، أشخاص طبيعيين أو معنويين. تبقى هذه الوثائق صالحة حتى وصول هذه السفن ميناء جزائري. وفي جميع الأحوال، لا يمكن أن تتجاوز مدة صلاحيتها سنة واحدة .

يسهر رئيس مركز قنصلي على الحفاظ على مصالح القصر وفاقدي الأهلية الجزائريين المقيمين بدائرة اختصاصه إذا صدر طلب بتنظيم وصاية أو قوامة عليهم . في حالة وفاة رعية جزائري في دائرة اختصاص ليس فيها قرابة عائلية، يتخذ رئيس المركز القنصلي المختص إقليميا كل التدابير اللازمة لإبلاغ عائلتها ووزارة الشؤون الخارجية . يتعين على رئيس المركز القنصلي الذي يخطر بطلب نقل جثمان شخص توفى بالخارج إلى الجزائر أن يسهر على استيفاء الشروط المنصوص عليها في التشريع الجزائري في هذا المجال وذلك قبل تسليم الإذن بنقل الجثمان . وإذا ترك بعد وفاته تركة لرعايا جزائريين غير مقيمين في ذلك البلد و لم يكن لهم وكيل يمثلهم فإن رئيس المركز يطلب من السلطات المحلية المختصة اتخاذ التدابير التحفظية المناسبة بشأن التركة .

كما يؤهل رئيس المركز القنصلي بدون وكالة خاصة لاتخاذ التدابير التي تسمح بضمان التمثيل المناسب للأشخاص المعنويين والطبيين الجزائريين الخاضعين للقانون العام أمام محاكم السلطات الأخرى لدولة الإقامة . كذلك الأشخاص المعنويين والطبيين الجزائريين الخاضعين للقانون الخاص ولكن على أساس توكيل صريح .

خاتمة :

وفي الأخير نؤكد أن المشرع الجزائري قد حرص على إبراز المهام القنصلية، التي لا يمكن تجسيدها إلا بتكليف الموظفين القنصليين بواجباتهم الوظيفية التي لا بد لها من مقابل لا يكون إلا على شكل الاعتراف لهم بجملة من الحقوق الوظيفية. بالإضافة إلى إقرار نظام الحصانات والمزايا القنصلية التي تقوم على الأساس الوظيفي سواء لصالح البعثة القنصلية أو الممنوحة للموظفين القنصليين كأن نكونوا معفيين من الخضوع لقضاء الدولة التي يمارسون فيها مهمتهم بالنسبة لكل الأعمال التي يؤديها أثناء ممارسة مهامهم أو بسببها . فكل التشريعات أقرت هذا الإعفاء، باعتبار أن الموظف القنصلي يقوم بهذا العمل باسم دولته ، فلا يجوز إخضاعه لقضاء دولة أخرى أجنبية فيما عدى ذلك ، يخضع أعضاء القنصلية للقضاء الجنائي للدولة الموفدة إليها . ويكون هذا الخضوع في حدود حرمة خاصة لذاته⁽³²⁾ .

الإحالات والهوامش:

1 - محي الدين جمال ، قانون العلاقات الدبلوماسية والقنصلية ، منشورات البغدادي، الجزائر، 2013 م ، ص.82.

- 2 - راجع المادة 5 من اتفاقية فيينا للعلاقات القنصلية لعام 1963 م.
- 3 - الصادر بالجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية رقم 79 المؤرخة في 1 ديسمبر 2002 م .
- 4 - محي الدين جمال ، المرجع السابق ، ص. 89 .
- 5 - أنظر المادة 2 من اتفاقية فيينا لعام 1963 م ، السابقة الذكر في فقرتيها 1 و 2 . و بالرجوع إلى هذه الاتفاقية هناك نوعين من القناصل:
- 1- القناصل المحترفون أو المبعوثون (المعينون) : و هم قناصل تعيينهم دولهم في وظائف قنصلية يتمتعون بخبرة دولية واسعة في الأعمال القنصلية. يتقاضون راتبا شهريا ولا يجوز لهم ممارسة أية مهنة أو وظيفة أخرى.
- 2- قناصل فخريون : بخلاف الفئة الأولى ، لا يشترط فيهم أن يكونوا من رعايا الدولة الموفدة و لهم الحق في شغل عمل آخر و عادة ما يكونون من التجار. كما أن الدول حرة في تحديد درجات القناصل الذين يوفدون إلى الدول الأخرى .
- 6 - لقد حددت المادة 1 من نفس الاتفاقية تعبير البعثة القنصلية كما يلي : "1- يقصد بتعبير البعثة القنصلية المساحة المحددة للبعثة القنصلية لممارسة أعمالها القنصلية" .
- 7 - ما أكدته مثلا المادة 2 من المرسوم الرئاسي رقم 405/02 السابق الذكر.
- 8 - انظر المادة 3 من نفس المرسوم الرئاسي.
- 9 - تمارس التمثيليات القنصلية الوظائف القنصلية وعند غيابها يمكن أن تمارسها البعثات الدبلوماسية التي تتوفر على مصلحة قنصلية.
- 10 - لقد صدر المرسوم الرئاسي رقم 221/09 المؤرخ في 24 جوان 2009 م ، المتضمن القانون الأساسي الخاص بالأعوان الدبلوماسيين و القنصليين في الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية رقم 38 ، الصادرة في 28 جوان 2009 م . قد تضمن هذا القانون في فصله الثاني حقوق وواجبات الأشخاص الذين يطبق عليهم هذا القانون .
- 11 - تنص المادة 55 من اتفاقية فيينا لعام 1963 م على ما يلي : " 1- مع عدم المساس بالمزايا و الحصانات يجب على الأشخاص الذين يتمتعون بها أن يحترموا قوانين و لوائح الدولة الموفدة إليها و عليهم كذلك عدم التدخل في الشؤون الداخلية لتلك الدولة »
- 12 - أنظر المادة 6 من اتفاقية فيينا للعلاقات القنصلية لعام 1963 م ، السابقة الذكر.
- 13 - المادة 7 من نفس الاتفاقية.
- 14 - أحمد عبد الحميد، قناصل الدول ، دار المعارف، إسكندرية، 1977، ص. 149 .
- 15 - فريجي سهيل ، العلاقات القنصلية و الدبلوماسية ، حصاناتها و امتيازاتها ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1970، ص. 102 .
- 16 - أنظر عمر سعد الله و أحمد بن ناصر ، قانون المجتمع الدولي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 2007 م ، ص. 19.
- 17 - هاني الرضا ، العلاقات الدبلوماسية و القنصلية ، دار المنهل اللبناني ، بيروت ، 2010 م ، ص. 189.
- 18 - أنظر المادة 12 من المرسوم الرئاسي رقم 405/02 .
- 19 - المادة 4 من اتفاقية فيينا للعلاقات القنصلية لعام 1963 م في فقرتيها 4 و 5.
- 20 - أنظر المادة 3 من اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية لعام 1961 م.
- 21 - تنص المادة 104 من قانون الحالة المدنية الجزائري ، الصادر بالأمر رقم 20/70 المؤرخ في 17 فيفري 1970 م ، ج.ج.ج. رقم 21 ، المؤرخة في 1970/02/27 م على ما يلي : " يمكن أن يؤذن لنواب القناصل بالقيام مقام رئيس المركز القنصلي بصفة دائمة بموجب مقرر من وزير الشؤون الخارجية .
- و يمكن أن يؤذن للأعوان القنصليين بموجب قرار من وزير الشؤون الخارجية . إما باستلام التصاريح الخاصة بالولادات و الوفيات و إما بممارسة السلطات التامة لضباط الحالة المدنية."

- 22 - أنظر المواد: من 34 إلى 36 من المرسوم الرئاسي رقم 02 / 405.
- 23 - نصت عليها المادة 38 من المرسوم الرئاسي 405/02.
- 24 - أنظر المادة 40 من نفس المرسوم الرئاسي.
- 25 - لا يمكن تسجيل الرعايا الذين حكمت عليهم المحاكم الجزائرية بعقوبة جنائية و لم يقضوا مدة عقوبتهم، إلا إذا سقطت العقوبة بالتقادم. إذا صدر الحكم بالعقوبة بعد التسجيل، يعتمد إلى شطب المعنيين.
- 26 - أنظر المواد من 44 إلى 46 من المرسوم الرئاسي رقم 405/02.
- 27 - لقد أكدت هذه المسألة الاتفاقية فيينا لعام 1963 م في المادة 5 في فقرتها ك و ل، أنظر محي الدين جمال، المرجع السابق، ص. 92.
- 28 - أنظر التعليمات الوزارية المشتركة التي تحدد الإجراءات التنظيمية الخاصة بطلب وسحب القسيمة رقم 3 من صحيفة السوابق القضائية لدى الممثلات الدبلوماسية والقنصلية الجزائرية بالخارج، المؤرخة في 2010/6/24 م الصادرة ب ج. ج. ج. العدد رقم 43 المؤرخة في 2010/07/14 م.
- 29 - الصادر بالأمر رقم 86/70 المؤرخ في 15 ديسمبر 1970 م، ج. ج. ج. رقم 105، المؤرخة في 1970/12/18 م والمعدل والمتمم بالأمر رقم 01/05 المؤرخ في 27 فيفري 2005 م، ج. ج. ج. رقم 15، المؤرخة في 27 فيفري 2005 م
- 30 - في جوان 2015 م أقر وزير العدل الجزائري حافظ الأختام الطيب لوحً بالاتفاق مع وزير الدولة المكلف بالشؤون الخارجية و التعاون الدولي الجزائري رمطان لعمامرة على إمكانية استخراج شهادة الجنسية و صحيفة السوابق القضائية الكترونيا. و ذلك بفضل صدور القانون رقم 04/15 المؤرخ في 1 فيفري 2015 الذي يحدد القواعد العامة المتعلقة بالتوقيع و التصديق الإلكتروني. ج. ج. ج. العدد رقم 06 الصادرة في 10 فيفري 2015 م.
- 31 - أنظر المادة 49 من المرسوم الرئاسي رقم 405/02.
- 32 - تنص المادة 43 من اتفاقية فيينا لعام 1963 م، على ما يلي: « الحصانة القضائية :
الأعضاء والموظفون القنصلين لا يخضعون لاختصاص السلطات القضائية أو الإدارية بالدولة الموفد إليها فيما يتعلق بالإعمال التي يقومون بها مباشرة أعمالهم القنصلية .
- 2- ومع ذلك فلا تسري أحكام الفقرة "أ" من هذه المادة في حالة الدعوى المدنية على أي مما يلي:
الناجمة عن عقد مبرم بمعرفة عضو أو موظف قنصلي ولم يكن هذا التعاقد صراحة أو ضمنا بصفته ممثلا للدولة الموفدة.
أو المرفوعة بمعرفة طرف ثالث عن ضرر نتج عن حادث في الدولة ال